غيوم ميسو

شقة في باريس

رواية





سألني ماذا تفعل لمقاومة برد الشتاء ؟

فقلت له ..

أني استخدم وشاحين بدل وشاح واحد ..

وشاح أصفر وآخر بلون البنفسج ..

وأحسن اختيار نوع القهوة التى أشرب

حينها يشع في الجو.. دفء الذكريات

غيوم ميسو

شقّة في باريس

العنوان الأصلي للرواية:

Un appartement à Paris

By: Guillaume Musso

الكتاب

شقّة في باريس

تأليف

غيوم ميسو

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى، 2021

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-965-4

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

غيوم ميسو

شقّة في باريس

رواية

ترجمة: حسين عمر

المركز الثقافي العربي

سما للنشر

إلى إنغريد،
إلى ناتان.

فِي عمق الشتاء البارد، اكتشفتُ أخيراً
أنّ في داخلي صيفٌ لا يُقهَر.

ألبير كامو

الصبي الصغير

لندن، صباح أحد أيام السبت.

لا تعرفين ذلك بعد، ولكن في غضون أقلّ من ثلاث دقائق، سوف تواجهين واحدة من أصعب وأقسى المحن في حياتكِ. محنة لن تشعرين بحلولها، ولكنّها سوف تترك أثرها الأليم مثل حرق جلدٍ رقيقٍ وناعم بحديدٍ حامٍ.

في هذه الأثناء تتجوّلين، هادئةً، في مركز التسوّق الذي له شكل فناءٍ قديم. بعد عشرة أيامٍ ماطرة، استعادت السماء لونها الأزرق الفيروزي الجميل. تجعلكِ أشعة الشمس، التي تُضفي بريقاً على السقف الزجاجي للمتجر الكبير، في مزاجٍ جيّد. وللاحتفاء بقدوم الربيع، تقدّمين لنفسك هذا الفستان الأحمر القصير الذي يجعلك محطّ الأنظار ويدفع الرجال إلى مغازلتكِ لخمسة عشر يوماً. تشعرين بنفسكِ خفيفة، بل ومرِحة. يكون نهاركِ ممتعاً، إذ تتناولين في البداية غداءً مع جولي، أعزّ صديقاتك، وجلسة لطلاء الأظافر بين الفتيات ثمّ بلا شكّ زيارة معرضٍ في تشيلسي، وأخيراً، تحضرين في المساء حفلة المغنّية بيجاي هارفي في حي بريكستون.

جولة هادئة في المسارات المريحة لحياتكِ.
ومع ذلك فجأةً ترينه.

* * *

صبيٌّ صغير أشقر يرتدي مريولاً من الجينز ومعطفاً ذا قبّعة لونه أزرق داكنٌ. له عينان واسعتان صافيتان ولامعتان في وجهٍ دائريّ شبيه بوجه دمية محاطٍ بضفائر مجعّدة تلمع مثل كومةٍ من القشّ تحت أشعة شمس الصيف. تنظرين إليه منذ بعض الوقت من بعيد، ولكن كلّما تقتربين منه أكثر تنبهرين بوجهه أكثر. أرضٌ بكر ومشرقة لم يحظَ بعد لا الشرّ ولا الخوف بالوقت لأن ينالا منها. في هذا الوجه الطفولي، لا ترَين سوى مجموعةٍ من الممكنات. بهجة العيش وسعادة صافية جدّاً.

الآن، هو أيضاً ينظر إليكِ وقد ارتسمَت ابتسامة بريئة ومشرقة على وجهه. يُريكِ بافتخار الطائرة المعدنية الصغيرة التي يُحلِّقها فوق رأسه بين أصابعه الممتلئة.

- فرررررر...

وأنتِ تبادلينه الابتسامة، يبدأُ شعورٌ غريب بالسيطرة عليكِ ويُصيب السمّ البطيء لشعورٍ غير مفهومٍ كلّ كيانكِ بحزنٍ غريب.

باعَدَ الطفل الصغير ذراعيه وشرع بالهرولة حول النافورة الحجرية التي تنثر مياهها تحت قبّة المعرض. خالَ لكِ لبرهةٍ أنّه يركض نحوكِ وأنّه سيرتمي بين ذراعيكِ، ولكن...

- بابا، بابا، انظر، أنا ألعبُ بالطائرة!

رفعتِ عينيكِ والتقت نظرتكِ بنظرة الرجل الذي التقط الطفل في الهواء. عبرت جسدكِ موجةٌ باردة وتجمّد قلبكِ.

أنتِ تعرفين هذا الرجل. قبل خمسة أعوام، عشتِ قصّة حبٍّ استمرّت لسنة واحدة. هو يعتقد أنّكِ قد غادرتِ باريس إلى مانهاتن وغيّرتِ مهنتكِ. خلال ستّة أشهر، حاولتِ أن تنجبي طفلاً لم يأتِ أبداً. ثمّ عاد الرجل ليعيش مع زوجته السابقة التي كانت قد أنجبَت منه طفلاً من قبل. فعلتِ كلّ ما بوسعكِ لاستعادته، ولكن ذلك لم يكُن كافياً. عشتِ تلك الفترة حياةً أليمة ومريرة، وبينما كنتِ تعتقدين أنّكِ قادرة على طيّ تلك الصفحة، ها أنّكِ تلتقين به اليوم وهذا يحطّم قلبكِ.

تدركين الآن على نحوٍ أفضل سبب اضطرابكِ. تقولين في نفسكِ إنّ هذا الطفل كان يمكن له أن يكون طفلكِ أنتِ. إنّ هذا الطفل كان **يجب** أن يكون طفلكِ أنتِ.

تعرّف الرجل عليكِ في الحال ولم يتحاشَ نظرتكِ. من خلال تعابير وجهه التي بدا التأسّف فيها، خمّنتِ أنّه فوجئ كما فوجئتِ أنتِ وبدا متضايقاً وخجلاً على نحوٍ غامض. اعتقدتِ أنّه سيأتي للتحدّث معكِ ولكنّه، مثل أيل وقع في ضيقٍ، قام بحركة كما لو أنّه يحمي سلالته وسارع في العودة على أعقابه.

قال لابنه:

- هيّا تعالَ، يا جوزيف، سننصرف.

بينما ابتعد الأب والابن، لم تصدّقي ما سمعته أذناكِ. كان «جوزيف» أحد الأسماء التي ذكرتماها معاً لتطلقاه على طفلكما في المستقبل. اغرورقَت عيناكِ بالدموع وأحسستِ بأنّ شيئاً ما قد سُلِبَ منكِ وانهال تعبٌ شديد عليكِ جمّدكِ في مكانكِ لعدّة دقائق وجعلكِ مذهولة، وفي حلقكِ غصّة.

* * *

وصلتِ إلى مخرج المتجر بعد جهودٍ مضنية وفي أذنيكِ طنينٌ، وأصبحت حركاتكِ آلية وتثاقلت أعضاء جسمكِ. عند حديقة سان جيمس بارك، استطعتِ أن ترفعي يدكِ لطلب سيارة أجرة ولكنكِ كنتِ ترتجفين طيلة الطريق وأنتِ تصارعين الأفكار التي تراودكِ وتتساءلين عمّا جرى لكِ.

ما أن أغلقتِ باب شقتكِ وراءكِ، حتى اندسستِ مباشرة إلى الحمّام. في غرفتكِ، لم تشعلي المصابيح ومن دون أن تبدّلي ثيابكِ، أصبحتِ تتقلّبين في سريركِ. بعد أن استبدّ بكِ الخمول، تتالت صور الطفل صاحب الطائرة في ذهنكِ، وسرعان ما تحوّل كلّ اليأس الذي أحسستِ بهِ أمام عشيقكِ السابق إلى شعورٍ فظيعٍ بالفراغ يكاد يخنقكِ. بكيتِ بالطبع، ولكنكِ قلتِ في نفسكِ إنّ الدموع ستريحكِ وإنّ الأزمة ستزول من تلقائها. إلّا أنّ الألم تعمّق أكثر وتعاظم واجتاحكِ مثل موجةٍ انقضّت عليكِ ونسفت كلّ الحواجز والسدود في داخلكِ، وأطلقت العنان لسنوات من الاستياء والضغينة وخيبة الأمل ونكأت في داخلكِ جراحاً كنتِ تعتقدين بأنّها اندملت.

سرعان ما التفّ أفعوان الرعب على أعضاء جسدكِ، فقفزتِ من السرير. هاج قلبكِ. لقد سبق لكِ أن عشتِ حادثة مماثلة قبل بضع سنوات ولم تنتهِ الأمور بخيرٍ آنذاك. لكن هذه الفكرة عبرت عبثاً في ذهنكِ، إذ لم تنجحي في إيقاف عجلة ما هو محتوم. سرتِ مترنّحة إلى الحمّام وأنتِ ترتعشين بحركاتٍ لا يمكن السيطرة عليها.

فتحتِ باب علبة الصيدلية وتناولتِ دواءً وتمدّدتِ في مغطس الحمام -الذي كان يمتلئ بالماء- في حين لم تنزعي إلّا نصف ثيابكِ. لم تعودي تعلمين إن كان الماء ساخناً جدّاً أم بارداً جدّاً ولم تهتمّي لذلك. كانت ملزمةٌ رهيبة تضغط على صدركِ وتكتم أنفاسكِ،

وفي بطنكِ هاوية عميقة، وأمام عينيكِ أفقٌ فاحمٌ يشوبه الحزن والأسى إلى الأبد.

حتى أنتِ نفسكِ لم تدركي لماذا وصل بكِ الحال إلى هذه الدرجة. صحيحٌ أنّكِ عانيتِ من الضياع خلال السنوات الأخيرة هذه، وتعرفين منذ زمنٍ طويل أنّ الحياة هشّة، لكنّكِ لم تتوقّعي أنّكِ ستنهارين اليوم وتسقطين بهذه السرعة. سيما وأنّكِ لم تكوني تعلمين أنّ هذا السيل من الطين كان يجري في داخلكِ وأنّ كلّ هذا المزيج من الظلام والسواد والسمّ والبؤس يفيض في أعماقكِ. هذا الإحساس بالعزلة الدائمة الذي استيقظ فجأةً وأثار الرعب والفزع فيكِ.

* * *

طفت عبوات الأدوية على سطح الماء مثل قوارب متوقّفة، ففتحتِها وابتلعتِ الأقراص حفنةً تلو أخرى. لكن ذلك لم يكن كافياً، وكان عليكِ أن تمضي بالأمور حتى نهايتها، فسحبتِ شفرة الحلاقة الموضوعةِ على حرف المغطس ومررتِها على حفرة مرفقيكِ.

لطالما قاومتِ بشراسة وصمدتِ، ولكنكِ أحسستِ بأنّكِ اليوم عاجزة عن فعل ذلك، لأنّ عدوّكِ لم يترك لكِ الفرصة وهو يعرفكِ أكثر منكِ. حينما قرّبتِ الشفرة القاطعة من أوردتكِ، تذكّرتِ الفرح البالغ الذي شعرتِ به حينما رأيتِ الشمس عبر نافذة غرفتكِ.

ثمّ حلّت تلك اللحظة الغريبة التي عرفتِ فيها أنّ الأمر قد قُضي، وأنّكِ بدأتِ في السير في طريقٍ لا عودة منه. تأملتِ مبهورةً في دمكِ الذي رسم باختلاطه مع الماء أشكالاً فنية جميلة لا اسم لها. لمّا شعرتِ بأنّكِ تغادرين هذه الدنيا، قلتِ في نفسكِ: على

الأقلّ، سوف يزول الألم، وفي هذه اللحظة بالتحديد، هذا أمرٌ لا يُقدّر بثمن.

بينما كان الشيطان يستولي عليكِ وسط أبخرته الحارقة، عبَرَت صورة الطفل الصغير ذهنكِ من جديد. رأيتِه على شاطئ البحر في مكانٍ قد يكون اليونان أو جنوب إيطاليا. كنتِ قريبة جدّاً منه إلى درجة يمكنكِ أن تشمّي منه رائحة الرمل والقمح المهدّئة مثل النسيم في ليالي الصيف.

حينما رفع رأسه نحوكِ، رأيتِ بانفعالٍ وتأثّرٍ وجهه الجميل وأنفه الأفطس وأسنانه المتفرقة التي جعلت ابتسامته عذبة لا تُقاوَم. ها هو يفتح ذراعيه ويشرع بالركض من حولكِ.

- ماما، انظري، أنا ألعبُ بالطائرة!

في عمق الشتاء

الثلاثاء 20 ديسمبر

1

متلازمة باريس

باريس دائماً فكرةٌ جيّدة.

أودري هيبورن

.1

رواسي، مطار شارل ديغول في باريس، قاعة القادمين.

تعريفٌ للجحيم على الأرض.

في قاعة تدقيق جوازات السفر، كان المئات من المسافرين يلتصقون بعضهم ببعض في رتل انتظارٍ مزدحمٍ يمتدّ ويتلوّى مثل أفعى بوا ضخمة. رفع غاسبار كوتانس رأسه نحو المقصورات المبنية من مادة الزجاج الشبكي والمتراصفة على مدى عشرين متراً أمامه. خلف سلسلة الكوّات، لم يكن هناك سوى رجلي شرطة تعيسين للتدقيق على جوازات سفر موجة المسافرين القادمين. تنهّد غاسبار بسخط ومرارة، إذ كلّما تطأ قدماه أرض هذا المطار، يتساءل كيف يستطيع مسؤولو السلطات العامّة تجاهل الآثار المدمّرة لواجهة فرنسية بغيضة إلى هذا الحدّ.

ابتلع ريقه. وممّا زاد الطين بلّةً، كانت الحرارة خانقة، والهواء

رطباً وثقيلاً ومشبعاً برائحة التعرّق الكريهة. أخذ غاسبار مكانه بين فتى مراهقٍ له مظهر سائق درّاجة نارية ومجموعة من المسافرين الآسيويين. كان التوتّر ملموساً، فبعد رحلة طيرانٍ استغرقت عشر أو خمس عشرة ساعة، وبفعل الفارق في التوقيت، اكتشف المسافرون الذين بدت وجوههم كوجوه الزومبي، بمشاعرٍ من الغضب، بأنّهم لم يصلوا بعد إلى نهاية درب آلامهم.

بدأت المحنة مباشرةً بعد أن حطّت الطائرة. كانت رحلته القادمة من سياتل قد وصلت في وقتها المحدّد -حيث حطّت الطائرة على أرض المطار قبل التاسعة صباحاً بقليل-، لكنّه اضطرّ لأن ينتظر لأكثر من عشرين دقيقة قبل أن يجهَز سلّم الهبوط ويتمكّن من مغادرة الطائرة. وتبع ذلك، السير لمسافةٍ طويلة جدّاً في الممرّات القديمة. عانى المسافرون من رحلة طويلة وفظيعة في أروقة المطار وهم يتابعون اللوحات الإرشادية ذات رموزٍ معقّدة، وقد أحسّوا بأنّ سيقانهم قد تكسّرت من التعب من السير على مدارج كهربائية معطّلة، ويجهدون لكي لا تُسحق عظامهم في مكوكٍ مزدحمٍ ليحطّوا الرحال أخيراً، مثل قطيعٍ من الماشية، في هذه القاعة اللعينة. فرنسا ترحّب بكم!

كان غاسبار، وهو يحمل حقيبته على كتفه، ينضح عرقاً بغزارة. أحسّ وكأنّه قد قطع مسافة ثلاثة كيلومترات منذ أن غادر الطائرة وتساءل، منهكاً، عمّا يفعله هنا، ولماذا يحبس أنفاسه لشهرٍ كاملٍ من كلّ سنة في باريس لكي يكتب نصّ مسرحيته الجديدة؟ ضحك بعصبية، إذ كان الجواب بسيطاً ويدوّي مثل شعارٍ: **تقنية الكتابة في بيئة عدائية**. كانت وكيلته كارن تستأجر له في التاريخ نفسه من كلّ عام بيتاً أو شقّة لكي يستطيع أن يعمل في أجواءٍ هادئة. كان غاسبار

يكره باريس كثيراً -وبخاصة خلال أعياد الميلاد- لدرجة أنّه لم يكُن يصعُب عليه أبداً أن يبقى حبيس غرفته ليلاً ونهاراً، وبالتالي، كان النصّ المسرحي يُكتَب من تلقائه أو يكاد. على كلّ حال، كان نصّه المسرحي ينتهي دائماً في نهاية شهر يناير.

كان عدد المسافرين يتناقص في الرتل ببطء مثيرٍ لليأس وبات الانتظار مرهقاً للغاية. كان صبيةٌ متحمّسون يركضون بين الحواجز وهم يصرخون، وزوجان مسنّان يستندان إلى بعضهما لكي لا ينهارا ويسقطا أرضاً، وطفلٌ رضيعٌ يتقيّأ بمحتوى رضّاعته على رقبة أمّه.

قال غاسبار غائظاً وملقياً باللوم على نفسه وهو يتنفّس جرعة كبيرة من الهواء الملوّث: **اللعنة على عطلة أعياد الميلاد...** حينما لاحظ السخط على وجوه رفقائه في المعاناة، تذكّر مقالة كان قد قرأها في مجلّة حول «متلازمة باريس». في كلّ عام، كان العشرات من السيّاح اليابانيين والصينيين يُنقلون إلى المستشفيات وغالباً ما كانت تتمّ إعادتهم إلى بلدهم بسبب الاضطرابات النفسية الشديدة التي يعانون منها في أثناء زيارتهم الأولى إلى العاصمة الفرنسية. ما أن يصلوا إلى فرنسا، كان هؤلاء القادمون لقضاء عطلتهم يعانون من أعراضٍ غريبة مثل الهذيان والقلق والهلوسة والبارانويا. وبمرور الوقت، توصّل الأطباء النفسيون إلى تفسيرٍ للحالة: إنّ تعكّر مزاج السيّاح ناجمٌ عن التناقض الكبير بين نظرتهم المثالية لمدينة الأنوار وما هي عليه في الحقيقة والواقع. كانوا يعتقدون بأنّهم سيكتشفون العالم الخرافي لأميلي بولان الذي يتمّ تمجيده وتعظيمه في الأفلام والإعلانات، فيكتشفون بدل ذلك مدينة قاسية وعدائية. كانت باريس المتخيّلة في ذهنهم -باريس المقاهي الرومانسية، وبائعي الكتب على ضفاف السين، وربوة مونمارتر، وحيّ سان-جيرمان-دي-بري-

تتحطّم على صخرة الواقع: الأوساخ، والنشّالون، وانعدام الأمن، والتلوّث الدائم، وبشاعة التجمعات الكبرى للمدينة، وقِدم وسائط النقل العامّة.

ولصرف تفكيره نحو أمرٍ آخر، أخرج غاسبار من جيبه مجموعة من الأوراق المطوية تضمّ مخطَّط وصور السجن الذهبي الذي كانت وكيلته قد استأجرته له في الدائرة السادسة من المدينة. المرسم القديم للرسّام شون لورينز. كانت الصور مُغرية وتمنح الأمل في الحصول على فضاءٍ مفتوحٍ وصافٍ ومريحٍ وممتازٍ لماراتون الكتابة الذي كان في انتظاره. عادة، لم يكُن يثق بالصور، ولكنّ كارن كانت قد قامت بزيارة إلى المكان وأكّدت له بأنّه سوف ينال إعجابه. وأضافت عبارة غامضة: **بل وأكثر**.

على أيّ حال، كان يأمل أن يكون الأمر كذلك.

انتظر لربع ساعة أخرى قبل أن يوافق أحد رجال شرطة الحدود على إلقاء نظرة على جواز سفره. لم يوجّه له الرجل الجِلْف تحية الصباح ولا كلمة شكر، ولم يردّ على تحيته وهو يُعيد إليه أوراقه الثبوتية.

عانى غاسبار من حيرة جديدة أمام اللوحات الإرشادية، فقد سلَكَ الاتجاه الخاطئ قبل أن يعود أدراجه. كان هناك الكثير من السلالم الآلية وسلسلة من الأبواب الأوتوماتيكية التي كانت تنفتح دائماً متأخرةً. سارع إلى تجاوز المدارج المتحرِّكة وشكر الله على أنّه لا يحمل معه الكثير من الأمتعة.

بات الآن ليس بعيداً جدّاً عن باب الخروج من الجحيم. جهد لكي يخرج من وسط الزحام غير الاعتيادي الذي كان يعيق سيره في قاعة المسافرين القادمين، وشقّ طريقه بين الحشود مصطدماً بزوجين

كانا يتعانقان وقفَزَ من فوق مسافرين كانوا مستلقين على أرضية القاعة نفسها. حينما لمح الباب الدوّار الذي تعلوه لوحة تحمل عبارة «المَخرج-سيارات الأجرة» أدرك أنّ عذابه يُشارف على النهاية. لم يتبقَّ أمامه سوى بضعة أمتارٍ وسيتحرّر من هذا الكابوس. سوف يستقلّ سيارة أجرة ويرتدي قبّعته ويهرب ذهنياً ممّا عاناه من خلال الاستماع إلى بيانو براد ميهلدو وغيتار لاري غرينادير. ثمّ مع حلول ما بعد ظهيرة اليوم، سوف يبدأ بالكتابة، وسوف...

خفّف المطر المتساقط على الأرصفة من همّته وسط مشهد السماء المكفهرّة بالغيوم التي عبرها الحزن وبروق الرعد. لم يلمح أيّ سيارة أجرة في المكان، ورأى بدل ذلك عربات وحدات مكافحة الشغب ومسافرين حائرين في أمرهم.

سأل حمّال أمتعة كان يدخّن سيجارته ببلادة أمام منفضة:

- ماذا يحدث؟

- ألستَ على علمٍ بالأمر؟ إنّه الإضراب، يا سيّد.

2.

في اللحظة نفسها، في محطة الشمال للقطارات، كانت مادلين غرين تنزل من قطار يوروستار في رحلة التاسعة وسبع وأربعين دقيقة، قادمة من لندن.

كانت خطواتها الأولى على الأراضي الفرنسية متردّدة وكانت المرأة الشابّة تعاني صعوبة في التأقلم مع هذه البلاد. كانت ساقاها ثقيلتين ومرتعشتين، وقد أضيف إلى التعب والإنهاك شعورٌ بدُوارٍ وغثيانٍ مُلِحٍّ وارتفاعٍ في نسبة الأحماض التي كانت تُحرِق مَريئها.

حذّرها الطبيب عبثاً من الآثار الجانبية لعلاجها، فهي لم تتخيّل أن تقضي أعياد الميلاد وهي على هذه الدرجة من سوء الحال.

بدت الحقيبة التي كانت تُجرجِرها خلفها ثقيلة كما لو أنّ وزنها طنّ كامل. كان ضجيج عجلات الحقيبة على الأرضية المعبّدة يدوّي في رأسها ويكاد يفجّر جمجمتها، الأمر الذي فاقَمَ من الصداع الذي كانت تعاني منه منذ استيقاظها.

توقّفت مادلين فجأة لكي تغلق تماماً سحّاب سترتها الجلدية المصنوعة من طبقتين من جلد خاروف. كانت تتصبّب عرقاً ومع ذلك ترتعش من شدّة البرد.

أحسّت بضيقٍ في التنفّس وشعرت للحظة بأنّها سيُغمى عليها، لكنّها استعادت قواها قليلاً حينما بلغت نهاية رصيف المحطّة كما لو أنّ الغليان الذي كان يسود المحطّة نشّطها وأعاد صلتها بالحياة.

رغم السمعة غير المغرية لمحطّة الشمال، لطالما انبهرت مادلين بهذا المكان. هنا، حيث كان آخرون يجدون فيه الفوضى والخوف، كانت هي تجد طاقة متجدِّدة ومُعدية. كانت المحطّة عبارة عن خلية دائمة الحركة، لا قاعة للمعجزات. تلتقي فيها حياة ومصائر الآلاف من البشر مشكّلة شبكة عنكبوتٍ عملاقة. تدفّقٌ متوتّر وموجةٌ هائلة، كان عليها أن تُجيد ترويضها كي لا تغرق فيها.

كانت المحطّة تبدو لها مثل مسرحٍ يستثمره آلاف الممثّلين من سيّاحٍ، وسكّان الضواحي، ورجال أعمال، ومهمّشين، ورجال شرطة، ودوريات أمن، ومهرّبين، وتجّار المخدّرات، وموظفي المقاهي والمتاجر المحيطة... وهي تراقب هذا العالم المصغّر الذي يغطّيه السقف الزجاجي الكبير مثل قبّعة، فكّرت مادلين في واحدة من كرات الثلج التي كانت جدّتها تجلبها لها كلّما عادت من

سفرٍ. كرة عملاقة وطنّانة مجرّدة من شذراتها البلاستيكية، كانت تتشقّق تحت وطأة الحمل الثقيل.

خرجت إلى الفناء لتُستقبل بزوبعة. بالنسبة إلى الطقس، كان جوّ المدينة أسوأ من جوّ لندن حيث المطر الغزير والسماء الملوّثة والهواء الرطب والفاتر. ومثلما أخبرها تاكومي، كانت العشرات من سيارات الأجرة تسدّ مدخل المحطّة. لم تستطِعْ لا الحافلات ولا السيارات أن تنقل المسافرين. كان معتصمون ومسافرون يكرّرون بحماسٍ وحميّة المشاهد المتكرّرة نفسها أمام عدسات الصحافيين والقنوات الإخبارية.

استعجلت مادلين الخطى لكي تلتفّ على المجموعة المحتشدة. لامَت نفسها وهي تعبُر نحو جادّة ماجينتا: **لماذا لم أفكّر في اصطحاب مظلّة؟** ولأنّها كانت تسير على مسافة قريبة جدّاً من حافة الرصيف، تناثرت عليها المياه حينما عبرت عجلةُ سيارةٍ حفرةً مليئة بالماء. نزلت، مبتلّة وحانقة، شارع سان-فانسان-دو-بول حتى وصلت إلى مدخل الأبرشية. هناك، كان تاكومي ينتظرها في الموعد المحدّد، خلف مقود عربة مركونة في الرتل الثاني للوقوف. كانت عربته من طراز رينو إيستافيت الملونّة بألوانٍ عديدة، ومزيّنة بعبارة بهيجة تتعارض مع الجوّ الحالك المحيط بها: «الحديقة العجيبة - محل لبيع الزهور - 3 مكرّر، شارع دولامبر - 75014 باريس». لمّا لمحته مادلين، لوحّت له بيدها بحماسة، قبل أن تُسرع إلى داخل عربته.

استقبلها بائع الزهور وهو يقدّم لها منديلاً:

- مرحباً، يا مادلين. أهلاً بكِ في باريس!

- مرحباً يا عزيزي. يُسعدني أن ألتقي بكَ!

جفّفت شعرها وهي تتمعّن في تفاصيل الشاب الآسيوي. كان شعر تاكومي قصيراً، ويرتدي سترة مخملية، ويضع حول رقبته وشاحاً من الحرير. وكانت قبّعة قطنية ذات مربّعات تغطّي أعلى رأسه المدوّر وتترك خارجاً عنها أذنين صغيرتين بارزتين تجعلانه يبدو شبيهاً بفأرٍ. وينتصف وجهه شاربان خفيفان يشبهان شاربَي فتى مراهقٍ بالكاد بلغ سنّ البلوغ، لا كشاربي توماس ماغنوم. لم يكن قد زاد الشيب فيه إطلاقاً مذ غادرت باريس مسلّمة إليه المتجر الجميل للأزهار الذي كانت قد افتتحته منذ بضع سنوات خلت.

قالت مادلين وهي تربط حزام الأمان:

- من الرائع أن تأتي لاستقبالي. شكراً لك.

- عفواً، لولا مجيئي كنتِ ستُحبَسين اليوم في وسائط النقل.

أقلع بائع الزهور بسيارته، وسلك شارع أبيفيل.

قال وهو يشير إلى مجموعة المتظاهرين:

- كما ترين، لم يتغيّر شيء في هذا البلد منذ أن غادرتِ. تزداد الأمور سوءاً يوماً بعد آخر...

كانت ماسحات الزجاج لسيارة رينو القديمة تمسح المطر المنهمر على الزجاج فيَسيل مدراراً نحو الواجهة.

رغم حالة الغثيان التي انتابتها مجدّداً، حاولت مادلين أن تستمر في الحديث معه:

- كيف تسير أمور الحياة معك؟ ألن تذهب في عطلة بمناسبة أعياد الميلاد؟

- ليس قبل نهاية الأسبوع المقبل. سوف نذهب للاحتفال برأس السنة الجديدة مع عائلة مارجولين. يمتلك والداها معملاً للتقطير في كالفادوس.

- إذا كان الكحول يؤثّر عليك بقوة كالعادة، فستكون إجازة واعدة!

احمرّ وجه بائع الزهور الشابّ. فقالت مادلين في نفسها، وهي ترنو من نافذة السيارة إلى المشهد الذي يَميد تحت نظرها: **تاكومي لا يزال حسّاساً**. وصلت الشاحنة الصغيرة إلى جادّة هوسمان، وواصلت سيرها لخمسمئة متر قبل أن تنعطف نحو شارع ترونشيه. رغم المطر المدرار ورغم تأثيرات الوسط الاجتماعي السيئ، كانت مادلين سعيدة بوجودها في المدينة.

كانت قد أحبّت أن تعيش في مانهاتن، لكنها لم تكن قادرة على أن تحظى فيها بهذه الطاقة المزعومة التي يتفاخر بها بعض أصدقائها. في الواقع، كانت نيويورك قد أنهكتها وظلّت باريس مدينتها المفضّلة على الدوام، فكانت تعود إليها لكي تضمّد جراحها. كانت قد عاشت هنا لأربعة أعوام. ربّما لم تكن أجمل سنوات عمرها، ولكنّها بالتأكيد كانت أكثرها أهميةً: كانت سنوات التكيّف وإعادة البناء والنهوض.

حتى عام 2009، كانت قد عملت في إنجلترا، في وحدة التحقيقات الجنائية في مانشستر. في ذلك القسم، حطّمها تحقيقٌ جنائي منهك تكفّلت بإجرائه -قضية آليس ديكسون[1]- وأرغمها على مغادرة سلك الشرطة. أفقدَها هذا الفشل كلّ شيء: مهنتها واحترام زملائها وثقتها بنفسها. في باريس قامت بمشروعٍ تجاريّ صغير في مجال بيع الزهور وأعادت ترميم حياتها في حيّ مونبارناس بعيداً عن التحقيقات في جرائم القتل أو اختفاء الأطفال. وكانت هذه الحياة

(1) انظر **نداء الملاك**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، 2014.

الأكثر هدوءً قد شهدت تحوّلاً جذرياً مرّة أخرى حينما وجّهها لقاءٌ نحو مسرحٍ غير متوقّعٍ، وسمح لها أن تستأنف التحقيق الذي كان قد خرّب حياتها. وفي النهاية، شهدت قضية آليس ديكسون خاتمة سعيدة في نيويورك. وكانت ظروف هذا النجاح قد منحتها الفرصة لكي تدخل إلى الأقسام الإدارية في برنامج حماية الشهود الأميركي، وبالتالي تركت متجرها لبيع الزهور في عهدة تاكومي وسافرت إلى نيويورك. بعد مرور عامٍ واحد، عرضت عليها إدارة شرطة نيويورك عقداً للعمل كمستشارة في قسمها الخاصّ بالقضايا التي تمّ حفظها من دون أن تُحلّ. وكانت مهمّة مادلين تتمثّل في إلقاء نظرة جديدة على بعض القضايا القديمة التي لم يتمّ حلّها. إنّه من أولئك الأعمال التي قد تكون مثيرةً في مسلسل تلفزيوني أو رواية بوليسية للكاتب هارلان كوبن، لكنّه تبيّن في الحقيقة أنّه ليس سوى عملٍ مكتبي مملّ للغاية. خلال أربعة أعوام، لم تطأ قدما مادلين ولا لمرّة واحدة مسرح جريمة، كما لم تنجح في إعادة فتح أيّ تحقيقٍ. كان القسم الذي تعمل فيه يفتقر إلى الموارد ويصطدم ببيروقراطية تفوق ما هو موجود في الإدارة الفرنسية. كان كلّ طلبٍ لتحليل الحمض النووي يتطلّب ملء رزمة من الاستمارات، وأدنى إذنٍ قضائي لاستجواب شاهدٍ قديم أو الوصول إلى بعض غرف المحكمة يستدعي إجراء عددٍ هائلٍ من المعاملات الورقية، ويصطدم في أغلب الأحيان بالرفض من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي **FBI**، صاحب اليد العليا في التحقيقات الجنائية الأكثر خطورةً وأهميةً.

وقد انتهى بها الأمر إلى أن تركت غير نادمةٍ هذا العمل لتعود للعيش في إنجلترا، بل ولامت نفسها على كونها أطالت المكوث هناك. فمنذ أن عاد جوناثان لامبيرور -الرجل الذي أحبّته ولحقت به

إلى مانهاتن- للعيش مع زوجته، لم يعُد هناك بالفعل ما يستدعي بقاءها في الولايات المتّحدة.

كشف بائع الزهور فجأةً:

- مارجولين وأنا، ننتظر طفلاً في فصل الربيع.

انتزع هذا البوح مادلين من استغراقها في أفكارها.

قالت، وهي تحاول أن تضفي بهجة على نبرة صوتها:

- أنا... أنا سعيدة جدّاً من أجلك.

لكنّ ردّة فعلها أعطت مفعولاً معاكساً، لدرجة أنّ تاكومي انتقل إلى الحديث عن أمرٍ آخر، فسألها:

- ما زلتِ لم تخبريني. ما الذي جاء بكِ إلى باريس، يا مادلين؟

ردّت بنبرة مراوغة:

- للقيام ببعض الأمور من هنا وهناك.

- إذا أردتِ قضاء سهرة عيد الميلاد معنا، أهلاً وسهلاً بكِ.

- هذا لطفٌ منك، ولكنني لا أفضّل ذلك. اعذُرني، لكنني فعلاً بحاجةٍ إلى أن أبقى لوحدي.

- كما تشائين.

ساد الصمت من جديد بينهما. لم تشأ مادلين أن تخوض حديثاً جديداً وظلّت ترنو من نافذة الشاحنة الصغيرة، وهي تحاول أن تستعيد هدوءها وتجهد لكي تربط كلّ مكانٍ من الأمكنة التي تمرّ بها بذكرى من ذكريات حياتها الباريسية. ذكّرتها ساحة مادلين بمعرضٍ لمجموعةٍ من الأعمال الفنية للرسام الفرنسي راؤول دوفي؛ وذكّرها شارع رويال بمطعمٍ صغير، أطباقُ لحم العجل لديه لذيذة جداً؛

وظلّ جسر ألكسندر الثالث مرتبطاً في ذهنها بحادثٍ تعرّضت له في يومٍ ماطرٍ، حينما كانت تقود دراجتها النارية. . .

ألحّ عليها تاكومي بالسؤال:

- هل لديك مشاريع مهنية؟

قالت كاذبةً:

- بالطبع.

- وهل قابلتِ جوناثان مؤخّراً؟

اهتمّ بشؤونك ولا تتدخّل في ما لا يعنيك!

- حسناً، هل انتهيتَ من استجوابكَ؟ أذكّركَ بأنني أنا الشرطية، وليس أنت.

- في الواقع، لم تعودي شرطية، إذا كنتُ قد تابعتُ أخباركِ بشكلٍ جيّد. . .

تنهّدت، فقد بدأ الشاب الأرعن يضرب فعلاً على أعصابها.

قالت:

- حسناً. سأكون صريحة. أريد أن تكفّ عن طرح أسئلتك. كنتَ تلميذي وقد بعتُك مشروعي، وهذا لا يمنحك الحقّ أن تسألني عن حياتي الخاصّة!

بينما كانت عربته تعبُر حرم مجمّع ليزانفاليد، اختلس تاكومي النظر إلى مادلين بطرف عينه. كانت لا تزال كما عرفها بوجهها وجبينها الواسع، وسترتها الجلدية الفضفاضة، وخصلات شعرها الشقراء وتسريحة شعرها على الطريقة القديمة.

كانت لا تزال غاضبة، فأنزلت زجاج نافذة السيارة وأشعلت سيجارة.

قال لها بائع الزهور، موبّخاً:

- هل فعلاً لا تزالين تدخّنين؟ أنتِ غير معقولة.
ردّت وهي تنفث سحابة من الدخان نحوه لكي تستفزّه:
- اخرَسْ.
- كلا! ليس في سيارتي! لا أريد أن تتلوّث شاحنتي الصغيرة بروائح التبغ!
استغلّت مادلين توقّف السيارة على إشارة ضوئية لتمسك بحقيبتها وتفتح الباب.
- ولكن... ماذا تفعلين يا مادلين؟
- لقد تجاوزتُ سنّ تلقّي الدروس في الأخلاق. سوف أواصل طريقي سيراً.
- كلّا، انتظري، أنتِ...
صفقت الباب، وسارت بسرعة، وحيدة على رصيف شارع غرونيل.
كان المطر لا يزال يهطل غزيراً.

.3

صرخ غاسبار، غاضباً:
- الإضراب؟ أيّ إضراب؟
هزّ حمّال الأمتعة كتفيه مستسلماً.
- كالعادة، تعرف ذلك جيّداً...
وضع غاسبار يديه كواقية فوق وجهه لكي يحمي نفسه من المطر. بالطبع لم يكن قد فكّر في أن يجلب معه مظلّة.
- لا توجد سيارة أجرة، إذاً؟

- لا شيء. يمكنك أن تحاول مع شبكة القطارات السريعة، ولكن ليس هناك سوى قطار واحد يعمل من أصل كلّ ثلاثة قطارات.

حقّاً؟! أفضِّل الموت على ذلك.

- وماذا عن الحافلات؟

أجاب الموظّف عابثاً، وهو يسحب آخر نفسٍ من سيجارته:

- لا أعرف عنها شيئاً.

عاد غاسبار حانقاً إلى داخل قاعة المحطّة، ووقف في فسحة يتصفّح العدد الجديد من جريدة **لو باريزيان**. كان العنوان معبّراً وبليغاً «الشلل التامّ». كان سائقو سيارات الأجرة، وعمّال سكك الحديد، وموظّفو خدمات مترو الأنفاق، والمراقبون الجويّون، ومضيفات الطيران، والعاملون على متن الطائرات، وموظفو الطرق، وعمال الموانئ، وموظفو خدمة البريد، وعمال ترحيل القمامة؛ كان الجميع قد اتفقوا على كلمة سواء وتوعّدوا الحكومة بشلّ حركة البلاد إنْ لم تسحب مشروع قانونٍ مثير للجدل. وكانت المقالة توضّح بأنّه قد يكون هناك إضرابات أخرى وأنّه من جرّاء إيقاف مصافي النفط ليس من المستبعَد أن تعاني البلاد من نقصٍ في الوقود خلال بضعة أيام. وممّا زاد الطين بلّة، بعد ارتفاعٍ متواصلٍ في درجة التلوّث في بداية الشهر، حان دور نهر السين ليشهد فيضاناً تاريخيّاً. كانت الفيضانات تعمّ كلّ مكانٍ من حول باريس، الأمر الذي فاقم من أزمة حركة المرور.

فرك غاسبار عينيه وقال في نفسه: **أواجه دائماً المشكلة نفسها كلّما تطأ قدماي أرض هذه البلاد...** استمرّ الكابوس، ولكن التعب حلّ تدريجياً محلّ الغضب.

ما العمل؟ لو كان لديه هاتفٌ محمول، لاتّصل بكارن لكي تجد

له حلّاً. سوى أنّ غاسبار لم يرغب قطّ في اقتناء هاتفٍ خليوي، تماماً مثلما لم يكن يقتني حاسوباً شخصياً ولا تابليت ولا عنوان بريد إلكتروني، كما أنّه لم يكن يستخدم الإنترنت أبداً.

بدأ، بشيءٍ من السذاجة، في البحث عن مقصورة هاتفية في قاعة المحطّة، لكن بدا أنّ جميع تلك المقصورات كانت قد اختفت.

ظلّت الحافلات آخر أملٍ له، فخرج وبحث عبثاً عن شرطيٍّ لكي يستفسر منه عن الأمر، وأمضى ربع ساعة كاملة في فهم تعقيدات خطوط السير المختلفة للسيارات التابعة لشركة الخطوط الجوية الفرنسية وشاهد، محبطاً، انطلاق حافلتين مزدحمتين لا مكان فيهما للمزيد من الركاب.

بعد انتظارٍ لنصف ساعة أخرى، وبعد أن تضاعف غضبه، استطاع أخيراً أن يتسلّق إحدى المركبات. لم يكن هناك مكانٌ للجلوس، كلا -ما كان عليه أن يحلم بذلك- ولكنّه، على الأقلّ، كان على المسار الصحيح: المسار الذي يؤدّي إلى محطّة مونبارناس.

كان الركّاب، وهم مكدّسين كما في علب السردين ومبتلين من جرّاء المطر، مضطّرين لأن يتحمّلوا المعاناة حتى النهاية. فكّر غاسبار وهو يشدّ حقيبته إلى صدره بتعريف دوستويفسكي للإنسان: «كائنٌ يعتاد على كلّ شيء». يعتاد على أن يُداس على قدميه، وأن يُدفع، وأن يُعطَس في وجهه، وأن يتعرّق مع أناسٍ لا يعرفهم في مكانٍ خانق، وأن يتقاسم معهم الإمساك بعمودٍ معدنيٍّ مليءٍ بالجراثيم...

انتابته الرغبة من جديد في أن يتخلّى عن فرنسا ويغادرها، ولكنّه طمأن نفسه بقوله إنّ محنته سوف لن تطول لأكثر من شهر. إذا ما نجح في أن ينتهي من كتابة مسرحيته في الوقت المحدّد، سوف يغادر في غضون أقلّ من خمسة أسابيع لقضاء نهاية الشتاء وبداية الربيع في

اليونان حيث يمتلك فيها قارباً شراعياً راسياً في جزيرة سيفنوس. وستتبع ذلك ستّة أشهر من الإبحار في أرخبيل كيكلادس اليونانية، والعيش في انسجام مع العناصر الطبيعية هناك في انفجارٍ للمشاعر والألوان: اللون الأبيض المبهر للشمس على الكلس، ولون السماء الأزرق الشبيه بلون الكوبالت، والأعماق الفيروزية لبحر إيجة. في اليونان، كان غاسبار يتأقلم وينسجم مع الطبيعة ومناظرها ومع الخضار والروائح في نوعٍ من الانصهار الواحدي. بعد أن ينتشي ثملاً بهواء البحر، كان يغوص في الأراضي البراح ويسير بجانب الجدران المبنية من الصخور الجافّة ويبتهج بروائح الزعتر ونبات المريمية وزيت الزيتون والأخطبوط المشوي. وهي سعادة تستمرّ حتى أواسط شهر يونيو، حينما يبدأ السيّاح بتسميم الجزر اليونانية، فيفرّ إلى الأراضي الأميركية، في الشاليه خاصّته في مونتانا.

هناك، يعيش حياة مختلفة: عودة إلى الطبيعة بوجهها الأكثر وحشية وقسوة. كانت أيامه تمضي على إيقاع رحلات صيد سمك السلمون المرقّط، ورحلات التجوّل التي لا نهاية لها وسط غابات أشجار البتولا، وحول البحيرات، وعلى ضفاف الأنهار والجداول. حياة منعزلة ولكنّها ثرية، بعيداً عن سرطان المدن وسكانها المصابين بالأنيميا.

كانت الحافلة تسير، متراً بعد متر، بصعوبة على الطريق السريع A3. كان غاسبار يلمح أحياناً عبر زجاج نوافذها المغطّاة بالضباب أجزاءً من الإعلانات الطرقية التي تحمل أسماء مدن الضواحي الشمالية الشرقية: أوني-سو-بوا، درانسي، ليفري-غارغان، بوبيني، بوندي...

كان بحاجة إلى حالات الانغماس الطويلة هذه وحيداً في

أحضان الطبيعة لكي يُطهِّر روحه ويغتسل من رجس الحضارة، لأنّ غاسبار كوتانس كان، منذ زمنٍ طويل، في حربٍ ضدّ اضطراب وفوضى عالمٍ يسعى إلى حتفه. عالمٌ ينهار من جميع الجوانب ولم يعُد يفهمه. ككارهٍ حقيقي للبشر، كان يشعر أنّه قريبٌ من الدببة والطيور الجارحة والثعابين أكثر من إخوانه المزعومين من البشر، وكان فخوراً بكونه قد انفصل عن عالمٍ يحتقره، فخوراً بقدرته على العيش لمعظم الوقت خارج المجتمع وقوانينه. وبهذه الطريقة لم يكن قد شغّل شاشة تلفازٍ منذ خمس وعشرين سنة، ولم يستخدم الإنترنت أبداً، ويقود سيارة دودج طراز السبعينيات من القرن الماضي.

كانت حياته كناسكٍ نابعة من زهدٍ حازم، ولكن غير متطرّف. يسمح لنفسه أحياناً أن ينقاد لنزوة حينما تتاح الفرصة، ويحدث أحياناً أن يغادر جباله أو عرينه اليوناني ويستقلّ الطائرة لكي يحضر حفلة لعازف الجاز كيث جاريت في جوان-لي-بان، أو يشاهد معرضاً لأعمال الرسّام الهولندي بروغل في روتردام، أو عروضاً لأوبرا **توسكا** على المسارح المدرّجة في فيرونا. ومن ثمّ كان هناك هذا الشهر الشهير من الكتابة في باريس. بعد أن تنضج فكرة نصّه المسرحي في ذهنه خلال عامٍ كامل، كان يجلس في مكتبه ليكتب يومياً لمدّة ثلاث عشرة ساعة. كان يعتقد في كلّ مرّة أنّ أفكاره وإلهامه ورغبته قد نفدت، لكنّ تطوّراً غامضاً كان يحدث في سياق الكتابة. تتدفّق الكلمات، والحالات، والحوارات، والتعليقات تحت ريشته وتتمفصل في انسجامٍ وتناسقٍ في سياق كتابة جافّة وخالية من العاطفة.

أصبحت نصوصه المسرحية الآن مترجمة إلى قرابة عشرين لغة وتُمثّل على مسارح العالم أجمع. وفي السنة الماضية وحدها، تمّ

إنتاج وإخراج ما يقرب من خمسة عشر عملاً في أوروبا والولايات المتحدة. وقد تمّ عرض إحدى آخر مسرحياته، **مدينة الأشباح** على مسرح شاوبون الأسطوري في برلين وقد رُشِّحَت لجائزة توني للتميّز في مجال المسرح. وقد أثارت حكاياته على نحوٍ خاص إعجاب الصحافة الراقية التي بالغت في تفسير وتقدير عمله بعض الشيء.

لم يكن غاسبار يحضر أبداً عروض مسرحياته ولم يكن يُجري مقابلات صحافية. في البداية، أبدت كارن قلقها من امتناعه عن الظهور في وسائل الإعلام، لكنّها عرفت كيف تستثمر هذا الأمر لكي تصنع «غاسبار كوتانس غامضاً». في النهاية، كلّما قلّل من الظهور، كلّما أشادت به الصحافة أكثر. كانت الصحافة تقارنه بكونديرا، وبنتر، وشوبنهاور، وكيركيغارد. لم يكن غاسبار يشعر بالإطراء من خلال هذه المجاملات بقدر ما كان يعتقد على الدوام أنّ هذا النجاح ناجمٌ عن سوء فهم.

بعد بلدة بانيوليه، واصلت الحافلة سيرها على الطريق الدائري قبل أن تسلك طريق بيرسي حتى بلغت محطّة ليون. توقفت الحافلة هناك لوقتٍ طويلٍ، الوقت الذي استغرقه نزول نصف عدد الركاب قبل أن تتوجّه نحو الغرب.

كانت النصوص المسرحية لغاسبار تنمو جميعها في التربة نفسها: تربة العبث ومأسوية الحياة، تربة العزلة الجوهرية عن الشرط الإنساني. كانت تلخّص كره غاسبار لجنون عصره وكانت خالية من الأوهام والتفاؤل والمشاعر الطيّبة، ومن كلّ نهاية سعيدة. ولكن مع أنّها كانت يائسة وقاسية إلّا أنها كانت مثيرة للضحك. بالتأكيد لم تكن من نوع فيلم **بويك-بويك** أو فيلم **قفص المجانين** الكوميديين أو برنامج **في المسرح هذا المساء**، لكنّها كانت مسرحيات مفعمة

بالحيوية. ومثلما تقول كارن، إنّها تمنح للمشاهدين الإحساس بأنّهم قادرون على أن يكونوا أحراراً وتمنح النقاد الشعور بأنّهم أذكياء. ربّما هذا هو ما يفسّر حماسة الجمهور والكوميديين الأكثر مشاهدة الذين كانوا يتنافسون على تمثيل نصوصه اللاذعة.

كانت الحافلة قد عبرت لتوّها نهر السين. في جادّة أراغو، أعادت الزينة الحزينة والمبعثرة لأعياد الميلاد إلى ذهن غاسبار كم كان يكره هذه الفترة وما أصبح عليه هذا العيد: مجرّد قيء تجاري وسوقيّ. ثمّ توقّفت الحافلة في ساحة دنفير-روشرو تماماً أمام مدخل سراديب الموتى. حول تمثال أسد بلفور، كانت مجموعة من المتظاهرين تلوّح بأعلامٍ بألوان الكونفدرالية العامّة للشغل CGT، والقوى العاملة FO، واتّحاد النقابات الموحّدة FSU. أنزل السائق زجاج نافذته لكي يتكلّم مع رجل شرطة كان ينظّم حركة السير. من خلال الإصغاء إليهما، فهم غاسبار أنّ جادّة مين كانت مغلقة وكذلك كلّ المداخل إلى برج مونبارناس.

انفتحت أبواب الحافلة بصخبٍ.

أعلن السائق بنبرة مرحة، مع أنّه ترك ركّاب حافلته لمصيرٍ محزن:

- هذه المحطّة الأخيرة، على الجميع النزول من الحافلة!

في الخارج، كانت العاصفة تشتدّ.

.4

بسبب الإضراب وإيقاف محطّات معالجة القمامة، كانت باريس تئنّ تحت وطأة الروائح النتنة. كانت جبالٌ من القمامة تتكدّس أمام المطاعم، وأمام مداخل العمارات وواجهات المتاجر، حتى أنّ

بعض السيّاح، وقد تملكّتهم مشاعر الامتعاض والغضب، كانوا يلتقطون صور سيلفي ساخرة أمام الحاويات الطافحة بالقمامة والنفايات.

تحت وابل المطر، صعدت مادلين من جديد شارع غرونيل، وهي تسحب حقيبتها ذات العجلات الصغيرة والتي بدت أنّ وزنها يزداد بمقدار كيلو غرامٍ واحدٍ بعد كلّ مئة مترٍ. عقدت العزم، بقلبها الشجاع، على ألّا تدع نفسها تنهزم. ولكي تمنح نفسها الهمّة والشجاعة، استعرضت في ذهنها برنامجها للأيام التي تلي وصولها. رحلات ترفيهية في جزيرة سان-لويس، وحضور مسرحية موسيقية في شاتليه، ومشاهدة عرضٍ مسرحي في مسرح إدوارد السابع، وحضور معرض هيرجيه في صالة القصر الكبير، ومشاهدة فيلم **مانشستر باي ذا سي** في السينما، وارتياد بعض المطاعم بشكلٍ منفرد... كانت بحاجة إلى أن تمضي هذه الزيارة بشكلٍ جيّد، فقد جاءت إلى هذه المدينة على أمل أن ترتاح وتنعم بالهدوء. كانت تُعير المدينة هذه الفضيلة السحرية.

واصلت السير في طريقها جاهدة لئلّا تفكّر في العملية الجراحية التي ينبغي لها أن تخضع لها في الأيام المقبلة. بينما كانت تجتاز شارع بورغون، توقّف المطر عن الهطول فجأةً. وحينما وصلت إلى شارع شيرش-ميدي، ظهر شعاعٌ خجول للشمس وأعاد إليها الابتسامة. فتّشت في هاتفها الذكي لكي تفتح البريد الإلكتروني الوارد من الوكالة العقارية في الموقع الذي اختارت فيه البيت.

«شقّة في باريس»: قبل شهرٍ من الآن، كانت قد أدرجت هذه العبارة في محرّك البحث حينما شرعت في إجراءاتها للعثور على مسكن. بعد العشرات من النقرات على لوحة المفاتيح وما يقارب

نصف ساعة من تصفّح الخيارات، وقع خيارها على موقع وكالة عقارية متخصّصة في تأجير مساكن غير نمطية. كانت أجرة البيت تفوق كثيراً ميزانيتها، ولكنّها انبهرت به إلى درجة أنّها لم تتصوّر أن تُقيم في بيتٍ سواه. وخشية من أن يسبقها إليه أحدٌ سواها، أخرجت في الحال بطاقتها الائتمانية لتؤكّد حجزه.

في رسالة تأكيد الحجز، ظهر في آنٍ واحد العنوان الدقيق للمسكن والرمز السرّي لبوابة الدخول إليه. بحسب المعطيات، كان المنزل يقع في زقاق جان-هيبوترن المسدود ببوابة حديد تقع أمام مطعم شي دومونيه مباشرةً. تعرّفت مادلين على البوابة ذات الطلاء المقشّر وأدرجت، وعينها على شاشة هاتفها المحمول، الأرقام الأربعة التي سمحت لها بفتح الباب.

ما أن أغلقت الباب من خلفها، أحسّت مادلين بأنّها قد سقطت في محرابٍ خارج الزمن. انبهرت في البداية بالخضرة -زهرة العسل، وقصب الخيزران، والكثير من أشجار الياسمين، والمغنوليا- وكذلك بالشجيرات -شجيرات البرتقال المكسيكي، والأندرومية اليابانية، وبُدلية داوود- التي جعلت من المكان ما يشبه مزرعة رعوية ريفية هادئة في أحضان الطبيعة بعيدة كلّ البُعد عن صخب المدينة وقسوتها. ثمّ اكتشفت في أثناء تقدّمها على البلاطات المرصوفة مجموعة من أربعة بيوت صغيرة. بيوت صغيرة من طابقٍ واحد، محاطة بحديقة خضراوات، وواجهاتها مغطّاة باللبلاب وأزهار العاطفة.

البيت الأخير في الزقاق المسدود هو الذي كانت قد استأجرته. لم تكن له أيّ علاقة بالبيوت الأخرى. من الخارج، كان عبارة عن مكعّبٍ من الإسمنت المسلّح مغلّفٍ بشبكة من القرميد باللونين

الأحمر والأسود. أدرجت مادلين رقماً سريّاً جديداً لفتح الباب الكبير المصنوع بالكامل من الفولاذ والمزيّن بعبارة مشغولة بالحديد: Cursum Perficio[1].

ما أن ولجت إلى المدخل، حدث أمرٌ ما: نوعٌ من الإعجاب ليس بعيداً كثيراً عن الحبّ من النظرة الأولى. انبهارٌ لامَسها من القلب. من أين يأتيها الإحساس بأنّها في بيتها؟ هذا الشعور بالانسجام الذي لا يمكن تعريفه؟ أهو من تصميم الأحجام؟ أهو من الانعكاس الأمغر للنور الطبيعي؟ أهو من التناقض مع الفوضى السائدة في الخارج؟

كانت مادلين دائماً حسّاسة حيال داخل البيوت. لزمنٍ طويل، كان ذلك جزءاً من مهنتها: استنطاق المكان. لكن الأمكنة التي كانت تعمل عليها آنذاك كانت تمتلك خصوصية أنّها عبارة عن مسارح للجريمة...

وضعت حقيبتها في ركنٍ من القاعة وأخذت وقتها في التجوّل في كلّ الغرف. كان المنزل المكتوب على بابه عبارة Cursum Perficio عبارة عن منزل-مرسم من عشرينيات القرن العشرين تمّ ترميمه بطريقة ممتازة ويمتد على ثلاث جهاتٍ حول فناءٍ مخضوضر.

في الطابق الأرضي، يؤدي مطبخٌ إلى قاعة طعامٍ وصالةٍ واسعة خالية من الأثاث. عند النزول عبر سلّمٍ خشبي، نصل إلى حديقة فيها غرفتان تطلّان على نافورةٍ محاطةٍ بنباتات متعرّشة. أمّا الطابق الأوّل، فكان بالكامل عبارة عن مرسمٍ واسعٍ وغرفة وحمّامٍ.

ظلّت مادلين، مسحورة بالمكان، لعدّة دقائق في المرسم

---

(1) عبارة لاتينية تعني «هنا ينتهي طريقي».

منبهرةً بالنوافذ العالية المنجورة على ارتفاعٍ يزيد على أربعة أمتار وتنفتح على السماء وقمم الأشجار. وكانت قد قرأت في الشرح المقدّم من قبل الشركة المؤجِّرة أنّ ملكية البيت كانت تعود إلى الرسام شون لورينز. في الواقع بدا أنّ الفنّان كان قد ترك المرسم مع أرضيته المليئة ببقع لونية فاقعة، ومساند لوحاته وإطارات بأحجام مختلفة، وأقمشة لوحاته المرتّبة في صناديق. وكانت علب الألوان، وفراشي الطلاء، وفراشي الرسم، وعبوات الطلاء متناثرة في كلّ مكان.

عانت صعوبة في مغادرة المرسم، حيث أبهجها وأثارها السير وسط حميمية الرسم والفنّ. لدى عودتها إلى الصالون، فتحت الباب المزجّج المؤدّي إلى الشرفة. هناك، اجتاحتها الروائح المُنعشة للأزهار المتصاعدة من الفناء، وتأمّلت، مبتسمةً، طائرَي أبو حنّاء كانا يقفزان بمرحٍ قرب مزودٍ مثبّتٍ على الجدار. كانت تشعر بنفسها في الريف لا في مدينة باريس! وهذا ما ستقوم به: ستستحمّ ومن ثمّ تجلس في الشرفة مع كوبٍ من الشاي وكتابٍ رائع!

أعاد هذا البيت البسمة إليها. كانت محقّة في اتّباع فطرتها والمجيء إلى هذا المكان. كانت باريس فعلاً المدينة التي يمكن أن يحدث فيها أيّ شيء.

.5

قفز غاسبار، لاعناً المطر، من رصيفٍ إلى آخر، وهو يحمي رأسه بسترته وتكاد حقيبته أن تمزّق كتفه. انطلق من ساحة دنفير، وسار مسرعاً حتى وصل إلى محطّة مترو إدغار-كينيه، دون توقّف. حينما سار في شارع دولامبر، وجد نفسه على الأرض التي يعرفها،

إذ كانت كارن قد استأجرت له قبل عامين شقّة في زاوية ساحة دولامبر. كان يتذكّر الشارع جيّداً حيث المدرسة الصغيرة، وفندق لونوكس، ومتجر **الحديقة العجيبة** بواجهته المغطاة بالزهور، وكذلك المطاعم التي كان في بعض الأحيان يتناول فيها وجباته مثل سوشي غوزن وبيسترو دي دوم.

توقّف المطر أخيراً، حينما وصل إلى جادّة مونبارناس. استغلّ غاسبار ذلك ليرتدي سترته ويمسح نظّارته. تصاعد صخبٌ حادّ ومشوّش من الشارع. أصوات مفرقعات، وأبواق الضباب، وصفّارات الإنذار من السيّارات، وهتافات مناهضة للحكومة. كان الشارع يضجّ بالمتظاهرين، وينتظر موكبٌ منظّمٌ الانطلاق في شارع رين. تعرّف غاسبار على أصحاب السترات الصفراء الفاقعة والأثواب المنزوعة الأكمام الحمراء من أعضاء الكونفدرالية العامّة للشغل CGT، المتجمّعين حول بالون منطادٍ وجهاز بثّ صوتي يثير حميّة حشدٍ يتحرّك في الشارع بلا هديّ.

غاص الكاتب المسرحي بين موجة الأعلام واللافتات لكي يصل بشقّ الأنفس إلى جادّة راسباي. بعد أن ارتاح لاستعادته بعض الهدوء، التقط أنفاسه مستنداً إلى عمود إنارة. هنا، وهو ينضح بالعرق، أخرج من جيبه الورقة التي كانت كارن قد أرسلتها له وقرأ مرّة أخرى عنوان البيت والتعليمات للوصول إليه. استأنف السير في طريقه بينما كانت أشعّة خفيفة من الشمس تنعكس على الرصيف.

في زاوية شارع شيرش-ميدي، عدّلت واجهة متجرٍ للنبيذ مزاجه وأفرحه. **الأحمر والأسود**. تأكّد من أنّ المتجر خالٍ من الزبائن قبل أن يدخل إليه. وهو يعلم تماماً ما يريده، أجرى حديثاً مختصراً مع مالك المتجر، وغادر بعد عشر دقائق، محمّلاً بصندوقٍ من زجاجات

النبيذ الفاخر: جيفري- شامبرتان، شامبول-موسينيي، سانت-إيستيف، مارغو، سان-جوليان...

الكحول...

حينما شاهد انعكاس صورته على زجاج الواجهات، فكّر لبرهةٍ في المشهد المرعب في بداية فيلم **مغادرة لاس فيغاس**، حينما تتوقّف الشخصية التي يؤدّيها نيكولاس كيج في متجرٍ للمشروبات الكحولية لكي يملأ عربةً صغيرة في المتجر بعشرات زجاجات الخمر. محطّة توقّف تمهيداً لنزولٍ انتحاريٍّ إلى العالم السفلي.

بالتأكيد، لم يكن غاسبار قد وصل إلى تلك الحالة، لكنّ الكحول كان جزءاً من حياته اليومية. وإذا كان يشرب لوحده في معظم الأحيان، كان يحدث له أحياناً أن يُفرط في الشراب في بعض المناسبات في خمّارات كولومبيا فالس أو وايت فيش أو سيفنوس. حالات إفراط في الشرب حتى الثمالة مع صبيان أفظاظ غير مُبالين بأمثال بروغل، أو شوبنهاور، أو ميلان كونديرا، أو هارولد بنتر.

كان ذلك العامل المساعد الأنسب لترميم خطوط الصدع في حياته وجعلها أقلّ مأسويةً والشريك الذي يساعده في اختلاس بعض لحظات الطيش واللامبالاة من الحياة. كان الكحول، الصديق تارةً والعدو تارة أخرى، هو الدرع الذي يجعل العواطف في مأمنٍ وتحت السيطرة، والزرد الذي يحميه من القلق والملل والمنوّم الأفضل والأكثر نجاعةً. تذكّر عبارة همنغواي: «يضطر الرجل الذكي للشرب أحياناً لقضاء بعض الوقت بين الحمقى». نعم، هذه هي الحقيقة. لا يحلّ الكحول أساساً أيّ مشكلة، ولكنّه يوفّر وسيلة قصيرة الأمد لتحمّل التحالف الواسع لقلّة الذكاء والنزعة السطحية الذي يرى بأنّه قد لوّث الإنسانية.

كان غاسبار واضحاً وكان يدرك أنّه ليس من المستحيل أن ينتصر الكحول عليه في النهاية، بل وكانت لديه فكرة واضحة عن الطريقة التي يمكن أن يحدث بها ذلك: سيأتي يوم تبدو الحياة فيه لا تُحتَمَل لدرجة لا يعود بوسعه أن يواجهها من دون أن يكون ثملاً. عبرت ذهنه صورة جثّته وهي تغوص في هاوية عالم الإدمان على الكحول. سارع إلى طرد هذا الكابوس من ذهنه ورأى أنّه قد وصل إلى أمام بوابّة مغطّاة بطبقة من الدهان الأزرق البروسي.

حملَ غاسبار صندوق النبيذ تحت أحد إبطيه وأدرج الأرقام الأربعة في لوحة المفاتيح التي كانت تحمي مدخل زقاق جان-هيبوترن. ما أن دخل إلى الزقاق الضيّق، استرخى شيءٌ ما في داخله وأحسّ بالارتياح. ظلّ لبرهةٍ طويلة مذهولاً لاكتشاف الخضرة والطابع الريفي، شبه البالي، للممرّ المشجر. هنا يعطي الوقت الانطباع بأنّه ينقضي على نحوٍ أكثر بطئاً ممّا هو في أماكن الأخرى، كما لو أنّ نطاقاً زمنياً موازياً يعبر المكان. كان قطّان وديعان يتمطّيان تحت أشعّة الشمس وكانت عصافيرٌ تزقزق بين أغصان أشجار الكرز. فجأةً بدا أنّ الفوضى السائدة في الخارج قد أصبحت بعيدة جدّاً، وكان من الصعب على غاسبار التصديق بأنّه على بُعد بضع مئاتٍ من الأمتار فقط من برج مونبارناس الرهيب.

سار لبضع خطواتٍ على البلاطات المرصوفة عشوائياً. في العمق قليلاً، وسط الأشجار، لاحت بيوت صغيرة مبنية من أحجار الصوان وجدرانها مصقولة. خلف بواباتها الصدئة، كانت واجهاتها المائلة للون البرتقالي مختفية تقريباً تحت اللبلاب ودوالي العنب. وأخيراً، في نهاية الممرّ، كان ينتصب بناءٌ ذو أشكالٍ هندسية.

كان شكلٌ مكعّب من الإسمنت المسلّح محاطٌ بشريطٍ واسعٍ من

الزجاج البرّاق يسير على طول واجهة من القرميد الأسود والأحمر على شكل مربّعات منسّقة.

كانت تعلو الباب عبارة منقوشة بالحديد المشغول: «Cursum Perficio»، اسم البيت الأخير لمارلين مونرو. طلبت لوحة المفاتيح إدراج رقمٍ سريّ جديد. اتّبع غاسبار تعليمات كارن وانفتح الباب الفولاذي بنقرة خفيفة. اجتاز غاسبار، متلهّفاً لاكتشاف الداخل، بهو المدخل ليصل مباشرة إلى الصالون. لم يكن بالجمال نفسه الذي بدا عليه في الصور، بل كان أفضل وأجمل. كان المنزل ينتظم بطريقة أنيقة وبارعة حول فناءٍ مستطيل الشكل مزيّنٍ بشرفة على شكل الحرف «L».

قال وهو يُصدر صفيراً من بين أسنانه، منبهراً بأناقة المكان: تبّاً... تلاشى كلّ التوتّر الذي راكمه خلال الأيام الأخيرة. كان هنا في بُعدٍ مختلفٍ تماماً هو عبارة عن جوٍّ عائليّ ومريحٍ في آنٍ واحد. جوٌّ مهني ومضياف ونظيف. حاول لبرهة أن يحلّل مصدر هذا الشعور، ولكن لم تكن لا العمارة ولا انسجام الأبعاد قواعدَ يعرف أصولها.

في الحالة العادية، لم يكن حسّاساً حيال داخل البيوت. كان حسّاساً حيال المناظر الطبيعية: مثل انعكاس الجبال المغطاة بالثلوج على سطح مياه البحيرات، والبياض المائل للزرقة للأنهار الجليدية، والمساحات الشاسعة المبهجة لغابات الصنوبر. لم يكن يؤمن بهذا الهراء حول فلسفة الفنغ شوي(*) وتأثير الأثاث على حركة الطاقة في

(*) Feng Shui: فلسفة صينية، وهي فن التناغم مع الفضاء المحيط وتدفقات الطاقة من خلال البيئة والتصالح مع النفس ومع الطبيعة المحيطة بالإنسان ليتعايش بشكلٍ إيجابي من دون توتر. -المترجم-

غرفةٍ، ولكن ينبغي التسجيل أنّه أحسّ هنا، عدا «الطاقة الإيجابية»، على الأقل بالثقة بأنّه سيكون على ما يُرام، وسيعمل في المكان بمتعة وسرور.

فتح الباب الزجاجي وخرج إلى الشرفة واستند إلى الدرابزين، مستمتعاً بعمق بزقزقة العصافير وبهذا الجوّ الريفي الذي أمتعه. هبّت الرياح، ولكنّ الجوّ كان لطيفاً وغمرت أشعّة الشمس وجهه. للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، ابتسم غاسبار. كان سيفتح زجاجة من نبيذ جيفري-شامبرتان احتفاءً بوصوله، وسيسكب لنفسه كأساً ليتلذّذ بشربها بهدوء وهو...

انتزعه ضجيجٌ من غبطته. كان هناك أحدٌ ما في البيت. ربّما تكون مدبّرة منزل أو عامل صيانة. التفت إلى الداخل ليتأكّد من ذلك.

وهنا، رأى امرأة تقف أمامه. كانت عارية تماماً باستثناء منشفة تحيط بصدرها وتنزل حتى فخذيها.

سأل:

- من أنتِ؟ وماذا تفعلين في بيتي؟

نظرت إليه بغضب، ثمّ ردّت:

- هذا هو بالضبط السؤال الذي كنتُ سأطرحه عليك.

2

نظرية الـ 21 غراماً

إنّ جزءاً مما يُجذبنا عند الفنانين هو غيريّتهم ورفضهم للامتثالية وإصبعهم الوسطى المرفوعة في وجه المجتمع.

جيسي كيلرمان

.1

- لأكون صادقاً، لستُ متأكّداً من أنني فهمتُ جيّداً ما تلومينني عليه، يا آنسة غرين.

كان برنار بينيديك، بشعره الغزير الذي غزاه الشيب وجذعه المنتفخ، يعطي الانطباع بأنّه يشدّد الحراسة أمام لوحة كبيرة أحادية اللون معروضة في عمق صالة العرض خاصّته في شارع فوبورغ-سان-هونوريه. كما لو أنّه فقد حديثاً شيئاً من وزنه، كان قميصه ذو الياقة الصينية وسترته الخضراء بلون الشيح فضفاضَين عليه. وكانت نظّارة كبيرة من تصميم لو كوربوزييه تغطي أعلى وجهه، ولكنّها تُظهر عينيه الواسعتين ونظرته الحيوية والمتألّقة.

ردّت مادلين بنبرة أعلى:

- كان إعلان الموقع مضلِّلاً. لم يذكر قطّ أنّ السكن مشترك.

هزّ مالك صالة العرض رأسه. وقال مؤكّداً:

- بيت شون لورينز ليس معروضاً لسكنٍ مشترك.

قالت مادلين غاضبة، وهي تعرض عليه أوراقاً مطبوعة، كانت عبارة عن عقد الإيجار خاصّتها وكذلك العقد المطابق تماماً والعائد للمدعو غاسبار كوتانس والذي وجدت نفسها وجهاً لوجه معه حينما خرجت من الحمّام قبل ساعة:

- انظر بنفسك.

أمسك مالك صالة العرض بالأوراق وتصفّحها بهيئة مَن لم يفهم شيئاً منها.

انتهى به الأمر أن اعترف وهو يفرك نظّارته:

- في الحقيقة يبدو أنّ هناك خطأ ما. يتعلّق الأمر بخللٍ في النظام المعلوماتي، لكن حتى أكون صادقاً، لا معلومات مهمّة لديّ عن كلّ هذه المشكلة. إنّها ناديا، إحدى المتدربات لدينا، هي التي تكفّلت بنشر الإعلان على الموقع. كنتُ سأحاول التواصل معها، لكنّها غادرت صباح اليوم إلى شيكاغو لقضاء العطلة و...

قاطعته مادلين:

- لقد أرسلتُ رسالة إلكترونية إلى الموقع ولم يحلّ ذلك مشكلتي. الرجل الموجود الآن في البيت قادمٌ من الولايات المتّحدة وليست لديه النيّة في المغادرة.

اكفهرّ وجه مالك صالة العرض. همهم غاضباً من نفسه:

- ما كان عليّ أن أؤجّر هذا البيت! يواصل لورينز إفساد حياتي حتّى وهو في قبره!

تنهّد منزعجاً، ثمّ قال بنبرة قاطعة:

- أتعرفين ماذا؟ سوف أعوّضكِ.

- لا أريد نقوداً. أريد تنفيذ ما اتّفقنا عليه: أن أسكن في البيت، **لوحدي**.

شدّدت مادلين على هذه الكلمات وهي تشعر أنّ هذه القناعة غير المنطقية بأنّ **عليها** أن تسكن هذا المكان تهتزّ في داخلها.

- في هذه الحالة سوف أعوّض السيّد كوتانس هذا. هل تريدين أن أتّصل به؟

- سوف لن تصدّقني، لكنّه لا يحمل هاتفاً.

- انقلي إليه، إذاً، مقترحي.

- لم ألتقِ به سوى لخمس دقائق، لا يبدو التعامل معه سهلاً.

ردّ بينيديك وهو يقدّم لها بطاقة زيارة:

- أنتِ أيضاً، لا تبدين متساهلة. اتّصلي بي بعد أن تتكلّمي معه. وإذا أردتِ أن تقومي بجولةٍ في صالة العرض، سوف يتيح لي ذلك الوقت لكي أكتب له كلمة قصيرة، وأعتذر منه، وأقترح عليه أن أقوم بتعويضه.

دسّت مادلين البطاقة المستطيلة في جيب سروالها الجينز، وعادت على أعقابها دون أن تشكر محدّثها، متشكّكة في تأثير كلمة مالك صالة العرض على كوتانس هذا، الذي يبدو واضحاً أنّه دبٌّ عدواني وعنيد.

حان وقت الغداء. ولأنّه لم يكن هناك ازدحامٌ في صالة العرض، حظيت مادلين بالوقت الكافي لإلقاء نظرةٍ على اللوحات المعروضة. كان المعرض متختصّصاً بفنّ الشارع(*) والفن الحديث.

(*) مصطلح يُطلق تحديداً على أشكال الفنون البصرية التي تمّ إنشاؤها في الأماكن العامة كفنّ الملصقات والنحت والرسم على الجدران. -المترجم-

لم يكن معروضاً في القاعة الأولى سوى لوحات من قياسٍ كبير كانت كلّها بالعنوان نفسه: **بلا عنوان**. كانت عبارة عن لوحات أحادية اللون وأوجه مستوية ذات ألوانٍ قاتمة، تتخلّلها ضربات مشرطٍ ومختَرَقة بمسامير صدئة. أمّا القاعة الثانية، فكانت على نقيض الأولى تفيض بالألوان الفاقعة والحيوية. وكانت اللوحات المعروضة تقع على حدود الجرافيتي وفنّ الخطّ الآسيوي. نظرت مادلين إليها باهتمام، ولكن من دون تأثّر.

لم يكن هذا النوع من اللوحات يستهويها، والحقيقة أنّها لم تكن مولعة أبداً بالفنّ الحديث. كانت قد قرأت ككلّ الناس مقالاتٍ وشاهدت تقارير تلفزيونية عن نجاح فنانين نجوم -الجمجمة التي صمّمها الفنّان البريطاني داميان هيرست من الألماس وحيواناته المجمّدة في المحلول وأشكال الكركند للفنان الأميركي جيف كونز التي أثارت جدلاً في قصر فيرساي والرسومات الاستفزازية لفنان الجرافيتي الإنجليزي بانكسي وشجرة التنّوب على شكل لعبة جنسية للفنان بول مكارثي والتي تمّ تخريبها في ساحة فاندوم-، لكنّها لم تكن قد امتلكت بعد المفتاح الذي يتيح لها الدخول إلى هذا العالم. دخلت مرتابة إلى الصالة الأخيرة التي كانت تعرض لوحاتٍ متنوّعة. قالت في نفسها إنّ هذا هراء في الحقيقة، وهي تتوقّف رغماً عنها إلى حدٍّ ما أمام سلسلة من المنحوتات القابلة للنفخ بألوانٍ محمّضة وعلى شكل أعضاء ذكرية، ثمّ أمام بعض شخصيات أفلام كرتون المانجا الشهيرة في نسخة إباحية مسبوكة في مادة صمغية لزجة ورديّة اللون. استمر العرض مع هيكلين عظميين كبيرين جامدين في وضعية مثيرة، وتماثيل منحوتة من مكعّبات الليغو، وتمثالٍ خيالي من الرخام الأبيض عبارة عن رأس وجذع عارضة الأزياء كايت موس وجسم

أسد. أبعد من ذلك الموقع، وفي عمق الصالة، عُرِضَت مجموعة من الأسلحة -بنادق من طُرُز مختلفة- مصنوعة من مواد مسترجعة مثل علب السردين ومصابيح تالفة وأواني المطبخ المعدنية والخشبية التي تمّ تجميعها بوساطة أسلاك معدنية وأشرطة لاصقة وقطعٍ من الخيوط.

- هل أحببتِ المعروضات؟

جفلت مادلين وهي تلتفت إليه، إذ لم تنتبه لوصول برنار بينيديك لأنّها كانت مستغرقة في تأمّل الأعمال الفنية المعروضة.

- لم أفهم شيئاً منها، ولكن هذا النوع من الفنّ لا يستهويني بداهةً.

سأل مالك صالة العرض وهو يقدّم لها مغلّفاً دسّته في جيب سروالها الجينز:

- وما هو «النوع» الذي يستهويكِ؟

- أعمال ماتيس، وبرانكوشي، ونيكولا دو ستايل، وجياكوميتي...

ابتسم وهو يشير على نحوٍ خاصّ إلى الغابة المتعددة الألوان للأعضاء الذكرية:

- أعترف لكِ بكلّ طيبة خاطر أنّنا هنا لسنا بالمستوى نفسه لهذه العبقريات. سوف تضحكين، ولكن هذه هي البضاعة التي أبيعها، أفضل المبيعات في الوقت الراهن.

عبست مادلين، مُظهِرةً ارتيابها.

- هل لديكم بعض أعمال شون لورينز هنا؟

اكفهرّ وجه بينيديك الذي كان مبتهجاً إلى تلك اللحظة التي طرحت مادلين فيها السؤال.

- كلّا للأسف. كان لورينز فناناً مقلّاً في الرسم. يكاد يكون من المتعذّر العثور على أعماله وهي تساوي ثروات هائلة.

- متى مات بالضبط؟

- قبل عامٍ من الآن. كان بالكاد قد بلغ تسعة وأربعين عاماً.

- كان صغيراً على الموت.

وافقها بينيديك الرأي:

- كانت صحّة شون دائماً معتلّة. كان يعاني من مشاكل في القلب منذ زمنٍ طويل، وسبق له أن خضع لعدّة عمليات في القلب.

- هل كنتَ العارض الحصري لأعماله؟

عبس الرجل بحزن:

- كنتُ العارض الأوّل لأعماله، لكنني كنتُ أيضاً صديقه، حتى وإن كنّا نتشاجر غالباً.

- لوحات لورينز تشبه أعمال مَنْ؟

صرخ الرجل:

- لا تشبه أعمال أحد! لورينز هو لورينز!

ألحّت عليه مادلين:

- ومع ذلك؟

قال بينيديك بحيوية:

- كان شون فنّاناً يتعذّر تصنيفه. لم يكن ينتمي إلى أيّ مدرسة، ولم يكن حبيس أيّ معبد. إذا كنتِ تبحثين عن شبيهٍ له في السينما، لنقل إننا نستطيع أن نقارنه مع المخرج السينمائي ستانلي كوبريك: فنانٌ قادر على خلق تحف وروائع فنية في أنواع مختلفة جدّاً.

هزّت مادلين رأسها. كان عليها أن تغادر لتذهب وتحلّ هذه المشكلة مع شريكها في الإيجار غير المرغوب فيه، لكنّ شيئاً ما

استبقاها هنا؛ لقد رأت في اكتشاف دار الرسّام لقاءً أرادت أن تعرف عنه المزيد.

- هل أنت مالك مرسم لورينز اليوم؟

- لنقل إنني أحاول حمايته من دائني شون. أنا وريثه ومنفّذ وصيته.

- دائنوه؟ لقد قلتَ إنّ أثمان أعمال لورينز كانت باهظة.

- هذا صحيح، لكنّ طلاقه من زوجته كلّفه غالياً جدّاً، وتوقّف عن الرسم منذ عدّة سنوات.

- لماذا؟

- بسبب مرضه ومشاكله الشخصية.

- أيّة مشاكل؟

قال بينيديك، منزعجاً من كثرة أسئلتها:

- هل أنتِ من الشرطة؟

أجابت مادلين مبتسمةً:

- نعم، بالضبط.

سأل بينيديك، باندهاش:

- ومعنى ذلك؟

شرحت المرأة الشابّة:

- كنتُ شرطية لعدّة سنوات في وحدة مكافحة الجريمة في مانشستر ومن ثمّ في نيويورك.

- في ماذا كنتِ تحققين؟

هزّت كتفيها، ثمّ قالت:

- في جرائم القتل والاختطاف...

قلّص بينيديك عينيه كما لو أنّ فكرة عبرت ذهنه. نظر إلى ساعة

يده، ثمّ أشار عبر الواجهة الزجاجية إلى المطعم الإيطالي على الجانب الآخر من الشارع والذي كانت واجهته السوداء ومصابيحه الذهبية اللون تجعله يشبه أشرعة سفينة للقراصنة.

سألها:

- هل تحبّين **السالتمبوكا**؟ لدي موعدٌ بعد ساعة من الآن، ولكن إذا أردتِ أن تعرفي المزيد عن شون، أدعوكِ إلى الغداء.

.2

هزّت نسمة فاترة أغصان شجرة زيزفون معمّرة، مغروسة وسط الباحة الداخلية. جالساً على طاولة الشرفة، رشف غاسبار كوتانس بتلذّذ رشفة من النبيذ. كان النبيذ من نوع جيفري-شامبرتان لذيذاً: كان متماسكاً ومكثّفاً وسلساً ولطيفاً في الفم مع نكهات فاكهة الكرز الأسود والكشمش.

ومع ذلك أفسِدَت متعة التذوّق بسبب عدم اليقين الذي كان يلقي بثقله على استئجار المنزل. قال في نفسه بحنق: **اللعنة، من المستحيل أن أدعَ هذه الفتاة تلغي استئجاري لهذا البيت!** كان يريد أن يكتب نصّه المسرحي في هذا البيت. لم يعُد ذلك حتى مسألة مبدأ وإنّما مسألة ضرورة. فما أن يقع في الغرام من النظرة الأولى، حتى يرفض أن يذرف الدموع في حين هو صاحب الحقّ. ولكنّ مادلين غرين هذه تبدو قوية وصعبة المراس. فقد ألحّت عليه على أن تعيره هاتفها لكي يتمكّن من الاتصال بوكيلته. وعلى الرغم من أنّها لم تكن مسؤولة على نحوٍ مباشر عن الوضع، فقد سارعت إلى الاعتذار منه وعاودت الاتصال به بعد عشر دقائق وأخبرته بأنّها قد حجزت له جناحاً في فندق بريستول بانتظار أن تُحلّ الأمور. لكنّ

غاسبار رفض ذلك رفضاً قاطعاً وأدلى بإنذارٍ: إمّا **هذا البيت** أو لا شيء سواه. فما كان لكارن سوى أن تجد حلّاً للمشكلة أو تنهي تعاملها معه. عموماً، كان يمكن لهكذا نوعٍ من التهديدات أن تحوّل كارن إلى محارِبَة، لكن هذه المرّة كان يخشى ألّا يكون ذلك كافياً.

رشف رشفة جديدة من النبيذ. أمام زقزقة العصافير وعذوبة الهواء وشمس الشتاء التي تبثّ الدفء في القلب، لم يستطِعْ غاسبار أن يمتنع عن الابتسام، طالما هناك شيء كوميدي في هذا الوضع. رجلٍ وامرأة يجدان نفسيهما، بسبب خطأ في النظام المعلوماتي، يستأجران البيت نفسه لقضاء أعياد الميلاد. كان هذا يشبه بدايةَ نصّ مسرحيّ. ليس كالأشياء الذكية والساخرة التي كان يكتبها هو وإنّما شيءٌ أكثر مرحاً وبهجةً. أحد تلك النصوص العائدة للستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، المكتوبة من قبل باريليه وغريدي التي كانت تستهوي والده والتي شكّلت أكبر عروض مسرح أنطوان أو مسرح بوف–باريسيان.

والده. . .

لم يكن يفوته هذا أبداً. كلّما كان غاسبار يأتي إلى باريس، كانت ذكريات طفولته والجمرات التي اعتقد أنّها قد انطفأت تتّقد من جديد. ولكي لا يحترق بنارها، طرد غاسبار هذه الصورة من ذهنه قبل أن تصبح أكثر إيلاماً. كان قد تعلّم بمرور الوقت أنّه من الأفضل أن يُبقي هكذا ذكريات بعيدة عن ذهنه. إنّها مسألة حياة أو موت.

سكب لنفسه بعض النبيذ وأمسك بقدحه وغادر الشرفة ليتجوّل في الصالون. في البداية، انجذب إلى مجموعة الأسطوانات: المئات من أسطوانات الجاز المرتّبة والمصنّفة بترتيب وعناية على رفوفٍ من خشب الجوز الطبيعي. وضع في جهاز بثّ الموسيقى

أسطوانة للعازف بول بلاي الذي لم يكن قد سمع به من قبل، وللحظة استسلم للصوت الرخيم للبيانو وهو يتأمّل في تفاصيل الإطارات المعلّقة على الجدران.

لم تكن هناك رسومات ولا لوحات وإنّما فقط صور عائلية بالأبيض والأسود. رجلٌ وامرأة وطفلٌ صغير. كان الرجل هو شون لورينز. تعرّف إليه غاسبار لأنّه تذكّر أنّه كان قد شاهد صورته الشخصية -التي التقطتها الفنانة الإنجليزية جين باون- في نص النعوة التي ظهرت في صحيفة **لوموند** في شهر ديسمبر المنصرم. كانت النسخة الأصلية للصورة بالقياس الكبير موجودة الآن أمامه: قامة طويلة، وبنية ضخمة، ووجه نحيل كنصل سكين، ونظرة غامضة بدت قلقة وحازمة على نحوٍ متعاقب. لم تكن زوجة لورينز موجودة سوى في صورتين. كانت وضعيتها تشبه وضعيات ستيفاني سايمور أو كريستي تورلينغتون على أغلفة مجلات الموضة قبل خمس وعشرين سنة. وكان جمالها يشبه جمال أعوام التسعينيات من القرن العشرين: أنيقة، ومثيرة، ومتألّقة. كانت نحيلة من دون أن تكون شبيهة بهيكلٍ عظمي، ومتألّقة من دون أن يكون من الصعب الوصول إليها. لكنّ الصور الأكثر عدداً كانت الصور التي تجمع لورينز مع ابنه. ربّما كان الرسّام رجلاً عبوساً، لكنّه حينما كان مع طفله -طفلٌ أشقر ذو وجهٍ جذّاب ونظرة مشعّة-، كان محياه يتغيّر كما لو أنّ بهجة الحياة لدى الصبي تترك أثرها على الأب. كانت آخر صورتين في هذا المعرض العائلي عبارة عن نسختين أكثر مرحاً يظهر فيها لورينز وهو يرسم مع أطفالٍ أعمارهم تتراوح بين خمسة وستّة أعوام، عُرِف من بينهم ابنه في مكانٍ لا بدّ أنّه مدرسة أو دورة لتعليم الرسم مخصّصة لأطفالٍ صغار.

في المكتبة، وسط كتب مجموعة البلياد وطبعات محدودة منشورة من قبل دار تاشن أو أسولين، عثر غاسبار على كتاب دراسة أحادية مخصّص لأعمال لورينز يتألّف من قرابة خمسمئة صفحة ومجلّد على نحوٍ أنيق وفاخر، ويزيد وزنه بكلّ تأكيد على ثلاثة كيلوغرامات. وضع غاسبار قدح النبيذ على الطاولة الصغيرة، وجلس في الأريكة لكي يتصفّح الكتاب. كانت الأمانة تستدعي منه أن يُقرّ بأنّه لم يكن يعرف أعمال لورينز. في مجال فنّ الرسم، كان ذوقه يميل نحو المدرسة الفلامندية والعصر الذهبي الهولندي: فان إيك، بوش، روبنس، فيرمير، رامبرانت... تصفّح المقدّمة المكتوبة والموقّعة من قبل شخصٍ يُدعى برنار بينيديك والذي كان يقدّم تحليلاً عميقاً لأعمال لورينز والوصول إلى أرشيف غير منشور من قبل. أُعجِبَ غاسبار، منذ الكلمات الأولى، بالنبرة الحرّة والمباشرة التي يتّخذها بينيديك لكي يقدّم الخطوط العريضة لسيرة الفنان الذاتية.

كان شون لورينز قد وِلِدَ في نيويورك في أواسط الستينيات من القرن العشرين. كانت أمّه إيلينا لورينز مربيّة، ووالده طبيباً في الجانب الغربي الشمالي من مانهاتن، ولم يعترف ببنوّته. كان الرسّام الابن الوحيد وقد عاش طفولته وفترة مراهقته مع والدته في أبراج بولو غراوند تاورز، وهي عبارة عن مساكن مخفّضة الإيجار لذوي الدخل المحدود، تقع في شمال هارلم. ومع أنّ والدته كانت تعيش تحت وطأة الفاقة، إلّا أنّها حرمت نفسها من كلّ شيء وتحمّلت مشقّة كبيرة لكي ترسل ابنها إلى مدرسة خاصّة بروتستانتية. لكنّ الفتى شون لم يُظهر بأنّه جديرٌ بهذه التضحية الكبيرة من والدته، فبعد أن طُرِد لعدّة مرّات من مدرسته، بدأ ينزلق تدريجياً نحو عالم الجنوح. في نهاية مرحلة مراهقته، بين عمليتي سرقة صغيرتين، بدأ

لورينز بالرسم أو بالأحرى بالخربشة على الجدران وقطارات الأنفاق في مانهاتن وسط مجموعة من فناني الكتابة على الجدران أطلقَت على نفسها تسمية **صنّاع الأسهم النارية**.

تفحّص غاسبار في الصور الملتَقَطة في تلك الفترة والمنشورة ضمن الكتاب. كان شون يبدو فيها في العشرين أو الخامسة والعشرين من عمره -كانت هيئته هيئة فتى، لكنّ وجهه كان متعباً- وكان يرتدي معطفاً أسود اللون فضفاضاً، وقميصاً رياضيّاً مبقّعاً بالدهان، وقبّعة مغنّي راب، وزوجاً بالياً من أحذية كونفيرس. متسلّحاً بعبوات بخّ الألوان، كان يظهر في معظم الصور برفقة اثنين من «الشركاء». فتى من أصول إسبانية نحيل ذو ملامح رقيقة، وفتاة قويّة جدّاً مسترجلة بعض الشيء وترتدي دائماً عصبة الرأس الهندية. إنّهم **صنّاع الأسهم النارية** المشهورون والذين يغطّون برسوماتٍ ناقمة جدران عربات المترو، وأسوار الحدائق والمدارس، والجدران المتداعية. صورٌ غير واضحة تماماً، ومتّسخة ببقعٍ، ملتقَطة في المستودعات والمخازن والأراضي البائرة وأنفاق المترو. صورٌ كانت تستحضر نيويورك المتوحّشة، والمقزّزة، والعنيفة، والمحفِّزة التي عرفها غاسبار حينما كان طالباً.

.3

شرح برنار بينيديك، وهو يلفّ معكرونة السباغيتي حول شوكته:

- كانت الثمانينيات من القرن العشرين العصر الذهبي لفنّ الجرافيتي في نيويورك. لإعادة إحياء المدينة، كان صبيةٌ مثل شون يلطّخون بالرسم كلّ ما يقع تحت أيديهم مثل: الستائر المعدنية

للمخازن، وصناديق الرسائل البريدية، ومكبّات النفايات، وبالطبع عربات المترو.

كانت مادلين، جالسة قبالة مالك صالة العرض، تُصغي إليه بانتباه وهي تأكل ببطء وبكميّات قليلة من طبقها من سلطة الأخطبوط.

بعد أن وضع بينيديك الشوكة والسكين من يديه على الطاولة، أخرج من جيبه هاتفاً ذكيّاً من الحجم الكبير ونبش في تطبيق الصور لكي يختار مجموعة من الصور الخاصّة بالرسّام شون لورينز.

قال وهو يناول مادلين الجهاز:

- انظري إلى هذه الصور.

لامست المرأة الشابّة شاشة هاتف الأيفون لتستعرض الصور المرقّمة العائدة إلى تلك الحقبة.

سألت وهي تشير إلى العلامة المصمّمة بأحرفٍ محدّبة وأرقامٍ الموجودة على الكثير من الصور:

- ماذا يعني **لورز74** (Lorz74)؟

- كان هذا الاسم المستعار لشون. إنّه من السائد أن يربط فنّانو الجرافيتي بين اسمهم ورقم شارعهم.

- والشخصان الآخران بجانب لورينز، مَنْ يكونان؟

- شابّان من حيّه، كان يتسكّع معهما حينذاك، وكانت مجموعتهم تُدعى **صنّاع الأسهم النارية**. كان الفتى ذو الملامح اللاتينية يوقّع رسوماته بالاسم المستعار **نايت شيفت** (NightShift)، لكنّه اختفى سريعاً عن الساحة. أمّا الفتاة التي تشبه جرّافة فأمرها مختلف، فهي فنّانة موهوبةٌ جدّاً عُرِفت باسم **ليدي بيرد**

(LadyBird). وهي واحدة من النساء النادرات في عالم فنّ الجرافيتي.

واصلت مادلين مشاهدة العشرات من الصور المخزّنة من قبل بينيديك. كانت نيويورك حقبة الثمانينيات والتسعينيات تشبه قليلاً المدينة التي كانت قد عرفتها. تتكشّف عن مدينة-غابة قاسية بأحياءٍ تحت قبضة العصابات، وأناس دمّرت المخدّرات حياتهم. وفي مقابل هذا البؤس، كانت الألوان الفاقعة للجرافيتي تنفجر مثل ألعابٍ نارية. كانت غالبية رسومات لورينز عبارة عن أحرف ضخمة وملوّنة، مكوّرة مثل بالونات منفوخة بغاز الهيليوم والتي تتداخل وتتشابك على طريقة جرافيتي وايلدستايل (Wildstyle) الشهيرة. فكّرت مادلين في جدران مدينة مانشستر التي أمضت فيها فترة مراهقتها. أثارت تلك الأبجدية المتشابكة مثل متاهة والشبكة المتداخلة على نحوٍ فوضويّ من الأسهم وإشارات التعجّب على تلك الجدران ذكريات متناقضة في داخلها. فإذا كانت قد امتعضت من الجانب الفوضوي والمنتهك للقواعد، إلّا أنّها اضطرّت للاعتراف بأنّ هذه الجداريات الحيوية قد امتلكت على الأقلّ ميزة مكافحة تعاسة وكآبة الإسمنت.

استأنف مالك صالة العرض حديثه:

- إذا أوجزت الكلام، كان شون في بداية التسعينيات جانحاً صغيراً يتسكّع مع عصابته وهو يحرق دماغه بالهيروين، وكان أيضاً فناناً موهوباً في فنّ الجرافيتي ويُجيد تقنيته وقادراً على أن يفعل أموراً مهمّة...

قالت مادلين، مخمّنة:

- ... لكن لا شيء لافت في أعماله.

- إلّا أنّ كلّ شيء سوف يتغيّر بدءاً من صيف عام 1992.

- ماذا حدث؟

- في صيف ذلك العام، التقى شون لورينز في محطة غراند سانترال فتاة فرنسية في الثامنة عشر من عمرها ووقع في حبّها بجنون. كان اسمها بينيلوب كوركوفسكي. والدتها كورسيكية ووالدها بولوني. كانت تعمل في نيويورك بصفة فتاة مستفيدة من الإيواء والإطعام مقابل الخدمة في المنزل، ولكن بالتوازي مع ذلك، كانت تتمرّن في محاولةٍ منها لتصبح عارضة أزياء.

توقّف مالك صالة العرض لبرهةٍ، وصبّ لنفسه كوباً من المياه الغازية، ثمّ واصل حديثه:

- لجذب انتباه بينيلوب، راح شون يرسم على جميع أنفاق المترو في نيويورك. خلال شهرين من الزمن، رسم عدداً هائلاً من الجداريات التي تصوّر فتاة أحلامه.

التقط هاتفه من جديد ليبحث فيه عن صورٍ أخرى، وهو يواصل شرحه:

- لورينز ليس الرسّام الأوّل الذي يعلن عن حبّه من خلال رسوماته -فعل كورنبريد وجونون ذلك قبله-، لكنّه كان الوحيد الذي ترجم حبّه بهذه الطريقة.

لمّا وجد ما كان يبحث عنه، وضع هاتف الأيفون على الطاولة ودفعه باتجاه مادلين.

قرّبت المرأة الشابّة وجهها من شاشة الهاتف. ما وجدته على الشاشة جعلها تقف مشدوهة فاغرة الفاه. كانت الرسومات شبيه بقصيدة غنائية تطفح بالجمال الأنثوي والمتعة والشهوانية. إذا كانت الجداريات الأولى مهذّبة وتكاد تكون رومانسية، فكانت التي تلتها تصبح أكثر فسقاً وفجوراً بكثير. كانت بينيلوب تبدو فيها امرأةً

ممشوقة، فضائية ومائية في آنٍ واحدٍ، تمتدّ من عربة إلى أخرى. كان وجهها المزيّن بأوراق الشجر والورد وأزهار الزنبق محاطاً بشعرٍ متناثرٍ يموج ويتلوّى ويتشابك ليشكّل زخارف أنيقة ومخيفة في آنٍ واحد.

.4

لم يستطِعْ غاسبار كوتانس، وهو يفتح الكتاب على ركبتيه، أن يشيح ببصره عن صور عربات المترو التي رسم عليها شون لورينز في شهرَي يوليو وأغسطس من سنة 1992. كانت هذه الجداريات مبهرة ولم يسبق له قطّ أن رأى مثلها. أو بالأحرى، أجل لقد سبق له أن رأى ما يشبهها: كانت تذكّره بلوحة **المرأة-الزهرة** لبيكاسو وكذلك ببعض اللوحات الإعلانية للأفلام السينمائية لألفونس موخا، ولكنّ بنسخة إباحيّة. مَن هي هذه الفتاة التي يتوهّج جسدها كما لو أنّه مغطّى بأوراقٍ ذهبية؟ كانت زوجة لورينز تدلّه بالطبع على الأسطورة. بينيلوب هذه التي سبق وأن رآها في الصور العائلية بالأسود والأبيض. امرأة يكتنفها الغموض، تارة تكون مضيافة وأخرى تكون سامّة. مخلوقة بساقين طويلتين لا نهاية لهما وببشرة مرمرية وشعرٍ بلون الصدأ. قلّب غاسبار، مسحوراً، صفحات السيرة الذاتية ليكتشف جداريات أخرى فيها شبقٌ مقلق. في بعض الرسومات، كان شعر بينيلوب يشبه العشرات من الثعابين التي تتلوّى على طول كتفيها وتلتفّ حول نهديها وتلعق ردفيها. وكان وجهها المغطّى بهالة من ضوءٍ مريب أو المغمور بمطرٍ ذهبيّ يتقلّص وينكمش بفعل اللذّة. وكان جسدها يتمطّى ويتلوّى ويدوّم ويلتهب. . .

.5

شرح بينيديك:

- مع هذا الحبّ العاصف، حطّم لورينز القواعد والأصول وتحرّر من القوانين الصارمة لفنّ الجرافيتي لينتقل إلى بُعدٍ آخر ويُدرج عمله ضمن استمرارية الرسامين من أمثال غوستاف كليمت أو أميديو موديغلياني.

منبهرة بالرسومات، استعرضت مادلين مرّة أخرى الجدران الزاهية لعربات المترو.

- وهل اختفت كلّ هذه الأعمال اليوم؟

أفرج مالك صالة العرض ابتسامة نصف مرحة ونصف حزينة.

- نعم، لم تدُم سوى لصيفٍ واحد. إنّ سرعة الزوال هو جوهر فنّ الشارع، وهذا سرّ جماله أيضاً.

- مَنْ التقط كلّ هذه الصور؟

- **ليدي بيرد** الشهيرة. هي مَنْ كانت تهتمّ بأرشيف **صنّاع الأسهم النارية**.

- بالنسبة إلى لورينز، كان من الخطر الانخراط في مشروعٍ كهذا، أليس كذلك؟

أقرّ بينيديك بذلك:

- في بداية التسعينيات، دخلت مدينة نيويورك مرحلة اللاتسامح. كانت قوّات حفظ النظام تحظى بترسانة تشريعية رادعة جدّاً وكانت سلطة وسائط النقل العامّة في المدينة قد أطلقت حملة مطاردة حقيقية ضدّ فناني الجرافيتي. كانت المحاكم تُصدر أحكاماً قاسية ضدّهم، لكنّ الخطر المحدق كان يهدّد أيضاً الحبّ الذي كان شون يكنّه لبينيلوب.

- كيف كان يتصرّف، فعلياً؟

- كان شون ماكراً. لقد روى لي بأنّه كان يملك زيّاً رسميّاً للعمل لكي ينسلّ وسط فرق المراقبة في المترو ويستطيع الوصول إلى المحطّات التي تتوقّف القطارات فيها.

كانت لا تزال عينا مادلين مثبّتتين على شاشة الهاتف الذكيّ. كانت تفكّر في هذه المرأة التي تُدعى بينيلوب. تُرى ما الذي أحسّت به حينما رأت صورتها المشعّة والمثيرة وهي تغمر مانهاتن بهذه الطريقة؟ هل أحسّت بالإطراء أم بالحرج والخزي أم بالإهانة؟

سألت:

- هل بلغ لورينز أهدافه وحقّق غاياته؟

- تريدين أن تعرفي إن كانت بينيلوب قد نامت في سريره؟

- لم أشأ أن أصيغ الأمر بهذه الطريقة، ولكن... نعم.

طلب بينيديك فنجانين من القهوة بإشارةٍ من يده قبل أن يشرح:

- في البداية، تجاهلت بينيلوب شون، ولكن من الصعب أن تتجاهل امرأةٌ لزمنٍ طويل رجلاً يعشقها ويقدّسها بهذه الطريقة. انتهى بها الأمر بعد بضعة أيام بالوقوع تحت سحره. أحبّا بعضهما بجنون في ذلك الصيف. ثمّ في شهر أكتوبر، عادت بينيلوب إلى فرنسا.

- كانت مجرّد قصّة حبّ قصيرة في فترة العطلة، إذاً؟

هزّ مالك صالة العرض رأسه نافياً:

- بالعكس، لقد أحبّ شون هذه الفتاة بكلّ جوارحه إلى درجة أنّه التحق بها في شهر ديسمبر من السنة نفسها، وأقام معها في باريس في شقّة صغيرة من غرفتين في شارع الشهداء. وواصل شون الرسم هناك ليس فقط على قطارات المترو وإنّما على الجدران وعلى

أسوار الأراضي البائرة في حي ستالينغراد في باريس وضاحية سين-سان-دوني.

من جديد، ألقت مادلين نظرة على صور الجداريات لتلك الحقبة. كانت لا تزال تحتفظ بالألوان المتوهّجة والفاقعة نفسها التي تضفي عليها حيوية تجعلها تشبه جداريات أميركا الجنوبية.

أكّد بينيديك، وهو زائغ البصر:

- في هذه الفترة، في عام 1993، التقيتُ شون للمرّة الأولى. كان يرسم في مرسمٍ صغير في المستشفى العابر.

- المستشفى العابر؟

- إنّه مكان للإيواء في الدائرة الثامنة عشر في مبنى مستشفى بريتونو السابق. في بداية التسعينيات، استطاع الكثير من الفنانين أن يعملوا فيه. رسّامون ونحّاتون بالطبع، ولكن أيضاً فرق الروك وموسيقيون.

شعّ وجه مالك صالة العرض فجأةً باستعادة هذه الذكرى.

- أنا لستُ فنّاناً وليست لديّ مواهب خاصّة، ولكن لديّ حاسّتي الخاصّة. أنا أشمّ الناس. وحينما التقيتُ شون، رأيتُ من النظرة الأولى أنّه أمهر من رسّامي الجرافيتي الآخرين بمئة مرّة. اقترحتُ عليه أن أعرض أعماله في صالتي، وقلتُ له الكلمات التي كان بحاجة أن يسمعها في تلك الحقبة.

- يعني؟

- نصحتُه بأن يترك أعمال الجرافيتي وعبوات بخّ الألوان لكي يرسم مباشرة بالألوان الزيتية على القماش. قلتُ له إنّه يمتلك عبقرية الأشكال واللون والتشكيل والحركة، وإنّ في داخله من القدرات

والطاقات الإبداعية الكافية ليُدرج أعماله في مصافّ أعمال بولوك أو دي كونينغ.

حينما ذكر بينيديك الرسّام الذي تكفّل بحمايته ورعايته، تهدّج صوته وأدمعت عيناه. فتذكّرت مادلين صديقة قديمة كانت تتحدّث بصوتٍ مختنق عن الرجل الذي هجرها بجفاء على الرغم من مرور عدّة سنوات على انفصالهما.

تجرّعت مادلين فنجانها من قهوة **ريستريتو** دفعةً واحدة، قبل أن تسأل:

- هل أُعجِبَ لورينز بمدينة باريس سريعاً؟

- كان شون رجلاً استثنائياً. كان رجلاً فريداً مختلفاً جدّاً عن سواه من رسّامي الجرافيتي. كان يكره ثقافة الهيب-هوب ويقرأ كثيراً، ولم يكن يستمع سوى إلى موسيقى الجاز والموسيقى المعاصرة والتكرارية. بالتأكيد كان يشتاق إلى نيويورك، لكنّه كان عاشقاً مغرماً للغاية ببينيلوب. حتى وإن كانت علاقتهما صاخبة دائماً، فهي لم تكفّ عن مدّه بالإلهام. بين عامَي 1993 و2010، رسم شون إحدى وعشرين لوحة شخصية لزوجته. هذه السلسلة من اللوحات هي روائع شون لورينز. سوف تبقى سلسلة «21 بينيلوب» خالدة في تاريخ الفن كأحد أكثر إعلانات الحبّ تميّزاً وبراعةً يُعدّ لامرأةٍ.

سألت مادلين:

- لماذا 21 لوحة؟

- بسبب نظرية الـ 21 غراماً، وهو الوزن الافتراضي للروح...

- هل لقي لورينز النجاح سريعاً؟

- لا على الإطلاق! خلال عشرة أعوام، لم يبع فعلياً ولا لوحة واحدة! ومع ذلك، كان يرسم من الصباح حتى المساء، وكان

يحدث له أن يرمي بنتاج عمله لأنّه لم يكن راضياً عنه. وكانت وظيفتي أن أعرّف بفنّ شون وأشرحه لهواة جمع الأعمال الفنية. في البداية، كانت مهمّتي صعبة لأنّ أعماله لم تكن تشبه في أيّ شيءٍ الأعمال المعروفة. وقد احتجتُ إلى عقدٍ من الزمن لكي أنجح في ذلك، لكنّ عنادي وإصراري أثمرا عن فوائد جمّة. بدءاً من عام 2000، في كلّ معرضٍ لأعمال شون، كانت جميع لوحاته تُباع منذ مساء الافتتاح. وفي عام 2007. . . .

.6

في عام 2007، بيعت **ألفابيت سيتي**، وهي لوحة للفنان شون لورينز يعود تاريخها إلى عام 1998، مقابل 25000 يورو في مزادٍ تمّ تنظيمه من قبل شركة «أرتكوريال» للمزادات العلنية. وعملية البيع هذه، هي التي تسجّل فعلياً الصعود المُذهل لفنّ الشارع في فرنسا وبداية الاعتراف المؤسسي به. بين ليلةٍ وضحاها، أصبح شون لورينز نجماً لصالات البيع. كانت لوحاته الملوّنة النموذجية التي رُسِمَت في أعوام التسعينيات تُباع بسرعة وتحطّم تباعاً أرقاماً قياسية في أسعارها.

ولكن من وجهة نظر فنية، انتقل الفنان إلى نمطٍ مختلف. حلّت محلّ لوحات الجرافيتي السريعة والنزقة لوحاتٌ أكثر تأمّلاً استغرق رسمها عدّة أشهر، بل عدّة سنوات، مع التزامٍ أكبر اتجاه نفسه. إذ كان لورينز يحرق مباشرةً أيّ لوحة لا تنال رضاه.

بين عامَي 1999 و2013، رسم أكثر من ألفي لوحة، أتلف معظمها. وقد نجت فقط أربعون لوحة من حكمه القاسي والعنيف. بين تلك اللوحات، كانت لوحة Sep1em1er وهي لوحة تذكارية تصوّر مأساة مركز التجارة العالمي، وقد اشتراها أحد جامعي اللوحات الفنية بأكثر من 7 ملايين دولار وأودعها في متحف 11–سبتمبر النيويوركي.

رفع غاسبار عينيه عن النصّ وقلب الصفحة لكي يشاهد اللوحات المرسومة في تلك الحقبة. كان لورينز قد عرف كيف يجدّد أسلوبه في الرسم. كانت الإشارات والأحرف قد اختفت من رسوماته التي باتت تعتمد الآن على كتلٍ من الألوان وحقول أحادية اللون، فيها نتوءات بارزة نُفِّذت باستخدام السكين أو المجرفة الصغيرة، متراوحة باستمرار بين التجريد والمجاز. ربّما أصبح نمط ألوانه أقلّ حيويّة -بات يُكثر من استخدام الباستيل والألوان الخريفية مثل الألوان الرملية والمغرة والكستنائية والوردية الفاتحة-، ولكنّها باتت أيضاً أكثر رقّة. أسرت لوحات تلك الحقبة قلب غاسبار وذكّرته، بألوانها المعدنية واللؤلؤية تباعاً، بالصخور، والتراب، والرمل، والزجاج، وآثار الدم القاني على كفنٍ.

بدت لوحات لورينز نابضة بالحياة. كانت تترك أثرها جسديّاً فتمسكك من أحشائك وقلبك، وتُفقِدك السيطرة على نفسك، وتُسحِرك، وتثير فيك مشاعر متناقضة: الحنين والفرح، والهدوء والغضب.

كانت الرسومات الأخيرة المنشورة في الكتاب عبارة عن لوحات أحادية اللون يعود تاريخها إلى عام 2010. بدءاً من تلك الحقبة، كانت المادة هي التي تحظى بالأولوية. كانت هناك طبقات كثيفة من الألوان ونتوءات نافرة للتلاعب بالضوء، لكنّها ظلّت أعمالاً فخمة ورائعة.

تساءل غاسبار، وهو يُغلق الكتاب، كيف استطاع أن يقضي كلّ هذا الوقت الطويل بجانب هكذا فنّان!

.7

سألت مادلين:

- كيف كانت علاقة لورينز مع المال؟

غمس بينيديك مكعّب سكّر في قهوته كما لو أنّه يغمسه في مشروبٍ كحولي. أجاب مؤكّداً وهو يبتلع قطعة السكّر المغمّسة في القهوة:

- كان شون يعتبر النقود وسيلة للحريّة. أمّا بالنسبة إلى بينيلوب، فالأمر كان مختلفاً، إذ لم تكن تكتفي بأي قَدرٍ من المال. في نهاية العقد الأوّل من الألفية الثالثة، حينما كانت حظوظ شون في أعلى درجاتها، لم تكفّ عن محاولات إقناع زوجها بأن يعطي بعض اللوحات لفابيان زاكاريان وهو مالك صالة عرض في نيويورك. نصحته بأن يبيع مباشرةً في المزاد ما يقارب عشرين لوحة من لوحاته الجديدة من دون المرور بصالتي. وقد درّ هذا بالملايين على شون، ولكنّه أفسد علاقتنا.

سألت مادلين:

- كيف يحصل أن تساوي لوحة ملايين الدولارات؟

تنهّد بينيديك:

- لقد طرحتِ سؤالاً مهمّاً من الصعب الإجابة عنه، لأنّ سوق الفن لا تخضع للمنطق. يتحدّد سعر عملٍ فني نتيجةَ الاستراتيجية المعقّدة لمختلف المتدخّلين المعنيين، من فنانين وأصحاب صالات العرض بالتأكيد، ولكن أيضاً من جامعي الأعمال الفنية والنقّاد ومدراء المتاحف...

- أتصوّر أنّ خيانة شون لا بدّ وأن أثّرت عليك.

عبس مالك صالة العرض، ولكنّه أراد أن يُظهر نفسه بصورة المؤمن بالقدرية، فقال:

- إنّها الحياة. الفنانون مثل الأطفال: غالباً ما يكونون جاحدين.

لزم الصمت لبضع ثوانٍ، قبل أن يوضّح رؤيته:

- عالم المعارض الفنية شبيهٌ بعالم أسماك القرش. لا سيما بالنسبة إلى شخصٍ حديث الخبرة مثلي.

- ومع ذلك بقيتُما على اتّصالٍ؟

- بالطبع. حكايتنا، شون وأنا، حكاية قديمة. عشرون عاماً ونحن نتشاجر ونتصالح. لم نكفّ قطّ عن التحدّث بعضنا مع بعض، لا بعد حادثة زاكاريان، ولا بعد المأساة التي حلّت عليه.

- أيّ مأساة؟

تنهّد بينيديك بصخب:

- لطالما رغب شون وبينيلوب في إنجاب طفلٍ، لكنّهما عانيا كثيراً في سبيل تحقيق تلك الرغبة. خلال عشرة أعوام، تعرّضت بينيلوب لسلسلة من حالات الإجهاض. حتى أنني كنتُ أعتقد أنّهما قد تخلّيا عن الفكرة، حينما حدثت المعجزة: في شهر أكتوبر من سنة 2011، أنجبت بينيلوب طفلاً أسمياه جوليان. وهنا، بدأت المتاعب.

- المتاعب؟

- حينما وُلِدَ ابنه، كان شون أسعد الرجال. لم يكفّ عن القول إنّ علاقته بابنه تُثريه، وإنّه بفضل جوليان يرى العالم برؤية جديدة، وإنّه يعيد اكتشاف بعض القيم ويعيد الارتباط بالأشياء البسيطة.

تعرفين الخطاب، الخطاب الذي يشوبه شيءٌ من البلاهة لبعض الرجال الذين أصبحوا آباءً في عمرٍ متأخّر.

لم تنهض مادلين من مكانها، وتابع بينيديك سرده:

- المشكلة هي أنّه كان من الناحية الفنية يجتاز مرحلة من الجفاف الإبداعي. كان يدّعي أنّه لم تعد لديه موهبة خلّاقة وأنّه متعبٌ من جرّاء النفاق السائد في عالم الفنّ. خلال ثلاثة أعوام، لم يفعل أيّ شيء سوى الاهتمام والانشغال بابنه. ولكِ أن تتخيّلي هذا! شون لورينز يعدّ رضاعة الحليب ويدفع عربة الطفل ويرسم شخصيات الصور المتحركة في رياض الأطفال. اقتصر جوهر عمله الفني على الطواف في شوارع باريس لكي يضع فيها أشكال موزاييك صغيرة لأنّها كانت تسلّيه! لم يكن لكلّ هذا معنى!

اعترضت مادلين:

- إذا كان لم يعد لديه إلهامٌ...

- الإلهام عبارة عن ترّهات! يا إلهي، لقد رأيتِ صور أعماله. شون كان عبقرياً. والعبقري لا يحتاج إلى إلهامٍ لكي يعمل. لا يكفّ المرء عن الرسم إذا كان هذا المرء هو شون لورينز. بكلّ بساطة لأنّه ليس له الحقّ في ذلك!

أبدت مادلين ملاحظة:

- بل يجب التصديق بأنّ الإلهام ضروري.

ألقى بينيديك عليها نظرة قاسية، لكنّها واصلت حديثها:

- إذاً، لم يعُد لورينز يُمسك ريشة الرسم حتى مماته؟

هزّ بينيديك رأسه ورفع نظارته الضخمة لكي يفرك عينيه. تسارع تنفّسه كما لو أنّه قد صعد أربعة طوابق سيراً على القدمين.

- قبل عامين، في شهر ديسمبر من سنة 2014، مات جوليان في ظروفٍ مأسوية. منذ ذلك التاريخ، لم يمتنع شون عن الرسم فحسب، بل اكتأب بالمعنى الحرفي للكلمة.

- أيّة ظروفٍ مأسوية؟

زاغ بصر مالك صالة العرض لبضع ثوانٍ في ضوء الخارج قبل أن يتوه في الفراغ.

أوضح من دون أن يجيب عن السؤال:

- لطالما كان شون مزيجاً مكثّفاً من الطاقات والعيوب. مع موت جوليان، سقط من جديد فريسة أشباحه القديمة: المخدّرات، والكحول، والأدوية. ساعَدْته قدرَ استطاعتي، ولكن أعتقد أنّه لم تكن لديه أيّ رغبة في النجاة.

- وماذا عن بينيلوب؟

- كانت علاقتهما الزوجية تعاني من بعض المشاكل منذ زمنٍ طويل، واستغلّت بينيلوب المأساة لكي تطلب الطلاق، ولم تنتظر وقتاً طويلاً لتُعيد بناء حياتها. وما فعله شون فيما بعد لم يساهم في إعادة علاقتهما.

توقّف مالك صالة العرض لبرهة كما لو أنّه يفتعل نوعاً من الإثارة والترقّب. أحسّت مادلين فجأةً بعدم الارتياح للتلاعب بها، لكنّ فضولها كان أكثر قوّة من إحساسها.

- ماذا فعل لورينز؟

- في شهر فبراير من سنة 2015، نجحتُ أخيراً في إنتاج مشروعٍ، كنتُ أعمل عليه منذ زمنٍ طويل: معرض مرموق حول عمل شون مركّز على سلسلة «21 بينيلوب». للمرّة الأولى في العالم،

سوف تُشاهَد اللوحات الواحدة والعشرون في المكان نفسه. كان بعض مشاهير جامعي اللوحات قد أعاروا لنا لوحاتهم وكان ذلك بالفعل حدثاً غير مسبوق. لكنّ عشيّة افتتاح المعرض، اقتحم شون ليلاً صالة العرض عنوةً وأتلف كلّ اللوحات حرقاً.

اكفهرّ وجه بينيديك وظهرت عليه علامات الغضب كما لو أنّه يعيش المشهد من جديد.

- لماذا فعل ذلك؟

- أتصوّر أنّه كان نوعاً من التنفيس. الرغبة في قتل بينيلوب رمزيّاً لأنّه كان يتّهمها بالمسؤولية عن موت جوليان. ولكن أيّاً كانت أسبابه، سوف لن أسامحه قط على هذه الفعلة. لم يكن لشون الحقّ في إتلاف اللوحات. أوّلاً، لأنّها كانت جزءاً من تراث فنّ الرسم ومن ثمّ لأنّه بفعلته هذه أضرّ بي ووضع صالتي على حافة الهاوية. منذ عامين، تلاحقني العديد من شركات التأمين قضائياً وقد فُتِحَ تحقيقٌ جنائي بالموضوع. حاولت أن أحمي سمعتي وأحافظ عليها ولكن في الوسط الفنّي لا أحد يكون مغفّلاً وأصبحت مصداقيتي في....

قاطعته مادلين:

- لم أفهم تماماً. مَن كان مالك سلسلة «21 بينيلوب»؟

- كان العدد الأكبر من اللوحات ملكية شون وبينيلوب وملكيتي. لكنّ ثلاث لوحات كانت تعود لكبار جامعي اللوحات وهم روسي وصيني وأميركي. ولكي يثنيهم عن تقديم شكوى، وعدهم شون بأنّه سوف يعطيهم لوحات جديدة، زعم بأنّها قطع نادرة إلّا أنّها بالطبع تأخّرت في الوصول.

- بالطبع، إذا كان لم يعُد يرسم.

- نعم، لقد تخلّيتُ أنا أيضاً عن تلك اللوحات، بخاصّة وأنني كنتُ أعتقد أنّه في الأشهر الأخيرة من حياته، لم يعُد شون حتى في حالة جسدية تسمح له بالرسم.

كسَت غشاوة نظرته للحظة:

- كانت السنة الأخيرة من حياته فعلاً عبارة عن طريق الجلجلة. لقد خضع لعمليتي قلب مفتوح كادت كلّ منهما أن تودي بحياته. لكنني اتّصلتُ به عشيّة وفاته. كان قد سافر لبضعة أيامٍ إلى نيويورك لاستشارة طبيبٍ متخصّص بأمراض القلب. ومن هناك صرّح لي بأنّه عاد إلى الرسم، وأنّه قد أنهى رسم ثلاث لوحات، وأنّها في باريس وسأراها قريباً.

- ربّما لم يكن يقول الحقيقة.

- كان في شون لورينز كلّ عيوب العالم، لكنّه لم يكن كاذباً. بعد موته، بحثتُ عن اللوحات في كلّ مكان، في كلّ خبايا المنزل، في السقيفة وفي القبو، ولكنني لم أعثر على أيّ أثرٍ لتلك اللوحات.

- لقد أخبرتَني أنّك كنتَ منفّذ وصيته ووريثه.

- هذا صحيحٌ تماماً، ولكن ميراث شون كان قد تحوّل إلى هيكلٍ عظميّ لكثرة ما عصرته بينيلوب. عدا بيت شيرش-ميدي الذي تعرفينه، والذي بات مرهوناً، لم يكن قد بقي له أيّ شيء.

- هل أوصى لك بشيء؟

انفجر بينيديك ضاحكاً، وقال وهو يُخرج شيئاً صغيراً من جيبه:

- نوعاً ما.

كانت عبارة عن علبة كبريت دعائية أعطاها إلى مادلين.

- **لوغران كافيه**، ما هذا؟

- حانة في مونبارناس، كان شون معتاداً على ارتيادها.

أدارت مادلين العلبة لتكتشف عبارة مكتوبة بقلم حبرٍ جافّ وهي مقولة شهيرة لغيوم أبولينير: «لقد حان الوقت لإعادة إضاءة النجوم».

قال مالك صالة العرض مؤكّداً:

- هذه العبارة، من دون شكّ، مكتوبة بخطّ يد شون.

- ألا تعلم إلى ماذا يوحي؟

- إطلاقاً. لا شكّ أنني اعتقدتُ أنّ الأمر يتعلّق بالتأكيد برسالة، ولكنني عبثاً فكّرت في ذلك، لم أفهم شيئاً على الإطلاق.

- وهذه العلبة، هل كانت فعلاً مخصّصة لك؟

- في كلّ الأحوال، كانت هذه العلبة الشيء الوحيد الذي تركه في خزنة البيت.

بعد أن وضع برنار بينيديك ورقتين نقديتين على الطاولة لكي يدفع الحساب، نهض وارتدى سترته وعقد وشاحه.

ظلّت مادلين جالسة على الطاولة لا تزال تنظر إلى علبة الكبريت في صمت، وتعطي الانطباع بأنّها تهضم القصّة التي رواها لها للتوّ مالك صالة العرض.

بعد برهة من التفكير، نهضت بدورها، وسألت:

- لماذا رويتَ كلّ هذا لي أنا تحديداً؟

زرّر بينيديك سترته، وأجاب كما لو أنه يقول أمراً بديهياً:

- لكي تساعديني في العثور على اللوحات المختفية، بالطبع.

- ولكن لماذا أنا؟

- أنتِ شرطية، أليس كذلك؟ ثم أنني قلتُ لكِ: أثق دائماً بفطرتي، وثمّة شيءٌ ما يقول لي إذا كانت هذه اللوحات موجودة -وأنا على يقين من أنّها موجودة-، فإنّكِ أنتِ الشخص الأكثر قدرة على العثور عليها.

3

الحبال الجميلة

ما يمكننا قوله بالكلمات، لا نحتاج إلى رسمه.

إدوارد هوبر

.1

لدى خروجها من الدوّار، زادت مادلين من سرعتها وكادت أن تتجاوز إشارة ضوئية عند تقاطع زقاق لونغشان.

كانت بعد تناولها الغداء مع مالك صالة العرض قد استأجرت درّاجة نارية من طراز سكوتر من وكالة للتأجير في جادّة فرانكلين روزفلت. لم يكن من الوارد أن تقضي وقتها في فترة ما بعد الظهيرة في المشاجرة على مرسم لورينز مع أميركيّ فظّ، ولذلك أوقفت درّاجتها بالقرب من الشانزليزيه، ومن ثمّ تجوّلت بين مساند العرض في سوق أعياد الميلاد. لم تتجاوز مدّة جولتها ربع ساعة من الوقت لأنّ الأكشاك الخشبية الممتدّة على جانبَي «أجمل جادات العالم» المزعومة أصابتها بالإحباط والاكتئاب. أكشاك البطاطا المقلية، وباعة الأدوات الصينية، والروائح المقزّزة للنقانق وأصابع عجينة

التشورو المقلية بالزيت: كان كلّ ذلك يجعلها هنا أقرب إلى جوّ العيد السوقيّ منه إلى جوّ أعياد الميلاد البيضاء في حكايات طفولتها.

عادت أدراجها، محبطةً، وتوجّهت في البداية نحو واجهات متجر BHV ومن ثمّ سارت تحت القناطر وفي حديقة ساحة فوج، ولكنّ الحال لم يكُن أفضل ممّا كان في الشانزليزيه، ولم تعثر على ما كانت تبحث عنه ألا وهو القليل من السحر، القليل من الفتنة والروعة، القليل من روح الميلاد كما في ترانيم الميلاد القديمة. للمرّة الأولى، لم تشعر بالراحة في باريس وأحسّت بأنّها لا تنتمي إلى المكان.

عادت واستقلّت درّاجتها السكوتر وتركت وراءها مجموعات السيّاح، وثرثراتهم المزعجة، وعصيّ هواتفهم المحمولة لالتقاط صور السيلفي التي كانت تهدّد في كلّ لحظة باقتلاع عين المارّين بجانبهم، لكي تسير في اتجاهٍ غير محدّد. ظلّت ألوان ومزخرفات لورينز تتراقص وتنتشر في ذهنها، فأدركت أنّ رغبتها الحقيقية الوحيدة هي مواصلة رحلتها مع الفن، والانسياق مع أمواجه الضوئية، والضياع وسط ألوان ريشته المختلفة، والانبهار بإشعاعاتها المتوهّجة. ولكنّ برنار بينيديك كان قد نبّهها قائلاً: «ليس هناك سوى مكان وحيد في باريس يمكنك أن تطمحي إلى العثور على لوحة من أعمال شون لورينز فيه». ولأنّ مادلين كانت عاقدة العزم على أن تجرّب حظّها، سلكت طريق حديقة غابة بولونيا.

ولأنّ المكان لم يكن مألوفاً بالنسبة إليها، أوقفت درّاجتها النارية، ما أن حظيت بإمكانية ذلك، قرب أسوار حديقة التأقلم وواصلت طريقها سيراً بمحاذاة جادّة مهاتما غاندي. كانت الشمس تعلن الآن انتصارها التامّ على الضباب والجوّ المكفهرّ، وأصبح

الطقس جميلاً وبدأ نثارٌ ذهبيّ اللون يتناثر في الأرجاء وسط الهواء الرطب. لم يكن هناك شبح نقابيّ أو متظاهرٍ غاضب حول الحديقة، وكانت عربات الأطفال والمربيّات وصيحات الأطفال وباعة الكستناء الساخن تُضفي على المكان جوّاً طفولياً مرحاً.

فجأةً، برزت مركبة زجاجية كبيرة من بين أغصان الأشجار المجرّدة من أوراقها. كان مبنى مؤسسة لوي فيتون، متلحّفاً بأشرعته الكريستالية، يرتفع في سماءٍ مائلة للزرقة. بحسب خيال كلّ شخصٍ، كان المبنى يمثّل قوقعة ضخمة من الكريستال، أو جبلاً جليدياً مائلاً، أو مركباً شراعياً فائق التقنية يرفع علماً من اللؤلؤ.

اشترت مادلين بطاقة ودخلت إلى المبنى. كانت الصالة واسعة ومُضاءة وحسنة التهوية، مع واجهة مفتوحة على المساحة الخضراء. أحسّت في الحال بالراحة في هذه الشرنقة الزجاجية العملاقة وتجوّلت لبضع دقائق في البهو، مستسلمة لتناسق المنحنيات والجوّ المريح في المبنى. كانت الظلال الغريبة المتحرّكة والمتموّجة، التي ترسمها الأرضية المبلّطة للمبنى الزجاجي، والمنعكسة على الأرضية تنعش مادلين كما لو أنّها حقنة للّذة والحرارة.

صعدت المرأة الشابّة السلّم وجالت في متاهة مشعّة فيها مصابيح مضيئة، وتوجد فيها ما يقارب عشر صالات للعرض. كانت اللوحات المعلّقة تمزج معروضات مؤقّتة بلوحاتٍ من المجموعة الدائمة. وعلى المستويين الأوّلين، كان يمكن مشاهدة روائع مجموعة سيرغي شوكين، وهي عبارة عن اللوحات المذهلة للفنانين سيزان وماتيس وغوغان... والتي كان الجامع الروسي قد جمعها بجسارة خلال ما يقارب عشرين عاماً متجاهلاً رأي النقاد والانتقادات في حينه.

كان الطابق الأخير، الذي تجتازه أعمدة فولاذية وعوارض من خشب الصنوبر، يضمّ شرفتين تمنحان إطلالة رائعة على مناظر بديعة من حي لا ديفانس، وحديقة غابة بولونيا، وبرج إيفل. كانت لوحتا لورينز معروضتين في هذا المكان، في صالة نجد فيها أيضاً عملاً من البرونز للنحّات جياكوميتي، وثلاث لوحات تجريدية لجيرارد ريختر، وكذلك لوحتين أحاديتي اللون لألسويرث كيلي.

2.

مستلقياً على أريكة جلدية طويلة، ومسنداً قدميه إلى طاولة منخفضة، ومغمضاً عينيه، كان غاسبار يستمع إلى مقابلة مع شون لورينز مسجّلة على شريط كاسيت قديم في جهاز موضوعٍ وسط أسطوانات المكتبة.

كانت هذه المقابلة الطويلة قد أجراها معه جاك شانسيل قبل سبعة أعوام، في أثناء معرضٍ لأعمال لورينز في غاليري ماغ للفنّ الحديث في بلدية سان-بول-دو-فينس. كانت المقابلة شيّقة وغير مسبوقة، لكون لورينز، الفنّان الكتوم والمقلّ في الكلام، قد وافق على الحديث عن أعماله. بعد أن طعن تقريباً في كلّ التأويلات والتفسيرات التي قُدّمت حول مسار تطوّر عمله الفنّي، قال لورينز: «لوحتي مباشِرَة ولا تحمل أيّ رسالة. إنّها لا تهدف سوى إلى تناول شيءٍ عابر ودائم في آنٍ واحد». عبر بعض إجاباته، كنّا نلاحظ أيضاً تعبه وشكوكه والانطباع الذي اعترف هو به من دون مواربة بأنّه «ربّما قد وصل إلى نهاية دورة إبداعية».

استمع غاسبار إلى المقابلة بتركيز واهتمام. حتى وإن كان يرفض تسليم مفتاح فنّه، إلّا أنّ لورينز كان يمتلك، على الأقلّ، ميزة

الصدق والصراحة. كان صوته الأخّاذ والفتّان تارةً والمقلق تارةً أخرى يعكس ازدواجية وغموض فنّه.

فجأةً مزّق صوتٌ صاخبٌ وعنيف هدوء أواخر ما بعد تلك الظهيرة. جفل غاسبار ونهض قافزاً، قبل أن يخرج إلى الشرفة. غمرت «الموسيقى»، المنبعثة على ما يبدو من أحد المساكن المجاورة، الزقاق. كان الصوت رديئاً ومضجراً، وهو عبارة عن صرخات عنيفة حلّت محلّ الغناء. ثرثر وهو يشعر أنّ كللاً ثقيلاً قد انهال عليه: **كيف يمكننا الاستمتاع إلى هكذا جعير؟** كان من المستحيل أن يحظى بلحظة من الهدوء، وكانت هذه معركة خاسرة مسبقاً، فالعالم مليءٌ بالمزعجين، والمُضجرين، ومثيري المتاعب من كلّ صنف. يفرض المزعجون والمضايقون والمضجرون إرادتهم على الآخرين. عددهم كبيرٌ جدّاً ويتكاثرون بسرعة كبيرة. انتصارهم كاملٌ وحاسمٌ.

تحت تأثير غضبه، هرع غاسبار إلى خارج المنزل وما أن أصبح في الزقاق المبلّط لم يستغرق وقتاً طويلاً لكي يسير نحو مصدر الإزعاج. كانت الموسيقى المزعجة تأتي من المسكن الأقرب إليه، وهو عبارة عن كوخٍ بائسٍ. كوخٌ ريفي متداع تحت كرمة العنب. لكي يعلن عن حضوره، رنّ غاسبار الجرس الصدئ المثبّت على عمودٍ حجري. ولأنّ أحداً لم يظهر، تجاوز البوابة، وعَبَرَ الحديقة الصغيرة، وصَعد الدرج المؤدّي إلى البيت الصغير قبل أن يضرب على الباب بقوة.

حينما انفتح الباب، اندهش غاسبار. كان يتوقّع أن يظهر فتى مراهق أخرق يرتدي قميصاً رياضياً طُبع على ظهره صورة لفرقة أيرون ميدن، ولكن بدل ذلك، وجد امرأة شابّة ذات ملامحٍ رقيقة، ترتدي

قميصاً غامق اللون ذا ياقة بيضاء وسروالاً قصيراً وتنتعل حذاءً جلدياً.

قال بفظاظة، وهو يُشير إلى جمجمته بسبابته:

- أأنتِ مجنونة؟!

فوجئت به المرأة، فتراجعت خطوة إلى الوراء، ونظرت إليه في حيرة.

صرخ فيها:

- موسيقاكِ! هل تعتقدين أنّكِ تعيشين وحدكِ على الأرض؟

- نعم، أليس هذا هو الحال؟

في اللحظة التي أدرك غاسبار أنّها تسخر منه، ضغطت على زرٍّ في جهاز تحكّمٍ صغير كانت تمسك به في راحة يدها.

وأخيراً، ساد الصمت.

قالت مؤيّدة، بنبرة اعتذارٍ:

- كنتُ أمنح نفسي فترة استراحة من عمليات التصحيح التي أجريها على أطروحتي. ولأنني اعتقدتُ أنّ الجميع قد ذهبوا في عطلةٍ، رفعتُ درجة الصوت بعض الشيء.

- استراحة بالاستماع إلى موسيقى الهارد-روك؟

اعترضت قائلةً:

- من الناحية الفنية، هذه ليست موسيقى الهارد-روك، وإنّما بلاك ميتال.

- وما الفرق بينهما؟

- حسناً، الأمر بسيطٌ جدّاً، إنّه...

قاطعها غاسبار، وهو يبتعد:

- أتعرفين؟ لا يهمّني ذلك. استمرّي في تخريب غشاء الطبلة في أذنيكِ، إذا كان هذا يروق لكِ، ولكن ابتاعي سمّاعات رأسية حتى لا تعذّبي الآخرين.

أطلقت المرأة الشابّة ضحكة صاخبة، وقالت:

- أنت وقحٌ جدّاً لدرجة أنّ وقاحتك مضحكة!

التفت غاسبار نحوها، وأحسّ لبرهةٍ أنّه قد ارتبك من جرّاء ملاحظتها. نظر إلى الفتاة من رأسها حتى أخمص قدميها: كانت قد شبكت شعرها بأناقة، ولها هيئة طالبة برجوازية، ولكن أيضاً، كانت هناك حلقة في أنفها، ووشمٌ رائع يمتدّ من خلف أذنها ليختفي تحت قميصها.

ليسَتْ مخطئة...

قال مؤيّداً:

- حسناً، ربّما كنتُ قاسياً بعض الشيء، ولكن بصراحة، هذه الموسيقى...

ابتسمت من جديد، ومدّت له يدها. عرّفت بنفسها:

- بولين دولاتور.

- غاسبار كوتانس.

- هل تسكن في البيت السابق للرسّام شون لورينز؟

- لقد استأجرته لمدّة شهر.

هبّت ريحٌ عاصفة ورجّت مصراع الباب. لفّت بولين، وهي عارية الساقين، رجلاً على أخرى وهي ترتعش. اقترحت عليه وهي تفرك ساعديها ببعضهما:

- جاري العزيز، بدأتُ أشعر بالبرد، ولكنني سأكون مسرورة بأن أقدّم لك فنجاناً من القهوة.

وافق غاسبار بحركة من رأسه، ولحق بالمرأة الشابّة إلى الداخل.

3.

نظرت مادلين جامدة في مكانها إلى اللوحتين، كما لو أنّها سُحِرتْ بفعل تعويذة. كانت اللوحة الأولى، التي يعود تاريخ رسمها إلى عام 1997 والمعنونة باسم CityOnFire، عبارة عن جدارية نمطية تعود إلى حقبة فنّ الشارع من مسيرة لورينز الفنية: أتونٌ متّقد، وطلاءٌ يلتهم قماش اللوحة، وتفجّرٌ للألوان يبدأ من الأصفر نحو الأحمر القرمزي. أمّا اللوحة الثانية، المعنونة باسم Motherhood، فكانت أحدث من الأولى بكثير. كانت اللوحة الحميمية والمجرّدة عبارة عن سطح أزرق شاحب أقرب إلى البياض، يعبُره خطٌّ منحنٍ يصوّر بطن امرأةٍ حامل. وهو الاستحضار الأنقى لمفهوم الأمومة. كانت لصاقة ورقية على الجدار توضّح بأنّها آخر لوحة معروفة للفنّان لورينز، وقد رسمها قبل ميلاد ابنه بوقت قصير. وعلى العكس من اللوحة السابقة، لم يكن اللون، وإنّما الضوء هو الذي يثير العواطف والانفعالات.

استجابة لصوتٍ تسمعه وحدها، اقتربت مادلين من اللوحة. كان الضوء يناديها. أبهرتها المادّة المستخدمة ونسيج اللوحة وكثافة الألوان والتلوينات المتعددة فيها وسحرتها. كانت اللوحة تنبض بالحياة. خلال بضع ثوانٍ، كان السطح نفسه ينتقل من الأبيض إلى الأزرق ومن ثمّ الوردي. هنا كان يكمن الانفعال، ولكن مع ذلك، لم يكن من الممكن الإمساك به. كانت لوحة لورينز تبعثُ على الراحةِ تارةً والقلق تارةً أخرى.

كان هذا التناوب يُسحر مادلين ويجعلها تتساءل: كيف يمكن للوحةٍ أن تترك هذا التأثير؟ حاولت أن تتراجع إلى الوراء، لكنّ ساقيها لم يُطاوعا دماغها. كانت حبيسة المشهد برضاها، ولذلك لم ترغب في أن تتهرّب من الضوء الذي كان يشعّ عليها. أرادت أن ترتعش لمزيدٍ من الوقت تحت تأثير هذا الدوران الذي كان يريحها. البقاء في هذا الفضاء الشبيه بالسائل المحيط بالجنين الذي يخترق المرء ويكتشف فيه أشياءَ لم يكن يشكّ في وجودها. أشياءُ جميلة وأخرى أقلّ جمالاً بكثير.

4.

كان مدخل منزل بولين دولاتور يبدأ بالمطبخ. للوهلة الأولى، بدا داخل المنزل مُريحاً ومزيّناً بأسلوبِ «منزلٍ ريفي»: طاولة عمل واسعة من الخشب، وأرضية مبلّطة بطريقة تقليدية، وستائر من قماشٍ قطني. على الرفوف، كانت هناك ألواح مزخرفة، ومطحنة بنّ قديمة، وأوانٍ خزفية ضخمة، وقدور نحاسية قديمة.

قال، وهو يمازحها ويستثيرها:

- منزلكِ لطيف، ولكنّه محيّر. من الناحية الروحية، هو أقرب إلى أغاني جان فيرا منه إلى موسيقى بلاك ميتال خاصّتكِ.

ابتسمَت بولين وأمسكت بإبريق قهوة، كان موضوعاً على موقد غازٍ، وصبّت منه فنجانين.

- في الحقيقة، هذا المنزل ليس لي. إنّه لرجل أعمالٍ إيطالي، وهو جامع أعمال فنية وقد ورثه من عائلته، وعرّفني شون لورينز عليه. هو لا يأتي إليه أبداً. ولأنّه لا يريد أن يبيعه، فهو يحتاج إلى

مَنْ يعتني به ويحافظ عليه. سوف لن يدوم هذا الأمر إلى الأبد، ولكن بانتظار ذلك، سيكون من الغباء ألّا أستغلّ الفرصة.

أخذ غاسبار الفنجان من يدها، وقال:

- بحسب ما فهمت، أنتِ تسكنين هنا بفضل لورينز.

نفخت المرأة الشابّة بلطف على قهوتها وهي مسندة ظهرها إلى الجدار وقالت:

- نعم هو مَن أقنع الرجل الإيطالي بأن يثقَ بي.

- كيف التقيتِ به؟

- تقصد شون؟ حدث ذلك قبل وفاته بثلاثة أو أربعة أعوام. في أثناء سنواتي الأولى في الكليّة، كنتُ، لكسب بعض المال الإضافي، أعمل كعارضة لطلّاب الفنون الجميلة. ذات يوم، ألقى شون محاضرة في الكلية، وقد التقينا هناك، وأصبحنا صديقين.

بدافع الفضول، تفحّص غاسبار قوارير النبيذ المرتّبة في صندوقٍ من الحديد المشغول.

قال بلهجة محذّرة، وهو يُبدي إشارة امتعاضٍ:

- لا ينبغي شرب هذا المشروب الرديء. سوف أجلب، في المرّة القادمة، قارورة من النبيذ **الحقيقي**.

ابتسمت وهي تشير، على طاولة العمل، إلى حاسوبٍ فضّي اللون ومحاطٍ بأكداسٍ من الكتب:

- بكلّ سرور. أحتاج إلى الوقود لإتمام أطروحتي.

- على ماذا تعملين؟

- **ممارسة الكينباكو في اليابان في فترة إيدو: استعمال عسكري وممارسة إيروسية.**

- الكينباكو؟ ما هذا؟

وضعت بولين فنجانها في حوض المجلى، ثمّ نظرت إلى جارها الجديد بنظرة غامضة.

- اتبعني، سوف أُريك.

.5

من خلال النافذة الزجاجية، كان البلوط الأحمر يشتعل؛ والقيقب يتلألأ؛ وكانت أشجار التنّوب تُلقي بظلالها عليهما لكي تحوّلاهما إلى شخوص خيال الظلّ.

كانت مادلين، زائغة النظر، تُشاهد الشمس من دون أن تراها وهي تحتجب خلف منصّة الموسيقى، المنصوبة على عشب حديقة التأقلم. كانت الساعة تقارب الخامسة مساءً. بعد زيارتها، كانت قد جلست إلى طاولة في فرانك، مطعم المؤسّسة الذي كان يقع خلف حاجز الباحة الداخلية. شربت في جرعاتٍ خفيفة الشاي الأسود الذي طلبته. منذ بضع دقائق، لم يكُن في ذهن مادلين سوى فكرةٍ وحيدة. كان سؤالٌ وحيدٌ يلحّ عليها: ماذا لو كان ما رواه لها برنار بينيديك صحيحاً؟ ماذا لو أنّ آخر ثلاث لوحات رسمها شون لورينز قد اختفت فعلاً؟ اللوحات التي لم يتمّ عرضها من قبل ولم ترها عينا أحدٍ. سَرَت رعشةٌ في جسدها. لم تكن تنوي أن يستخدمها صاحب المعرض كأداة، ولكن، إن كانت هذه اللوحات موجودة فعلاً، فهي تريد أن تكون هي مَنْ يعثر عليها.

أحسّت بالأدرينالين الذي تدفّق في شرايينها. كان إشارة إلى بداية المطاردة. إحساسٌ مألوفٌ تستمتع به حينما يعاودها. إحساسٌ،

من دون شكّ، شبيهٌ بالذي كان يراود شون لورينز حينما كان يرسم لوحاته الجرافيتي على عربات المترو في بداية التسعينيات. الإحساس بالخطر ونشوة الخوف والرغبة في العودة إلى ذلك مهما كلّف الثمن.

أطلقت مؤشّر البحث على الإنترنت في هاتفها الذكي. ظهرت نبذة عن لورينز على موقع ويكيبيديا بطريقة كلاسيكية:

شون بول لورينز، المعروف أيضاً باسم **لورز74**، رسّام جرافيتي وفنّان تشكيلي، ولِدَ في نيويورك في 8 نوفمبر من سنة 1966 ومات في المدينة نفسها في 23 ديسمبر من سنة 2015. لقد عاش وعمل في باريس خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياته. [...]

استمرّت السيرة لعشرات الأسطر. كانت عبارة عن موجزٍ شاملٍ ومهمّ، ولكنّه لم يكشف لها عن أيّ معلومات أكثر ممّا رواه لها بينيديك. ولم تعثر مادلين على المعلومة التي كانت تبحث عنها إلّا في الأسطر الأخيرة من السيرة:

قضيّة جوليان لورينز

الجريمة

في يوم 12 ديسمبر من سنة 2014، بينما كان شون لورينز يوجد في نيويورك لحضور معرضٍ استعادي ضخم لأعماله في متحف الفنّ الحديث (موما) في نيويورك، تم اختطاف زوجته بينيلوب وابنه جوليان في أحد شوارع آبر ويست سايد. بعد عدّة ساعات من وقوع الحادثة، تلقّى الرسّام طلب فدية مقدارها عدّة ملايين من الدولارات مرفق بإصبعٍ مقطوع للطفل.

ورغم دفع المبلغ، تمّ تحرير بينيلوب فقط في حين تمّ قتل الطفل تحت أنظار والدته.

المجرم

لم يكُن التحقيق طويلاً في تحديد هويّة الخاطف حيث إنّ [...]

.6

كان عمودٌ من خشب شجر الزيتون يعبر صالون منزل بولين دولاتور، وبذلك لم يعُد للصالون أيّ علاقة ببيت ريفي، وإنّما بشقّة حديثة ذات ديكورٍ فاخر. صالة فسيحة تغطي جدرانها صور نساء مقيّدات بحبالٍ في وضعيات متطرفة. أجسادٌ مكبّلة، مستعبَدة، معلّقة في الهواء. لحوم بشرية مشدودة بحبالٍ، ومحصورة ومحبوسة بعددٍ كبيرٍ من العقد المحكمة والمتشابكة. وجوه ترتسم عليها القشعريرة، لا نعرف إن كانت تعبّر عن اللّذة أو الألم.

شرحت بولين بهدوء:

- **الكينباكو** هو في الأساس فنٌّ عسكري ياباني متوارث. وهو عبارة عن تقنية أُعدّت من أجل تكبيل أسرى الحرب من ذوي الرتب العالية. وبمرور القرون، تحوّل هذا الفنّ إلى طقوس إيروسية مُرهَفة.

نظر غاسبار إلى الصور، في البداية بشيءٍ من التحفّظ. لطالما كانت علاقات الخضوع والهيمنة تُشعره بالضيق.

سألت المرأة الشابّة:

- هل تعرف ما كان يقوله المصور الفوتوغرافي الكبير آراكي؟ «يجب أن تكون الحبال مثل مداعبات على جسد المرأة».

في الواقع، بدأ التصوّر الساذج لدى غاسبار يتلاشى شيئاً

فشيئاً. كان ذلك صعباً على الشرح، لكن الصور لم تكن على شيءٍ من السوقية ولا العنف.

أضافت بولين:

- **الكينباكو** هو فنّ متطلّب جدّاً. أنا أعطي دروساً في قاعة في الدائرة العشرين. لا بدّ أن تأتي إلى هناك ذات يوم. سوف أقدّم لك عرضاً عن هذا الفنّ. لكي يعرف الإنسان أشياءَ عن نفسه، هو أكثر فاعلية حتى من جلسة للتحليل النفسي.

- هل كان لدى شون لورينز اهتمام بهكذا أمور؟

ابتسمت بولين، ثمّ أجابت:

- لقد عاش شون في نيويورك في الثمانينيات والتسعينيات حينما كانت كالغابة، وبالتالي ما كانت لهذه الألعاب الصغيرة أن تُخيفه.

- هل كنتِ مقرّبة منه؟

- كنّا صديقين كما قلت لك. كان يقول بأنّه يثق بي، وكانت هذه الثقة تصل به، في الأقلّ، إلى حدّ أن يأتمنني على ابنه.

جلست بولين على درجات سلّمٍ خشبيٍّ كبير كان مسنوداً إلى الجدار.

قالت معترفةً:

- لم أكن أحبّ كثيراً الأطفال، لكنّ جوليان كان مختلفاً بالنسبة إليّ. كان بالفعل طفلاً جذّاباً ونشيطاً وذكيّاً.

لاحظ غاسبار أنّ بشرتها الناصعة قد ازدادت بياضاً.

- أنتِ تتحدّثين عنه في صيغة الماضي؟

- لقد قُتِل جوليان. ألم تعرف ذلك؟

أظهر غاسبار أيضاً تأثّراً، فسحب كرسيّاً صغيراً بلا مساند، مصنوعاً من خشبٍ خام، وجلس عليه منحنياً فوق بولين.

- الـ. . . الصبي الذي نراه في كلّ الصور، مات؟

حاولت بولين أن تقاوم الرغبة في قضم أظافرها المطلية بطلاءٍ لمّاع والتي لم تكن ترفع عينيها عنها.

- إنّها قصّة مؤلمة. لقد اختُطِف جوليان في نيويورك وطُعِن تحت أنظار أمّه.

- ولكن. . . اختُطِفَ من قبل مَنْ؟

تنهّدت بولين، وأجابت بأسى:

- من قبل صديقة قديمة من صديقات شون، كانت قد دخلت السجن. وهي رسّامة من أصول تشيلية معروفة باسم **ليدي بيرد**، وقد أرادت أن تنتقم.

- تنتقم ممّن؟

قالت وهي تنهض من مكانها:

- بصراحة لا أعرف الكثير عن هذه المسألة. كانت دوافعها على الدوام غير واضحة.

عادت بولين إلى المطبخ، ولحق بها غاسبار.

قالت مفصحةً:

- ومن نافلة القول أنّ شون لم يعُد على الإطلاق الرجل نفسه بعد موت ابنه. ليس فقط لم يعد يرسم، بل ترك نفسه يموت حزناً بالمعنى الحرفي للكلام. وقفتُ إلى جانبه وساعدته بقدر ما استطعت. فقد كنتُ أشتري له ما يحتاج إليه، وأطلب له الطعام، وأستدعي ديان رافائيل حينما يحتاج إلى علاج.

- من تكون ديان هذه؟ أهي طبيبة؟

أقرّت بحركة من رأسها، وقالت:

- نعم، طبيبة نفسانية، كانت تتابع حالته منذ زمنٍ طويل.

- وماذا عن زوجته؟

تنهّدت بولين من جديد، قبل أن تجيب:

- غادرت بينيلوب المركب حالما استطاعت ذلك، ولكن هذه أيضاً حكاية أخرى.

ولكي لا يبدو متطفّلاً، كفّ عن الأسئلة ولزم الصمت. لقد خمّن أنّ الحكاية التي روَتها بولين مليئة بنقاط غامضة، لكنّه كان يكره الفضوليين، فلم يشأ أن يكون في مصافهم. ومع ذلك سمح لنفسه بأن يطرح سؤالاً لا يحمل الكثير من الطابع الشخصي:

- هل هذا يعني أنّ لورينز لم يرسم بعد ذلك أيّ لوحة حتى مماته؟

- بحسب علمي، توقّف عن الرسم. أوّلاً، لأنّه عانى من مشاكل صحيّة كبيرة. ثمّ لأنّه كان يعطي الانطباع بأنّه لم يعُد يشعر بأنّه مهتمّ بالرسم. أو بالأحرى، في الحقيقة، لم يعُد مهتمّاً بأيّ شيء. حتى خلال ورشة الفنّ التي تابعها لمرّة أو مرّتين في مدرسة جوليان، لم يعُد يُمسك بريشة الرسم.

صمتت لبضع ثوانٍ، ثمّ أضافت كما لو أنّ ذكرى عادت إلى ذاكرتها:

- ومع ذلك، في الأيام التي سبقت وفاته، حدث أمرٌ غريب.

بإشارةٍ من ذقنها، أشارت عبر النافذة إلى دار الرسام وقالت:

- لليالٍ عديدة، كان شون يترك الموسيقى دائرة في بيته حتى طلوع الصباح.

- وما الغريب في ذلك؟

- لأنّ شون كان يستمع إلى الموسيقى التي كان يستمع إليها

حينما كان يرسم فقط. وما فاجأني في الأمر ليس هو أنّه عاد إلى مسك ريشة الرسم بقدر ما فاجأني أنّه كان يفعل ذلك في الليل. كان شون مجنوناً بالضوء. لم أرَه قط يرسم إلّا في وضح النهار.

- إلى أيّة موسيقى كان يستمع؟

أفرَجَت بولين عن ابتسامة وهي تجيب:

- أنماطٌ من الموسيقى سوف تُعجبك على ما أعتقد. على أيّ حال، ليست موسيقى البلاك ميتال: كان يستمع إلى **السيمفونية الخامسة** لبيتهوفن، ثمّ أنماط أخرى لم أكُن أعرفها والتي كان يُعيد الاستماع إليها مراراً وتكراراً.

أخرجَت هاتفها من جيبها، وحرّكت الجهاز تحت أنظار غاسبار.

- بما أنني فضولية، قمتُ بتحديدها من خلال تطبيق شازام لشركة آبل.

لم تكن لديه أيّ فكرة عن هذا التطبيق، ولكنّه لم يسمح أن يظهر عليه أيّ شيء يدلّ على جهله به.

عادت بولين إلى المراجع التي كانت تبحث عنها:

- **كاتالوغ دوازو** للملحّن أوليفييه ميسان، و**السيمفونية الثانية** لغوستاف مالر.

- ما الذي جعلكِ تعتقدين أنّه بالفعل كان يرسم؟ ربّما كان يستمع إلى الموسيقى فقط.

- هذا ما أردتُ أن أعرفه بالضبط. خرجتُ وسط عتمة الليل، وصعدتُ الممرّ، ودرتُ حول المنزل، وصعدتُ عبر سلّم النجاة حتى بلغتُ الواجهة الزجاجية للمرسم. أعرف أنّ في هذا شيءٌ من

التلصّص، ولكنني كنتُ أُشبعُ فضولي: لو أنّ شون كان قد رسم لوحةً جديدة، سأكون أوّل مَن يراه يفعل ذلك.

ارتسمت ابتسامةٌ خفيفة على وجه غاسبار بينما كان يتخيّل بولين في حركاتها البهلوانية. كان فنّ لورينز قد اتّسم فعلاً بقدرةٍ سحرية غير محدودة على الإغراء.

- لمّا وصلتُ إلى أعلى السلّم، ألصقتُ أنفي على الزجاج. وعلى الرغم من أنّ كلّ أنوار المرسم كانت قد أُطفِئت، كان شون يقف قبالة لوحةٍ.

- كان يرسم في العتمة؟

- أعلم أن لا معنى لهذا الأمر، لكنني شعرتُ أنّ اللوحة كانت تشعّ بنورها الخاصّ. ضوءٌ ساطع وثاقب كان ينير وجهه.

- ماذا كان يرسم؟

- لم أُلقِ سوى نظرةٍ عابرة. حينما صدر صريرٌ عن السلّم، التفت شون نحو مصدر الصوت. شعرتُ بالخوف ونزلتُ على الفور. عدتُ إلى منزلي وأنا أشعر ببعض الخزي.

نظر غاسبار إلى هذه الفتاة الغريبة، الاستفزازية والمثقّفة، الحصيفة والمخادعة في آنٍ واحد. فتاةٌ لا بدّ أنّها ستحظى بإعجاب أغلبية الرجال، مثلما نالت إعجاب لورينز. فجأةً، عَبَرَ سؤالٌ ذهنه كأمرٍ بديهي:

- ألم يتّخذكِ شون لورينز أبداً كموديل للرسم؟

بدأت عينا بولين تلمعان حينما أجابت:

- لقد فعل ما هو أفضل من ذلك.

فكّت أزرار قميصها وظهر وشمها، ليس بكامله ولكن بكامل

روعته. كان جلد الفتاة قد تحوّل إلى لوحة بشرية بألوانٍ زاهية: كان الوشم عبارة عن سلسالٍ من الزخارف المزهّرة بألوانٍ متعددة يمتدّ من أعلى رقبتها حتى مطلع فخذها.

- غالباً ما يُقال إنّ لوحات لورينز نابضة بالحياة، لكن هذا سوء استخدام للغة. العمل الفنيّ الحيويّ الوحيد لشون لورينز، هو أنا.

4

مجهولان في المنزل

أنا متفائل بعمق في لا شيء.

فرانسيس بيكون

1.

كان الليلُ قد حلّ حينما دفعت مادلين الباب. لقد حاولت أقصى ما بوسعها أن تتجنّب المواجهة مع غاسبار كوتانس، ومع ذلك كانت حتمية. حتى أنّها تمنّت في سرّها لو أنّ الكاتب المسرحي يتنازل عن حقوقه في المرسم، ولكن بينما كانت تعلّق سترتها الجلدية على حمّالة المعاطف، لمحت طيف الرجل الطويل منهمكاً في المطبخ.

بينما كانت تعبر الصالون للانضمام إليه، توقّفت أمام ما يقارب عشر صور معلّقة على الجدران في أطر أميركية من خشبٍ كاشف اللون. الآن وقد عرفت أنّ الطفل جوليان ميّت، بدت الصور التي استوقفتها، لدى وصولها، مُحزِنَة وجنائزية. وتحت تأثير العدوى، بدا المنزل أكثر برودةً وخانقاً ومحاطاً بستارة من الحزن. بعد أن تيقّنت بأنّ السحر قد زال، اتّخذت مادلين قراراً جذرياً.

حينما انتقلت إلى المطبخ، حيّاها كوتانس بتذمّر. بسرواله الجينز، وقميصه الشبيه بقميص الحطّابين، ولحيته التي لم يحلقها منذ اثني عشر يوماً، وحذائه التمبرلاند العتيق، وَجَدَت فيه جانباً من شخصية «رجل الغابات» التي لا تتوافق مع وضعه ككاتب مسرحي مثقّف. واقفاً أمام طاولة التحضير في المطبخ، مركّزاً على مهمّته، كان منهمكاً في تقطيع بصلةٍ بحركات حازمة وهو يستمع إلى موسيقى كلاسيكية من مذياعٍ قديمٍ محمول. كان أمامه على الطاولة، إلى جانب كيسٍ ورقيٍّ كبير، العديد من المنتوجات والمواد التي بدا أنّه كان قد اشتراها في فترة ما بعد الظهيرة، مثل زيت الزيتون والمحاريات ومكعّبات مرقة الدجاج وحبّة كمأ صغيرة...

- ماذا تحضّر؟

- لسان العصفور بالكمأة. نوع من المعكرونة اليونانية في هيئة قطع صغيرة يتمّ طهوها على طريقة الريزوتو. هل تتناولين العشاء معي؟

- كلا شكراً.

- أراهن أنّكِ نباتية. أطباقك المفضّلة هي نبات الكينوا والأعشاب البحرية والبذور المبرعمة وكلّ ما...

قاطعته بجفاء:

- لا، على الإطلاق. بالنسبة إلى المنزل، أودّ أن أخبركَ بأنني سأتركه لك. سوف أذهب للإقامة في مكانٍ آخر. عرض عليّ صاحب الوكالة العقارية أن يعوّضني وسوف أقبل عرضه.

نظر إليها مندهشاً، ثم قال:

- قرارٌ حكيم.

- ولكنني أطلب منك أن تمهلني يومين حتى أرتّب أموري. وإلى ذلك الحين، سوف أنام في الطابق العلوي. سوف نتقاسم المطبخ، ويمكنك التصرّف بباقي أقسام المنزل.

قَبِلَ غاسبار بمقترحها:

- هذا يناسبني.

أنزل البصلة التي كان قد قطّعها بوساطة نصل السكين في مقلاةٍ.

- ما الذي جعلكِ تغيّرين رأيكِ؟

تردّدت للحظة، ثمّ أخبرته بالحقيقة:

- ليست لديّ الشجاعة لقضاء أربعة أسابيع في مكانٍ لا يزال مسكوناً بروحِ طفلٍ ميّت.

- تقصدين الصغير جوليان؟

أكّدت مادلين ذلك بحركة من رأسها. في الربع ساعة التي تلت، خلال مناقشة حيوية، روى كلٌّ منهما للآخر ما عرفه عن حياة وأعمال لورينز الساحرة وعن آخر لوحاته المختفية.

بعد أن رفضت كأساً من النبيذ، فتحت مادلين باب الثلّاجة لتأخذ منها المحفظة البلاستيكية التي تركتها هناك قبل بضع ساعات، ثمّ تذرّعت بالتعب الشديد وصعدت إلى الطابق العلوي لكي تنام.

2.

كان السلّم الخشبي الذي يقود إلى مخدع لورينز يُفضي مباشرةً إلى المرسم وواجهته الزجاجية. كانت القاعة الأجمل في البيت تمتدّ لتصل إلى غرفة صغيرة ومتواضعة ولكن مريحة ومزوّدة بصالة استحمام. رتّبت مادلين بعض الأغراض ووجدت شراشف نظيفة في

خزانة وأعدّت سريرها. ثمّ غسلت يديها، وجلست إلى مكتبٍ صغيرٍ من خشبٍ منجور مسندٍ إلى الجدار. في البداية، نزعت سترتها وقميصها ومن ثمّ أخرجت من المحفظة دورقاً وكذلك محقناً سحبته من غلافه. ثبّتت إبرة المحقن، ونزعت عنه غطاءه، ودفعت بهدوء وحذر مكبس المحقن مثلما تفعل ذلك عادةً لكي تسحب محتوى الدورق وهي ترفع الفقاعات الهوائية للأعلى قبل أن تطردها. عقّمت بقطعة من القطن المبلّل بالكحول منطقة من بطنها قرّرت أن تحقنها بمحتوى المحقن. كان نظام التدفئة يعمل من دون جدوى، إذ كان كلّ جسمها يرتجف وعظامها تؤلمها وجلدها منكمشٌ على بعضه مثل جلد الدجاج. أخذت نفساً عميقاً، والتقطت قطعة من جلد بطنها وغرزت إبرة المحقن في الطبقة الدهنية في منطقة وسطى بين العضلة والأضلاع. حاولت ألّا ترتعش في أثناء الضغط على مكبس المحقن لكي تحقن المادة بشكلٍ صحيح. كانت هذه المادّة تُحرق وتُسبِّب عذاباً حقيقياً. عليها اللعنة! حينما كانت شرطية، وجدت نفسها لمرّات عديدة في مواقف خطرة للغاية. فقد سبق لها وأن وضع مجرم فوهة المسدّس على صدغها أحياناً، وكادت طلقات نارية أن تلامس رقبتها، وخاضت مواجهات مع حثالة المجرمين في مانشستر. وبينما كانت تستطيع آنذاك أن تسيطر على خوفها في كلّ مرّة تتعرّض فيها لهكذا أخطار، كانت في هذه الحالة تُظهر جُبناً أمام إبرة محقنٍ صغيرة!

أغمضت مادلين عينيها وتنفّست من جديد بعمق، ثمّ ضغطت على مكبس المحقن. سحبت الإبرة ووضعت قطعة من القطن لإيقاف النزف من مكان الإبرة.

استلقت على سريرها وهي ترتجف. في الصباح، في المحطّة،

كانت قد أحسّت بأنّها على مشارف الموت. فقد شعرت بالغثيان وبتشنّجاتٍ في المعدة وبضيقٍ في التنفّس من جرّاء قلّة الهواء، وبصداعٍ شديدٍ في رأسها. وهي ترتجف، سحبت الغطاء وتلحّفت به. خلف عينيها المغمضتين، رأت من جديد صور الطفل جوليان وألوان الدم والمدينة المحترقة، ومن ثمّ كعدٍّ عكسي، رأت اللوحة الأكثر صفاءً وهدوءاً للأمومة، وأحسّت شيئاً فشيئاً بأنّها تتحسّن. خفّ تورّم جسمها. ولأنها لم تستطع أن تنام، نهضت من سريرها وغسلت وجهها بالماء البارد. أحسّت بالجوع. كانت الروائح الشهيّة للريزوتو بالكمأ تصعد وتبلغ المرسم، فتنازلت عن كبريائها ونزلت من جديد لتنضمّ إلى غاسبار في الصالون.

- قل لي يا كوتانس، هل لا تزال دعوتكَ لي إلى العشاء قائمة؟ سوف ترى إن كنتُ من آكلة الكينوا...

3.

بخلاف كلّ التوقّعات، كانت الوجبة ممتعة ولذيذة. قبل عامين، كانت مادلين قد حضرت في مسرح برودواي عرضاً لمسرحية **مدينة الأشباح**، وهي إحدى مسرحيات غاسبار التي تمّ تمثيلها على مدى شهرين في مسرح باريمور من قبل جيف دانييلز وريتشل وايز. كانت لا تزال محفوظة في ذاكرتها: فقد كانت الحوارات رائعة، لكنّها تقدّم رؤية ساخرة للعالم تُشعِرُها بالضيق.

لحسن الحظّ، لم يكن كوتانس في حقيقته يشبه الشخصية الساخرة والمتهكّمة التي كانت كتاباته تُظهرها. في الحقيقة، كان أشبه بجسم طائرٍ مجهول: رجلٌ كاره للبشرية ومتشائم، ولكنّه الرجل الذي يستطيع أن يكون، خلال وجبة عشاء، رفيقاً لطيفاً. انصبّ

القسم الأساسي من حديثهما على شون لورينز، ويكاد هذا الأمر أن يكون طبيعيّاً. تقاسما حماستهما الجديدة لفنّه، وعرجا لوقتٍ أطول على المعلومات والحكايات التي حصل كلّ منهما عليها في فترة ما بعد ظهيرة ذلك اليوم. تناولا بشهيّة مفتوحة حتى آخر لقمة من الريزوتو، وشربا قنينة كاملة من نبيذ سان-جوليان.

بعد الانتهاء من الوجبة، استمرّ الحديث بينهما في الصالون. في ركن الموسيقى، كان غاسبار قد اختار أسطوانة قديمة للموسيقي أوسكار بيترسون، وأوقد المدفأة، واكتشف قنينة من ويسكي بابي فان وينكل معتّق لعشرين سنة. كانت مادلين قد خلعت حذاءها، ومدّت قدميها على الأريكة، ووضعت بطانية على كتفيها، وأخرجت من جيبها سيجارةً ملفوفة باليد لا تحتوي سوى على التبغ. أرخى مزيج العشب والويسكي جسديهما ولطّف الجوّ أيضاً إلى أن اتّخذ الحديث منحى شخصيّاً أكثر.

- هل لديكَ أطفال، يا كوتانس؟

جاء الجواب سريعاً:

- كلا، الحمد لله! ولن يكون لي أطفالٌ أبداً.

- لماذا؟

- أنا أرفض أن أعرّض أيّ شخصٍ لصخب هذا العالم الذي نعيش فيه مرغمين.

سحبت مادلين نفساً من سيجارتها، وسألته:

- ألا تعتقد أنّك تبالغ قليلاً في هذا الأمر؟

- كلا، لا أرى في هذا مبالغة.

- أتّفق معك بأنّ بعض الأمور سيّئة ولكن. . .

- بعض الأمور سيّئة؟ افتحي عينيكِ، تبّاً! الكوكب على شفا

الهاوية والمستقبل سيكون مرعباً: سيكون أكثر عنفاً وأكثر تلوّثاً وأكثر إثارة للخوف. لا بدّ أن يكون المرء في غاية الأنانية حتى يعرّض شخصاً إلى هذه المخاطر الفظيعة.

حاولت مادلين أن تردّ عليه، لكنّ غاسبار استرسل في الحديث، وخلال ربع ساعة، بعيونٍ محمرّة وأنفاسٍ تفوح منها رائحة الكحول، أورد كمّاً هائلاً من البراهين على تشاؤمٍ عميق حيال مستقبل البشرية، واصفاً مجتمعاً رهيباً ينبئ بنهاية العالم، عبداً للتكنولوجيا والاستهلاك المفرط والفكر الرديء. مجتمعٌ مفترس يقطع، من خلال تدميره المنهجي للطبيعة، تذكرة ذهابٍ من دون إياب إلى العدم.

انتظرت إلى أن تأكّدت من أنّه قد انتهى من خطبته اللاذعة، قبل أن تبدي ملاحظاتها:

- في الحقيقة أنت لا تكره الأغبياء والحمقى فقط، وإنّما تكره الجنس البشري بمجمله.

لم يحاول غاسبار أن ينفي ذلك:

- أنتِ تعرفين مقولة شكسبير: «حتى أشدّ الحيوانات وحشية يعرف الشفقة». لكنّ الإنسان لا يعرف الشفقة. الإنسان هو أسوأ الحيوانات المفترسة. الإنسان هو الحشرة التي، تحت طلاءٍ لمّاعٍ من الحضارة، لا تستمتع إلّا بممارسة الهيمنة والإذلال. إنّه جنسٌ مصاب بداء العظمة وانتحاري يحتقر أقرانه لأنّه يحتقر ذاته.

- وأنت يا كوتانس، أنت مختلفٌ بالطبع؟

هتف وهو يشرب آخر جرعة من الويسكي:

- كلا، على العكس تماماً. يمكنكِ أن تضعيني في المجموعة نفسها إذا كان ذلك يروق لكِ.

سحقت مادلين سيجارتها في كوبٍ كان يُستخدَم كمنفضة، ثمّ قالت:

- لا بدّ أنّك عانيت الكثير من التعاسة حتى تفكّر بهذه الطريقة.

نفى ذلك بقفا يده بينما كانت تذهب لتجلب ماءً من الثلّاجة. قال:

- أنا فقط واضحٌ وصريح والقائمون على الدراسات العلمية أكثر تشاؤماً منّي. سوف تتلاشى النُّظُم الإيكولوجية للأرض حتماً، وقد عبرنا نقطة اللاعودة، وقد...

استفزّته مادلين:

- ولكن، لماذا لا تُطلق رصاصة على رأسك، هنا، وفي الحال؟

دافع عن رأيه قائلاً:

- ليست هذه هي المسألة. أنتِ سألتِني لماذا ليس لدي أطفال. وأجبتكِ: لأنني لا أريد أن أراهم يكبرون وسط الفوضى والرعب.

مدّ إصبعاً نحوها كان يرتجف بفعل تأثير الكحول والغضب، وقال بنبرة اتّهامية:

- سوف لن أفرض أبداً هذا العالم القاسي على طفل. إذا أردتِ أن تتّخذي خياراً مختلفاً، هذه مشكلتكِ، ولكن لا تطلبي منّي أن أؤيّده.

قالت بلهجة مطمئنّة:

- لا أبالي كثيراً بتأييدك، ولكنني مع ذلك أتساءَل: لماذا لا تناضل من أجل تغيير كلّ هذا؟ دافِعْ عن الأسباب التي تحتفظ بها في قلبك. انضمّ إلى جمعية، ناضل في صفوف...

عبس غاسبار، تعبيراً عن الامتعاض والتقزّز:

- النضال الجماعي؟ هذا لا يروق لي. أنا أكره الأحزاب السياسية والنقابات وجماعات الضغط. أنا أفكّر مثل براسانس الذي يقول: «ما أن يزيد عددنا عن أربعة أشخاص، نصبح زمرة من الحمقى». ثمّ إنّ المعركة خاسرة، وإن كان الناس على درجة من الجبن بحيث لا يجرؤون على الاعتراف بذلك.

- هل تعرف ما الذي ينقصك؟ هو أن تخوض معركة حقيقيّة. وأن تنجب طفلاً هذا يعني أنّك مرغمٌ على خوض هذه المعركة. المعركة من أجل المستقبل. المعركة التي كانت موجودة دائماً وستبقى موجودة إلى الأبد.

نظر إليها باستغراب، ثم سألها:

- ولكنّكِ أنتِ، يا مادلين، أليس لديكِ أطفالٌ؟

- ربّما سيكون لي أطفالٌ يوماً ما.

قال بنبرةٍ ساخرة:

- من أجل متعتكِ الشخصية فقط، أهذا هو السبب؟ لكي تشعري بأنّكِ «كاملة»، «ناجزة»، «ممتلئة»؟ لكي تفعلي مثل صديقاتكِ؟ لكي تتخلّصي من الأسئلة المثيرة للإحساس بالذنب التي يطرحها والدكِ وأمّكِ؟

خرجت مادلين عن طورها، فنهضت ورشّت دفقةً من الماء المثلّج على وجهه لكي تُسكته. ثمّ تردّدت للحظة، وفي النهاية رمته بقنينة البلاستيك نفسها، وصاحت به وهي تذهب نحو السلّم:

- أنت حقّاً في غاية الحماقة والغباء!

صعدت السلّم كلّ درجتين دفعة واحدة، وصفقت باب غرفتها.

أطلق غاسبار عندما بقي بمفرده تنهيدة عميقة. بالتأكيد لم تكن

هذه المرّة الأولى التي يجعله الكحول يتلفّظ بأشياء فظيعة، ولكن كانت هذه هي المرّة الأولى التي يندم فيها على ذلك بهذه السرعة.

منزعجاً مثل طفلٍ، سكب لنفسه كأساً من الويسكي، وأطفأ الأنوار قبل أن يستلقي على أريكة الصالون وهو يئنّ بألم.

أعاد في ذهنه المشوّش تحت تأثير الكحول شريط المشاجرة. استعرض في ذهنه حججه وحجج مادلين. ربّما كان أرعناً في حديثه معها، لكنّه كان صادقاً. ندم على قسوة كلماته لا على جوهرها. الآن وهو يُعيد التفكير في حديثهما، أدرك أنّ هناك حقيقة بديهية لم يذكرها: الأشخاص الذين يريدون إنجاب أطفالٍ يشعرون حتماً بأنّهم قادرون على حمايتهم.

والحال أنّ غاسبار شخصياً لن يكون كذلك أبداً.

وكان هذا الأمر يرعبه.

الرسّام المجنون

الأربعاء 21 ديسمبر

5

تلابيب القدر

الحياة لا تقدّم هدايا.

جاك بريل

.1

الرأس الذي يطنّ، والقلب الذي يخفق وينقبض، والنوم القلق الذي يطير فجأةً.

أجفلت قرقعة باب المدخل غاسبار وانتزعته من نعاسه. احتاج إلى عدّة ثوانٍ لكي يصحو تماماً. في البداية، لم يعرف أين هو، ثمّ أدرك الحقيقة المُحزِنة: كان قد نام منكمشاً على نفسه في الأريكة القديمة لشون لورينز من طراز أيمز. كان قميصه، المبلّل بالعرق، قد التصق بجلد الأريكة وانضغط وجهه على مسندها. نهض واقفاً بمشقّة وهو يفرك جفنيه ويمسّد رقبته وأضلاعه. الصداع الناجم عن الكحول بكلّ فظاعته: ألم في الرأس، ومذاق الإسمنت في الفم، وغثيان، ومفاصل صدئة. وهو المشهد المتكرّر الذي كان يقسم بعده، في كلّ مرّة، بأنّه لن يعود يمسّ بشفتيه قطرة من الكحول. لكنّه كان يعلم بأنّ قراره هذا هشّ، وأنّه مع حلول الظهيرة سيرغب في شرب كأسٍ من الكحول.

ألقى نظرةً على ساعة يده، فكانت تشير إلى الثامنة صباحاً. خمّن أنّ مادلين ستكون قد خرجت من المنزل وأحسّ بشيءٍ من الخجل لأنّها ستكون قد رأته على هذه الحالة. جرجر قدميه حتى وصل إلى الحمّام، وظلّ لربع ساعة كاملة تحت رشّاش الماء، وشرب ما يعادل نصف لترٍ من الماء الفاتر مباشرةً من المرشّ. أمسك بمنشفةٍ أحاط بها خصره، وخرج من الحمّام وهو يمسّد صدغيه.

اشتدّ به الصداع ضاغطاً على جمجمته بعناد. كان يحتاج بشكلٍ عاجل إلى قرصين من الإيبوبروفين المسكّن. نبش في حقيبته، ولكنّه لم يعثر فيها على أيّ دواء، لا من قريبٍ ولا من بعيد. بعد تردّدٍ لبرهةٍ قصيرة، صعد إلى الطابق الذي تشغله مادلين ووجد محفظة أدوات التجميل خاصّتها، وعثر على ما كان يبحث عنه. لحسن الحظّ، هناك دائماً من الناس مَن يخدمون آخرين.

عاد إلى غرفته، وتناول قرصي آدفيل. ارتدى ثيابه قبل أن ينتقل إلى المطبخ بحثاً عن القهوة. وجد إبريق قهوة في المطبخ ولكنّه لم يعثر على أثرٍ للبنّ. فتح من دون جدوى جميع الخزن، لم يجد علبة من البن في انتظاره، فانتهى به المطاف بالرضوخ للأمر الواقع، وأعدّ لنفسه طبقاً من حساء الدجاج، وتناوله على الشرفة. حسّن الهواء المنعش في البداية مزاجه وأراحه قبل أن يدفعه لاحقاً للعودة إلى دفء الصالون. في الصالون، وقع على ركن الموسيقى حيث مكتبة الأسطوانات التي وجد بينها الأسطوانات التي كانت بولين قد حدّثته عنها في الليلة السابقة. الأسطوانات التي كان يستمع إليها مراراً وتكراراً شون لورينز في الأيام التي سبقت وفاته.

كانت الأسطوانة الأولى، هي الأسطوانة التي لا بدّ وأن تكون

في كلّ مكتبة أسطواناتٍ كلاسيكية: **السيمفونية الخامسة** لبيتهوفن بقيادة كارلوس كلايبر. على الغلاف الخارجي لعلبة الأسطوانة، كان باحثٌ موسيقيّ قد كتب عبارة يشير فيها إلى الإرادة القويّة التي حثّت المؤلّف الموسيقي الكبير طيلة حياته على أن «يمسك القدر من تلابيبه». في الواقع كانت **السيمفونية الخامسة** موجّهة بأكملها إلى المواجهة بين الإنسان ومصيره. كان بيتهوفن يقول: «هكذا يضرب القدر»، وذلك لكي يضفي رمزية على أثر النوتات الأربع التي تفتتح سيمفونيته.

أمّا التسجيل الثاني، فكانت تفوح منه رائحة موسيقى الثمانينيات: علبة تضمّ أسطوانتين من إنتاج شركة دوتش غراموفون تحتويان على **السيمفونية الثانية** للموسيقي غوستاف مالر بقيادة ليونارد برنشتاين. مع باربارا هندريكس وكريستا لودفيغ كضيفَي شرف. لم تكن **السيمفونية الثانية** للمؤلّف الموسيقي النمساوي المسماة «القيامة» مألوفة بالنسبة إلى غاسبار. كشفت له قراءة الموجز التعريفي بأنّ الأمر يتعلّق بعملٍ ديني، حيث كان مالر قد اعتنق المسيحية حديثاً. كان العمل يطرح أفكاراً عن الحياة الخالدة وقيامة الأجساد. وكانت ملاحظات الموجز التعريفي تنتهي بعبارات ليونارد برنشتاين: «تتناول موسيقى مالر بصدقٍ بالغ شكوكنا التي تمسّ الحياة والموت. هذه الموسيقى صادقة للغاية وتقول أشياء من المرعب سماعها».

أشياء من المرعب سماعها...

حكّ غاسبار رأسه. تُرى لماذا شَغِف لورينز، العاشق الكبير لموسيقى الجاز والموسيقى المينيمالية، في نهاية حياته بالسيمفونيات الضخمة؟

أفرغ ما تبقّى من الحساء الفاتر في المغسلة، وانتقل إلى الصالون، وجلس إلى طاولة العمل مع كرّاسته وقلمه لكي يفكّر في كتابة نصّه المسرحي. لاقى صعوبة في التركيز لأنّه كان قد أمضى ليلة غريبة، تكاد تكون عبثية، وهو يحوم في أحلامه وسط المناظر المخدِّرة الموشومة على الجسد المكبّل بالحبال لجارته الجميلة. رؤيةٌ ليست عنيفة ولكنّها مثيرة للاضطراب.

خلال ما يقارب عشرين دقيقة، نجح في إقناع نفسه بأنّه سيكون بإمكانه أن يكتب، لكنّ الوهم لم يستمرّ طويلاً، فقد تملّكه الإحساس بأنّ الرسّام لورينز، في الصورة الكبيرة المعلّقة، ينظر إليه ويُبدي رأيه فيه.

بعد بُرهةٍ، لم يعد غاسبار قادراً على الصمود، فنهض من مكانه، ووقف من جديد أمام الصور المعلّقة على الجدار. أدرك حينها أنّ ما كان يزعجه ويُقلقه لم تكن صورة الرسّام وإنّما صور الطفل.

الطفل الميّت... ولكن المليء رغم ذلك بالفرح والحيوية على الورق الفضي.

اللعنة! لقد كانت مادلين غرين هذه، التي شاركته انحراف مزاجها، هي التي أصابته بالعدوى!

استسلم غاسبار للسقوط في الأريكة متنهّداً. في القنينة الموضوعة على الطاولة المنخفضة أمامه، وقع الانعكاس الشفيف للويسكي على عينيه، لكنّه قاوم هذا الإغراء. ظلّ يُمعن النظر لعدّة دقائق في صورة، يظهر فيها الطفل جوليان في مدينة للملاهي ممتطياً باعتزاز صهوة حصانٍ خشبيّ قديم. أمام دوّامة الخيل، كان يظهر

طيف شون لورينز الودود وهو يراقب نجله. نبش غاسبار في جيب سرواله الجينز لكي يُخرج منه محفظته. وجد داخل الجيب الصغير للمحفظة، صورة قديمة بألوانٍ باهتة لم يكن قد نظر إليها منذ سنواتٍ طويلة: كانت صورته وهو في الثالثة من عمره، مع والده، على ظهر أحد أحصنة لعبة دوّامة الخيل في حديقة لوكسمبورغ. وكانت الصورة تعود إلى عام 1977. كانت أربعون سنة تقريباً تفصل بين تاريخَي الصورتين. لم تكن الصورتان في الحقبة نفسها، ولكنّهما كانتا في اللعبة نفسها، وكان الضوء نفسه يلمع في عينَي الطفلين، ومسحة الافتخار والاعتزاز نفسها في نظرة الوالدين.

2.

أوقفت مادلين درّاجتها السكوتر في زاوية تقاطع جادّة مونبارناس وشارع سيفر. لم تكن الساعة قد بلغت التاسعة بعد، ومع ذلك كان الهواء قد بات مشبعاً برطوبةٍ متعفّنة. لمّا نزعت قفازيها ووشاحها، انتبهت إلى أنّها كانت قد تعرّقت.

قالت بحسرة: «**هذا ومن المفترض أنّنا في فصل الشتاء!**»...

لكن، في هذا الصباح، كان هناك ما هو أكثر إثارةً للقلق من الاحتباس الحراري: كان من الصعب التعرّف على الحيّ. كانت مظاهرة الليلة الماضية قد حطّمت ودمّرت كلّ شيء من مواقف الحافلات وواجهات المتاجر واللوحات الإعلانية. وكان على الأرصفة ومسارات الطرق كمٌّ هائلٌ من حطام الزجاج والبلاط وقطع الإسفلت المنتزَعة. كان ذلك أشبه بمشهدٍ سرياليٍّ للحرب، لم تفكّر قطّ أنها ستراه في حياتها، في باريس. وكانت هناك، في كلّ مكان، المئات من العبارات الغاضبة التي تشوّه كلّ شيءٍ: **الجميع يكره**

الشرطة / أنا أفكّر إذاً أنا أحطّم / من الرماد، كلّ شيء يصبح ممكناً / الموت للرأسمال / الانتصار بالفوضى / نتغوّط على قوانينكم.

شوّش تصرّف المارة ذهنها. كان البعض منهم، مثلها تماماً، يحملقون بذهول، بينما كان آخرون غير مبالين، في حين كان بعضهم الآخر، مبتسمين وساخرين، يتوقّفون لكي يلتقطوا صور سيلفي. حتى جدار مدخل المعهد الوطني للشباب المكفوفين كان قد تضرّر وتمّ تلطيخه بعبارات الكراهية. أثار مشهد الخراب هذا في داخلها الرغبة في البكاء. كان يحدث في هذا البلد شيءٌ ما غير مفهومٍ بالنسبة إليها.

لمّا وصلت إلى أمام المركز الطبّي الذي كانت على موعدٍ فيه، اكتشفت مادلين أنّ زجاج واجهاته ونوافذه هي الأخرى قد تناثرت حطاماً. وكان أحد العمال منهمكاً في إزاحة لوحٍ خشبيٍّ، كان قد استخدِم في تحطيم واجهة المركز. بينما كانت متردّدة بين متابعة طريقها أو العودة إلى الوراء، أدرك الرجل اضطرابها، فأشار إلى لوحة إعلانية صغيرة كانت تشير إلى أنّ المركز مفتوحٌ على الرغم من الأحداث التي وقعت في المدينة.

دخلت إلى بهو المركز وأعطت اسمها لمكتب الاستقبال. ولأنّها كانت قد وصلت قبل موعدها لأخذ عيّنة من الدم بغرض التحليل، تجنّبت قاعة الانتظار وتمّت عملية أخذ العيّنة خلال ثلاث دقائق، وهي عبارة عن إبرة، وأنبوب اختبار امتلأ بالدم، ولصقة طبيّة على مكان غرز الإبرة في ذراعها. ثمّ طُلِبَ منها أن تستقلّ المصعد وتصعد إلى الطابق الثاني المخصّص للتصوير الإشعاعي والإيكوغرافي.

بينما كان الطبيب يُجري لها التصوير الإيكوغرافي، أعادت في ذهنها النقاش العاصف الذي أجرته مساء اليوم السابق مع كوتانس. إذا كان الكاتب المسرحي قد أصاب في استنتاجه، فقد أخطأ في استسلامه وعدميّته، لأنّه سيكون هناك على الدوام أناسٌ لكي يقاوموا ويكافحوا ضدّ العنف الاجتماعي، ويتصدّوا للكوارث الداهمة. وربّما سيكون طفلها جزءاً من هؤلاء الناس.

في النهاية، كان من السهل أن تقول هذا، لأنّها لم تكن قد حملت بعد.

ولكن بعد مضيّ أربعة أشهر، بينما كانت في عطلة في إسبانيا، خطت تلك الخطوة وزارت عيادة للإخصاب في مدريد. كانت ستبلغ سنّ الأربعين، ولم يكن هناك أيّ أثر لعلاقة جدّية في الأفق. حتى وإن كان هناك احتمال بأن تكون الأضرار أسوأ بكثير، لم يكن بمقدورها أن تنكر أنّ جسدها كان يشيخ، سيما وأنّ قلبها لم يعُد يقوى على الحبّ.

إذا أرادت ذات يوم أن تنجب طفلاً، لم يعد أمامها سوى ورقة واحدة لتلعبها. فملأت استمارةً، والتقت طبيباً، وأجرت فحوصاً وتحاليلاً لكي تخضع لعملية إخصابٍ بطريقة طفل الأنبوب. وكانت هذه العملية تعني تحديداً أن يتمّ انتزاع بويضات من رحمها وإخصابها بالسائل المنوي لمتبرّعٍ مجهول. بالتأكيد لن يكون المتبرّع هو الرجل الذي لطالما حلمت به، لكنّها كانت متشبّثة بهذا المشروع بكلّ ما أوتيت من قوّة وحماسة. لكي تنجب طفلاً، عانت من محنة يومية. قبل كلّ شيء، كان عليها أن تخضع لعلاجٍ هرموني إلزامي، حيث كان عليها أن تحقن كلّ مساء بطنها بجرعة من الهرمونات المحفّزة للمبيض على إفراز البيوض. ثمّ كان عليها، أن تجري، كلّ

يومين مرّة واحدة، عملية سحب عيّنة من الدم لتحليله ومن ثمّ إجراء تصوير إيكوغرافي للتحقّق من تطوّر عدد وحجم بيوضها. ومن ثمّ كان عليها أن تبلّغ بنفسها الكادر الطبي في العيادة الإسبانية بنتائج التحاليل والتصوير.

كانت هذه المعالجة تنهكها، فكان بطنها ينتفخ وصدرها يمتدّ وساقاها تصبحان ثقيلتين جدّاً، وغالباً ما كان الصداع والحساسية لا يدعانها تهنأ بلحظة من الراحة.

كانت الحجرة مظلمة، وبينما كان الطبيب يضع مسبار جهاز التصوير الإيكوغرافي على أسفل بطنها، أغمضت مادلين عينيها. أقنعت نفسها بأنّها قد اتّخذت القرار الصائب. سوف تنجب طفلاً لكي تتشبّث بالحياة، وترسّخ قدميها فيها. لزمنٍ طويلٍ جدّاً، في أثناء ممارستها لمهنتها، قامت بإجراء التحقيقات حول موتى، ولكنّ الموتى يسحبون المرء نحو عوالمهم المظلمة. ثمّ إنّها قد أعطت كلّ شيء في سبيل حبّ رجلٍ، لكنّ حبّ الرجال متقلّبٌ وهشٌّ ومزاجيّ. ولتمنح الشجاعة لنفسها، تذكّرت كلمات الوداع التي كان أحدهم قد خصّها بها: كان داني دويل، حبّها الأوّل في المدرسة الثانوية، قد سلك مساراً معاكساً لمسارها في الحياة، وذلك بعد أن أصبح أحد رعاة العصابات في مانشستر. داني دويل الذي واجهته حينما أصبحت شرطية، ولكنّه لم يكفّ قطّ عن حمايتها، عن بُعد، والحفاظ على سلامتها.

كان داني قد كتب لها:

أعرف أنّكِ مسكونة بالخوف. أعرف أنّ لياليكِ مضطربة ومسكونة بالأشباح، وبالجثث، وبالعفاريت. أعرف مدى إصرارك وعزمكِ، ولكنني أعرف أيضاً هذا الجانب من العتمةِ والتدمير

الذاتي الذي تضمرينه في داخلكِ. كان هذا الجانب موجوداً في داخلكِ حينما التقينا في الثانوية، ولم يفعل سير الأمور سوى تعميقِه وتوسيعه. أنتِ تعيشين دوّامةً في حياتكِ، يا مادي. يجب أن تخرجي من هذه الدوّامة قبل أن تسقطي في هاويةٍ لن تعودي منها أبداً. لا أريد أن تكون حياتكِ هكذا. لا أريدكِ أن تسلكي الطريق الذي ضيّعتُ نفسي فيه: الطريق الذي ينحدر عميقاً في غياهب الظلمات والعنف والعذاب والموت. . .

الحياة لا تُعيد نفسها، والفرص الضائعة تبقى ضائعة إلى الأبد. الحياة لا تقدّم هدايا. الحياة مدحلة، حاكمٌ مستبدّ يحكم مملكته من خلال إشاعة الرعب فيها بذراعه المسلّحة: الزمن. والزمن ينتصر دائماً في النهاية. الزمن هو المدمّر الأكبر للتاريخ. الزمن هو الذي لن ينجح أيّ شرطيّ أبداً في أن يودِعه السجن.

3.

نهض غاسبار من الأريكة. بدأ هاتفٌ محمول -لا شكّ أنّ مادلين كانت قد نسيته- بالارتجاج على طاولة التحضير في المطبخ. ولأنّه رفض على الدوام أن يقتني أحد هذه الأجهزة، ظلّ لبرهةٍ ينظر إلى الجهاز بارتياب، ولكنّه قرّر مع ذلك أن يردّ على المكالمة. كانت مادلين هي المتّصلة. بدأ بجملةٍ لكي يردّ عليها، لكنّه قطع المحادثة، خطأً، من خلال لمس الشاشة في مكانٍ خاطئ.

أطلق شتيمةً ودسّ الجهاز في جيبه.

تنهّد. كان صداعه قد خفّ، ولكن ذهنه لا يزال مشوّشاً. لم يعُد قادراً على المماطلة والتسويف: كان بحاجة إلى شرب بعض القهوة! وليس فنجاناً واحداً فقط.

أخذ إحدى قناني النبيذ الفاخرة التي كان قد اشتراها في الليلة السابقة، وخرج من المنزل ليذهب إلى بيتٍ جارته المفضّلة.

ردّت بولين دولاتور، هذه المرّة، منذ رنّة الجرس الأولى. كأنّه كان فصل الربيع، كانت ترتدي من جديد ثياباً خفيفة: سروال جينز قصير وقميص عسكري لونه كاكي مفتوح على قميصٍ داخلي خفيف.

اقترح عليها وهو يلوّح بالقنينة:

- كأس من نبيذ بينو الأسود مع كوبٍ كبيرٍ من قهوة الإكسبرسو؟

ابتسمت، وبإشارةٍ من يدها دعته إلى الدخول.

4.

بعد أن أجرت فحوصاتها الطبية، كانت مادلين قد وجدت الملاذ في شارع فوبورغ-سانت-أونوريه في مطعم كارافيلا الإيطالي المريح والهادئ الذي كان برنار بينيديك قد عرّفها عليه. كان أخذ عينة الدم للتحليل يتطلّب منها أن تكون صائمة عن الطعام، ولذلك لم تكُن قد تناولت شيئاً منذ الليلة السابقة، وبدأت تشعر بالدوار جوعاً. طلبت فنجاناً من القهوة بالحليب مع طبقٍ من البسكويت، وتهيّأت للاتصال بعيادة الإخصاب حينما اكتشفت أنّها قد نسيت هاتفها المحمول في شارع شيرش-ميدي.

قالت في نفسها متحسّرة وهي تضرب الطاولة براحة يدها: «**لم يكن ينقصني سوى أن أنسى هاتفي!**».

سألها النادل، وهو يقدّم لها الفطور:

- هل من مشكلة؟

تعرّفت على غريغوري، صاحب المطعم الشابّ الذي كان صاحب صالة العرض قد عرّفها به في الليلة الماضية.

- لقد نسيتُ هاتفي المحمول، ولديّ مكالمة ضرورية يجب أن أجريها.

اقترح عليها، وهو يُخرج من جيبه هاتفاً مغلّفاً بألوان نادي إيه سي ميلان:

- هل أُعيركِ هاتفي؟

- شكراً، هذا لطفٌ منك!

اتّصلت برقم المركز في مدريد، وطلبت التحدّث إلى لويزا. في قسم التنسيق في العيادة، كانت قد صادقت هذه الممرّضة التي كان شقيقها شرطيّاً. كانت تعرف تفاصيل دوامها، وإذا دعت الحاجة، تتّصل بها مباشرةً على هاتفها المحمول لكي تتجنّب أن يعرف نصف موظّفي المركز عدد وحجم بويضاتها. كانت لويزا تسجّل النتائج لديها، وتحوّلها إلى طبيبٍ يقوم بتقييم استجابة المبيض ويعدّل، عند الاقتضاء، الجرعات الهرمونية التي ينبغي حقن جسم مادلين بها. بالتأكيد، كان الأمر هنا مختلفاً عن طبيب العائلة، كانت المعالجة تتمّ في إطار الجيل الثاني للطبّ(*)، المعولَم، المنخفض الكلفة بعض الشيء، والمحزن بعض الشيء. لكن إذا كان عليها أن تمرّ بهذه التجربة لكي تنجب طفلاً، فهي مستعدّة لذلك.

استخدمت مادلين هاتف غريغوري لتتّصل منه برقمها الخاص. لحسن الحظّ، ردّ كوتانس على مكالمتها:

- أين أنت، يا غاسبار؟ هل يمكنك أن تجلب لي هاتفي؟

(*) أو طب 2.0، ويمثّل هذا المصطلح استخدام أطراف الرعاية الصحية بما فيهم الأطباء والمرضى والعلماء لمجموعة محددة من أدوات الإنترنت والتطبيقات التكنولوجية. -المترجم-

غمغم الكاتب المسرحي بكلماتٍ غير مفهومة ثمّ انقطع الاتصال. ولأنّها أدركت بأنّها سوف لن تستفيد شيئاً من معاودة الاتصال به، أرسلت له رسالة قصيرة، كتبت فيها: **هل يمكنك أن تجلب لي هاتفي؟ إذا كان هذا يناسبك، موعدنا عند منتصف الظهيرة في مطعم غراند كافيه في شارع دولامبر. أشكرك. مادي.**

ولأنّ قهوتها كانت قد بردت، طلبت فنجاناً آخر وشربتها دفعةً واحدة. كانت قد نامت بشكلٍ سيئٍ للغاية، إذ داهمت اللوحات الساحرة للورينز نومها وظلّت تنغّص عليها راحتها. ظلّت، طيلة الليل، ترحل في أحلامها وسط آفاقٍ من الألوان الكثيفة وغاباتٍ حسّية بنباتاتٍ نابضة بالحياة، ومنحدراتٍ تبعث على الدوار والغثيان، ومدنٍ تجتاحها رياحٌ حارقة. لمّا استيقظت من النوم، لم تكن قادرة على أن تحدّد إن كان هذا التيه الطويل حلماً أم كابوساً. لكنّها بدأت تدرك أنّ مفتاح أعمال شون لورينز يكمن بالضبط في هذا التناقض بين الحلم والكابوس.

لمحت برنار بينيديك على الجانب الآخر من الرصيف، فنقرت على زجاج واجهة المقهى لكي تُعلن له عن حضورها، ومثلما كانت تتأمّل، لم يتأخّر صاحب صالة العرض طويلاً لكي ينضمّ إليها.

قال بلهجة احتفالية، وهو يأخذ مكانه أمامها:

- كنتُ متأكّداً من أنني سألتقي بكِ من جديد! لا يمكن للمرء أن يُقاوم فنّ شون لورينز، أليس كذلك؟

- ردّت مادلين عليه بعتابٍ:

- لم تُخبرني أنّ ابن لورينز مات مقتولاً.

قال مؤيّداً، بصوتٍ مُرتبك:

- هذا صحيح، ولكنني لم أخبركِ لأنني أكره الحديث عن هذا الأمر. كان جوليان ابني بالمعمودية. لقد دمّرتنا هذه المأساة جميعاً.

- ما الذي حدث، بالضبط؟

قال متنهّداً بحسرة:

- لقد كُتِبَ كلّ شيء في الصحف.

- بالضبط. ما يُكتَبُ في الصحف نادراً ما يكون الحقيقة.

قبل بينيديك الحجّة بهزّ رأسه.

قال متنهّداً من جديد:

- لفهم الأمور جيّداً، يجب العودة إلى الوراء لزمنٍ طويل. لزمنٍ طويلٍ جدّاً، حتى. . .

رفع يده لكي يطلب بدوره فنجاناً من القهوة ويمنح لنفسه بعض الشجاعة.

- لقد سبق لي أن شرحتُ لكِ: منذ لقائي مع شون، استنفرتُ كلّ شبكتي الترويجية لكي أعرّف بأعماله، وأسلّط الضوء عليها. كان شون طموحاً وشرهاً لإجراء اللقاءات. لقد نظّمت له العلاقات مع عددٍ كبيرٍ جدّاً من الشخصياتِ في لندن وبرلين وهونغ كونغ. . . لكن كان هناك مكانٌ واحدٌ لم يرغب قط في أن تطأه قدماه: نيويورك.

- لم أفهم.

- كلّما كنتُ أقترح عليه أن أنظّم له لقاءً مع جامعي اللوحات في مانهاتن، كان يُغيّر موضوع الحديث أو يؤجّله. كان من غير المعقول أن يحدث ذلك، لكنّ شون لورينز لم يعد قطّ إلى مدينته الأمّ منذ عام 1992 وحتى عام 2014 المشؤوم.

- هل كان لا يزال هناك أفرادٌ من عائلته في المدينة؟

- والدته فقط، لكنّه جلبها إلى باريس في نهاية التسعينيات. كان المرض قد اشتدّ بها في تلك الفترة، وقد وافتها المنيّة بعد وصولها إلى باريس بمدّة قصيرة.

غمس بينيديك قطعة كروستيني في قهوته.

- بعد بُرهةٍ، وتحت إلحاحي الشديد عليه، لم يعد بوسع شون أن يفعل شيئاً سوى أن يبوح لي بأجزاءٍ من الحقيقة.

سألت مادلين:

- هل كان ذلك يعود إلى ظروف مغادرته؟

أقرّ صاحب المعرض بإشارةٍ من رأسه:

- في خريف عام 1992، بعد «صيف حبّه» مع بينيلوب، وجد شون نفسه وحيداً في نيويورك. أُصيب بالاكتئاب، ولم يكن لديه من هدفٍ سوى اللحاق بالمرأة الشابّة في باريس. كانت المشكلة هي أنّه لم يكن يمتلك قرشاً واحداً في جيبه. ولكي يجد وسيلة لشراء بطاقة سفر بالطائرة، أخذ يقوم بسرقات صغيرة بتواطؤٍ مع ليدي بيرد.

تذكّرت مادلين:

- العنصر النسائي في مجموعة صنّاع الأسهم النارية.

- كان اسمها الحقيقي بياتريز مونيوز. ابنة مهاجرين تشيليين كانا يعملان في مصانع نورث برونكس. امرأة غريبة الأطوار، منطوية، متوحّشة، مصابة بالتوحّد تقريباً، حبيسة في جسد مصارعٍ. لم يكن هناك أدنى شكّ بأنّها كانت مغرمة بشون، وبأنّها كانت مستعدة لأن ترمي نفسها من النافذة لو أنّه طلب منها ذلك.

- هل تعتقدين أنّه استغلّ حبّها له؟

- بصراحة، لا أعرف الكثير عن هذا الأمر. كان شون رجلاً عبقرياً، وبالتالي، كان مزعجاً، العيش معه كان مسألة معقّدة، لكنّه

لم يكُن أبداً رجلاً سيئاً. كان متهوّراً، سريع الغضب، مهووساً أحادياً، ولكنني لم أره قطّ محتقراً للضعفاء. أعتقد أنّ شون، على مدى سنوات، ولكي لا يجرح مشاعرها، لم يصدّ بياتريز.

- لكنّ بينيلوب قلبت كلّ شيء رأساً على عقب.

- هذا مؤكّد. لا بدّ أنّ مونيوز قد أُصيبت بخيبة أمل حينما علمت بمشروعه في السفر إلى فرنسا، ولكنّها مع ذلك ساعدته في تأمين المال من خلال السطو على محلّات البقالة.

ظهرت شخصية الشرطية في مادلين إلى السطح، فسألت:

- هذا هو ما تسمّونه «السرقات الصغيرة»؟ بالنسبة لي، هي عمليات سطو مسلّح.

- مهلاً! كانت أسلحتهما الوحيدة عبارة عن مسدّسات رشّ الماء وأقنعة من الكاوتشوك لعبة ماريو ولويجي!

لم تقتنع مادلين بذلك:

- سواءً كانت أسلحة مزيّفة أم لا، السطو يبقى سطواً، ومن خلال خبرتي وتجربتي، أعرف أنّ هذه العمليات نادراً ما تنتهي من دون نتائج وخيمة.

قال بينيديك مؤيّداً:

- القول بأنّ هذه العمليات لا تنتهي من دون نتائج وخيمة هو تلطيفٌ للتعبير في الحديث عنها. ذات مساء، في الحي الصيني، لم يشأ بقالٌ أن يستسلم ويدعهما يسرقان بقالته، فأخرج مسدّساً من خلف طاولته وفتح النار عليهما. وفي حين تمكّن شون من الفرار مع المال، تلقّت بياتريز رصاصةً في ظهرها، وسقطت أرضاً في المتجر.

غاصت مادلين في كرسيّها.

واصل بينيديك بصوتٍ خانع:

- حينما أوقف رجال الشرطة المرأة التشيلية، كان لديهم ملفّ ضخم ضدّها.

قالت المحقّقة السابقة، مخمّنةً:

- تسجيلات الفيديو من كاميرات المراقبة لعمليات السطو المسلّح السابقة.

- نعم، كان ذلك المتجر هو الرابع من بين المتاجر التي كانا قد قاما بسرقتها خلال ذلك الشهر. تمّ التعرّف على أقنعتهما الخاصّة بالسبّاكين من ذوي الشوارب الضخمة في كلّ الأشرطة المسجّلة. وكانت تلك الأقنعة هي التي خانتهما، وأوقعت بهما بدل أن تحمي هويّتهما. لسوء حظّها، كانت بياتريز مونيوز قد أوقِفت سابقاً لعدّة مرّات بسبب الشعارات التي كتبتها. كان لديها سجلّ قضائي مليء بالسوابق. بالنسبة إلى رجال الشرطة والمدّعي العام، كان توقيفها بمثابة الجائزة الكبرى، وقد فرحوا للغاية بنجاحهم في توقيفها. هذا هو النظام القضائي الأميركي: قويٌّ مع الضعفاء، ضعيفٌ مع الأقوياء.

- ألم تعترف على شون في أثناء الاستجواب والتحقيقات؟

- كلا، على الإطلاق. حُكِمَ على سيئة الحظّ بثمانية أعوامٍ من السجن، وأضيفت إليها أربعة أعوامٍ أخرى بتهمة محاولة الفرار وأعمال عنفٍ متكرّرة ضدّ المسجونات معها.

- ألم يسلّم شون نفسه للشرطة أبداً؟

ضحك بينيديك، بعصبية:

- في اليوم التالي لتوقيف بياتريز، كان على متن طائرةٍ لكي

ينضمّ إلى بينيلوب في باريس. كانت وجهة نظر شون بسيطة: لم يكُن يشعر بأنّه مدينٌ لبياتريز، لأنّه لم يكن قد طلب منها أيّ شيءٍ أبداً. قامت بالتغطية عليه، ولكنّها هي مَن اتّخذت هذا الخيار بنفسها.

- إذاً، هل قطع كلّ اتصالاته بأصدقاء طفولته؟

- تماماً.

- وهل تعتقد أنّ هذا هو السبب الذي من أجله لم يرغب أبداً في العودةِ إلى نيويورك؟

- يبدو هذا بديهياً، أليس كذلك؟ كان يشعر على نحوٍ غامضٍ أنّ هذه المدينة تمثّل خطراً عليه. وكان محقّاً في إحساسه هذا. حينما خرجت من السجن، عام 2004، كانت بياتريز مونيوز امرأةً محطّمةً جسديّاً ونفسيّاً. عملت على التوالي في أعمالٍ تافهة يميناً ويساراً وحاولت أن تعاود الرسم، ولكنّ لم تكن لديها شبكة للترويج، ولا صاحب معرضٍ يساعدها، ولا مكانة لدى الناس. لأخبركِ الحقيقة، قمتُ، من دون أن أُخبر شون بذلك، بشراء بعض لوحاتها عبر وساطة مركزٍ اجتماعيٍّ في هارلم. وإذا أردتِ، سوف أُطلعكِ على تلك اللوحات. كانت رسوماتها، بعد فترة سجنها، مثل أشباحٍ خالية من الحياة، ومرعبة.

- هل عرفَتْ ما أصبح عليه شون؟

هزّ بينيديك كتفيه.

- وكيف لا؟ اليوم، يكفي النقر على محرّك البحث لاكتشاف جزءٍ كبير من حياته. اكتشفت بياتريز «الصورة الصقيلة» للورينز: لقد نجح الرسّام في أن يصبح مليونيراً، وأن يتزوّج عارضةَ أزياءٍ، وأن ينجب طفلاً رائعاً وجعلتها هذه الصورة أن يجنّ جنونها.

- ما الذي حدث، بالضبط؟

- في عام 2013، اتّصل القائمون على متحف الفنّ الحديث (MoMA) بشون. أرادوا أن ينظّموا في العام التالي أوّل معرض استيعادي كبير لأعماله. على الرغم من أنّ شون لم يكُن يرغب على الإطلاق في العودة إلى نيويورك، إلّا أنّ ذلك بات من العبث، إذ لا يمكن رفض إغراء متحف الفنّ الحديث، فطار، في شهر ديسمبر من سنة 2014، إلى نيويورك مع زوجته وابنه من أجل افتتاح معرضه، وإجراء بعض المقابلات الإعلامية. وكان قد قرّر بألّا يمكث فيها سوى أسبوعٍ واحدٍ، ولكنّ المأساة وقعت هناك.

5.

كانت بولين دولاتور عرضاً مسرحيّاً بحالها، لكثرة ما كانت تحاول جاهدة أن تضفي مظهراً مثيراً على كلّ حركة من حركاتها: خصلةُ شعرٍ مضمومة خلف أذنها، لفّ ساقٍ على أخرى، حركة خفيفة من لسانها لتلعق قطرةً من القهوة على ملتقى شفتيها. لكن لم يكن فيها أيّ شيءمغرٍ على نحوٍ واضح. كحارسة للذوق السليم، كانت لديها طريقة مرحة في إثارة الرغبة عبر الاحتفاء بالحياة، وبشبابها الظافر. لم يضطرّ غاسبار إلى أن يرغم نفسه لكي يردّ على هرائها، ولكن بعد أن شرب فنجانين من القهوة، غيّر اتجاه الحديث نحو الأمر الوحيد الذي كان يهمّه فعلاً: شون لورينز. وكان من الصعب عليه كبح فضوله لا سيما وأنّ بولين قد اعترفت بأنّها قد قامت بدور جليسة أطفال عند الزوجين لورينز حينما زارا نيويورك خلال شتاء عام 2014.

صرّحت:

- لقد عشت المأساة من الداخل، وحتى بعد مضي عامين

عليها، لا أزال أعاني من الكوابيس. في تلك الفترة، كنتُ أهتمُّ بجوليان تقريباً طوال اليوم. كان شون مشغولاً من الصباح وحتى المساء بمعرضه في متحف الفنّ الحديث. أمّا بينيلوب، فقد كانت تعيش بلا همّ أو غمّ، وتقضي أوقاتها في التسوّق وطلاء أظافرها والاسترخاء في حمّام الساونا...

- في أيّ فندقٍ كانا ينزلان؟

- كانا ينزلان في جناحٍ في فندق بريدج كلوب، وهو فندقٌ فاخر في حي ترايبيكا.

فتحت بولين نافذة المطبخ، وجلست على حرفها قبل أن تشعل سيجارةً.

- في اليوم الذي حدث فيه كلّ هذا، كانت بينيلوب قد خطّطت لأن تقوم بالتسوّق في متاجر دين أند ديلوكا، ومن ثمّ تناول الغداء في إيه بي سي كيتشن، وهو مطعم قريب من يونيون سكوير. كان من المفترض أن تأخذ ابنها معها لكي تشتري له ثياباً، لكنّها سألتني، في اللحظة الأخيرة، إن كنتُ أستطيع أن أعتني بجوليان.

سحبت بولين نفساً من سيجارتها. خلال بضع ثوانٍ، تركت متعتها بالحياة مكانها لعصبيةٍ لم تحاول أن تخفيها.

- كان يوم استراحتي. ولأنّه كانت لديّ مشاريعُ، قرّرتُ القيام بها يومذاك، رفضتُ طلبها. أخبرتني بأن لا مشكلة في ذلك، وسوف تخرج مع جوليان. لكنّ الحقيقة هي أنّها لم تذهب أبداً لا إلى غرينتش فيليج ولا إلى يونيون سكوير، وإنّما راحت للقاء عشيقها في الطرف الآخر من المدينة، في شمال آبر ويست سايد، في فندقٍ في جادّة أمستردام.

- ومن كان ذاك العشيق؟

- فيليب كاريا، وكيل عقارات من مدينة نيس، كان يقوم بأعماله بين كوت دازور وميامي. رجلٌ جلفٌ بعض الشيء، كان الرجل الأوّل في حياة بينيلوب في المدرسة الثانوية.

- وماذا كان يعمل في نيويورك؟

- كانت بينيلوب قد أقنعته بأن يلحق بها. في تلك الفترة، كانت تشعر أنّ شون يهملها.

- وهل كان لورينز يعلم أنّ زوجته كانت تخونه؟

تنهّدت بولين:

- بصراحة، ليست لديّ أيّ فكرة عن ذلك. كانت علاقتهما الزوجية تنطبق عليها إلى حدٍّ ما أغنية **العشّاق القدامى** لجاك بريل. إنّها من أولئك العلاقات التي تحتاج إلى الصراع والاشتعال لكي تزدهر. في الحقيقة، لم أفهم قط طبيعة العلاقة التي كانت تربطهما. مَن منهما كان صاحب القرار، مَنْ منهما يسيطر على الآخر، من منهما سجين الآخر...

- أَلَمْ يريحهما إنجاب طفل؟

هزّت كتفيها:

- نادراً ما يُصلح طفلٌ العلاقة بين زوجين.

- وشون، هل كان يخون زوجته؟

- لا أدري.

وضّح غاسبار سؤاله:

- هل كان شون يخون زوجته، **معكِ أنتِ**؟

نكزته بولين بكوعها:

- الرجل الذي يضاجع جليسة أطفال، هذا سيناريو فيلم إباحي سيئ، أليس كذلك؟

ساد صمت. ثمّ بخلاف كلّ توقّع، لعبت بولين ورقة الصراحة:

- بصراحة، لم يكن ذلك بسبب انعدام المحاولات، ولكنّه لم يحصل.

نهض غاسبار، وبموافقة مضيفته، صبّ لنفسه فنجاناً من القهوة.

- إذاً، ما الذي حدث في نيويورك، في ذلك اليوم الشهير؟

- في بداية السهرة، لمّا رأى أنّ بينيلوب لم تَعُد ولم تعطِه أيّ خبر، بدأ شون يقلق، ولكنّه لم يبلّغ الشرطة في الحال. لم يكن من الممكن الاتّصال بزوجته، وذلك لسببٍ وجيه لكونها كانت قد نسيت هاتفها المحمول في الفندق. مرّت الساعات وتعاظم القلق. في الساعة الحادية عشرة مساءً، قرّر شون أن يتّصل بقسم الأمن في الفندق والذي استدعى مباشرةً شرطة نيويورك. وفي الحال أخذت الشرطة القضية على محمل الجدّ بسبب اختفاء الطفل وبسبب شهرة شون. وقد أرسلت، طيلة الليل، الإشارات والبرقيات إلى الدوريات المختلفة، وبدأت بمعاينة تسجيلات كاميرات المراقبة المنصوبة على أطراف الأمكنة التي من المفترض أن تكون بينيلوب قد ذهبت إليها. وبالطبع، لم يعثروا على أيّ شيء.

سحقت بولين سيجارتها في طبق فنجان قهوتها. كان وجهها شاحباً.

- في الساعة السابعة صباحاً، سلّم ساعي بريدٍ للفندق علبة كرتونية، كان في داخلها إصبعٌ صغيرٌ للطفل مرفق بورقة ملطّخة بالدم تتضمّن طلباً لفديةٍ. كان منظراً مروعاً. هنا، دخل مكتب التحقيقات الفيدرالي على الخطّ، وقد قام رجال المباحث بتوسيع دائرة عمليات البحث وأطلقوا إنذار اختطافٍ، وأطلقوا كلّ الإمكانات العلمية

للشرطة... وفي النهاية، كانت إحدى كاميرات المراقبة في جادّة أمستردام قد صوّرت بوضوح عملية خطف بينيلوب وابنها.

فركت بولين عينيها، وهي تتنهّد بحسرة:

- في تلك الفترة، استطعتُ أن أشاهد الصور. هذه المرّة، لم نكن نشاهد فيلماً إباحيّاً، وإنّما بالأحرى فيلم رعب. كان يُشاهد فيه ما يشبه وحشاً بقوّة ثور يدفع على عجلٍ بينيلوب وجوليان إلى الصندوق الخلفي لسيارة فان قديمة.

- ماذا تعنين بما يشبه وحشاً؟

- كانت امرأة من الأباتشي(*) محدّبة الظهر، عريضة المنكبين بذراعين قويّتين.

برطم غاسبار، بينما استمرّت بولين في سردها للأحداث:

- البصمات التي تمّ رفعها عن العلبة الكرتونية كانت محفوظة في سجلّات الشرطة. كانت بصمات بياتريز مونيوز، وهي جانحة سابقة، عُرِفَت أيضاً باسم **ليدي بيرد**، والتي كانت قد واعدت شون في شبابها.

لدى ذِكر اسم «السيّدة-العصفورة»، تذكّر غاسبار الصور التي كان قد رآها في الليلة السابقة في اللوحة الأحادية اللون للرسّام: صور **صنّاع الأسهم النارية** الشبّان وهم يرسمون على عربات المترو في بداية التسعينيات: شون وسترته الفضفاضة جدّاً، **ونايت شيفت**، اللاتيني المتغطرس ذو الأذنين النافرتين، **وليدي بيرد**، الهندية، التي

(*) هي مجموعة من قبائل الهنود الحمر، السكان الأصليين لأميركا الشمالية. -المترجم-

لم تكن خفيفة الوزن أبداً على الرغم من اسمها، والتي كان شعرها الحالك السواد محزوماً بعصابة على طريقة جيرونيمو(*).

- ما أن أمسك مكتب التحقيقات الفيدرالي بملفّ القضية، تسارعت وتيرة الأحداث. قبل منتصف النهار، حدّد رجال المكتب المخبأ الذي قادت بياتريز مونيوز ضحاياها إليه. مستودعٌ بموقعٍ صناعيّ قديم في حي كوينز. لكن حينما قاموا باقتحام المكان، كان قد فات الأوان: كان جوليان قد مات.

6.

سألت مادلين:

- وهذه الفدية، كانت لقاء ماذا، وعلى ماذا تدّلل؟

قلّص برنار بينيديك عينيه:

- تقصدين مبلغها البالغ 000 290 4 دولار؟

- نعم.

- كان المبلغُ ثمن ما عانته المرأة من عذاب، وكانت تُدلّل على عدد الأيام التي قضتها بياتريز في السجن، مضروبةً بألف. أحد عشر عاماً وتسعة أشهر من الجحيم: 4290 يوماً. من خلال الحساب بهذه الطريقة، لا بدّ أنّ المبلغ قد بدا لها زهيداً.

- أتصوّر أنّ لورينز حاول أن يؤمّن المبلغ المطلوب.

- بالتأكيد، لكنّ مونيوز لم تكن تريد قطّ الحصول على النقود.

- ماذا كانت تريد، إذاً؟ الانتقام؟

- نعم، هذه «العدالة الهمجية» التي تحدّث عنها فرانسيس

(*) محارب من قبيلة أباتشي. -المترجم-

بيكون. كانت تريد أن تحطّم حياة شون، وأن تسومه العذاب نفسه الذي كانت قد اكتوت به.

- ومع ذلك، وفّرت حياة زوجةِ لورينز؟

- تمّ إنقاذها في اللحظة الأخيرة. عثر رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية على بينيلوب مقيّدة على كرسي بسلكٍ معدنيٍّ شائك. وهي لا تزال حتى يومنا هذا تحمل آثار الندب الناجمة عن ذلك. لكن الأمر الأكثر فظاعةً، هو أنّ بياتريز قد طعنت جوليان حتى الموت تحت أنظار أمّه.

تجمّد الدم في عروق مادلين. أعادت إلى ذهنها عبارة صديقها داني: طريق **الظلمات، والعذاب، والموت**. أينما حلّت، ومهما فعلت، كانت كلّ الدروب تعيدها دائماً إلى مفترق الطرق هذا وموكبه من الجثث.

- وهل بياتريز مونيوز في السجن، الآن؟

- كلّا، كانت قد نجحت في الفرار من مخبئها قبل مداهمته من قبل رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي. ذهبت وألقت بنفسها تحت عجلاتِ قطارٍ في محطة هارلم-الشارع رقم 125، وهي إحدى المحطّات التي كانا قد اعتادا، شون وهي، أن يرسما على عربات قطاراتها.

أطلق بينيديك، مستسلماً، تنهيدة تعبيراً عن التأسّف.

بحثت مادلين في جيب سترتها عن دواءٍ مضاد لحرقة المعدة.

استأنفت حديثها، بعد أن ابتلعت قرص الدواء:

- ثمّة سؤال أطرحه على نفسي منذ البارحة. كان لورينز في نيويورك لحظة موته قبل عامٍ من الآن، أَليس كذلك؟

- هذا صحيح، لقد توفّي جرّاء أزمةٍ قلبية في وسط الشارع.

- ما الذي راح يفعله هناك؟ لماذا عاد إلى تلك المدينة المحمّلة بكلّ هذه الذكريات المشؤومة؟

- فقط لأنّه كان على موعدٍ مع طبيبٍ متخصّص بأمراض القلب. هذا ما شرحه لي على الهاتف، وعلى أيّ حال، لدي أسبابٌ وجيهة لكي أعتقد أنّ هذه هي الحقيقة فعلاً.

- وما هي هذه الأسباب؟

فتح بينيديك الحقيبة اليدوية الجلدية التي كان قد وضعها على الكرسي الذي بجانبه.

أكّد وهو يُخرج من الحقيبة دفتراً صغيراً لونه بنّي فاتح ويمدّه نحو مادلين:

- لأنني كنتُ أعلم أنّكِ سوف تعودين للقائي من جديد، جلبتُ معي هذا.

تفحّصت الدفتر بانتباه وتركيز. في الحقيقة كان الدفتر عبارة عن مفكّرة صغيرة من ماركة سميثسون، غلافها من الجلد المطبوع.

- كنتُ في باريس حينما علمتُ بموت شون. أقلعتُ بطائرة إلى نيويورك لكي أهتمّ بنقل جثمانه. في فندقه، أنا مَن قمتُ بجمع أغراضه الشخصية. لم تكن هناك سوى حقيبة صغيرة فيها بعض الثياب وهذه المفكّرة.

تصفّحت مادلين المفكّرة. كان أمرٌ واحدٌ مؤكّداً: كان استخدام شون لورينز للوقت، في السنة التي سبقت وفاته، مقتصراً على مواعيد طبيّة. بتاريخ يوم وفاته، 23 ديسمبر من سنة 2015، كان قد كتب: **موعد مع الدكتور شتوكهاوسن، الساعة العاشرة صباحاً.**

- ممّا كان يعاني على وجه التحديد؟

- من أزمات قلبية متكرّرة. في السنة الأخيرة من حياته، أجرى على التوالي عملية رأب الوعاء لتوسيع الأوعية الدموية وجراحة فتح مجرى جانبي للشريان التاجي. أنتِ تتذكّرين أغنية ليو فيري: «حينما يتوقف نبض القلب، لا داعي للبحث بعيداً...».

- هل يمكنني الاحتفاظ بهذه المفكّرة؟

تردّد بينيديك، لكنّه أعطى موافقته بحركةٍ من رأسه.

- هل تعتقد أنّ هذه اللوحات الثلاث موجودة فعلاً؟

أجاب صاحب صالة العرض، وهو يحدّق فيها بثبات:

- أنا **متأكّدٌ** من ذلك، مثلما أنا متأكّدٌ من أنّكِ سوف تعثرين عليها.

تظاهرت مادلين بالحذر.

- لتحقيق هذا الأمر، أحتاج إلى أن تقول لي أين عليّ أن أبحث عنها. مَن هم الأشخاص الذين ينبغي عليّ الذهاب لمقابلتهم.

أخذ بينيديك وقته للتفكير في المسألة، ثم قال:

- اذهبي وزوري ديان رافائيل. إنّها طبيبة نفسانية كفؤة ولطيفة. واحدة من الشخصيات النادرة التي كان شون يكنّ لها الاحترام. كانت قد التقت به بعد بضعة أشهرٍ من وصوله إلى فرنسا. في تلك الفترة، كانت ديان تدير عيادة صغيرة متجوّلة لتقديم المساعدة لمتعاطي المخدّرات. كانت تهتمّ بالأنماط الجديدة للفنّ، وكانت واحدة من أوائل مَن اشتروا لوحتين من لوحاته. كان شون يعتبرها إلى حدٍّ ما بمثابة ملاكه الحارس.

سجّلت مادلين تلك المعلومات في ذهنها مستذكرة أنّ غاسبار سبق وذكر هذا الاسم أمامها مساء اليوم السابق.

- ومَن سواها أيضاً؟

- ربّما جان-ميشيل فايول، وهو تاجر ألوان. لديه متجر صغير يطلّ على المرفأ. كان شون يستشيره غالباً حينما كان يرسم.

- هل لا تزال بينيلوب لورينز تقيم في باريس؟

هزّ بينيديك رأسه من دون أن يجيب بصراحة ووضوح.

- هل يمكنك أن تزوّدني بعنوانها؟

أخرج صاحب صالة العرض قلماً من جيبه، وانتزع ورقةً من المفكّرة.

- سوف أدوّن لكِ عنوان منزلها، لكنّكِ سوف لن تنتزعي منها شيئاً. كان لقاء شون ببينيلوب الفرصة الكبرى والمصيبة الكبرى في آنٍ واحد. كانت الشرارة التي أوقدت عبقريته، ولكنّها تحوّلت إلى الحريق الذي دمّر حياته.

ناول الورقة المطوية لمادلين، ثمّ، ساهياً في الفراغ، تساءل بصوتٍ مرتفعٍ:

- ما هو الأكثر حزناً، في العمق، من أن يرى المرء وقد تحوّل توأم روحه إلى روحه المعذّبة؟

6

مجموعة من عمليات التدمير

كانت اللوحة مجموعة من الإضافات. بالنسبة إليّ، اللوحة مجموعة من عمليات التدمير.

بابلو بيكاسو

1.

كانت جادّة سان-جيرمان تميد تحت شمسٍ شاحبة. أشجار عارية من الأوراق، وعمارات حجرية كبيرة، ومقاهٍ محوّلة إلى ما يشبه المتاحف، ومتاجر فاخرة.

تجاوزت مادلين سيارة صغيرة كهربائية وأضاءت الإشارة الضوئية لكي تنعطف إلى شارع سان-غيوم. بعد أن قطعت ما يقارب عشرين متراً، أوقفت دراجتها السكوتر بطريقة جانبية، بين سيارة سمارت متضررة وسيارة SUV لامعة. كان العنوان الذي زوّدها به برنار بينيديك هو عنوان واحدة من تلك العمارات الجميلة في الحي، لها واجهة واسعة عليها نتوءات حجرية تمّ ترميمها حديثاً.

رنّت جرس هاتفٍ داخليّ لبوّابة ضخمة من الخشب المطلي بدهانٍ لامع.

جاء صوتٌ أشبه بصفير:

- مَن هناك؟

- السيّدة لورينز؟

لم يأتِها أيّ ردّ. لجأت مادلين إلى الحيلة:

- صباح الخير، يا سيّدتي. أنا ضابطٌ في الشرطة وأجري تحقيقاً حول اختفاء آخر ثلاث لوحات لزوجكِ السابق. هل يمكنكِ أن تمنحيني بضع دقائق من وقتكِ لكي...

- اغربي عن وجهي، أيّتها الصحافية العاهرة!

تراجعت مادلين خطوةً إلى الوراء، متفاجئة من شدّة الإهانة. كان من العبث أن تلحّ عليها، فإذا كانت بينيلوب لورينز في هذه الحالة، سوف لن تصل إلى أيّ شيء.

ركبت درّاجتها الفيسبا وهي تفكّر في طريقة أخرى لبلوغ هدفها. عبرت شارع الجامعة، وشارع باك، وجادّة راسباي وصولاً إلى شارع مونبارناس. في شارع أوديسا، عثرت مادلين على مقهى الإنترنت الذي كانت تبحث عنه، محصوراً بين محلٍّ للفطائر ومتجرٍ للألعاب. وهي تدفع الباب، أقسمت أنّها سوف لن تغادر المكان قبل أن تبلغ أهدافها.

2.

وصل غاسبار إلى المطعم قبل موعده. كان مطعم غراند كافيه، الواقع إلى جانب مقصف بائع سمك، أحد بارات الحي بديكورٍ قديمٍ بعض الشيء، ولكنّه حميمي: ديكور بمشغولات خشبية ومقاعد باومان الخشبية المحدّبة، وطاولات حانة صغيرة، ومرآة ضخمة،

وبلاط على شكل مربّعات متناسقة باللونين الأبيض والأسود. كانت لمسة متوسطيّة تكمل اللوحة بدوالي عنب اصطناعية تتعرّش على السقف فتمنح الزبائن الإحساس بأنّهم يجلسون تحت عريشة.

عند الظهيرة، كانت ثلاثة أرباع الصالة فارغة، ولكنّها بدأت تمتلأ بالزبائن بعد ذلك. طلب غاسبار طاولة لشخصين، ومن دون أن يجلس، وضع عليها الهاتف الذي كان يشوّه منظر جيبه، وعلّق سترته على مسند الكرسي، ثمّ تقدّم نحو المشرَب، وطلب كأساً من نبيذ كوينسي، وسأل إن كان يستطيع استخدام الهاتف. نظر إليه النادل باستغراب، بل وبريبة، وأشار إلى جهاز هاتفه، الموضوع على الطاولة المحجوزة:

- أهو مكسور؟

لم يكلّف غاسبار نفسه حتى الالتفات إليه، وقال:

- كلا، ولكنني لا أعرف كيف أستخدمه. ولذلك، هل يمكنني استخدام هاتفكم؟

أجاب النادل بإشارة من رأسه، وقدّم له سمّاعة هاتفٍ تقليدي.

وضع غاسبار نظّارته لكي يتّصل بالرقم الذي كانت بولين قد دوّنته له.

ثمّة فرصة: ردّت ديان رافائيل منذ الرنّة الثالثة، معتذرة في الحال عن رداءة الإرسال. لم تكن الطبيبة النفسانية موجودة في باريس، وإنّما في قطارٍ سريعٍ في طريقها إلى مدينة مرسيليا حيث كان عليها أن تذهب لزيارة مريضٍ في مستشفى سانت-مارغريت. عرّفها غاسبار بنفسه، وأوضح لها بأنّه يتّصل من طرف بولين دولاتور. أكّدت ديان رافائيل، التي كانت تقضي الكثير من وقتها في نيويورك،

أنّها قد شاهدت مسرحيته **آسيليوم**، وهي إحدى مسرحياته الأكثر سوداوية، وتوجّه نقداً لاذعاً لانحرافات التحليل النفسي. كان غاسبار قد خسر، مع ذلك النصّ، بعض أصدقائه من أوساط الاختصاصيين النفسانيين، لكنّ ديان لم تكن ذات نزعة انتقامية، وأكّدت له بأنّها قد «ضحكت كثيراً» لدى مشاهدتها المسرحية.

ولأنّه لم يكُن يُجيد الكذب، كشف غاسبار عن أوراقه فوراً. شرح لها بأنّه قد استأجر المنزل السابق للرسّام شون لورينز، وأنّه يساعد صديقة شرطية عقدت العزم على العثور على اللوحات الثلاث الأخيرة للرسّام.

- إن كانت موجودة، سأكون متلهّفة لرؤيتها!

- لقد أخبرتني بولين بأنّكِ قد اعتنيتِ بشون كثيراً في السنة الأخيرة من حياته.

- تقصد في العقدين الأخيرين! لقد كنتُ صديقته وطبيبته النفسانية خلال أكثر من عشرين عاماً!

- ألا تعتقدين أنّ في ذلك تناقضٌ؟

- أنا لا أحبّ التعقيدات. لقد حاولتُ أن أساعده قدر ما استطعت، ولكن يجب أن نؤمن بأنّ هناك لعنة العباقرة.

- ماذا تقصدين بلعنة العباقرة؟

- مبدأ **التدمير الخلّاق** القديم. من أجل بناء أعمال مثل أعماله، ربّما كان من الحتمي أن يدمّر شون نفسه وأن يدمّر الآخرين.

على الرغم من رداءة الإرسال، أغوى صوت ديان رافائيل، العذب والعميق وذو النبرات الودّية، غاسبار.

- بحسب بولين، تدهورت حالة لورينز بعد موت ابنه. . . .

قاطعته الطبيبة النفسانية:

- هذا ليس سرّاً خافياً على أحد. مات شون في الوقت نفسه الذي مات فيه جوليان تقريباً. بعد أن لم يعُد هناك ما يتشبّث به، لم يعُد حتى يكلّف نفسه عناء التظاهر بالعيش والحياة. ثمّ إنّه قد انهار جسدياً. لقد خضع لعمليتين جراحيتين كبيرتين خلال الأشهر الأخيرة من حياته. لمرّات عديدة، تمّ إنعاشه في الرمق الأخير حينما كان على شفا الموت. لكنّه كان يعاني من هذا الألم مثل كفّارة عن ذنوبه.

- أَلَمْ يسعفه الرسم في أيّ شيء؟

- لا يمكن للرسم أن يفعل أيّ شيء أمام موت طفل.

أغمض غاسبار عينيه لبرهةٍ وابتلع آخر جرعةٍ من كأس النبيذ الأبيض، وأشار في أعقاب ذلك إلى النادل لكي يطلب كأساً ثانية.

أبدى ملاحظة:

- لا ينتحر كلّ الآباء الذين يفقدون طفلاً.

قالت ديان مؤيّدةً:

- نعم، أنت محقّ، ولكنّ كلّ شخصٍ يتصرّف بطريقته الخاصّة. سوف لن أحدّثك عن الملفّ الطبي لشون، لكنّ كلّ شيء كان مبالَغاً فيه لديه. كان فيه دائماً جانبٌ من الجنون الدوريّ الذي كان يؤثّر تأثيراً حاسماً على الإبداع لديه.

- هل كان ثُنائيّ القطب؟

- لنقل إنّ ردود أفعاله وحالاته المزاجية، كما عند الكثير من الفنانين، كانت مُبالغٌ فيها. إذا كان قد برهن على تعطّشٍ مذهلٍ

للحياة في فترات البهجة والنشوة، فإنّه كان ينزل إلى الدرك الأسفل من الإحباط حينما يستسلم للأفكار السوداوية.

حلّ غاسبار زرّاً من أزرار قميصه. لماذا هذا الجوّ الحارّ والخانق في عزِّ شهر ديسمبر هذا؟

- هل كان لورينز مدمناً على المخدّرات؟

انفعلت ديان للمرّة الأولى، وقالت في انزعاجٍ:

- أنت تطرح الكثير من الأسئلة، يا سيّد كوتانس.

قال غاسبار، معتذراً:

- أتّفق معكِ.

على الطرف الآخر من خطّ الهاتف، سمع إعلان الشركة الوطنية لسكك الحديد وهي تلفت انتباه المسافرين بأنّ القطار سيدخل عمّا قريب في محطّة سان-شارل.

استأنفت الطبيبة النفسانية حديثها عن شون:

- كلّ ما كان شون يريده، هو أن يخدّر نفسه، وينسى. كان يعاني من ألمٍ كبير، بحجم حبّه لابنه، ولم يشأ لا أن يُنقَذ من هذا الألم ولا أن يُنصَحَ بشأنه. ولهذا السبب، ارتأى أنّ كلّ السبل مشروعة وكلّ الأدوية مناسبة طالما أنّها تخفّف عنه بعض الشيء: الحبوب المنوّمة، والمهدّئات المضادة للقلق، وأشياء من هذا القبيل. أنا مَن كنتُ أصف له هذه الأدوية، لأنني كنتُ أعرف بأنّه سوف يتناولها في كلّ الأحوال. كان هذا يُتيحُ لي، على الأقلّ، أن أراقب ما كان يتناوله.

ازداد الإرسال سوءاً، ومع ذلك جازف غاسبار وطرح سؤالاً أخيراً:

- وفرضية اللوحات المخفيّة هذه، هل تصدّقينها؟

لسوء الحظّ، ضاعت إجابة الطبيبة النفسانية وسط الصخب المتصاعد من سكك الحديد.

أغلق سمّاعة الهاتف، وشرب كأس نبيذه. حينما التفت، لمحَ مادلين التي كانت قد دخلت لتوّها إلى المطعم.

3.

وضع النادل القائمة الضخمة التي تضمّ وجبات الطعام أمامهما، وسألهما:

- هل أقدّم لكما مشروباً فاتحاً للشهيّة؟

طلبت مادلين قنينة مياه غازية، في حين طلب غاسبار كأساً ثالثة من النبيذ.

ثمّ دفع الكاتب المسرحي، مع ابتسامة، نحو مادلين الهاتف الذي كانت قد نسيته حينما غادرت المنزل.

قالت وهي تُمسك به:

- شكراً لأنّك جلبته لي.

اعتقد غاسبار بأنّه سيكون من المناسب أن يقرّ بذنبه ويعتذر جهاراً:

- اعذريني على ما بدر منّي البارحة مساءً. لقد كنتُ منفعلاً وفقدتُ أعصابي.

- لا بأس. انسَ الأمر.

- لم أكن أعلم أنّكِ كنتِ تحاولين إنجاب طفلٍ.

أصبح لون وجه مادلين قرمزيّاً. سألت:

- لماذا تقول هذا؟

تلعثم غاسبار حينما انتبه إلى تصرّفه الأرعن:

- هذا. . . هذا ما استنتجته. لقد تلقيّتِ هذا الصباح رسالة قصيرة على الهاتف من عيادة في مدريد تُفيد بتلقي نتائج. . .

- هذا ليس شأنك، تبّاً لك! هل تعتقد أنني أرغب في التحدّث عن هذا الموضوع معك على الطاولة؟

- أنا آسف، لقد قرأتُ ذلك رغماً عنّي.

سألت في ضيقٍ وانزعاج:

- رغماً عنك؟

لم يعد يتبادلا ولا كلمة ولا نظرة إلى أن جلب لهما النادل طلبيهما من المشروب، وجاء صاحب المطعم لأخذ طلباتهما من الوجبات. استغلّت مادلين حضوره لكي تُخرج علبة الكبريت التي عليها العلامة التجارية للمطعم والتي كان بينيديك قد أعطاها لها.

- كان شون لورينز زبوناً منتظماً لمطعمكم، أليس كذلك؟

أجاب صاحب المطعم بنبرة افتخار:

- كان أكثر من زبون بكثير، كان صديقاً مقرّباً لنا!

كان صاحب المطعم رجلاً قصير القامة، ذلق اللسان، حليق الرأس، يرتدي بزّة فضفاضة وربطة عنقٍ بيضاء اللون فيها نقطٌ سوداء كبيرة الحجم. كانت الإيحاءات المبالغ فيها لوجهه تعطيه هيئة زائفة للممثّل لويس دي فنيس.

- خلال سنواتٍ عديدة، جاء السيّد لورينز لتناول الغداء في مطعمنا تقريباً ظهيرة كلّ يوم.

على نحوٍ مفاجئ، ذَبُلت عينا صاحب المطعم اللامعتين:

- بالطبع، أصبحنا نراه على نحوٍ أقلّ بعد موت ابنه. حتى أنني، ذات ليلة، بعد انتهاء الدوام، صادفته ثملاً، خائر القوى على

مقعدٍ في الشارع. أوصلته إلى بيته في شارع شيرش-ميدي. وقد آلمني ذلك فعلاً.

ولأنّه لم يشأ في أن يبقى عند تلك الذكرى السيئة، غيّر اتجاه الحديث، وسارَعَ إلى القول:

- في الشهرين أو الأشهر الثلاثة الأخيرة من حياته، كانت حالته تتحسّن قليلاً. عاد لعدّة مرّات إلى المطعم و...

قاطعه غاسبار بالسؤال:

- هل تعتقد أنّه عاد إلى الرسم آنذاك؟

- هذا مؤكّد! كان يرتاد المطعم من جديد، ويتناول الغداء وهو يسوِّد صفحات مفكّرته بالرسومات. وهي علامة لا يمكن دحضها!

- هل تعرف عن ماذا كان يرسم؟

أفرج دي فنيس عن ابتسامة تنمّ عن التباهي:

- لأنني كنتُ فضولياً، كنتُ دائماً أستغلّ فرصة تقديم أطباقه لكي ألقي نظرة من فوق كتفه. كان يرسم متاهاتٍ.

- متاهات؟

- نعم، كان يرسم متاهات كافكائية، لا مداخل لها ولا مخارج. متاهات ذات تشعّبات لا متناهية كانت تسبّب الدوار.

تبادل مادلين وغاسبار نظرة شكّ، لكنّ محدّثهما كان قد احتفظ بورقة رابحة، فأخرجها:

- قبل بضعة أيامٍ من موته، قدّم لنا لورينز هدية رائعة: لقد وضع لوحة فسيفسائية في المطعم.

سأل غاسبار في اندهاش:

- هنا؟

أكّد له في لهجة افتخارٍ:

- تماماً، في عمق الصالة الثانية. إنّها إحدى اللوحات الفسيفسائية النادرة لشون لورينز، وعلى أيّ حال، الأكبر حجماً من بين اللوحات التي رسمها. جاء هواة الفنّ لزيارتنا هنا لرؤيتها والتقاط الصور لها. وعلى نحوٍ خاصّ هواة آسيويون.

قَبِل صاحب المطعم بسرعة أن يقودهما إلى عمق الصالة حيث كانت لوحة جدارية متعددة الألوان تزيّن الجدار.

- أراد السيّد لورينز أن يرسم على نحوٍ توضيحي حكاية روالد دال **التمساح العملاق**. كانت الحكاية المفضّلة لابنه. الحكاية التي كان يطالبه بسردها كلّ مساء قبل أن ينام. إنّه تكريمٌ جميل، أليس كذلك؟

كانت اللوحة مكوّنة من المئات من المربّعات الصغيرة اللّامعة التي تشبه إلى حدٍّ ما البِكسِلات الضخمة لألعاب الفيديو في الثمانينيات. قلّصت مادلين عينيها وتعرّفت على شخصيات حكاية طفولتها: تمساح، وقرد، وفيل، وحمار وحشي وسط السهل الغامر بالعشب.

كان هذا العمل رائعاً وفريداً من نوعه، حتى وإن كان يبقى عبارة عن محاكاةٍ لحكاية. طلبت مادلين الإذن بالتقاط صورة للوحة، ثمّ عادت إلى طاولتها برفقة غاسبار.

.4

- يبدو أنّ الشابّة بولين قد أعجبتكَ كثيراً.

تبادلا المعلومات التي حصل كلٌّ منهما عليها، مثلما فعلا في الليلة الماضية.

- إنّها سهلة المعشر وليست مزعجة.

- أتقول هذا الكلام لي؟

أدار غاسبار رأسه لكي يتحاشى نظرة مادلين.

- لنتحدّث عن شيءٍ آخر، إذا كان ذلك يروق لك.

اقترحت توزيعاً للمهام:

- بعد ظهيرة اليوم، أنوي الذهاب لأسأل جان-ميشيل فايول، تاجر الألوان الذي كان شون يتعامل معه. في هذه الأثناء، أودّ أن تذهب لمقابلة بينيلوب لورينز.

بدا غاسبار متشكّكاً، وحكّ ذقنه.

- لماذا أذهب إلى جبهة القتال؟ لقد أخبرتِني للتوّ بأنّها قد صفقت الباب في وجهكِ بجفاءٍ وقسوة.

- سيكون الأمر مختلفاً معك.

- ما الذي يجعلكِ تعتقدين ذلك؟

- أوّلاً، لأنّك رجل. ثمّ لأنّه لديّ فكرة عبقرية.

شرحت له، مع ابتسامة رضى، الخطّة التي أعدّتها من أجل التقرّب من زوجة شون.

كانت قد سجّلت، في أحد مقاهي الإنترنت، بريداً إلكترونياً باسم غاسبار واستخدمته لتُرسل إلى بينيلوب طلب إعارة -أو بالأحرى طلب استئجار- لوحة Naked، وهي إحدى لوحات زوجها التي لا تزال موجودة بحوزتها.

غمغم غاسبار:

- لم أفهم أيّ شيء. لماذا سأرغب في استئجار لوحةٍ؟ لا معنى لهذا الأمر.

دفعت مادلين طبقها ونشرت على الطاولة صورة منسوخة لمقالة من صحيفة **ديلي تلغراف** وهي تكشف عن تقديم ثلاثين عرضاً في لندن خلال الربيع القادم لمسرحية **قسم أبقراط**، وهي مسرحية موقّعة باسم... غاسبار كوتانس.

- سوف تستأجر هذه اللوحة لكي تكون جزءاً من ديكور العرض الأوّل لمسرحيتك.

- فكرةٌ سخيفة.

واصلت مادلين حديثها من دون أن تستسلم:

- في رسالتي عبر البريد الإلكتروني، عرضتُ على بينيلوب صفقة بعشرين ألف يورو. لقد أكّد لي بينيديك بأنّها في حاجةٍ ماسّة إلى مبالغ نقدية، وأنّها في نهاية المطاف، سوف ترغب في بيع اللوحة في المزاد. إذا كانت هناك فرصة للترويج للوحة قبل بيعها، يمكنك أن تكون متأكّداً من أنّها سوف لن تدع هذه الفرصة تفوتها.

قطّب غاسبار حاجبيه، وقال غاضباً:

- لقد انتحلتِ شخصيتي!

- اِهْدَأ، فعلتُ ذلك لسببٍ وجيه.

- المبادئ الكبرى تكون دائماً للآخرين، أهذا صحيح؟ أنا أكره أمثالكِ من الناس.

- أمثالي من الناس؟ وما معنى هذا؟

- أنا أعرف ما أقول.

- أعتقد أنّك الوحيد الذي يُفكّر بهذه الطريقة.

هزّ غاسبار كتفيه وهو لا يزال غاضباً.

- على أيّ حال، سوف لن تصدّق الأمّ لورينز أبداً هكذا سخافات.

ردّت مادلين، منتشيةً:

- فكّر مرّة أخرى. صدّقني أنّها قد ردّت عليّ وأنّها تنتظرك في بيتها بعد نصف ساعة من الآن للتحدّث عن الموضوع.

فتح غاسبار فمه لكي يعترض، لكنّه اكتفى بإطلاق تنهيدة مستسلمة. استغلّت مادلين تقدّمها:

- بعد مقابلتي مع فايول، لدي موعد مع صديقة قديمة توقّفت في رحلة قصيرة في باريس. حينما تنهي مقابلتك مع بينيلوب، انضمّ إليّ في سيمافور لتقييم الوضع.

سأل ساخراً:

- ما هو السيمافور؟

- إنّه مقهى صغير في زاوية تقاطع شارع جاكوب وشارع السين.

كان الطقس حارّاً جدّاً لدرجة أنّ المطعم كان قد فتح نوافذه الزجاجية. ولأنّ مادلين أرادت أن تدخّن، جلسا في الشرفة ليشربا قهوتهما. لفّت مادلين، سارحة، سيجارتها بصمت بينما كان غاسبار، غارقاً في أفكاره، يحرق حلقه بكأس شراب أرمانياك المُقدّم من قبل صاحب المطعم.

حتى وإن لم يمتلكا الجرأة على الإفصاح عن ذلك، كان بادياً للعيان أنّهما كانا يشكّلان ثنائياً إشكالياً كمحقّقين.

كان عملُ لورينز الجذّابُ كالمغناطيس قد أصابهما بلوثة وبات يمارس عليهما تأثيراً هائلاً لا فكاك منه. كلّ ما كان يحيط بالفنان، من قريبٍ أو من بعيد -معنى فنّه، المناطق المظلمة من حياته- أصبح يكتسي بالنسبة إليهما طابعاً من الغموض والوعد غير المنطقي بأنّ

أسرار لورينز، ما أن تُكشَف، سوف تصبح **أسرارهما**. من دون أن يعترفا بذلك، كان غاسبار ومادلين يعتقدان جازمين بأنّ هذه الأسرار سوف تكشف لهما عن حقيقة، لأنّه من خلال البحث عن هذه اللوحات، كانا يبحثان عن جزءٍ منهما أيضاً.

7

ممّن يُحرقهم...

الفنّ مثل الحريق، يولد ممّا يحرقه.

جان-لوك غودار

.1

كان الفندق القديم الذي تعيش فيه بينيلوب لورينز ذا مظهرٍ قديمٍ وأناقة متقشّفة مثل التي تتّسم بها العمارات الجميلة للحيّ المحيط بكنيسة القديس توما الأكويني: واجهة كاشفة وبسيطة مجرّدة من الزينة مبنية من الحجارة الضخمة، ورخامٌ صقيلٌ لدرجات السلّم، وسقفٌ عال جدّاً وأرضية من الخشب، بأشكالٍ هندسية، يُصدر صريراً تحت الأقدام.

ومع ذلك، كان داخل الشقّة يتعارض مع المظهر الخارجي المتقشّف للعمارة. كانت الشقة من الداخل مبهرة للأبصار ببهرجتها الفاقعة، كما لو أنّ مهندساً ذا ذوق رديء قد أشرف على تصميم الديكور فيها. كانت فيها أرائك منجّدة لونها وردي كغزل البنات، عليها وسائد من الفرو الصناعي تحيط بطاولة كبيرة يغطّي وجهها طبقة من زجاج الحماية، وثريا مزخرفة كبيرة، ومجموعة من التُحف والآنية المزخرفة والمصابيح الفانتازية.

الرجل الذي فتح الباب لغاسبار، وقد بدا عليه الحذر، قدّم نفسه على مضضٍ وبامتعاضٍ على أنّه فيليب كاريا. تذكّر غاسبار أنّ بولين قد تحدّثت عنه على أنّه الحبّ الأوّل لبينيلوب. هذا يعني أنّها كانت لا تزال تعيش معه. كان المتعهّد المنتمي إلى مدينة نيس رجلاً قصير القامة ومتكرّشاً، مختلفاً جدّاً عن عشيق بينيلوب الذي كان الكاتب المسرحي قد تخيّله: رجلٌ حليق الشعر وله لحية رفيعة وقصيرة تنتهي عند الصدغين على شكلِ عقدٍ، ويرتدي قميصاً فضفاضاً مفتوحاً على شعر صدره الذي غزاه الشيب، وعلى سنِّ سمكة قرشٍ معلّقٍ بسلسالٍ من ذهب في رقبته. كان من الصعب عليه أن يفهم أنّ هذا الرجل الموجود في بيتها قد استطاع أن يغوي المرأة الشابّة التي كانت في أوج جمالها آنذاك. تُرى هل كان مختلفاً في تلك الحقبة عمّا هو عليه الآن؟ تُرى هل كان يمتلك مواهب وطاقات أخرى؟ أو ربّما، على نحوٍ أكثر تأكيداً، إنّ الانجذاب بين شخصين دائماً لا يخضع لأيّة قواعد منطقية.

دعاه الرجل للجلوسِ في صالونٍ صغير يطلّ على فناءٍ داخلي، وعاد هو ليطّلع على إعلاناتٍ حول العقارات في حاسوبه الشخصي من ماركة ماك-بوك الذهبي اللون. انتظر غاسبار على تلك الحال لما يقارب عشر دقائق قبل أن تنضمّ إليه سيّدة البيت. حينما دخلت عارضة الأزياء السابقة إلى الصالون، شقّ عليه أن يُخفي صدمته.

كانت بينيلوب لورينز قد تغيّرت إلى درجة لا يمكن التعرّف عليها. كانت قد تشوّهت من جرّاء عمليات التجميل، ولم تعُد سوى صورة كاريكاتورية مشوّهة عن المرأة التي كانت في شبابها. كان وجهها الجامد صقيلاً مثل الشمع ويبدو وكأنّه يذوب، وكان فمها المشوّه يشبه غشاءً من المعي المنفوخ على وشك الانفجار، وكانت

أجفانها المنتفخة ووجنتاها المرتفعتان بشكلٍ غير طبيعي تصغّر عينيها وتجعلهما منكمشتين. كان وجهها المنتفخ والمدمّر يتناقض مع شبح جسمها النحيل الذي كاد أن يكون كهيكلٍ عظمي، باستثناء صدرٍ منفوخٍ بالهيليوم.

رحّبت به بنفسٍ قصير وصوتٍ فيه غنّة وهي تُقبِلُ لتجلس أمامه:

- طاب نهارك، سيّد كوتانس. شكراً لك على هذه الزيارة.

كانت نظرتها تشبه نظرةَ حيوانٍ مطاردٍ، وهي مدركةٌ لحال شكلها والأثر الذي يتركه على نظرة الآخرين.

كيف صارت على هذه الحال؟ كيف يمكن تفسير هكذا تحوّلٍ؟ طرح غاسبار الأسئلة في ذهنه وهو يتذكّر صور عارضة الأزياء حينما كانت صورها تغزو أغلفة المجلّات. كانت شامخة، وطويلة القامة ونحيفة، وجسمها رياضيّاً، ومتألّقة. لماذا عرّضت نفسها لهذا الإفراط في شدّ الوجه ولهذه الجرعة الزائدة من البوتوكس؟ مَنْ هو الجرّاح الذي لعب دور رسّام هاوٍ وشوّه الملامح الجميلة لوجهها؟ بحث عن شيءٍ ما فيها، عن أثرٍ لجمالها الضائع، ووجده في عينيها. ركّز نظرته على قزحيّة عينيها، بلون أخضرٍ غامقٍ مع خلفية سمراء ذهبية، وهي الشرارة التي لا بدّ أنّها قد ألهبت قلب شون في صيف عام 1992.

حيّاها غاسبار، ولكن، في اللحظة التي فتح فيها فمه، عدل عن الخطّة التي اتّفقَ عليها مع مادلين. لا داعي للكذب. أوّلاً، لأسباب أخلاقية، ومن ثمّ، لأنّه كان يعلم أنّه ممثّل فاشل، وغير قادرٍ على أن يؤدّي بجدارة مهمّة إخفاء الحقيقة. فقرّر عدم اللجوء إلى اللفّ والدوران.

- سوف أكون صريحاً، سيّدة لورينز، لستُ هنا للسبب الذي

تعتقدين أنني جئتُ لأجله. أنا حقّاً غاسبار كوتانس، وقد كتبتُ فعلاً نصّاً مسرحياً وسوف يتم تمثيله وعرضه في لندن في فصل الربيع، ولكنّ العقد المزعوم بشأن وضع لوحتكِ كجزءٍ من الديكور ليس سوى حيلة لجأَتْ إليها إحدى زميلاتي بغرض الالتقاء بكِ.

- أيّ زميلة؟

- تلك التي رفضتِ استقبالها وطردتِها صباح اليوم.

توتّرت الأجواء، وأحسّ غاسبار أنّ بينيلوب كانت على وشك أن تستدعي كاريا لكي يأتي لنجدتها. بحركة مهدّئة ومطمئنة من يده، حاول أن يثنِها عن الصراخ.

- امنحيني ثلاث دقائق لكي أشرح لكِ الوضع. وبعد ذلك، إن قررتِ ألا تردّي على أسئلتي، سوف أغادر بهدوء، وسوف لن أعود إلى مضايقتك أبداً.

ولأنّها بقيت ساكنة في مكانها من دون حراك، واصل حديثه، متشجّعاً:

- نحن نبحث عن ثلاث لوحات رسمها شون لورينز في الأسابيع التي سبقت وفاته، هذه...

أوقفته بينيلوب:

- حينما مات، لم يكن شون قد لمس الريشة منذ عدّة سنوات.

- ومع ذلك لدينا أسباب وجيهة تدعونا للاعتقاد بأنّ تلك اللوحات موجودة فعلاً.

هزّت كتفيها وهي تقول:

- إذا كان هذا صحيحاً، فلا بدّ أنّ اللوحات ستكون قد رُسِمَت بعد طلاقنا، الأمر الذي يعني أنّ ليس لي أيّ حقّ فيها. وبالتالي، ما الذي يعنيني في هذا الأمر؟

ولمّا أدرك غاسبار أنّ هذه المرأة، الحبيسة في قوقعة مرارتها، سوف لن تبوح بأيّ شيء، قال مرتجلاً:

- ما يعنيكِ هو أنني هنا لأقترح عليكِ صفقة.

- أيّ صفقة؟

- إذا أجبتِ عن أسئلتي، وإذا عثرنا على تلك اللوحات الثلاث بفضلكِ، ستكون واحدة منها لكِ.

- اغربْ عن وجهي! إذا كنت تعتقد أنّ لوحات شون لم تحطّمني بما فيه الكفاية...

تحوّل خوفها الآن إلى غضب، فنهضت من الأريكة لكي تتوجّه نحو ثلّاجةٍ صغيرةٍ موضوعةٍ ضمن المكتبة بطريقة بارات المشروب الصغيرة في الفنادق. أخرجت قنينتين صغيرتين من الفودكا وأفرغت إحداها مباشرةً في جوفها. فكّر غاسبار في مقولة بوكوفسكي: «اعثُرْ على ما تحب ودَعْه يقتلك» (Find what you love and let it kill you). كان السمّ الذي شربته بينيلوب يُدعى **غراي غوس**. صبّت القارورة الثانية في كوبٍ مكوّر من الكريستال، وضعته على منضدة صغيرة من الزجاج والحديد المشغول، في متناول يدها.

- ما كان لشون لورينز أن يكون موجوداً من دوني، هل تعرف ذلك؟ **أنا** من أطلقتُ إبداعه وفتحت شرايين موهبته. قبلي **أنا**، كان عبارة عن مخربشٍ عابثٍ في هارليم، يمضي أيامه في التسكّع وتدخين لفافات الحشيش. خلال أكثر من عشر سنوات، خلال كلّ السنوات التي لم ينجح خلالها في بيع لوحةٍ واحدة، أنا مَن كنتُ أموّله وأُعيله. لقد استطاع، بفضل جمالي، وصوري، وإعلاناتي، وصوري على أغلفة المجلّات، أن يصبح فنّاناً معروفاً.

من خلال الإصغاء إلى مونولوجها، فكّر غاسبار في شخصية

الممثّلة التي خبا بريقها والتي أدّت دورها غلوريا سوانسون في فيلم **سانسيت بوليفارد**. كان لها ولع مرحلة مجدها نفسه، والتبرير المثير للشفقة نفسه.

- خلال سنواتٍ عديدة، كنتُ النار التي توقِد ملكة الإبداع فيه. كنتُ **فتاتَه المُلهمة**. كان يطلق عليّ هذا اللقب لأنّه كان مقتنعاً بأنّه ما كان ليستطيع أن يرسم شيئاً متميّزاً وخلّاقاً من دون أن أكون إلى جانبه.

قال غاسبار مؤيّداً:

- لم يكن مخطئاً. البورتريهات التي رسمها لكِ رائعة.

- أنت تشير إلى سلسلة **21 بينيلوب**، أليس كذلك؟ سوف أخبركَ بأمرٍ: صحيحٌ أنّ هذه اللوحات، في البداية، كانت تُشعرني بالإطراء، ثمّ بات ذلك عبئاً ثقيلاً على كاهلي.

- لأيّة أسباب؟

- بسبب نظرة الآخرين: مصدر أغلبية مصائبنا ومحننا. كنتُ أرى فعلاً كيف كان الناس يرمقونني بنظراتهم، بل وكان يبدو لي أنني أسمع أفكارهم. كانوا يقولون بأنني جميلة، ولكنني لم أكُن ساحرة وفاتنة مثل المرأة الموجودة في اللوحة. هل تعرف ما هو سرّ لوحات شون لورينز، يا سيّد كوتانس؟

- أخبريني.

.2

- كان العمل مع شون لورينز محفّزاً وجذّاباً، لأنّه كان سيّد الألوان.

وحده اللّه يعلم لماذا، حينما تحدّث لها برنار بينيديك عن

جان-ميشيل فايول، تخيّلت مادلين رجلاً عجوزاً أبيض الشعر، ويرتدي سترة رمادية، وقد تجاوز منذ زمنٍ طويل سنّ التقاعد. في الواقع، كان الرجل الذي استقبلها في متجره في شارع فولتير رجلاً أسود البشرة وأصغر سنّاً منها، مكين البنية وعريض المنكبين، شعره مجعّد ويضع خواتم من الفضّة في كلّ إصبعٍ من أصابع يده والتي كانت تشكّل ما يشبه حديقة حيوانات شيطانية، إذ كانت على شكلِ ثعبانٍ وعنكبوت وجمجمة ورأس تيسٍ. كان ينتعل حذاءً رياضياً بالياً وسروال جينز ضيّقاً وسترة بلا كمّين مفتوحة على قميصٍ رياضيّ ضيّقٍ، ملتصقٍ بجسده. مع حديثٍ صريحٍ وترحيبيّ، قدّم لها فنجاناً من القهوة وقطعاً من البسكويت التي وضعها على طاولته السميكة المصنوعة من خشب الجوز المليء بالبقع. كان المتجر من حولهما، بأحجاره الظاهرة، وأقواسه وسقفه المقوّر، يشبه حانوتاً من العصور الوسطى. وهو شعورٌ معزّزٌ بالرفوف المصنوعة من الخشب المصقول التي كانت تزيّن المتجر من الأرضية وحتى السقف والمزدحمة بقوارير وعبوات الألوان.

مغرماً بموضوعه، بدا فايول مستعدّاً للإجابة عن أسئلة مادلين حتى من دون أن يعرف مَن تكون في حقيقتها.

استأنف حديثه:

- أتعاملُ مع الكثير من الفنانين. معظمهم رجالٌ أنانيون ومصابون بجنون العظمة ويعتقدون أنّهم نسخٌ من بيكاسو أو باسكيات، فقط لأنّهم رسموا لوحةً ووجدوا أصحاب معارض جشعين ليعرضوا أعمالهم، وجمهوراً مجاملاً يصفّق لفضلاتهم.

أخرج قطعة بسكويت **التلميذ الصغير** من علبة معدنية. ثمّ تابع حديثه:

- رغم نجاحه، لم يكن شون من هذا النوع من الفنانين. بل وحتى كان أكثر تواضعاً، وعلى الرغم من أنّه كان مهووساً بفنّه، إلّا أنّ ذلك لم يمنعه من الاهتمام بالناس.

قضم قطعة من البسكويت ومضغها مطوّلاً كما لو أنّه يريد أن يأخذ وقته لكي يرتوي من نبع ذكرياته.

- على سبيل المثال، حينما علِم بأنني كنتُ أعاني صعوبة في دفع نفقات دار العجزة التي تأوي والدتي، وقّع لي على شيكٍ بمبلغٍ مالي لم يطالبني قط بإعادته إليه.

أبدت مادلين ملاحظةً:

- هذا يعني أنّه كان صديقاً لك أكثر من كونه زبوناً عاديّاً.

نظر إليها فايول كما لو أنّها تؤكّد بأنّ الأرض مسطّحة.

قال:

- ليس للفنانين الحقيقيين أصدقاء. ولهذا السبب أيضاً أصبحوا فنانين. كنتُ أساعد شون قدر استطاعتي محاولاً أن أجد له الألوان التي كان يبحث عنها. كما أسديتُ له أيضاً بعض الخدمات. كنتُ أهتمّ على نحوٍ خاصّ بتأطير لوحاته. كان شديد الوسواس في هذا الأمر وكان من الصعب للغاية إرضاءه: لم يكن يرضى إلا بإطارات أميركية مصنوعة من خشب الجوز الكاشف، النادر جدّاً، والذي لا يُعثَرُ عليه إلّا في إيران.

- لماذا قلتَ بأنّه كان سيّد الألوان؟

- لأنّه كان حقّاً كذلك! ومنذ زمنٍ طويل. في حين كان قد أمضى شبابه في الخربشة على الجدران وعربات القطار باستخدام بخّاخات الدهان، حقّق شون تحوّلاً جذريّاً في بداية أعوام الألفية

الثالثة. كان راغباً في التعلّم وقد أصبح اختصاصيّاً حقيقياً في تاريخ الأصباغ والألوان. وقد أصبح على نحوٍ خاصّ نقائياً حقيقياً. كانت هذه نقلةٌ نوعية كبيرة أن نرى رسّام جرافيتي سابق يرفض استخدام الألوان التركيبية الاصطناعية!

تجرأت مادلين على طرحِ سؤالٍ:

- ما هو الفرق الجوهري بين الطلاء التركيبي والأصباغ الطبيعية؟

ألقى الرجل ذو الشعر المجعّد نظرة جانبية أخرى على مادلين.

- الفرق نفسه بين النظرة والقبلة، بين صوت ملفّ صوتي إم بي 3 وقُرص فونوغراف، بين نبيذ كاليفورني ونبيذ بورغوني... هل فهمتِ ذلك؟

- هل تُريد القول إنّ الأصباغ الطبيعية أصلية وحقيقية أكثر؟

- إنّها تعطي ألواناً أكثر عمقاً، وأكثر كثافةً، وهي، على نحوٍ خاصّ، فريدة، فهي تنقلُ غالباً حكاية ألفية.

نهض فايول، متوثّباً، من كرسيّه وتوجّه إلى عمق المتجر.

قال بحماسةٍ وهو يشير إلى أحد الرفوف المليئة بقوارير زجاجية تحتوي على مساحيق ملوّنة:

- هذه الأصباغ هي من بين الأكثر ندرةً والأغلى ثمناً في العالم.

كانت القوارير الشفّافة، بأشكالها وأحجامها المختلفة، تشكّل لوحة مذهلة للألوان تبدأ من درجات لونية كاشفة مروراً بالباستيل، ووصولاً إلى تلوينات أغمق بكثير.

للوهلة الأولى، لم تلاحظ مادلين الفرق عن العبوات الأخرى المحيطة بها، ولكنّها تجنّبت تماماً التعليق على حيرتها. أمسكَ

جان-ميشيل فايول عيّنة صغيرة ولوّح بها أمام عينيها، ثمّ واصل حديثه:

- ها هو اللازورد، مثلاً: الأزرق السحري الذي استخدمه كلٌّ من فرا أنجيليكو، وليوناردو دافنشي، ومايكل أنجلو. وهذا المسحوق اللوني، المأخوذ من حجرٍ مستوردٍ من أفغانستان، كان نادراً جدّاً إلى درجة أنّ ثمنه، في عصر النهضة، كان يفوق ثمن الذهب.

تذكّرت مادلين أنّها كانت قد قرأت في رواية **الفتاة ذات القرط اللؤلؤي** أنّ الرسام الهولندي فيرمير قد استخدم هذا اللون في رسم وشاح شخصية لوحته الشهيرة.

أعاد فايول القارورة الزجاجية إلى مكانها، وأمسك بعد ذلك بعبوة مسحوقٍ لونيّ آخر: مسحوق بنفسجي اللون كان يشعّ ببريقٍ حادّ.

- أرجوان صور، لون الثوب الروماني الفضفاض الذي كان يرتديه الأباطرة الرومانيون. تخيّلي أنّه للحصول على غرامٍ واحدٍ منه، كان ينبغي أن يتمّ عصر محتوى عشرة آلاف من الأصداف الأُرجوانيّة. أترك لكِ أن تتصوّري حجم المجزرة التي كانت تُرتكب بحق الأصداف...

استطرد فايول، مندفعاً بحماسته:

- هذا الأصفر الهندي مستخلَصٌ من تقطير بول الأبقار التي تتغذّى حصراً على أوراق أشجار المانجا. وبالطبع تصنيعه محظورٌ الآن.

داعب الرجل صاحب الشعر المجعّد ضفائره ومن ثمّ انتقى عبوة أخرى من القُرمز.

- دم التنّين، والمعروف أيضاً منذ العصور القديمة. تقول

الأسطورة إنّ لونه قد خُلِق من مزيج دمِ تنينٍ مع دم فيلٍ بعد معركة ملحمية فقَدَ فيها الكائنان حياتهما.

كان فايول يتحدّث باستمرار بلهجة متفاخرة. ولأنّه كان مهووساً بألوانه، ظلّ يلقي محاضرته على تلميذته الجديدة. هتف وهو يُمسكُ بقارورة جديدة تضم مسحوقاً أمغر اللون يميل نحو لون الكونياك:

- ربّما هذا هو لوني المفضّل! على أيّ حال، إنّه اللون الأكثر رومانسيةً.

انحنت مادلين لكي تقرأ ما هو مكتوبٌ على لُصاقة العبوة:

- **المومياء السمراء؟**

- نعم، السمراء المصرية. إنّه مسحوقٌ لوني يتمّ الحصول عليه من خلال سحق مومياوات لجمع مادة الراتنج الصمغية الموجودة على اللفافات التي تُستخدَم في تحنيط الأجساد. من الأفضل عدم التفكير في عدد المواقع الأثرية التي لا بدّ أنّها قد خُرِّبَت في سبيل الحصول على هذه المساحيق اللونية الملعونة! من جهة ثانية...

قاطعت مادلين اندفاع الرجل ذي الشعر المجعّد وحماسته لكي تُعيده إلى الموضوع الذي جاءت من أجله:

- في المرّات الأخيرة التي التقيتَ فيها مع شون لورينز، عن أيّة ألوانٍ كان يبحث؟

.3

قالت بينيلوب، مؤكّدةً، وهي تشرب جرعة جديدة من الفودكا:

- في كلّ مرّة يرسمكَ شون، يأخذ منكَ شيئاً لن يعود إليكَ أبداً.

ظلّ غاسبار، جالساً قبالتها، ملتزماً الحذر.

قالت بإصرار:

- ينتزع منكَ جمالك لكي يضَعه في لوحاته. هل تتذكّر قصّة صورة دوريان غراي؟

- الصورة التي كانت تشيخ بدل صاحبها.

- نعم. مع شون، كانت الآية معكوسة. كان فنّه آكل لحوم البشر. يتغذّى على حياتك وعلى بريقكَ. يقتلكَ لكي يحيا.

ظلّت بينيلوب تشرح هذه الفكرة بمزيدٍ من التفصيل وبشيءٍ من القسوة والعدوانية. لم يعُد غاسبار يُصغي إليها. كان يفكّر في المقولة الشهيرة لسيرج غينسبور «القبحُ يتفوّق على الجمال في أنّه لا يزول مع الزمن».

من جديد كان هذا السؤال يطرح نفسه عليه بإلحاح: أيّ دوّامة أوصَلَت هذه المرأة إلى هذه الحال؟ كانت مادلين قد أخبرته أنّ شون التقى بينيلوب في مانهاتن في عام 1992، وأنّها كانت آنذاك في الثامنة عشرة من عمرها فقط. أجرى في ذهنه عملية حسابية سريعة. تبلغ محدّثته الآن اثنين وأربعين عاماً. وهي بعمره هو. في شارع شيرش-ميدي، كان هناك القليل من صور بينيلوب، ولكنّ غاسبار تذكّر واحدة من الصور بالتحديد، وهي تعود إلى تاريخ ميلاد جوليان. من خلال التأمّل في الصورة، وجد بينيلوب رائعة الجمال ومتوهّجة. وبالتالي، كانت آثار الأضرار الناجمة عن العمليات التجميلية حديثة العهد.

- بالرغم من ذلك، أدرك شون، بعد مرور بضع سنوات، أنّ عبقريته لم تكن تتوقّف على شخصٍ صغيرٍ مثلي. ولذلك، خشيتُ أن أخسره، بكلّ تأكيد. كانت مهنتي الخاصة قد بدأت تخبو. ولكي

أهرب من الملل، بدأتُ أتعاطى الكحول والمخدّرات بإفراط: حشيش، كوكايين، هيروين، حبوب... وهي طريقة اتَّبَعتها لأرغم شون على الاهتمام بي. وقد نقلني لعشر مرّات إلى مراكز إعادة التأهيل. عليّ أن أخبرك بأنّه كان هناك عيبٌ كبير في شخصية شون. كان فيه ضعفٌ شديد: في الواقع، كان رجلاً طيّباً.

- لا أرى ما هو وجه الضعف في أن يكون الرجل طيّباً.

- ومع ذلك، هذا ضعفٌ فيه، ولكن هذا نقاشٌ آخر. باختصار، لم يمتلك أبداً الجرأة على أن يهجرني. لأنّه كان يعتقد بأنّه مدينٌ لي إلى الأبد. كان شون غريب الأطوار بعض الشيء. أو بالأحرى، كان لديه منطقه الخاصّ.

زاغت عينا غاسبار عن وجه بينيلوب لتركّزا على ندبةٍ على شكلِ نجمة، كانت ظاهرة على الجانب الأيمن من رقبتها. ثمّ تبيّن له أنّها تحمل ندبة أخرى، شبيهة إلى حدّ ما بالأولى، تحت أذنها اليسرى. ومن ثمّ ندبة ثالثة، على مشارف صدرها. خلال ثانية واحدة، أدرك حقيقة تلك الندب: لم تكن من الآثار التي خلّفتها العمليات التجميلية، وإنّما من عقابيل الاعتداء بالأسلاك الشائكة الذي كانت بينيلوب ضحيّته في أثناء اختطافها. منذ تلك اللحظة، ترسّخت لديه القناعة بأنّ بينيلوب دخلت في الحلقة الشريرة للعمليات الجراحية بعد موت ابنها. في البداية، كان من المحتمل أنّها أجرت تلك العمليات بهدف معالجة الجروح والإصابات الناجمة عن الاعتداء عليها، ومن ثمّ، كنوعٍ من الكفّارة عن ذنبها. لم يكن شون هو الوحيد الذي سلك دربَ الصليب. كانت زوجته أيضاً قد رافقته في طريق التدمير الذاتي. أرادت أن تتألّم من حيث أذنبت: الجمال.

- ألم تقرّب ولادة ابنكما بينكما؟

- هذا الطفل كان معجزة. كان وعد انطلاقة جديدة. في البداية، أردتُ أن أصدّق ذلك، لكنّ ذلك كان وهماً.

- لماذا؟

- بالضبط، لأنّه لم يعُد يهتمّ شون بأيّ شيءٍ آخرٍ سواه. لا الرسم ولا أنا. وحده جوليان كان يحظى بالاهتمام...

لمّا ذكَرَت ابنها، بدت بينيلوب غارقة في سُباتٍ كالتنويم المغناطيسي. حاول غاسبار أن يُعيدها إلى الحديث:

- لو تسمحي لي بسؤالٍ أخير...

- اذهبْ من هنا.

- يا سيّدتي، فقط...

صاحت به، كما لو أنّها استيقظت متوثّبةً:

- ابتعد عنّي!

- متى تحدّثتِ إلى زوجكِ آخر مرّة؟

تنهّدت. زاغ بصرها في الفراغ من جديد، بحثاً عن ذكرياتها.

- المرّة الأخيرة، كانت... يوم وفاته. قبل وفاته ببضع دقائق فقط. كان شون في نيويورك. اتّصل بي من مقصورة هاتفٍ في آبر ويست سايد. كان يغمغم بكلمات لا صلة بينها. وبسبب فارق التوقيت، أيقظني في وقت متأخّرٍ من الليل.

- لماذا اتّصل بكِ؟

- لم أعُد أتذكّر.

كانت تبكي، ووجهها مرهقٌ.

ألحّ عليها بالسؤال:

- من فضلكِ، حاولي أن تتذكّري! ماذا قال لكِ؟

صرخت بأعلى صوتها:

- دعني وشأني!

جعلتها صرختها تدخل في حالةٍ أشبه بالغيبوبة من جديد. كانت منفصلة عن الواقع، جامدة بلا حراك، خائرة القوى في أريكتها البيضاء. كانت نظرتها جامحة، كما لو أنّها مصعوقة.

أدرك غاسبار الموقف، فأحسّ بخجلٍ شديد. ما الذي يفعله هو هنا لكي يعذّب هذه المرأة في حكايةٍ لم تكُن تعنيه هو؟ أيّ معنى كان لتحقيقه؟

استغرق في صمتٍ مطبق.

في المصعد، قال في نفسه إنّ غودار كان محقّاً: «الفنّ مثل الحريق، يولَد ممّن يُحرقهم». كانت الحكاية المأسوية لآل لورينز تتخلّلها جثثٌ وأشباحٌ وأمواتٌ أحياء. أقدارٌ مفلسة ومحروقة ومتفحّمة بنار الشغف والإبداع.

الفنّ مثل الحريق، يولَد ممّن يُحرقهم.

4.

لم يضطرّ جان-ميشيل فايول للبحث طويلاً في ذاكرته.

- بعد غيابٍ طويل، كثيراً ما عاد شون إلى المتجر في الأشهر الأخيرة من حياته. كان ذلك قبل أكثر من سنة بقليل. في شهرَي نوفمبر وديسمبر من سنة 2015. كان في حالة مطاردة.

سألت مادلين، مشوّشة الذهن بعض الشيء:

- كان يُطارد ماذا؟

- الألوان، بالتأكيد.

- إذاً، بحسب ما تقول، كان قد عاد إلى الرسم؟

قال فايول، ساخراً:

- هذه حقيقة حتمية! وكنتُ سأدفع أيّ شيء لكي أعرف ما الذي كان يجول في خاطره.

- لأيّة أسباب؟

- أوّلاً، لأنّه كان مهووساً بالأبيض.

- اللون الأبيض؟

وافَقَها الرأي بإشارة من رأسه وقال بنبرة غنائية:

- نعم، لون الأطياف والأشباح. لون النور الفطري والانبهار. لون نقاء الثلج، والبراءة، والعذرية. اللون الكلّي الذي، وحده، يرمز إلى الحياة مثلما يرمز إلى الموت.

- كان يبحث عن أيّ نمطٍ من اللون الأبيض؟

- في الحقيقة، في البداية كان يتردّد وكانت طلباته متناقضة: كان يطلب الكامد تارةً واللامع تارةً أخرى. الصقيل تارةً والخشن تارةً أخرى. القريب من الكلس تارةً والشبيه بالفلزات المعدنية تارةً أخرى. كنتُ أحتار في أمره.

- هل كان منتشياً تحت تأثير المخدّرات أم كانت لديه أفكارٌ واضحة؟

قطّب تاجر الألوان حاجبيه، وقال:

- سأقول بالأحرى إنّه كان مهتاجاً. كما لو أنّه كان مستاءً أو منزعجاً من شيءٍ ما.

عادا إلى جانب طاولة المتجر الأمامية وشاهدا أنّ قطرات من المطر تتساقط وتنقر نقراً خفيفاً على زجاج الواجهة.

- كان شون يحدّثني دائماً عن المساحيق اللونية المعدنية البيضاء اللون، لكنّ هذه المساحيق كانت تعاني من عذرٍ في كونها كانت تذوي وتصبح شفّافة ما أن يتمّ مزجها مع مالطٍ. كنتُ أتأسّف لعدم قدرتي على مساعدته. وفي النهاية، اقترحتُ عليه أن ينتقل إلى مسحوقٍ لوني يُدعى غوفون شيرايوكي.

سألت مادلين مجازفةً:

- أبيضٌ ياباني؟

- نعم، مسحوقٌ لونيٌّ أبيض لؤلؤي، لونُ الألماس المصنوع من أصداف المحار. حاول شون أن يستخدم هذا اللون، لكنّه عاد بعد فترة ليُخبرني بأنّه ليس اللون الذي يبحث عنه، ولا هو اللون الذي سيستطيع باستخدامه لأن «يجسّد» ما كان يجول في خاطره. في الواقع، فاجأني هذا التعبير.

- لماذا؟

- الفنانون من أمثال شون لا يسعون إلى **التجسيد**، إنّهم **يقدّمون**. لا **يُصوّرون**، وإنّما **يرسمون**، على حدّ تعبير الرسّام الفرنسي بيير سولاج. ومع ذلك، أحسستُ هنا بأنّ في ذهن شون فكرة محدّدة، ولكن هذه الفكرة ليست موجودة بكلّ بساطة في الواقع.

- ألم يقُل لكَ ما هي؟

عبس فايول مع حركة تنمّ عن جهله بالفكرة. حثّته مادلين بسؤالها:

- وفي نهاية المطاف، هل نجحتَ في العثور على لونٍ له؟

ردّ، مبتسماً:

- بالطبع: لقد أعددتُ له، يدويّاً، مسحوقاً لونيّاً أساسياً مأخوذاً من حجرٍ جيريٍّ غير مألوف لا يمكن العثور عليه إلّا في مكانٍ وحيد.

- أين هو؟

بلغ الافتخار بفايول أوجّه، وبات يتحدّث بشيءٍ من الغموض:

- وايتساندس، هل هذا الاسم يعني لكِ شيئاً؟

فكّرت مادلين لبضع ثوانٍ إلى أن عبرت رؤية ذهنها: كثبانٌ رملية بيضاء، ومتلألئة تميل إلى اللون الفضي تمتدّ على مدّ البصر. واحدة من أجمل الحدائق الوطنية الأميركية.

- صحراء نيو مكسيكو؟

وافق الرجل ذو الشعر المجعّد بإشارةٍ من رأسه.

- هناك حيث توجد قاعدة عسكرية يختبر فيها الجيش أسلحة وتكنولوجيات سرّية. في تلك الأراضي، يوجد محجرٌ للجبس نادرٌ جدّاً. هو نوعٌ من المعدن غير الخالص يمكن استخراج مسحوقٍ لونيّ متين منه: نوعٌ من المسحوق الأبيض المائل إلى الرمادي والمشوبِ بعروقٍ وردية اللون.

- إذا كان هذا الحجر موجوداً في قاعدة عسكرية، كيف استطعتَ الوصول إليه؟

- هنا يكمُن السرّ الصغير.

- هل لديك عيّنة منه؟

استدار فايول نحو رفوفه لكي يلتقط قارورة زجاجية. عاينت مادلين محتواها في البداية بحماس وإثارة، ومن ثمّ بشيءٍ من خيبة الأمل. كانت المساحيق اللونية تشبه مجرّد بُرادة الكلس.

- عملياً، من أجل الرسم، سوف يتم مزج هذا المسحوق مع الزيت؟

- مع الزيت أو مع أيّ مالطٍ كان، نعم، هذا صحيح.

التقطت مادلين، حائرةً، قبّعتها من على طاولة المتجر وشكرت فايول على مساعدته.

بينما كان الرجل ذو الشعر المجعّد يتقدّم لكي يفتح لها الباب، توقّف للحظةٍ، وقد بدا عليه أنّه قد تذكّر أمراً ما.

- كان شون قد طلب منّي أيضاً مساحيق لونية فوسفورية ذات جودة عالية. ولقد أدهشني هذا الطلب لأنّ هذه المساحيق الفوسفورية هي عبارة عن ألعوبة إلى حدٍّ ما.

- ما هي وظيفتها بالضبط؟ مساحيق لونية تقوم بتخزين الضوء؟

- نعم، لكي تعود وتبعث النور في الظلام. كما أنّ الصناعيين يستخدمون الراديوم لإنتاج هذه الأصباغ التي نجدها على نحوٍ خاصّ على لوحات تحكّم الطائرات.

- مرحباً بالنشاط الإشعاعي!

وافقها فايول الرأي.

- في مرحلة لاحقة، تمّ استخدام كبريتات الزنك، ولكن ظلّ ذلك قليل الفاعلية وسرعان ما تراجع استخدامه.

- والآن؟

- الآن، نستخدم بلّورات ألمنيوم السترونتيوم غير المشعّة وغير السامّة.

- وهذا ما كان يبحث عنه لورينز.

- نعم، ولكن هنا أيضاً، رفض شون كلّ مساحيقي اللونية.

ولأنني لم أكن أفهم ما الذي كان يريده، جعلته على علاقة مع شركة سويسرية تصنع معجوناً مضيئاً يُستخدَمُ في الصناعة عالية الجودة للساعات الغاطسة. كان أصحاب الشركة متجاوبين، لكنني لا أعلم إن كان شون قد عقد صفقة معهم أم لا.

دوّنت مادلين، بكلّ عفوية، اسم الشركة السويسرية وشكرت مرّة أخرى «المُلَوِّن».

حينما خرجت من جادّة فولتير، كان الليل قد حلّ تقريباً. كان المطر ينهمر بغزارة وكانت غيومٌ كثيفة مثل دخانٍ أسود تتّكئ على نهر السين الفائض ومتحف اللوفر. وكانت زوابعٌ من الغبار تتصاعد في الشوارع.

امتطت درّاجتها الفيسبا وسلكت الطريق باتجاه جسر رويال لتصل إلى سان-جيرمان وتلتقي صديقتها. جعلها دويّ الرعد تجفل. في السمّاء المخطّطة بالأضواء، بدا لها أنّها قد لمحت الوجه البارز التقاطيع لشون لورينز. وجهٌ مستاءٌ ومنزعج، يشبه إلى حدٍّ ما وجه المسيح، كان يرْشَحُ نوراً أبيض.

غاسبار

سان-جيرمان-دي-بري.

كانت السماء بلون الزنك، والعمارات مسودّة مثل حجر الغرافيت. أشباحٌ جامدة لأشجار السنديان. أشعر أنني أسير في الفراغ، وأنّ حركة الجادّة وتلوّثها وصخبها المصمّ للآذان تبتلعني وتسحقني.

لا تبارح صورة بينيلوب لورينز ذهني. كان جمالها الزائل، وصوتها الأبحّ وذكرى نضارتها الضائعة، كان كلّ ذلك يحيلني إلى ترهّلي، وإلى تعبي، وإلى سقوطي.

لا بدّ أنّني كنتُ بحاجةٍ إلى هواءٍ نقيٍّ، وسماءٍ صافية، ونفحة هواءٍ منقذة، وإلى شمس جزيرتي اليونانية، أو إلى الصفاء الجليدي لقمم جبال مونتانا المغطاة بالثلج. لم أستطِعْ الظفَر بهواء الجبال، ولكنني أسرعتُ إلى أوّل حانةٍ صادفتها في طريقي، وكانت عبارة عن مقهى في زاوية شارعَي سان-جيرمان وسان-بير.

كان المكان يحافظ على صورةٍ عفا عليها الزمن لعاصمة تنال إعجاب الأجانب، ولكنّها لم تعُد موجودة منذ زمنٍ طويل: مقاعد منجّدة بقماشٍ مخملي، وأضواء نيون أنبوبية، وطاولات من

الفورميكا، ومنافض سجائر من ماركة ريكارد من الميلامين الأصفر، وآلة سكوبيتون قديمة من صنع شركة كاميكا للاستماع إلى الموسيقى المفضّلة عبر إدخال عملة نقدية. تحت السقف الزجاجي، كان سيّاح وطلبة مدارس قريبة جدّاً من المقهى يتناولون شطائرهم المعدّة من اللحم والجبن. عبرتُ من بين الزبائن إلى أن وصلتُ إلى المَشرَب، وطلبتُ من دون أيّ إحراجٍ كأسين من كوكتيل أولد فاشوند وشربتهما في جرعات متتالية، قبل أن أخرج من المقهى في الحال.

كان الكحول الذي شربته في أثناء تناول الغداء قد خدّر أصلاً دماغي وأعرف أنّ الويسكي سوف يُطيل من أمد هذه الحالة. رغبتُ في المزيد من الكحول. في الحانة التالية، والتي كانت في غاية الأناقة، شربتُ كأسين إضافيين، وعدتُ نحو سان-جيرمان.

هطل المطر، وأصبح كلّ شيء من حولي مشوّشاً، واختفت الألوان من المشهد. لم تبقَ سوى أشكالٍ رمادية تزوي خلف زجاجات نظارتي المنمّشة بحبّات المطر. سرتُ وأنا أجرّ قدميّ إلى أن بلغتُ شارع بونابرت، وكانت كلّ خطوة من خطواتي صعبة عليّ كما لو أنني كنتُ فيل سيرك، مرغمٌ على السير باتزان على حبلٍ مشدود. وكان أحدهم قد رفع من درجة الصوت بين أذنيّ وزاد من الصخب المؤلم للمدينة.

تسارعت خفقات قلبي، وارتجف كلّ جسمي، ورغبتُ في التبوّل، ولهث صدري بشدّة. كنتُ أترنّح، وأرتعش من البرد، وأختنق. تسرّب المطر إلى رقبتي وامتزج بعرق جسمي. شعرتُ بحكّة شديدة في جذعي وذراعيّ، ورغبتُ في أن أقتلع جلدي. لم أحاول حتى أن أفهم سبب وهني. كنتُ أعرف دوافعه الباطنية. كنتُ أعرف أنّ جسدي يأوي وكراً للعفاريت التي لن تظلّ في حالة سباتٍ

لوقتٍ طويلٍ. وكنتُ أعرف أيضاً أن الرغبة في احتساء الكحول تستبدّ بي بقسوة نادراً ما أشعر بها.

في شارع الكنيسة، وجدتُ مطعماً، وبالتالي إمكانية حانة جديدة للشرب. كانت واجهة المطعم مزخرفة بالخزف وستائرها صغيرة فيها مربعات حمراء اللون. مبتلاً بالكامل مثل كلبٍ، ولجتُ متثاقلاً إلى داخل الحانةِ، مترنّحاً. كان وقت تقديم الطعام قد انتهى، وبدأ عمال الخدمة في المطعم بتنظيف المكان ومدّ الطاولات وفرشها استعداداً لفترة العشاء. سألتُ النُدّل، والمياه تقطر من كلّ أنحاء جسمي، إن كنتُ أستطيع أن «أشرب كأساً»، ولكن، بعد أن تفحّصوني من أخمص قدمي حتى قمّة رأسي، رفضوا تقديم المشروب لي. شتمتهم ولوّحتُ بأوراقٍ نقدية في وجههم كما لو أنّ النقود تستطيع أن تشتري كلّ شيء. عاملوني بما يليق بحالتي ووضعوني خارج المطعم.

بينما كان انهمار المطر يشتدّ ويتضاعف، لاحظتُ أنّ خطواتي قد قادتني إلى شارع فورستنبرغ. وهو أيضاً صورة خالدة لباريس. فيه ساحة صغيرة بأشجار باولونيا العملاقة وعمود الإنارة بمصابيحه الخمسة.

كنتُ أعرف، بالطبع، هذا المكان، ولكنني لم أكُن قد زرته منذ زمنٍ طويلٍ جدّاً. تحت تأثير الكحول، كان المنظر يتلوّى ويتمدّد أمام عينيّ في حين بدا لي أنّ جسمي ينتفخ ويتضاعف حجماً. مزّق صوتٌ صارخ أذنيّ. ألصقت راحتَي يديّ على صدغيّ اتّقاءً من شدّة الصوت. ساد الصمتُ لبرهةٍ، ومن ثمّ تعالى صوتٌ على نحوٍ مباغت:

- بابا؟

التفتُّ صوب مصدر الصوت.

مَنْ ذا الذي يناديني؟

- أنا خائفٌ، يا أبي.

لم يكُن صاحب الصوت يناديني أنا. أنا الذي كنتُ أتكلّم. فجأةً، كان عمري ستّ سنوات. كنتُ جالساً في هذا المكان مع أبي. هذا المكان الذي أعرفه، بكلّ تأكيد. هذا المكان يكاد يكون «بيتي». كان والدي يرتدي الثياب نفسها التي كان يرتديها في الصورة التي لا تبارح أبداً محفظتي: بنطلون نسيجي بلونٍ كاشف، وقميص أبيض، سترة عملٍ قطنية وزوجٌ من الأحذية اللمّاعة. وفي جيب سترتي، كانت هناك سيارتي الصغيرة وقلمي الرباعي الألوان. وعلى ظهري، حقيبتي المدرسية من ماركة تانس وقد كُتِبَ اسمي بخطّ اليد على البطاقة المغلّفة بالبلاستيك.

في تلك الفترة، كنتُ في الصفّ الأوّل في المدرسة الابتدائية في شارع سان-بونوا. في أيام الدوام المدرسي، كان والدي يأتي، كلّ يومين، ليأخذني من المدرسة. اليوم، هو يوم الأربعاء والوقت بعد الظهيرة. كنّا نخرج من السينما في شارع كريستين حيث كنّا نشاهد فيلم **الملك والعصفور**. كنتُ حزيناً ولم يكن ذلك بسبب مشاهدة الفيلم. بعد بُرهةٍ، لم أستطع أن أحتوي حزني وكانت دموعي تنهمر. كان والدي يُخرج من جيبه أحد مناديله النسيجية التي كان يحملها معه على الدوام. كان يمسح عيني، ويجفّف دموعي، ويمسح أنفي، ويُطمئنني بأنّ الأمور ستكون على ما يُرام، وأنّه سوف يجد حلّاً. وكان والدي يفي على الدوام بوعوده، لكنني كنتُ أشعر على نحوٍ غامضٍ بأنّ الأمر هذه المرّة أكثر تعقيداً.

أعادني المطر الذي كان ينهمر مدراراً إلى الواقع. غرقت نظارتي في المياه، ولم أعد أميّز بين الأشياء وكاد غشاء الطبلة في

أذني أن ينفجر. لم أعُد أرغب في التفكير في هذا الأمر. لماذا ارتكبتُ خطأ العودة إلى هذا المكان؟ كيف استطعتُ أن أتخلّى عن حذري إلى هذا الحدّ؟ أهو طيشٌ؟ أهو إفراطٌ في التعب؟ أهي الحاجة غير الواعية لمواجهةٍ؟ ولكن المواجهة مع مَن؟

معك، أيّها المغفّل.

ردّدتُ من جديد:

- أنا خائفٌ، يا أبي!

- لا تقلق، يا عزيزي. سوف لن ننفصل أبداً لزمنٍ طويل، أعدكَ بذلك.

هذا العهد، الذي سبقَ وأُعطي لي، لم أكُن أثق به أبداً، وقد برهن لي المستقبل على أنّني كنتُ محقّاً.

الآن، أنا أبكي، مثل كرةٍ من غشاء ضخمة مغشّاةٍ بالبخار. انهمرت من عينيّ الدموع نفسها التي كنتُ أذرفها في طفولتي.

ترّنحتُ، ورغبتُ في أن أجلس، لكنّ المقاعد العامّة التي كانت موجودة سابقاً كانت قد انتُزِعت من المكان. هذا هو دَيدن العصر: لم يعُد يتسامح مع الإرهاق والتعب، ولم يعد يقدّم الملاذ للمجروحين. أغمضتُ عينيّ، مع شعورٍ بأنني لم أعُد أرغب في أن أفتحهما مرّة أخرى. لبرهةٍ، أحسستُ أنني سأفقد وعيي، لكنني بقيتُ واقفاً على قدميّ، جامداً في مكاني، يتقطّر منّي المطر، ويزول الوقت.

كم من الوقت مضى قبل أن أفتح من جديد عينيّ؟ خمس دقائق، عشر دقائق، نصف ساعة؟ حينما استفقتُ، كان المطر قد توقّف عن الهطول. كنتُ متجمّداً من البرد. مسحتُ عدستَي نظارتي، ولبرهةٍ، اعتقدتُ حتى أنّ الأزمة قد مرّت وأنّ مياه السماء

قد طهّرتني. كدتُ أن أنسى هذه الحادثة، فسلكتُ دربي، ووصلتُ إلى شارع جاكوب، ثم أكملتُ طريقي في شارع السين.

ولكن، فجأةً، تجمّدتُ في مكاني مثل تمثالٍ. في واجهة أحد معارض المنحوتات، لمحتُ انعكاس صورتي، وقد أوقفني في الحال. أصبحتُ أمام حقيقة حتمية: لا أستطيع أن أكمل حياتي بهذه الطريقة. لم يكُن ذلك لأنني لا أذهب إلى أيّ مكان، وإنّما بالأحرى لأنّ المكان الوحيد الذي أرغب في الذهاب إليه هو «أيُّ مكانٍ خارج العالم».

بدوتُ في انعكاس صورتي في المرآة مترهّلاً ومتعباً. لم يكن ذلك قابلاً للاحتمال، فأحسستُ بأنني أترنّح، وتجتاحني الرغبة في أن يتوقّف كلّ شيء. الآن وفي الحال.

ضممتُ قبضتيّ وانفجرتُ غاضباً، وانهلتُ ضرباً على كلّ مكانٍ في الواجهة بحنقٍ وجنون، موجّهاً اللكمات يميناً وشمالاً، إلى الأعلى وإلى الأسفل. صببتُ جام غضبي. استبدّ الخوف بالمارةِ، وابتعدوا عنّي، وغيّروا اتجاههم. عدتُ وانهلتُ ضرباً على الواجهة، موجّهاً اللكمات يميناً وشمالاً، إلى الأعلى وإلى الأسفل، فتناثرت شظايا الزجاج، وسالت الدماء من قبضتيّ. أحسستُ بضعفٍ في قلبي، وبإنهاك في جسدي، ومع ذلك واصلتُ اللكم من دون توقّفٍ إلى أن فقدتُ توازني، وسقطتُ منهاراً على الرصيف، وانحنى وجهٌ محاطٌ بخصلاتٍ شقراء نحو وجهي.

مادلين.

8

الكذبة والحقيقة

الفن هو الكذبة التي تجعلنا نفهم الحقائق.

بابلو بيكاسو

.1

- أنت مدينٌ لي بتقديم تفسيرٍ!

- لستُ مديناً لكِ بأيّ شيء.

كان الليل قد هبط. على درج مستشفى بومبيدو، كان مادلين وغاسبار ينتظران سيارة الأجرة التي كانا قد طلباها. شبحان قاتمان ومحمومان ينفصلان عن بعضهما أمام السفينة الزجاجية الراسية على ضفاف نهر السين. كان وجه غاسبار مكفهرّاً ورأسه ثقيلاً. كانت إحدى يديه ملفوفة بالضمادات، والأخرى مدفونة في جبيرة.

استأنفَت مادلين حديثها، وهي في غاية الغضب:

- أودّ الإشارة إلى أنّه بفضلي لم يقدّم مالك المتجر شكوى ضدّك!

ردّ عليها، معترضاً:

- بل بفضل الشيك الذي وقّعتُ عليه لحسابه بمبلغٍ باهظ.

- ولكن تبّاً، ما الذي جعلكَ تهاجم هذه الواجهة التي لم تفعل بك شيئاً؟

لم تُفرح النكتة غاسبار.

أنارت سيارة الأجرة، وهي من طراز مرسيدس، بيضاء اللون، إشارتها الضوئية وتوقّفت أمامهما. لمّا رأى السائق أنّ أحد الراكبين جريحٌ، نزل من السيارة لكي يفتح لهما الباب.

أقلعت السيّارة، وسارت على طول طريق غرونيل المحاذي لنهر السين، واجتازت الدائرة الخامسة عشرة عبر شارع كونفانسيون. بينما كانوا متوقّفين على إشارة مرورية حمراء، ازداد غاسبار ثرثرةً. ملصقاً أنفه بزجاج نافذة السيارة، باح بسرٍّ غريب:

- هل تعلمين أنني ولدتُ على بعدِ ثلاثة شوارع من هنا. في مستشفى سانت-فيليسيتيه للتوليد، عام 1974.

اعترفت مادلين بأنّها قد فوجِئت:

- اعتقدتُ على الدوام أنّك أميركي.

قال، موضّحاً، بينما كانت سيارة المرسيدس تُقلِعُ من جديد:

- والدتي كانت أميركية. في تلك الفترة، بعد أن نالت شهادتها من جامعة ييل، كانت قد باشرت بوظيفة في باريس، في مكتب كولمان أند ويكسلر، وهو مكتب محاماة كبير في نيويورك وكان قد افتتح مكاتبه حديثاً في العاصمة.

- ووالدكَ؟

- كان يُدعى جاك كوتانس وكان في الأصل من كالفادوس. بعد أن حاز على شهادة الكفاءة المهنية من شركة للبناء، جاء إلى باريس لكي يعمل رئيس ورشة في شركة للأشغال العامّة.

- قرانٌ غريب. . .

- هذه تورية. لم يكن هناك أيّ شيءٍ مشتركٍ على الإطلاق بين والدي ووالدتي. لأكون صريحاً، حتى أنّني كنتُ أُلاقي صعوبة في تصوّر كيف أنّهما استطاعا أن يُنجباني. لا شكّ أنّ والدتي شعرت بنوع من الإثارة في معاشرة رجلٍ من عامّة الشعب. باختصار، كانت علاقتهما عابرة: استمرّت لبضعة أيام من صيف عام 1973.

- هل والدتُك هي التي قامت بتربيتكَ؟

- منذ ولادتي، سَعَت إلى إبعاد والدي، وقد ذهبت إلى حدّ أن عرضت عليه بعض المال لكي لا يعترف بأبوّته لي، ولكنّه لم يفعل ذلك. فيما بعد، وضعت كلّ الخطط والحيل والأكاذيب الممكنة لكي يقتصر حقّه على زيارات قصيرة. باختصار، كان لي الحقّ في أن أراه لساعتين أسبوعياً، وذلك بعد ظهيرة كلّ يوم سبت.

- هذا أمرٌ شنيعٌ جدّاً.

- في الواقع، أعتقد أنّه يمكننا قول ذلك. لحسن الحظّ، في معظم الوقت، كنتُ في حضانة مربية رائعة. امرأة جزائرية تُدعى جميلة كانت قد تأثّرت لمحنة والدي.

انعطفت سيارة الأجرة على نحوٍ خفيف وتجاوزت السائحين اللذين كانا يمتطيان دراجتين -وبدا واضحاً أنّهما كانا تائهين- واللذين كانا يسيران وسط الشارع.

واصَلَ غاسبار قوله:

- ولأنّ والدتي نادراً ما كانت توجد في البيت، كانت جميلة تسمح لوالدي أن يلتقي بي سرّاً، في المساء، بعد انتهاء دوام المدرسة، وبعد ظهيرة يوم الأربعاء. كانت تلك لحظات ممتعة بالنسبة إلينا. كنّا نذهب لنلعب كرة القدم في الحديقة، ونشاهد أفلاماً

في السينما. وحتى أنّه كان يراجع معي دروسي المدرسية في المقهى أو على مقاعد ساحة فورستنبرغ.

- ولكن كيف لم تعلم والدتك بكلّ ذلك؟

- لأنّ والدي وجميلة كانا حذرين جدّاً. أمّا أنا، فكنتُ صغيراً، ولكنني نجحتُ في حفظ السرّ إلى أن...

أصبح صوت كوتانس أقلّ ثباتاً. أبطأت سيارتهما من سرعتها واتّبعت تعليمات شرطيّ مرورٍ بزيّ رسمي، كان ينظّم حركة السير أمام المفوّضية المركزية في الدائرة الخامسة، حيث كانت مركباتٌ عديدة تنتظر في رتلٍ مزدوج، ومحرّكاتها تدور، وأضواء الإنذار فيها تومض.

استأنف قوله:

- كان ذلك اليوم هو يوم الأحد الذي تلا عيد ميلادي السادس. وفي حين كانت والدتي تُعارض دائماً تلك الفكرة، إلّا أنّها، وعلى نحوٍ مفاجئ، اتّخذت موقفاً مغايراً تماماً وأذعنت لطلبٍ كنتُ قد قدّمتُه قبل ثلاثة أسابيعٍ خلت: الذهاب لمشاهدة فيلم **الإمبراطورية تعيد الضربات** في صالة سينما غراند ريكس. **لقد شاهدته مع بابا!** خرجت الجملة من فمي مثل صرخةٍ من القلب. تداركتُ الأمر في الحال، ولكن الضرر كان قد وقع. خلال ثلاث ثوانٍ، وقّعتُ على حكم موت والدي.

- كيف ذلك، حكم الموت؟

- أجرَت والدتي تحقيقاتها وضغطَت على جميلة التي اضطرّت لأن تعترف لها. لمّا علمت بالحقيقة، ثارت ثائرتها وانتابتها نوبة غضبٍ فظيعة، وطردت المربّية، وأقامت دعوى ضدّ ابي بتهمة اختطاف طفل. فرضت قاضية أمرَ تقييدٍ قضائي بحقّ أبي، يمنعه من

أيّ اتّصالٍ بي. ولأنّه لم يتحمّل هذا الإجحاف والظلم، اتّخذ مبادرة ساذجة بالذهاب إلى منزل القاضية لكي يحاول الدفاع عن موقفه.

قالت مادلين، وهي تنفخ:

- فكرة سيّئة.

- كان أبي على خطأ في الثقة بالقضاء. لم تقدّم له القاضية أيّ هبة. وعوض الإصغاء إليه، أبلغت مفوضيّة الشرطة، وزعمت بأنّها قد تلقّت تهديدات وأنّها لا تشعر بالأمان. فتمّ توقيف والدي واحتجازه. في الليلة نفسها، شنق نفسه في زنزانته.

نظرت إليه مادلين، فزعةً. رفض غاسبار أن يُشفَق عليه، لم يدَع الصمت يسود.

- لقد أُخفي ذلك عنّي، بالطبع. ولم أعلم بهذه الحادثة إلّا بعد مرور عدّة سنوات. في تلك الفترة، كنتُ في الثالثة عشرة من عمري وكنتُ في مدرسة داخلية في بوسطن. منذ ذلك اليوم، لم أعد أتكلّم مع أمّي أبداً.

بدأ يشعر الآن بأنّه هادئٌ على نحوٍ غريب، ويكاد يكون مرتاحاً. أراحه أن يروي شذراتٍ من حكايته. وكان للثقة بامرأة مجهولة بعض الفضائل: كلامٌ أكثر حريّةً، متحررٌ من الحواجز والأحكام.

- لم تكن تُريد أن تضرب الواجهة الزجاجية قبل قليل، أليس كذلك؟

بدرت منه ابتسامة حزينة، وهو يقول:

- كلّا، بالطبع، كنتُ أضرب نفسي.

بينما وصلا إلى زاوية جادّة مونبارناس وشارع شيرش-ميدي، لمح شعار صيدلية كان وميضه بلون النعناع الكاشف ينير العتمة.

طلب من سائق سيارة الأجرة أن يُنزله أمام الصيدلية لكي يشتري الحبوب المسكّنة التي وصِفَت له في المستشفى.

نزلت مادلين معه. بينما كانا واقفين في الدور أمام مكتب الصيدلية، بحثت عن طريقة لتلطيف الجوّ، وانتهى بها المطاف إلى أن قالت من باب المزاح:

- لم يكن وقت هذا الجرح مناسباً، إذ، فجأةً، لم يعُد بوسعك أن تطبخ.

نظر إليها من دون أن يعرف كيف يتصرّف. تابعت مادلين قولها:

- فعلاً من المؤسف، لأنّني أتضوّر جوعاً.

- إذا أردتِ، سوف أدعوكِ إلى المطعم. أنا أقرّ بأنّني أدين لكِ حقّاً بهذا.

- اتّفقنا.

- إلى أين تودّين أن نذهب؟

- ماذا لو نعود إلى غراند كافيه؟

2.

من جديد تناولا معاً عشاءً في جوٍّ مريحٍ ولطيفٍ أكثر ممّا كان متوقّعاً. ترك لهما صاحب المطعم، سعيداً جدّاً برؤيتهما من جديد، اختيار طاولتهما في مؤخّرة المطعم، قُبالة اللوحة الجدارية الفسيفسائية لشون لورينز.

كان غاسبار قد استعاد بعض عافيته. سرد تفاصيل زيارته الصادمة إلى منزل بينيلوب لورينز والنفحة الهذيانية التي استبدّت بها حينما غادرها. كما روت مادلين بالتفصيل، ومع الكثير من النكات،

مجريات لقائها المثير مع جان-ميشيل فايول الذي كشف لها بحث شون لورينز المحموم والمهووس في سبيل العثور على ألوانٍ تتناسب مع متطلّبات رؤيته الفنية. كان شون يرغب في أن يرسم «شيئاً غير موجود في الواقع»: وكان كلام تاجر الألوان هذا قد أثّر فيها كثيراً، وشحَذ فضولها. تُرى ما الذي كان يسعى إليه من خلال تمثيل الرسم وهو يُنجز لوحاته الأخيرة؟ أهو شيءٌ ما كان قد رآه؟ أهو حلمٌ؟ أهو شيءٌ من نتاج خياله؟

دخل لويس دي فنيس إلى الجناح الذي كانا يجلسان فيه، ووضع أمامهما طبقين ساخنين:

- الميل-فوي بلحم الحمام.

ولأنّ يدي غاسبار كانتا ملفوفتين بالضمادات، جلست مادلين إلى جانبه لكي تقطّع له اللحم. استسلم الكاتب المسرحي لهذا المعروف، واعترفت له مادلين ذهنياً بهذه الخصلة في عدم سعيه كلّ الوقت إلى لعب دور الرجل. وكما كان متوقّعاً، أمضيا جزءاً كبيراً من الوقت في معاينة جدارية لورينز. كانت مادلين قد وضعت على الطاولة، بجانب كأس الماء خاصّتها، علبة الكبريت الخاصّة بالمطعم والتي نُقِشَت عليها عبارة أبولينير، وهي التركة الأخيرة التي تركها لورينز لبرنار بينيديك. وكانت أيضاً آخر حركة سخرية: «حان الوقت لإعادة إضاءة النجوم». أيّ رسالة كان الرسّام يسعى إلى توجيهها إلى صديقه؟ هل كانت دلالة تلك الرسالة موجودة في اللوحة الجدارية الفسيفسائية؟ أرادا أن يُصدِّقا ذلك، لكن كلّما كانا ينظران إلى الجدارية أكثر، كلّما كانت تحكي لهما أقلّ. كانت مادلين تعتقد أنّها تشبه بعض مناظر الأدغال التي رسمها الرسّام الفرنسي دوانيه روسو. أمّا غاسبار، فكان يتذكّر تماماً كتاب روالد

دال، الموشّى برسومات كوينتين بليك، والذي كانت جميلة تقرأه له حينما كان طفلاً. كما كانت لدى مادلين ذكريات كثيرة عن كتاب **التمساح العملاق**. استسلما للحنين إلى الماضي، أخذا يتذكّران أسماء الشخصيات المختلفة لتلك القصص المصوّرة. تذكّرا في الحال جوجو-لا-ماليس، القرد، دودو-دو-لا-بلوم، العصفور، ودوبل-كروب، فرس النهر.

- والفيل...

أكّد غاسبار:

-... هذا سهل: ترومبيت. والحمار الوحشي؟

- الحمار الوحشي، لم أعد أعرف.

- زيبرا؟

- كلا، هذا لا يعني لي أيّ شيء. حتى أنني لم أعُد أتذكّر دوره في الحكاية.

بعد بضع دقائقَ من الحديث، أمسكت مادلين بهاتفها المحمول لكي تبحث على شبكة الإنترنت عن هذا الحمار الوحشي الذي لم يعُد يتذكّراه. بينما كانت تكتب الاسم في خانة محرّك البحث، نهض غاسبار فجأةً، وهتف فيها، واثقاً من نفسه:

- دعكِ من ذلك. لم يكن هناك حمارٌ وحشي في حكاية **التمساح العملاق**.

نهضت مادلين، بدورها، مكهربةً. في هذه الحالة، لماذا رسم لورينز حماراً وحشيّاً في لوحته، مع أنّه كان يعرف الحكاية تماماً لأنّه كان يقرأها كلّ مساء لابنه؟ لم يكُن ذلك حلّاً للغز بعد! لكنّهما أمسكا في النهاية بطرف خيطٍ محفّز. أزاحا طاولةً وكرسيين لكي يعاينا الحمار الوحشي من مسافة أقرب.

كان هذا الحيوان هو الأقلّ جمالاً في اللوحة. كان الحيوان الثديي جامداً ومحجوزاً، في ثلاثة أرباع من جسمه، بمزيجٍ من المربّعات البيضاء والسوداء التي تغطي جنبيه لمسافة سنتيمترين. أحصى غاسبار المربّعات، وتخيّل مختلف احتمالات التشفير: إشارة مورس، نوتات موسيقية، شيفرات كشفية مربّعة كما يفعل الكشّافة...

قالت له مادلين بحدّة:

- انسَ هذا الأمر، لسنا في رواية **شيفرة دافينشي**.

خرجت، منزعجةً، لكي تدخّن سيجارة على الرصيف. لحق بها غاسبار تحت المظلّة الأمامية التي كانت تحمي واجهة المطعم. كان المطر قد استأنف هطوله بغزارةٍ شديدة وصاحَبَته رياحٌ قويّة.

حمى غاسبار بجسده مادلين من المطر والرياح لكي يُتيح لها أن تُشعل سيجارتها.

- هل جرى موعدكِ مع صديقتكِ على ما يُرام؟ آمل ألّا تكوني قد اضطررتِ للاستعجال في إنهاء لقائكِ بها بسببي.

- تخيّل أنني كنتُ بالكاد قد انضممتُ إليها، حينما رأيتُك تنهال ضرباً على تلك الواجهة الزجاجية المسكينة.

أحسّ غاسبار بشيءٍ من الخجل، وأخفَضَ رأسه.

- كان عليكِ أن تمضي السهرة معها.

- جولي توقّفت لوقتٍ قصيرٍ في باريس. عليها أن تستقلّ طائرةً لكي تذهب وتقضي أعياد الميلاد مع حبيبها في مرّاكش. هناك نساءٌ محظوظات، أليس كذلك؟

- أنا آسفٌ، حقّاً.

لم تحاول أن تُثقِل عليه.

- لا تشغَل بالك بالأمر، حظّاً أوفر في المرّة القادمة. جولي هي صديقتي الأقدم والوحيدة. وقد أنقذت حياتي لمرّتين خلال السنوات الماضية.

سحبت مادلين، شاردة النظر، نفساً عميقاً من سيجارتها. تردّدت في أن تكمل الحديث، ثمّ، في النهاية، قالت:

- في المرّة الأخيرة، كان ذلك قبل ثمانية أشهر. بطريقة ما، حدث لي ما حدث لك اليوم نفسه.

فتح غاسبار عينيه واسعاً، من دون أن يُدرك ما الذي تُريد أن تقوله.

واصلَت قولها:

- كان ذلك صباح يوم سبتٍ. كنتُ أتجوّل في مركزِ تسوّقٍ في لندن حينما لمحتُ صبيّاً صغيراً يبتسم. ملاكٌ صغير، أشقر الشعر، لطيفٌ ولذيذٌ للغاية، بنظّارة دائرية ملوّنة. ابتسم لي بابتساماتٍ وجدتها مألوفة لي. راودني الشعور الغريب بأنني أعرفه، أتعلم؟

- همم.

- حينما ارتمى بين ذراعَي والده، أدركتُ من أين ينبع هذا الإحساس. كان ابن رجلٍ كنتُ قد أحببتُه قبل عدّة سنواتٍ. رجلٌ تركني لكي يلتقي مع زوجته وينجبا طفلاً.

- رجل شرير؟

- لا أبداً، بل رجلٌ طيّب، وهذا هو مبعث الإحباط. كانت علاقة جدّية آمنتُ بها كثيراً. كان اسمه جوناثان لامبيرور. ربّما تكون قد سمعتَ باسمه. إنّه أحد الطهاة الفرنسيين الأكثر شهرةً في العالم.

أصدر غاسبار غمغمة كان من الصعب فهم معناها.

- لا أدري لماذا تركني. لا أعرف ما هو الخطأ فيّ. لا أعرف ما الذي لم أفعله على نحوٍ جيّد. باختصار، في صباح ذلك اليوم، ذُهلتُ وأصبحتُ عاجزة تماماً، وأُصبتُ بالانهيار. حينما عدتُ إلى بيتي، كنتُ في قاع الهاوية، ولكن بدل أن أنهال ضرباً على واجهة زجاجية، مزّقت أوردة رسغي، في حمام بيتي. أترى، بالمقارنة معي، أنت لاعبٌ صغير!

- وصديقتكِ هي التي عثرت عليكِ في تلك الحالة؟

أجابت بالإيجاب بحركة خفيفة من رأسها وهي تسحب بشراهة آخر نَفَسٍ من سيجارتها.

- كان لديّ موعدٌ معها في ذلك اليوم. لمّا رأت أنني تأخّرتُ عليها، وتبيّنت أنني لا أردّ على الهاتف، انتابها إحساسٌ سيئ وقرّرت أن تأتي إلى بيتي. لو لم تكن المفاتيح مع حارسة البناية، أعتقد أنني كنتُ قد انتقلتُ إلى العالم الآخر. كنتُ فعلاً على مشارف الموت. رقدتُ في المستشفى لمدّة أسبوع، ثمّ قمتُ بزيارةٍ استغرقت شهرين إلى إحدى تلك المؤسسات اللطيفة التي تُدعى مستشفيات الأمراض العقلية، وذلك لكي أصفّي ذهني وأستأنف حياتي وأستعيد الإحساس بالأولويات. وأنت تعرف بقيّة الحكاية...

أراد غاسبار أن يطرح سؤالاً، لكنّ مادلين لم تترك له الوقت لذلك، فواصلت قولها:

- هيّا، قدّم لي تحلية. لقد اكتشفتُ فطيرة التفّاح خاصتهم: إنّها تبدو «مَهولة»، كما يقولون هنا.

. 3

عاد غاسبار إلى داخل مطعم غراند كافيه الصاخب، ولكن الدافئ أيضاً. قبل أن تلحق به، ألقَت مادلين بعقب سيجارتها وسحقته بمقدّمة حذائها طويل الساق. ارتجّ هاتفها في جيب سترتها. ولأنّها كانت قد تجاهلَت الردّ على العديد من المكالمات خلال الساعتين الأخيرتين، ألقت نظرةً على شاشة الهاتف. كانت رسالة قصيرة من العيادة الإسبانية:

طاب مساؤكِ، مادلين،
فحص المبيض ممتاز! إنّها اللحظة المناسبة للمجيء إلى العيادة!
ننتظركِ غداً في مدريد.
سهرة ممتعة.
صوفيا

كانت الممرّضة قد أرفقت الرسالة بوصفةٍ لشراء مضادٍّ حيوي وهرمونٍ يحفّز إطلاق البويضات.

احتاجت مادلين إلى بعض الوقت لكي تُدرك فعلاً ما تعنيه هذه الرسالة.

انضمّت إلى غاسبار داخل المطعم، وبعد تردّدٍ، شاركته الخبر.

قال غاسبار، في ابتهاجٍ:

- أنا مسرورٌ لأجلكِ.

قالت وهي تُخرج بطاقتها الائتمانية، وتتّصل عبر الإنترنت بموقع الخطوط الجوية الفرنسية من هاتفها الذكي:

- اعذرني، لكن يجب أن أحجز بطاقات الطائرة.

- بالتأكيد.

عبس وهو يهزّ يده اليمنى. كان الألم قد استيقظ، وبدأت جراحه تؤلمه بشدّة. أمسك بالأقراص المسكنّة في جيبه وابتلع ثلاثة أقراص دفعة واحدة. وإرضاءً لضميره، وتبرئةً لذمّته، ألقى نظرة على العلبة لكي يتحقّق من مقدار الجرعة.

صاح فجأةً، وبحماسٍ مفرط:

- ما هذا بحقّ الجحيم؟

رفعت مادلين عينيها عن شاشة هاتفها لكي تنظر إلى ما كان يُثير فضول غاسبار: الباركود ذو البُعدين المطبوع على علبة الدواء.

فهمت هي الأخرى الأمر:

- الحمار الوحشي، هو رمز الاستجابة السريعة (QR code)!

غادرت مباشرة حقل البحث ودخلت متجر التطبيقات في هاتفها لكي تُطلق عملية تنزيل مجّاني لبرنامج قادر على قراءة الفلاش كود.

سأل غاسبار، وهو بعيد تماماً عن كلّ ما يخصّ التكنولوجيا:

- ماذا يعني رمز الاستجابة السريعة، على وجه التحديد؟

- إنّه عبارة عن صورة مركّبة من مربّعات سوداء وبيضاء اللون، تحيل، بعد مسحها ضوئياً، إلى رسالة، أو موقع إنترنت، أو إحداثيات جغرافية.

هزّ غاسبار رأسه. بهذه الطريقة، كان لورينز قد فكّر في ابتكار رمزٍ للاستجابة السريعة من خلال استخدام الفسيفساء وإدراجه في لوحته، ولم يكُن يقصد رسم حيوان الحمار الوحشي.

ردّت عليه مادلين، قاصدةً إغاظته:

- أعرف أنّك تعيش خارج العالم، ولكن هذا أمرٌ شائعٌ جدّاً،

اليوم. نجده في كلّ مكان: على الأغلفة، وفي المتاحف، على الخرائط، على بطاقات وسائل النقل...

لمّا انتهى التحميل، فتحت التطبيق ونهضت عن الطاولة لكي تقترب من اللوحة الجدارية. وبوساطة كاميرا هاتفها المحمول، صوّرت الحمار الوحشي. ظهرت، في الحال، رسالةٌ على شاشة الهاتف:

We are all in the gutter but some of us are looking at the stars.

«كلّنا في الحفرة نفسها، لكنّ بعضنا يتطلّع إلى النجوم».

أصابتهما الجملة الشهيرة لأوسكار وايلد بشيءٍ من خيبة الأمل. كانا يتأمّلان في أن تحتوي الرسالة على شيءٍ أقلّ إبهاماً: موقع GPS، أو فيديو...

همهم غاسبار:

- لا يمكننا القول بأنّنا قد حقّقنا تقدّماً إضافياً.

ظلّت مادلين ملتزمة الصمت. كان ينبغي وضع هذه الرسالة في سياقها. كان من الواضح أنّها موجّهة إلى برنار بينيديك في تكملةٍ لمقولة أبولينير: «حان الوقت لإعادة إضاءة النجوم». كانت النقطة المشتركة بين هاتين المقولتين واضحة، وربّما بشكلٍ مبالغٍ فيه بعض الشيء: الإشارة إلى النجوم.

قال غاسبار، وهو يومئ بيده:

- النجمة، هي الرمز الأكثر غموضاً. نجدها في غالبية الأديان والمعتقدات الباطنية. يمكنها أن تدلّل على كمٍّ هائلٍ من الأشياء: النظام الكوني، النور السماوي، العلامة التي نسترشد بها لكي لا نضيع...

وافقته مادلين الرأي. ولكي تذهب إلى أعماق أسئلتها، اتّصلت ببينيديك. رغم الساعة المتأخّرة من الليل، ردّ صاحب صالة العرض على مكالمتها منذ الرنّة الثانية. من دون التركيز على اكتشافهما، سألته إن كانت لتعبير «النجوم» معنىً خاصّاً عند شون.

- كلّا، بحسب علمي، لماذا؟ هل وجدتِ شيئاً ما؟

- هل سبق وأن رسم لورينز نجوماً؟

- لا أعتقد ذلك. لم يرسمها خلال السنوات العشر الأخيرة، على كلّ حال. ربّما كانت النجمة رمزاً يحتمل الكثير من «المدلولات» بالنسبة إليه.

- شكراً.

أسرعت في إغلاق السمّاعة حتى تمنعه من طرح الأسئلة. الآن، زالت كلّ البهجة. خلال دقيقتين بدتا طويلتين، التجأ كلٌّ منهما إلى الاستغراق في أفكاره، إلى أن ارتجّ الهاتف المحمول للمرأة الشابّة على الطاولة. كان بينيديك هو المتّصل.

بعد برهةٍ من الشكّ، فتحت السماعة ومكبّر الصوت.

قال صاحب صالة العرض:

- فكرةٌ عابرة. ربّما لا تكون لهذه الفكرة أيّ علاقة بالموضوع، ولكن جوليان، ابن شون، كان يدرس في مدرسة النجوم، في مونبارناس.

تحرّك غاسبار مباشرةً في حركة سريعة، وتراجع إلى الوراء في مقعده وبذل جهداً كبيراً بيديه الملفوفتين بالضمادات لكي يشير إلى مادلين بأن تقطع المحادثة. حينما أغلقت السمّاعة، تحدّث لها عن تلك الصورتين في المنزل واللتين كان لورينز يُشاهد فيهما وهو يرسم

مع أطفالٍ، وذكّرها بما قالت له بولين: حتى بعد موت جوليان، ظلّ شون يواظب على الرسم في ورشةٍ للرسم في مدرسة ابنه.

كانت مادلين قد أبقت هاتفها في يدها. قامت بالبحث على الإنترنت وعبر موقع خرائط غوغل لتحديد العنوان على الخريطة. كانت مدرسة النجوم مدرسة خاصّة تقوم بتعليم الأطفال وفق التربية الإبداعية، منذ بلوغهم سنّ الثانية وستّة أشهر، وهي عبارة عن طريقة بديلة -على نمط مونتيسوري وفرينيه- كان حضورها يتزايد في فرنسا، في عام 2016.

تفحّصت مادلين الخريطة. لم تكن المدرسة بعيدة. الأمر منطقي: كان الزوجان لورينز قد أرسلا طفلهما إلى مدرسة قريبة من منزلهما.

هتفت وهي تمسك سترتها، وتضع على الطاولة ثلاث ورقات نقدية:

- هيّا بنا!

وهو يُغادر المطعم، سائراً في أعقاب المرأة الشابّة، كاد غاسبار أن يطرح أرضاً صاحب المطعم الذي وصل وهو يحمل فطيرتَي التفاح خاصّتهما.

9

وسيلة لقهر الموت

يبدو لي أنّ الفن يمكن أن يكون وسيلة لقهر الموت.

هانز هارتونغ

1.

كانت تُمطر.

ظلّ المطر ينهمر غزيراً بثباتٍ، مضفياً جوّاً من الكآبة. كانت مادلين تعبُر ظلام الليل، ويسير غاسبار في إثرها. أحسّت مادلين، مفعمةً بالأمل، بأنّهما كانا يبلغان أخيراً هدفهما. كانت مدرسة النجوم بالفعل على مرمى حجر منهما. خرجا من شارع هويغنس ووصلا إلى الجادّة، مقابل مقبرة مونبارناس. كان المكان شبه مهجورٍ باستثناء بعض المشرّدين الذين كانوا يحتمون تحت خيامٍ مؤقّتة. بموجب خطّة «فيجيبيرات» للوقاية من التهديدات الإرهابية، كانت وضعت حواجز أمام سور المدرسة لمنع السيارات من التوقّف، ولكن لم تكن هناك حماية خاصّة أخرى. كان الدخول إلى المنشأة التعليمية يتمّ عبر بوّابة محاطة بجدارٍ إسمنتي يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار.

- أعنّي على التسلّق، يا كوتانس.

قال غاسبار، متشكّياً، وهو يُريها يديه الجريحتين:

- بماذا أُعينكِ؟ لم تعد لديّ يدان!

قالت، بلهجةٍ آمرة:

- في هذه الحالة، انحنِ!

انحنَى، بطيبة خاطر، على الرصيف.

وضعَت مادلين قدماً على فخذ غاسبار، والأخرى على كتفه، وبحركة واحدة رشيقة وسريعة، قفزت ووجدت ممسكاً على الجدار، واندفعت نحو الأعلى، ومن ثمّ انزلقت إلى الجانب الآخر.

- هل أنتِ بخير؟ ألم يصبكِ أذى؟

لم تُجِب المرأة الشابّة. انتظر غاسبار، قلقاً، ومتضايقاً، لما يقارب خمس دقائق، قبل أن تُفتَح البوابة، مصدرةً صريراً.

قالت، في همسٍ:

- ادخُل بسرعة.

- تبّاً، أين كنتِ؟

- كفّ عن التذمّر. حتى من الداخل، من المستحيل فتح الباب من دون المفتاح. كن شاكراً أنني وجدتُه سريعاً.

- أين كان مخبّأً؟

- في علبة اللوحة الكهربائية، داخل غرفة حاويات القمامة.

حاول أن يغلق الباب من ورائه بأقلّ ضجيجٍ ممكن، لكنّ انصفاق الباب المعدني بدا له مدوّياً وسط الصمت السائد. كان المجمع المدرسي غارقاً وسط الظلام. ورغم العتمة، استطاعا أن يميّزا باحة صغيرة مبلّطة محاطة بأبنية مبعثرة ومختلفة الأشكال. أضاءت مادلين مصباح هاتفها المحمول، وغاسبار لا يزال يسير في أعقابها، واستعرضت كلّ مبنى من الأبنية. إلى المبنى التاريخي

-الذي يضمّ، بحسب اللوحات الإرشادية، القاعات الإدارية وورشة المعلوماتية- كانت قد أُضيفَت قاعات دراسية بتصاميم نموذجية. كانت عبارة عن غرفٍ مسبقة الصنع تنتصب بفضل أعمدة معدنية مدهونة بألوانٍ فاقعة. عبرا الفناء، وتجاوزا قاعة الطعام، ليسلكا السلّم الخارجي الصغير الذي يصعد نحو القاعات الدراسية في الطابق العلوي.

2.

كانت مادلين مرتاحة في ما تقوم به. كانت متيقّظة وسريعة وقادرة بالفطرة على اتّخاذ القرارات الصحيحة. كانت السنوات العشر التي قضتها على أرض الميدان قد جعلت ردود أفعالها سريعة.

في نهاية ما يشبه ممرٍّ في الهواء الطلق، كان بابٌ مصنوعٌ من البلاستيك المقوّى يسدّ المدخل إلى القاعات الدراسية. من دون أيّ تردّد، لفّت ذراعها بسترتها الجينز وضربت بمرفقها لكي تكسر اللوح الزجاجي الأكثر قرباً منها. كان على الأرجح هناك جهاز إنذارٍ رخيص الثمن، لكنّه لم يكُن يحمي، من دون شكّ، سوى المباني في الطابق السفلي، حيث توجد الحواسيب وكلّ ما يمكن له أن يهمّ لصوصاً محتملين.

فوجئ غاسبار، بل وارتعب، قفز وتراجع خطوةً إلى الوراء.

- هل تعتقدين حقّاً أنّ. . .

نهرته وهي تمرّر يدها عبر الزجاج المتكسّر لكي تفتح الباب:

- اصمت، يا كوتانس.

سلّطت شعاع مصباح هاتفها وهي تدخل إلى الغرفة. رغم السمعة الحسنة للمدرسة، كانت الغرفة عبارة عن قاعة دراسية تقليدية

للصفّين الرابع والخامس، فيها مقاعد دراسية من الخشب الخام، وخريطة لفرنسا مغلّفة بالبلاستيك.

في عمق الغرفة، كان بابٌ آخر ينفتح على ممرٍّ يُفضي إلى قاعات الأقسام الأخرى: الصفّ الأوّل الابتدائي، الصفّ الثاني الابتدائي، والمرحلة التحضيرية. كانت القاعة الأخيرة، والأكبر من بين القاعات، هي قاعة استقبال أطفال الحضانة. وهي القاعة التي، على ما يبدو، قد استقبلت الطفل جوليان.

جال شعاع مصباح الهاتف وسط الظلام الدامس إلى أن وقع على علبة قواطع الكهرباء. ضغطت مادلين على قابس الكهرباء لإضاءة المكان، ضاربة كلّ دواعي الحذر بعرض الحائط.

قال غاسبار بقلق، وهو يجول بدوره في القاعة:

- أنتِ غائبة عن الوعي تماماً!

مدّت مادلين أصبعها وهي تشير له على ثلاث لوحات معلّقة على الجدران.

كانت اللوحات تبدو من النظرة الأولى كما لو أنّها عبارة عن رسومات أطفال عاديّة جدّاً: شخوصٌ بشرية مرسومة على عجل بخطوطٍ كالعيدان، وقصورٌ منيعة بلا أفق، وأمراء وأميرات بلا تناسق متجولين وسط ديكورات بألوان فاقعة تنساب من اللوحة. لكنّ مادلين تعرّفت على الصناديق الأميركية الخشبية التي كان فايول قد حدّثها عنها.

تبادلا النظرات، وقد أدرك كلاهما بأنّهما قد عثرا على ما كانا يبحثان عنه. فكّرت مادلين، في الحال، بالرسوم الخفية (Pentimenti) التي وحدها الأشعة ما تحت الحمراء تتيح كشف خفاياها. وكانت قد قرأت أنّ عدداً كبيراً من رسومات فان غوغ

كانت تخفي تحت طبقات ألوانها أعمالاً أخرى، كانت قد رُسمت قبل ذلك من قبل المعلّم الفلمندي. أمّا غاسبار، فذهب تفكيره إلى **أصل العالم**، اللوحة الشهيرة للفنان غوستاف كوربيه والتي، وتجنّباً لصدم الطبقة البرجوازية، أُخفيت، لعقودٍ من الزمن، بقناعٍ من لوحٍ خشبيٍّ يصوّر منظراً طبيعيّاً عاديّاً مغطّى بالثلج.

وجد قطّاعة في الدرج المعدني لطاولة مكتب «المعلّمة». تسارع نبض قلبه وهو يفتح شقّاً عريضاً في الحرف الخارجي لواحدة من اللوحات، مكتشفاً غشاءً بلاستيكيّاً بسماكة قماشٍ مشمّع، والذي كان يحمي رسمةً أخرى. هي اللوحة **الحقيقية**.

فعلت مادلين الأمر نفسه برأس نصلِ مقصٍّ.

كانا بحاجة إلى عشر دقائق كاملة من أجل «فتح» اللوحات المخفية. بعد أن أنجزا هذا العمل، تراجعا لعدّة خطوات إلى الوراء، وجلسا جنباً إلى جنب على السطح المنحدر لمقعدٍ دراسي، وتأمّلا موضوع بحثهما.

3.

كانت اللوحات الثلاث الأخيرة التي رسمها شون لورينز أكثر جمالاً وروعةً وسحراً وإثارةً للذهول ممّا استطاع غاسبار ومادلين أنّ يتخيّلا.

على الرغم من المصباح الوحيد الشاحب الضوء في القاعة، بدت اللوحات وكأنّها تبعث ضوءها الخاصّ.

كانت اللوحة الأولى عبارة عن متاهةٍ باللون الأسود على أرضية من الفحم الصلب. كانت تذكّر ببعض لوحات الرسّام بيير سولاج. على الرغم من اللون الأسود الغامق، بدت اللوحة وكأنّها تختفي

لتدع الضوء ينبعث منها. كان السطح الأسود، عبر كيمياء سحرية، يعكس الإضاءة الشاحبة للغرفة ليحوّلها إلى ومضاتٍ فضيّة اللون وبروقٍ رائعة وساحرة.

في اللوحة الثانية، كان اللون الأسود يُستبدَلُ بألوانٍ مريحة: أبيضٌ رصاصي فيه بروقٌ وومضاتٌ تمزج بين الوردي والرمادي والذي كان يزداد كثافةً وبريقاً كلّما اقتربنا من المركز. بدا أنّ اللعبة اللونية ترسم معبراً، نفقاً، بؤرةً لامعة ومشعّة عبر غابةٍ من الظلال البيضاء.

كانت اللوحة الثالثة هي الأجمل، والأكثر روعةً وتميّزاً، والأكثر إثارة للدهشة. كانت عبارة عن لوحة شبه جرداء تعطي الإحساس بأنّها سائلة أو أنّها تعوم في زئبقٍ. لوحةٌ محيِّرة، تكاد تكون أحادية اللون بالأبيض والتي تترك كلّ التأويلات والتفسيرات مفتوحة. وجد فيها غاسبار أشعّة شمس شتاءٍ كبيرة وهي تنعكس على منظرٍ للثلج يمتدّ على مدّ النظر. طبيعة مطهّرة، خالدة، خالية من سرطان البشر، لم تعد فيها حدودٌ للسماء والأرض.

فكّرت مادلين في دوّامة بيضاء كبيرة، في حقلٍ وضّاءٍ يسبّب الدوخة والدوران، يسحب الناظر إليه، ويبتلعه، ويدخل إلى الأعماق الخفيّة في كيانه.

ظلّا لعدّة دقائق جامدين في مكانهما بلا حراك، مذهولين أمام المشهد، مثل أرنبين أبهرهما ضوء المصابيح وجمّدهما في مكانهما. ضوءٌ متحرّكٌ يمارس سحراً منوّماً ويعطي الإحساس بأنّه سينتهي إلى ابتلاع كلّ شيء.

تصاعد صوت صفّارة إنذار سيارة شرطة في الشارع وقطع غيبوبتهما.

هرع غاسبار، قلقاً، لكي يضغط على قاطع التيار الكهربائي. تجمّد في مكانه، وألقى نظرة حذرة عبر النافذة. في الأسفل، مرّت سيارة الشرطة مسرعةً كالبرق واختفت في زاوية جادّة راسباي.

التفت نحو مادلين، وقال:

- إنذارٌ كاذب.

لم تكن المرأة الشابّة قد تحرّكت من مكانها. كانت لا تزال واقفة بلا حراك أمام اللوحة الثالثة التي كانت تشعّ وسط الظلام. باتا يعلمان الآن لماذا كان لورينز يبحث عن المساحيق اللونية الفوسفورية التي تحدّث عنها فايول. كانت اللوحة تكتسي، وسط العتمة، بُعداً مختلفاً تماماً. كانت اللوحة الأحادية اللون البيضاء في الحقيقة عبارة عن عملٍ دقيقٍ في فنّ الخطّ. كانت مئات الأحرف المتوهّجة تنفصل عن بعضها في الظلمات. اقتربت مادلين من اللوحة. حينما لحق غاسبار بها، أدرك أنّ الأحرف كانت تشكّل رسالة تتكرّر إلى ما لا نهاية.

جوليان على قيد الحياة جوليان على قيد الحياة...

نداء النور

الخميس 22 ديسمبر

10

خلف النور

الأسود ليس لوناً.

جورج كليمنصو

.1

أنا في الطريق. سأنضمّ إليكِ بعد عشر دقائق.

ديان رافائيل.

اطّلعت مادلين على الرسالة القصيرة لطبيبة لورينز النفسانية على شاشة هاتفها المحمول لمّا وصلت أمام سهمي كنيسة سانت-كلوتيلد. كانت الساعة تُشير إلى الثامنة والنصف صباحاً، وكان الهواء منعشاً وجافّاً أكثر ممّا كان عليه في الليلة التي مضت. محرومة من درّاجتها السكوتر التي لم تكن قد جلبتها بعد من شارع السين، جاءت تعدو بخطوات قصيرة من شارع شيرش-ميدي، وكان ذلك بمثابة رياضة مشي لتنشيط أعضاء جسمها.

كانت قد نامت في الساعة الثالثة فجراً، واستيقظت في السادسة صباحاً. كانت الساعات الأخيرة مرهِقَة، من الناحية الجسدية أوّلاً، إذ تعيّن عليها نقل اللوحات سرّاً من المدرسة إلى البيت، ومن ثمّ من الناحية الذهنية والعاطفية، حيث ظلّ سؤالٌ لم يُعثر على أيّ جوابٍ

له حتى تلك اللحظة: لماذا كان شون لورينز، قبل بضعة أيام من موته، مقتنعاً بأنّ ابنه كان لا يزال على قيد الحياة؟

استعادت مادلين أنفاسها وهي تفكّر في غاسبار، واضعةً يديها على ركبتيها. منذ أن كشفا النقاب عن رسالة الرسّام، المكتوبة بأحرفٍ متوهّجة، لم يعُد الكاتب المسرحي يهدأ. كان، وهو الذي لم يكُن يعرف شيئاً عن الإنترنت، يقضي جزءاً من الليل في تحري الأخبار المنشورة في المواقع الإلكترونية لكبرى وسائل الإعلام الأميركية. وقد أذهله ما اكتشفه: كان العديد من المقالات المنشورة في أعقاب المأساة تشير في الواقع إلى أنّه لم يتمّ العثور على جثّة الطفل جوليان في المستودع الذي احتُجِزَت بينيلوب فيه.

من خلال إعادة تمثيل الجريمة القاتلة لبياتريز مونيوز، كان المحقّقون قد خلصوا إلى نتيجة بأنّ المرأة التشيلية كانت قد ألقت بجثّة الطفل في مصبّ نهر نيوتاون كريك، في جنوب كوينز. كان رجال الشرطة قد عثروا على قطعة القماش المخملي الملطّخة بدم الطفل على إحدى ضفاف مجرى النهر. تمّ إرسال بعض الغواصين، ولكن كان من الصعب الوصول إلى المكان الذي يُعدّ أحد أكثر الأمكنة تلوّثاً في نيويورك، كما كان التيار المائي في هذا الجزء من مجرى النهر قويّاً جدّاً وجارفاً بحيث لا يمكن ارتجاء العثور على جثّة صغيرة.

وعلى الرغم من ذلك، لم يتم التشكيك أبداً في رواية بينيلوب لورينز التي ظلّت تؤكّد على الدوام بأنّ ابنها قد طُعِن أمام عينيها. ولم يكُن لدى مادلين، من الناحية الموضوعية، أيّ سبب للتشكيك في تلك الرواية. بحسب المقالات التي طالَعَتها، كان كلّ شيء يدفع إلى الاعتقاد بأنّ مونيوز قد تصرّفت بمفردها من دون تواطؤٍ مع أيّ

أحد. لم يكن هناك أيّ شكٍّ في موت الطفل. وكان قد تمّ العثور على دمائه في كلّ مكان: في الشاحنة الصغيرة التي استُخدمت في اختطافه، وفي مستودع كوينز، وعلى ضفاف نهر نيوتاون كريك.

قرَّرت مادلين أن تنتظر الطبيبة النفسانية على الرصيف الدافئ للمقهى الذي ينفتح على حدائق الكنيسة. كانت قد طلبت ترتيب هذا الموعد من مكتب ديان رافائيل قبل ساعة منه من خلال إرسال عدّة صور للوحات شون لورينز إليها عبر خدمة الرسائل القصيرة على الهاتف المحمول. جلست تحت موقد جمرٍ مرفوعٍ على أعمدة وطلبت فنجاناً مزدوجاً من الإكسبرسو. على شاشة هاتفها المحمول، كانت تظهر رسالة بالبريد الإلكتروني واردة من شركة الطيران الفرنسية، تذكّرها بضرورة تسجيل اسمها من أجل رحلتها إلى مدريد. الإقلاع من مطار شارل ديغول في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف، وسيكون الوصول إلى العاصمة الإسبانية بعد ساعتين تماماً. ملأت استمارات الحجز عبر الإنترنت، وشربت قهوتها سريعاً وطلبت في الحال فنجاناً ثانياً وبدأت تشرب منه بتلذّذ وهي تفكّر من جديد في مغامرة الليلة السابقة.

وعلى عكس غاسبار، ما أقلقها أكثر من سواه وشغل بالها، لم تكن الرسالة ذات الأحرف الفوسفورية، التي وجدتها غريبة، وإنّما كان... كلّ ما تبقّى. وعلى نحوٍ خاصّ، الرحلة شبه الروحية التي وصفها شون لورينز من خلال ثلاثيته الفنية. رحلة كانت تعرفها جيّداً لكونها قد قامت بها بنفسها قبل بضعة أشهرٍ خلت.

حينما مزّقت رسغيها في مغطس الحمّام، كانت مادلين قد انجرفت قبل أن تفقد وعيها. وكان جسمها قد فرغ، ببطء، من بعض دمائها، وقد أُصيبت بالدوار من جرّاء البخار الساخن جدّاً. كانت قد

انهارت وغرقت مغشيّة على عينيها وسط مشهدٍ من الضباب. وكانت على يقينٍ من أنّ هذا الانهيار نفسه هو ما سعى شون لورينز إلى تجسيده في رسوماته الأخيرة.

قبل كلّ شيء، اللون **الأسود**. المفتاح الفاصل الذي يدور ويقطع صلة الإنسان بالعالم، وهو يحيله لوقتٍ وجيز إلى عذاباته. إلى متاهة قلقه الخاصّ. حياته التي تحوّلت إلى سجنٍ يضيق عليه.

ومن ثمّ عبور نفقٍ طويلٍ ومظلم ينتهي إلى حيث ضوءٍ دافئ ولطيفٍ ومنتشر. هذا الإحساس المذهل والرائع الذي ينتاب الإنسان ويجعله يشعر بأنّه يعوم في ثوبٍ من نسيجٍ شفّافٍ فيه عروق من اللؤلؤ، ويعبر منطقة من الغيوم البيضاء كالقطن ويستسلم للانجراف مع رياح ليلة صيفية، منقاداً بالآلاف من القناديل التي لها ضياء وبريق الألماس.

ومن ثمّ، تملّك مادلين ذلك الإحساس المشوّش بالانفصال عن جسدها، إلى أن استطاعت أن ترى المسعفين وهم ينحنون فوقها، ويحاولون إنعاشها قبل أن يحمّلوها في سيارة إسعاف. ظلّت معهم ومع جولي للحظةٍ في الطريق إلى المستشفى.

ومن ثمّ وجدت الضوء من جديد. دوّامةٌ مشعّة ابتلعتها، وألقت بها في فيضٍ ضوئي جارفٍ لَبنيّ اللون حيث استبدّ بها الدوران البانورامي لفيلم حياتها. كانت قد لمحت طيف ووجه والدها وأختها سارة وعمّها أندرو. لا بدّ أنّها قد رغبت في أن تتوقّف لتكلّمهم، لكنّها لم تستطع أن توقف التيار الذي كان يجرفها. تيارٌ دافئ، وحاضن، ورقيقٌ، وحنون. تيارٌ أقوى من كلّ شيء. سمعت، في أذنيها، همساً لطيفاً جدّاً يشبه الأناشيد السماوية التي تزيل أيّ رغبة لديها في العودة إلى الوراء.

ومع ذلك، لم تذهب مادلين حتى نهاية النفق. كادت أن تلامس بأصابعها حدوده. الحدود التي لا تدع المرء أن يتجاوزها إلّا باتجاهٍ وحيد. لكنّها تذكّرت أمراً ما. ربّما كان الحدس بأنّ قصّة حياتها ربّما تستحقّ خاتمة مختلفة.

حينما فتحت عينيها، كانت في إحدى غرف المستشفى، موصولة بأنابيب التنفّس ومحاصرة بالحقن والضمادات.

كانت مادلين تعلم جيّداً أنّ تجربتها في حدّ ذاتها لم تكن تشتمل على أيّ شيءٍ استثنائي أو غير مألوف. كانت هناك عشرات الآلاف من الحكايات المشابهة لحكايتها. كانت «تجارب الاقتراب من الموت» موصوفة في الثقافة الشعبية عبر العديد من الروايات والأفلام السينمائية. لقد خرجت، بكلّ تأكيد، من هذه الرحلة وقد جرى تحوّل كبير فيها. ليس بالضرورة أنّها أصبحت أكثر ميلاً إلى الإيمان بوجود حياةٍ بعد الموت، ولكن مع الرغبة في أن تعيش حياتها كاملةً لما تبقّى لها من الوقت، وأن تتخلّص من كلّ ما هو ليس مهمّاً، وأن تعطي معنىً مختلفاً لحياتها، وبالتالي أن يكون لها طفلٌ.

كانت لا تزال تجربة الاقتراب من الموت محفورة تماماً في ذاكرتها. كما لو أنّها عاشتها بالأمس فقط. لم يكُن قد تلاشى أيّ شيءٍ منها. على العكس تماماً، كانت الأحاسيس قد أصبحت أكثر رقّةً، والصور أضحت أكثر دقّةً. صفاء «الرحلة»، النداء المُلِحّ للنور. وهذا النور هو ما نجح شون لورينز في أن يرسمه، بكلّ تلويناته، وبكلّ كثافته. هذا النور اللعين الذي كان يشعّ، بطريقة لا يمكن تفسيرها، مثل الشموس المخادِعَة لحبٍّ مشرق.

- هل أنتِ مادلين غرين؟

انتزعها السؤال من أحلامها. كانت امرأة مبتسمة تقف تحت

موقد الجمر على الرصيف. كانت المرأة الأربعينية ترتدي سترةً جلدية بلون بني فاتح وتضع نظّارة شمسية، عسلية اللون.

قالت وهي تمدّ لها يدها:

- أنا ديان رافائيل.

.2

لم يضطرّ كوتانس، هذه المرّة، إلى الإلحاح لوقتٍ طويل لكي تستقبله بينيلوب. جاء قادماً عبر شارع سان-غيوم، منذ الصباح الباكر، وهو يحمل تحت ذراعه لوحة ثقيلة. حينما عرّف بنفسه عبر الهاتف الداخلي لعمارة بينيلوب، فتحت له الزوجة السابقة لشون لورينز الباب حتى من دون أن تعرف ما كان يريده.

خرج غاسبار من المصعد، لاهثاً. لم يكن فيليب كاريا حاضراً لكي يقوم بمراسيم استقباله. انفتح الباب من تلقائه ودخل غاسبار إلى صالون الاستقبال وهو يجرّ على الأرضية الإطار المصنوع من خشب الجوز الذي أحاطه بغلافٍ صوفيٍّ سميك.

كانت بينيلوب تنتظره، جالسة على أريكةٍ في الصالون وسط الضوء البارد للصباح. كانت للإضاءة الطبيعية، المائلة للزرقة، والشاحبة، ميزة مضاعفة في ترك الديكور المبهرج وسط العتمة وعدم إظهار أرملة لورينز إلّا كشبحٍ في الظلّ، الأمر الذي كان في صالحها أكثر ممّا لو كانت وسط نورٍ ساطع.

قال وهو يضع على الأريكة الجلدية اللوحة التي كانت لا تزال محمية بغطائها الصوفي.

- وعد الحرّ، دينٌ عليه!

اقترحَت عليه، وهي تدعوه إلى الجلوس على أريكة من الطراز المشرقي:

- أتشرَب قهوة؟

بدت بينيلوب، وهي ترتدي بنطلون جينز باهت اللون وقميصاً قديماً فضيّ اللون، كما لو أنّها قد ظلّت عالقة في التسعينيات. الآن، وهو يراها للمرّة الثانية، وجدها غاسبار أقلّ توحّشاً. بدا وجهها البلاستيكي أقلّ جموداً ممّا رآه في أوّل لقاءٍ بها. ولم يعُد فمها المبتسم يعطي الإحساس بأنّه سيتمزّق كلّما تفوّهت بكلمة.

فكّر في نفسه وهو يمسكُ بفنجانٍ من الموكا موضوعٍ على الطاولة المنخفضة: **يعتاد الإنسان على كلّ شيء.**

قالت وهي تشير إلى الإطار:

- إذاً، لقد عثرت على ما كنت تبحث عنه.

بالمقابل، لم يكن صوتها قد تغيّر في شيء: أجشّ، وخشنٌ، وفيه بحّة، كما لو أنّ مجموعة هررة صغار تقبع في حلقها.

- لقد وضعنا يدنا على اللوحات، وهناك واحدة من بينها ينبغي أن تريها.

تنهّدت.

- أليست عبارة عن صورة شخصية لجوليان على الأقلّ؟

- ليس بالضبط.

- لم أكُن لأتحمّل رؤيتها.

نهض غاسبار ونزع، من دون حركات استعراضية، الغطاء لكي يكشف أمام بينيلوب عن اللوحة الأخيرة لزوجها السابق.

انكشفت اللوحة الموضوعة قرب نافذتين عاليتين بكلّ روعتها.

حتى أنّ غاسبار نفسه أحسّ بأنّه يُعيد اكتشافها. بدا نورٌ ممتع وساحر يخرج منها ويرقص أمام اللوحة.

قالت بينيلوب:

- إنّها ميزة الفنانين أن يستمروا في الحياة من خلال أعمالهم.

سحب غاسبار، بهدوء، الستائر الأربع لكي يُغرق الصالون في العتمة.

سألت بقلقٍ:

- ماذا تفعل؟

ثمّ رأت الأحرف المشعّة ورسالتها الخفيّة:

جوليان على قيد الحياة.

قالت بلهجة آمرة:

- هذا يكفي! افتح الستائر!

استبدّ بها غضبٌ شديد، أثّر على وجهها وغيّر شكله، كاشفاً عن حاجبين عاليين جدّاً، وأنفٍ رفيعٍ جدّاً، ووجنتيها الشبيهتين بوجنتَي جرذ هامستر.

سأل غاسبار، بلا رحمة:

- لماذا كان شون مقتنعاً بأنّ ابنكما على قيد الحياة؟

صرخت بينيلوب وقد قفزت من الأريكة، وأدارت ظهرها للوحة:

- لا أعرف أيّ شيء عن ذلك على الإطلاق!

احتاجت إلى أكثر من دقيقة لكي تهدأ وتواجهه من جديد:

- حينما سألتني، البارحة، زعمتُ أنني لا أتذكّر ما قاله لي شون حينما اتّصل هاتفيّاً بي من نيويورك قبل بضع دقائق من وفاته.

- لماذا؟

- لأنني لم أرغب في أن ألفظ تلك الكلمات، ولكن. . .

- ماذا؟

- هذا ما قاله لي بالضبط: «ابننا على قيد الحياة، يا بينيلوب!».

- وماذا فعلتِ؟

- شتمته وأغلقتُ السمّاعة. لا يُلعَب مع موت الأطفال!

- ألم تحاولي أن تعرفي ما. . .

- ولكن أن أعرف ماذا؟ لقد رأيتُ بأمّ عيني ابني وهو يتلقى طعنات السكين. لقد رأيتهُ يُقتل من قبل الشيطان شخصيّاً، أتفهم؟ لقد رأيته، لقد **رأيته! لقد رأيته!**

وقرأ غاسبار في عينيها بأنّها كانت تُخبره بالحقيقة.

شهقت بينيلوب، لكنّها أبت أن تُظهر ضعفها، فسارعت إلى حبس دموعها وحرصت على أن توضّح، قائلةً:

- لم يكن هناك مخرجٌ لعلاقتي مع شون. لقد ظلّ يعاتبني باستمرار في أنني كنتُ مسؤولة عن موت جوليان.

- لأنّكِ كنتِ قد كذبتِ عليه بشأن وجهتكِ في اليوم الذي تمّ اختطافه فيه؟

أقرّت بإشارةٍ من رأسها.

- ربّما لو أنّ رجال الشرطة بدأوا بحملات البحث في ذلك القطاع، لوصلوا في الوقت المناسب لإنقاذه. كان شون يعتقد ذلك، على كلّ حال، وأنا حملتُ لوقتٍ طويل عبء ذلك الإحساس بالذنب. لكن إذا ذهبنا بالمنطق حتى النهاية، شون هو البادئ بالخطأ.

أدرك غاسبار أنّ بينيلوب كانت تُعيد لعب مباراةٍ سَبَق لها وأن عاشتها لآلاف المرّات منذ سنتين.

- لو أنّه لم يشجّع مونيوز على مرافقته في عمليات السطو التي كان يقوم بها، لما غذّت هذا الحقد الإجرامي!

- ألم يعترف بذلك؟

- كلّا! لأنّه كان يزعم بأنّه قد فعل ذلك من أجلي. لكي يؤمّن النقود ويلحق بي إلى باريس. لقد قلتُ لك: لم يكن هناك حلّ لهذه المسألة. كان كلّ شيء بسبب خطئي.

استسلم غاسبار بدوره لحزنٍ غريب. نهض واستأذن من بينيلوب.

- لقد شعرتُ في الحال بأنّك كنتَ صادقاً، يا كوتانس.

- لماذا تقولين هذا؟

- لأنّك لم تخفِ شخصيتك الحقيقية تحت أيّ قناع.

أضافت كلاماً بعيداً عن الموضوع بعض الشيء:

- في الحياة، هناك الرجال الطيّبون، والآخرون. الخط الفاصل بين الصنفين واضحٌ. أنت رجلٌ طيّب. مثل شون.

استغلّ غاسبار الثغرة. وفي حين كانت يده على مقبض الباب وهو يهمّ بالخروج، عدل عن رأيه فجأةً وعاد نحو بينيلوب.

- أعلم أنّه من المؤلم للغاية بالنسبة إليك الحديث في هذا الأمر، لكنني أودّ أن أعرف ما حدث **حقّاً** في يوم اختطاف جوليان.

تنهّدت بوهنٍ، وقالت:

- لقد وُصِفَ ذلك في العشرات من مقالات الصحف.

- أعلم ذلك، ولكنّني أودّ أن أسمع ذلك من فمكِ.

3.

كان مكتب ديان رافائيل عبارة عن غرفة كبيرة واجهتها الطولية مزجّجة، تطلّ على مناظر أخّاذة من باريس. من جهة، كنيسة سانت-كلوتيلد، ومن جهة أخرى، كنيسة سان-سولبيس، وقبّة مبنى البانثيون، وهضبة مونمارتر.

- هنا أشعر بأنني في مرقب سفينة للقراصنة: يمتدّ النظر هنا بعيداً جدّاً لنرى وصول العواصف والأعاصير والمنخفضات. وهذا درسٌ عملي بالنسبة إلى طبيبة نفسانية.

ابتسمت الطبيبة لتعبيرها المجازي كما لو أنّها قد ابتدعته لتوّها. كما حصل في أثناء زيارتها إلى فايول، قالت مادلين في نفسها بأنّها أخطأت في توقّعاتها تماماً. كانت قد تخيّلت أنّها ستكون أمام سيّدة مسنّة تضع نظّارة وقد غزا الشيب شعرها. أمّا في الواقع، كانت ديان رافائيل امرأة قصيرة ونحيلة، نظرتها ماكرة، وشعرها قصير ذو خصلات مجعّدة. بدت سترتها الجلدية الصهباء وبنطلونها الجينز المشدود وحذائها الرياضي، كما لو أنّها لا تزال تتخيّل بأنّها طالبة بوهيمية.

كانت قد وضعت بالقرب من باب المدخل حقيبة ذات عجلات صغيرة.

سألت مادلين:

- هل تذهبين في عطلةٍ؟

أجابت الطبيبة النفسانية:

- إلى نيويورك. أقضي فيها نصف وقتي.

أشارت إلى العديد من الصور المعلّقة على الجدران. كانت

عبارة عن صور ملتقطة من فوق، تجسّد عمارة زجاجية تقع بين الغابة والمحيط.

- **إنّه مركز لورينز للعناية بالأطفال**، وهو مركزٌ طبّي لمعالجة الأطفال وتقديم الرعاية الصحية لهم، قمتُ بتأسيسه بفضل شون. يقع في بلدة لارتشمونت، في شمال نيويورك، في مقاطعة ويستشستر.

- لورينز هو الذي موّل هذا المستشفى بطريقة مباشرة؟

أجابت ديان، موضّحةً:

- بطريقة مباشرة وغير مباشرة. جاءت الأموال في قسمٍ منها من حصيلة بيع لوحتين كبيرتين من لوحاته، كنتُ قد اشتريتهما بمبلغٍ زهيد ومن ثمّ بعتهما، حينما ارتفع ثمنهما، بمبلغٍ باهظ. ومن ثمّ، علِم شون بمشروعي ومنحني ثلاث لوحات أخرى وسمح لي بوضعها في المزادات. كان فخوراً جدّاً بأن يفيد فنّه في شيءٍ ملموس: معالجة أطفال محتاجين وتقديم الرعاية الطبية لهم.

خزّنت مادلين المعلومة في زاويةٍ من ذاكرتها، في حين كانت الطبيبة النفسانية تأخذ مكانها خلف مكتبها. غيّرت ديان موضوع حديثهما. قالت وهي تدعو مادلين إلى الجلوس أمامها على كرسيٍّ من تصميم فايسيلي:

- إذاً، لقد عثرتِ على اللوحات الثلاث الأخيرة التي رسمها شون. تهانيّ لكِ. وشكراً على صورِكِ. تبدو اللوحات في غاية الروعة. إنّها أفضل ما رسمه لورينز!

كانت غرفة المكتب بأكملها مفروشة بأثاثٍ من طراز باوهاوس: مقاعد من قضبان فولاذية منحنية، أريكة مكعّبة، مقعد وطيء منجّد

بغطاء جلدي، سرير نهاري منجّد، طاولة خفيضة من الخشب المنضّد والملبّس بالكروم.

سألت مادلين وهي تجلس في الأريكة:

- هل تعلمين ما تصوّره هذه اللوحات؟

- فنّ شون لا يصوّر، إنّه...

-... إنّه يقدّم، أعلم ذلك، لقد سبق وقيل لي هذا الكلام. ولكن ماذا عدا ذلك؟

لُسِعت الطبيبة النفسانية بهذا الكلام، اغتاظت، ثمّ قالت، مستسلمةً:

- من خلال هذه اللوحات، أراد شون أن يعرض تجربتيه في الاقتراب من الموت.

- إذاً، هل كنتِ على علمٍ؟

- بالنسبة إلى اللوحات، كلّا، لكنني لستُ مستغربة. كان شون مريضي منذ عشرين عاماً! وكما أوضحت ذلك من قبل للسيّد كوتانس، في عام 2015، تعرّض شون إلى أزمتين قلبيتين خطيرتين للغاية تفصل بينهما بضعة أشهر. تعرّض لنوبتين قلبيتين أوقعتاه في غيبوبة قبل أن يتمكّن الأطباء من إنعاشه. وقد تفاقمت النوبة القلبية الثانية بصدمة تعفّن...

- تسمّم دموي؟

- نعم، تعفّن جرثومي خطير جدّاً كاد أن يقضي عليه. حتى أنّه تمّ إعلان موته سريرياً قبل أن ينجو منه بأعجوبة.

- وهل، بعد هاتين الحادثين، بدأ برسم ما كان قد عاشه؟

- أعتقد ذلك. لقد كان متحمّساً جدّاً لهذه التجربة. هذا العبور

من الظلمات إلى النور أثّر عليه كثيراً. كان يفسّره على أنّه انبهارٌ، ولادة جديدة. ومن هنا تأتي رغبته في استعادة هذا الإحساس عبر الرسومات.

- هل فاجأكِ ذلك؟

هزّت كتفيها وقالت:

- لقد عملتُ لمدّة خمسة عشر عاماً في المستشفى. كان بعض المرضى الذين تمّ إنعاشهم يؤكّدون بأنّهم قد عبروا نفقاً يفيض بالنور بعد أن دخلوا في غيبوبة، وهذا أمرٌ عادي، كما تعلمين. تجارب الاقتراب من الموت هي ظاهرة موجودة منذ القِدَم.

- هل تركت العمليات الجراحية التي خضع لها شون عقابيل عليه؟

- بالطبع: مشاكل في الذاكرة، وإفراطٌ في التعب، وصعوبات في الانسجام والتناسق بين حركاته...

توقّفت ديان في وسط الجملة وشعّت عيناها بالمكر والذكاء.

- لم تخبريني بكلّ شيء، مكتبة أليس كذلك؟

ظلّت مادلين جامدة ولم تُظهر ما أحسّت به في انتظار أن تكمل الطبيبة النفسانية حديثها.

- إذا كنتِ قد حرصتِ كثيراً على طلب مقابلتي، فهذا لأنّكِ عثرتِ على شيءٍ ما... أهي لوحة أخرى؟

أخرجت مادلين هاتفها وعرضت على ديان صورة اللوحة الأخيرة وسط العتمة مع الرسالة ذات الأحرف المشعّة التي كانت تؤكّد: **جوليان على قيد الحياة.**

- هذا هو إذاً...

- يبدو أنّ هذا لم يفاجئكِ.

وضعت ديان مرفقيها على طاولة العمل في مكتبها وصالبَت ذراعيها كما لو أنّها تستعدّ للصلاة.

- أتدرين لماذا انزعج شون من رحلتيه إلى حدود الموت؟ أوّلاً، لأنه لمح، في نفق النور الشهير، كلّ الأشخاص الموتى الذين كان قد اعتمد عليهم في حياته: والدته، وزملاءه في هارلم الذين ماتوا في التسعينيات بسبب الإفراط في جرعات المخدّرات أو الذين ماتوا بسبب عنف حروب العصابات. لقد رأى حتى بياتريز مونيوز.

أبدت مادلين ملاحظةً:

- هذه إحدى الرؤى الكلاسيكية حول ظاهرة تجربة الاقتراب من الموت. تعاودين رؤية حياتكِ وكلّ الموتى الذين كانت لهم مكانة مهمّة بالنسبة إليكِ.

- يبدو أنّكِ تتحدثين عن الظاهرة كما لو أنّ لديك معرفة بها.

- دعينا نبقى عند لورينز، إذا لم يكن لديكِ من مانع. أنا لستُ مريضة عندكِ.

لم تلحّ عليها الطبيبة النفسانية. قالت:

- هناك شخصٌ واحد لم يره شون في النفق...

فهمت مادلين المغزى وتجمّد الدم في عروقها.

- ابنه.

هزّت ديان رأسها.

- بدأ كلّ شيء من هنا، في الواقع. بدأ شون في تكوين نظرية واهمة كهذه، إذا لم يكن قد صادف جوليان، فهذا لأنّ هذا الأخير لا يزال على قيد الحياة.

- ولا تؤمنين بذلك؟

- أنا أؤمن بالتفسيرات العقلانية للظاهرة. مثل أدنى عملية أكسجة للدماغ والتي تعطّل القشرة الجبهية المسؤولة عن حاسّة الرؤية، أو تأثير الأدوية التي تُفسد الوعي. في حالة شون، كانت الحالة واضحة على نحوٍ صارخ: لاحتواء تسمّمه الدموي، كان قد تمّ حقنه بجرعات كبيرة من الدوبامين، وهي مادّة تسبّب حالات الهلوسة.

- ألم تحاولي أن تقنعيه؟

أفرجت عن حركة عجزٍ.

- ليس هناك مَن هو أكثر صمماً ممّن لا يودّ أن يسمع. كان شون **بحاجة** إلى أن يصدّق بأنّ ابنه لا يزال على قيد الحياة. لا تستطيعين أن تفعلي أيّ شيء لشخصٍ ليس مستعدّاً لأن يُصغي إليكِ.

- وما هي النتيجة التي توصّل إليها من ذلك؟

- أعتقد أنّه سيكون قد أراد أن يُعاد التحقيق حول اختطاف جوليان، ولكن الموت قد منعه عن ذلك.

- بالنسبةِ إليكِ، ألا يوجد لديك أيّ شك في أن يكون الصبيّ حيّاً بالفعل؟

- كلا، لقد مات جوليان، لسوء الحظّ. بينيلوب ليست من الأشخاص المفضّلين لديّ، ولكن ليس هناك أيّ سبب لأن تكون قد روت ما هو عكس الحقيقة. أمّا كلّ ما تبقّى، فهو عبارة عن هذيان رجلٍ كان صديقي، ولكن هدّه الألم وخبّلته الأدوية.

4.

«سوف يبدأ الصعود إلى طائرة الرحلة AF 118 المتّجهة إلى مدريد، الرجاء التوجّه إلى البوابة رقم 14. الأسر التي يرافقها أطفال صغار وكذلك مسافرو الصفوف من 20 وحتى 34 مدعوون إلى الحضور على سبيل الأولوية».

تحقّقت مادلين من رقم مقعدها المدوّن على بطاقة سفرٍ كانت قد ختمتها للتوّ في أحد مكاتب شركة الطيران الفرنسية. كان عيد الميلاد سيحلّ بعد يومين، ولذلك كانت هناك حالات تأخير في ظلّ فوضى عارمة، وكانت المحطّة E من مطار شارل ديغول مزدحمة بالمسافرين.

- شكراً لأنّك رافَقتني، يا غاسبار. أعرف أنّك لا تحبّ المطارات...

تجاهل تلميحها الناقد.

- إذاً، ستغادرين هكذا؟

نظرت إليه من دون أن تُدرك الغرض من سؤاله.

- ما الذي تريدني أن أفعله سوى ذلك؟

- هل تعتقدين بأنّكِ قد أنجزتِ مهمّتكِ فقط لأنّكِ عثرتِ على اللوحات؟

- نعم.

- وتتمّة التحقيق؟

- أيّ تحقيق؟

- التحقيق في موت جوليان.

هزّت رأسها.

- لسنا شرطيين، يا كوتانس، لا أنت ولا أنا. وقد أُغلِق التحقيق منذ زمنٍ طويل.

حاولت أن تذهب إلى منطقة المغادرة للصعود إلى الطائرة، لكنّه اعترض طريقها، وقال:

- لا تتحدّثي معي كما لو أنني غبي.

- مهلاً يا رجل!

- لم يتم حلّ كلّ الألغاز في القضية بعد.

- في ماذا تفكّر؟

ردّ بلهجة ساخرة:

- فقط في تفصيلٍ واحد. لم يتمّ العثور على جثّة الطفل.

- هذا أمرٌ طبيعي، لقد انجرفت مع تيار نهر إيست ريفر. بصراحة، هل لديك أدنى شكّ حول موته؟

ولأنّه لم يردّ على سؤالها، ألحّت عليه من جديد:

- هل تعتقد أنّ بينيلوب لورينز قد كذبت عليك؟

قال، معترفاً:

- كلا.

- في هذه الحالة، كُفَّ عن إرهاق دماغك. لقد مات هذا الطفل منذ عامين. هذه فاجعة، لكنّها لا تعنينا. عُد إلى نصوصك المسرحية، هذا هو أفضل عمل يُمكنك القيام به.

من دون أن يردّ عليها، رافقها حتى مكتب التدقيق الأمني. سحبت مادلين حزامها ووضعته في صندوقٍ، وأضافت إليه سترتها وهاتفها المحمول.

- هيّا، يا غاسبار، إلى اللقاء. أصبح البيت لك وحدك. لم أعُد هناك لكي أزعجك. سوف يمكنك أن تكتب بهدوء!

فكّر في هذا المفهوم اليوناني، **الكايروس**: اللحظة الحاسمة. وفي فنّ الإمساك بهذه اللحظة. قدرة المرء على عدم تفويت فرصته حينما تحضر ويمكنها أن تدفع الحياة في اتجاهٍ أو آخر. نمط الانعطاف الذي لم يعرف قط في حياته التعامل معه. وهنا أيضاً، بحث غاسبار عن شيءٍ ما ليقوله لكي يُثني مادلين عن الرحيل، ثمّ تراجع عن ذلك. بأيّ حقّ؟ ولتفعل ماذا؟ كانت لديها حياتها الخاصّة، مشروعها الخاصّ الذي كافحت من أجله. لم يحبّذ حتى طرح هذه الفكرة وتمنّى لها حظّاً سعيداً.

- حظّاً سعيداً، يا مادلين. هل ستزودينني بأخبارك؟

- كيف سيمكنني أن أفعل ذلك، يا غاسبار؟ ليس لديك هاتف.

قال في نفسه إنّ الناس استطاعوا أن يتواصلوا لقرونٍ من الزمن، من دون أن تكون لديهم هواتف، ولكنه أحجم عن إبداء الملاحظة علناً.

- اتركي لي رقم هاتفكِ، وأنا سوف أتّصلُ بكِ.

أدرك، في ذهنه، بأنّها لم تهتمّ بذلك على نحوٍ خاصّ، ولكنّها انتهت بأن استجابت لطلبه، فمدّ لها قبضته الملفوفة بالضمادات لكي تدوّن عليها رقم هاتفها، على عجالةٍ، كما لو أنّه كان في الرابعة عشرة من عمره.

ثمّ تجاوزت الجهاز الكاشف الخاصّ بأمن المطار، وألقت عليه آخر تحية بإشارةٍ من يدها وانصرفت من دون أن تلتفت إلى الوراء. تابعها بنظره قدر ما استطاع. كان من الغريب أن يتركها بهذه الطريقة. من الغريب أن يقول في نفسه بأنّ كلّ شيء قد انتهى وأنّه لن يراها مرّة أخرى. لم يقضيا سوى يومين معاً، لكنّه كان يشعر بأنّه يعرفها منذ زمنٍ أطولَ بكثير.

حينما اختفت عن أنظاره، ظلّ لعدّة دقائق جامداً في مكانه، كما لو أنّه دائخ. ماذا سيفعل الآن؟ كان من المغري أن يستغلّ وجوده في المطار لكي يذهب إلى أحد مكاتب الحجز التابعة لشركة الطيران الفرنسية ويشتري بطاقة سفرٍ إلى أثينا. قلّب في ذهنه، لبضع ثوانٍ، فكرة أن ينسحب من الجحيم الباريسي، من هذه الحضارة التي يكرهها والتي لا ترغب به. إذا ما استقلّ طائرة اليوم، سوف يصل مساء اليوم إلى جزيرته اليونانية. حياةٌ وحيدة بمعزل عن كلّ ما يجرح: النساء، الرجال، التكنولوجيا، التلوّث، المشاعر، الأمل. تردّد لوقتٍ طويل، لكنّه انتهى إلى التخلّي عن هذا المشروع. لم يكن يعرف ما هو بالضبط، لكنّ شيئاً ما كان يدفعه للبقاء في باريس.

خرج من محطّة المسافرين، ثمّ أخذ مكانه في دور انتظار سيارات الأجرة. استمرّ انتظاره أقلّ ممّا كان يخشاه. طلب من سائق السيارة أن يوصله إلى الدائرة السادسة. ثمّ سمع نفسه يتفوّه بجملة لم يفكّر قط بأنّه سيتلفّظ بها:

- هل يمكنك أن تنزلني أمام أحد متاجر شركة أورنج؟ أحتاج إلى شراء هاتفٍ محمول.

طيلة الطريق من المطار إلى المدينة، حبس نفسه داخل أفكاره واستعاد في ذهنه، منقبض القلب، الحكاية المرعبة التي روتها له بينيلوب لورينز.

حكاية محفوفة بالجثث، والدموع، والدم.

بينيلوب

1.

- جوليان، أسرع، من فضلك!

مانهاتن، آبر ويست سايد. 12 ديسمبر من سنة 2014. الساعة العاشرة صباحاً.

أُدعى بينيلوب كوركوفسكي، زوجة لورينز. إذا كنتِ امرأة، لا بدّ أنّه قد سبق ورأيتِني، قبل بضع سنوات، على أغلفة مجلات **فوغ**، و**إيل**، و**هاربرز بازار**. وستكونين قد غرتِ منّي، لأنني كنتُ أطول، وأنحف، وأكثر شباباً منكِ. لأنني كنتُ بمكانة أرفع، وأمتلك أموالاً أكثر، وأكثر جمالاً وأناقة في مظهري. وإن كنتَ رجلاً، ربّما تكون قد صادفتني في الشارع، والتفتَّ إليّ. وأيّاً كانت تربيتك، أو الاحترام الذي تؤكّد، من الناحية النظرية، أنّك تكنّه للنساء، فإنّك ستكون قد فكّرت، في سرّ دماغك كرجلٍ قذر، بشيءٍ يبدأ من «إنّها رائعة» وحتى «اللعنة، لو أني نلتُ من هذه».

- جوليان، هيّا!

تركتنا سيارة الأجرة في زاوية سانترال بارك ويست والشارع رقم 71. لم يكن عليّ سوى أن أسير لأقلّ من مئتي متر حتى أصل إلى الفندق الذي ينتظرني فيه فيليب، لكنّ ابني راوَحَ في مكانه.

التفتُّ إلى الوراء، فرأيتُ جوليان، مغطّى في معطفه، جالساً على الدرجات الحجرية لأحد المنازل الجميلة المبنية بالقرميد الأحمر الواقعة على حافة الشارع. كان بمنظره الجميل، ينذهل بمشهد البخار الذي ما أن يفتح فمه حتى يتكثّف في الهواء البارد كالصقيع. كانت له ابتسامته البريئة والعريضة التي تتيح رؤية أسنانه المتباعدة ويحمل كما الحال دائماً الكلب الدمية العجوز.

- هذا يكفي، الآن!

عدتُ على أعقابي وسحبته من يده لكي أرغمه على النهوض. أجهش بالبكاء ما أن لمسته. كان الفيلم المزعج نفسه يتكرّر، وتُعاد الأسطوانة نفسها.

- كفى!

هذا الصبيّ يُغيظني! ينذهل الجميع أمامه ولا أحد يلاحظ، على ما يبدو، ما أعانيه يوميّاً معه. تارةً يكون هادئاً وحالماً، وتارةً يكون عدوانياً وكثير البكاء. يكون أنانياً إلى درجة لا تُصدّق. لا يقدّر أبداً ما يُفعَل من أجله.

بينما كنتُ على وشك أن أهدّده بأخذ كلبه الدمية، تجاوزت سيارة شاحنة صغيرة بيضاء اللون الرصيف وتوقّفت خلفنا تماماً. اندفع السائق من المركبة، وجرى كلّ شيء بسرعة هائلة بحيث لم يكن لديّ لا الوقت ولا الحضور الذهني لكي أبدي أدنى مقاومة. انهال ظلٌّ عليّ ووجّه لكمة إلى وجهي، وأخرى على بطني، وثالثة على أضلاعي قبل أن يقذف بي في الصندوق الخلفي للعربة. انقطعت أنفاسي، وأنا متكوّرة على نفسي، ألوي ألماً إلى درجة لم أستطِعْ أن أصرخ. حينما رفعتُ رأسي، تلقيتُ على وجهي كلّ ثقل جسد ابني الذي تمّ قذفه إلى العربة. حطّمت مؤخّرة جمجمته عظمة

أنفي، وانبجست نافورة دمٍ على وجهي. أحسستُ بحرقةٍ في عينيّ وانسدلت أجفاني.

2.

حينما استعدتُ وعيي، كنتُ في مكانٍ نصف معتم، حبيسة قفصٍ من حديد بقضبانٍ صدئة. قفصٌ حقيقيّ لاحتجاز الحيوانات، ضيّقٌ جدّاً، وقذرٌ، ومقرف. كان جوليان ملقياً فوق جسدي، وهو يبكي غارقاً في الدماء. ضممته بين ذراعيّ وأدركتُ أنّ الدم المُسال على وجهه هو دمي أنا. دفّأته وطمأنته بأنّ كلّ شيءٍ سيكون على ما يُرام، وأنّ والده سيأتي لإنقاذنا. ضممته وقبّلته عدّة مرات. خلال ثانية واحدة، ندمتُ على كلّ الغضب الذي غالباً ما كنتُ أصبّه عليه. وأحسستُ أنّ ما حصل لنا ربّما يكون نتيجة انحرافاتي.

قلّصتُ عينيّ وتفحّصتُ المكان وسط العتمة المحيطة بنا. كان مصباحان متنقّلان معلّقين بعوارض معدنية يبعثان إضاءة شاحبة وضعيفة ممّا يدعو إلى التخمين بأنّنا كنّا في مكانٍ هو عبارة عن حظيرة لتخزين مواد متعلّقة بحديقة حيوان، أو سيرك، أو معرض وحوش. رأيتُ أقفاصاً أخرى، ولفائف سياج معدني، وكدساً من الكراسي المعدنية، وصخوراً زائفة، ومجاديف خشبية متعفّنة، وشجيرات بلاستيكية.

قال جوليان، باكياً:

- لقد تبوّلتُ، يا ماما.

- لا يهمّ، يا قلبي.

جثيتُ إلى جانبه، على الأرضية الإسمنتية، القاسية والباردة كالصقيع. أطلق الهواء رائحة العفونة الكريهة، اللاذعة والنتنة

للخوف. التقطتُ الكلب الدمية المرميّ على الأرض وحاولتُ أن أُلهيه به.

- انظر إلى دودو، يريد قبلات!

خلال بضع دقائق، جهدتُ في اللعب معه في محاولةٍ لأن أحيطه بغلافٍ من الحنان لكي أحميه من ذلك الجنون. ألقيتُ نظرةً على ساعة يدي، ووجدتُ أن الساعة لم تكن قد بلغت حتى الحادية عشرة والنصف. لم نكن قد سرنا لزمنٍ طويل، وبالتالي لم نكُن بعيدين كثيراً عن مانهاتن. اعتقدتُ بأنّنا ربّما في نيوجيرسي، أو برونكس، أو كوينز... كنتُ على قناعة بأنّ الشخص الذي قام باختطافنا لم يفعل ذلك بمحض الصدفة. لقد قام بمجازفة كبيرة وعرّض نفسه لمخاطر جسيمة في اعتدائه علينا في قلب المدينة. إذاً، لقد كان يبحث عنّا **نحن** مع سبق الإصرار والترصّد. نحن اللذين أراد أن يصل إلينا: آل لورينز، ولكن لأيّ سبب؟ هل فعل ذلك بغرض طلب فدية؟

تمسّكتُ بهذه الفكرة لأنّها كانت تبعث فيّ الطمأنينة، لأن شون سوف يدفع أيّ مبلغٍ يُطلب منه لكي يُخرجنا من هذا المكان. في النهاية، ربّما لا يدفع من أجلي، ولكن من أجل ابنه، فهذا أمرٌ مؤكّد. أيّاً كان المبلغ المطلوب، سوف يحصل عليه. كان لدى شون آلته الخاصّة لطبع العملة: ثلاث ضرباتٍ من ريشته على قماشٍ وسيجد قطيعاً من الخراف المستعدة لإخراج ملايينها. مضاربون، تجّار، أصحاب الملايين، رجال أعمال روس، أثرياء جدد صينيون: يريدون جميعهم لوحة من أعمال لورينز ضمن مقتنياتهم من اللوحات الفنية. لوحة من أعمال لورينز! لوحة من أعمال لورينز! لوحة من أعمال لورينز، هذا أفضل من الذهب، أفضل من ألف جرعة كوكايين، أفضل من طائرة خاصّة، أو فيلا في جزر البهاماس.

- عاهرة حقيرة.

تفاجأتُ بالصوت، فأطلقتُ صيحةً جعلت جوليان يبكي.

اقتربت امرأةٌ من القفص من دون أن ألحَظ ذلك.

كانت امرأة بدينة، ومحدّبة الظهر، وتعرج في مشيتها. خالَ لي أنّها قد شاخت مبكّراً: كان شعرها طويلاً ومجعّداً وضارباً إلى الرمادي، ولها أنفٌ معقوفٌ على نحوٍ مفرط، وعينان محتقنتان بالغضب. وكان وجهها المرعب والمليء بالتجاعيد مغطّى بالوشوم: شاراتٌ، صلبانٌ، مثلّثاتٌ، حلقاتٌ، أسهم على شكل رعد، مثل الرسومات الموشومة على وجوه الهنود الحمر.

- مَنْ... تكونين؟

- اخرسي، أيتها العاهرة الحقيرة! ليس لكِ الحقّ في الكلام!

- لماذا تفعلين هذا؟

صرخت فيّ بعنف وهي تمسكني من حلقي:

- **اخرسي!**

سحبتني، بقوّة ثورٍ، إلى الأمام وضربت رأسي بقوّة لعدّة مرّات على القضبان الحديدية. صرخ ابني باكياً. نزف الدم من أنفي من جديد. تلقّيتُ الضربات مستسلمةً ومن دون مقاومة، ولكنني أدركتُ أنّها لا تدرك قوّتها الجسدية.

أخيراً، تركتني. سقطتُ منهارةً على الأرض ووجهي غارقٌ في الدماء. في حين جاء جوليان يرتمي على رقبتي، رأيتُ المرأة الهندية تنبش في علبة قديمةٍ للعدّة نصفها صدئٌ.

صرخَت هائجةً:

- تعالَ إلى هنا!

مسحتُ الدم الذي كان يسيل في عينيّ وأشرتُ إلى جوليان أن يبتعد عنها ويلتجأ إلى مؤخّرة القفص.

قلتُ في نفسي: **لا ينبغي إغاظتها.**

واصلَتْ بحثها في صندوق العدّة وهي تُخرج تباعاً قطّاعة مسامير ومسحاج وملزمة ومقصّ حديد.

صرخَت وهي تناولني كمّاشة:

- خذي هذه.

ولأنني ظللتُ جامدة بلا حراك، ثارت ثائرتها واستشاطت غضباً وسحبت من الغمد المعلّق على حزامها سكين صيد مسنّن بطول ثلاثين سنتيمتراً.

أمسكتني من ذراعي، وبضربة خاطفة، قطعت جلدة ساعة يدي. ثمّ هزّت ميناء الساعة أمام وجهي وأشارت إلى عقرب الثواني.

- اسمعيني، أيّتها العاهرة الحقيرة. لديكِ **دقيقةٌ واحدة فقط** لتجلبي لي واحدةً من أصابعِ ابنكِ. إذا رفضتِ ذلك، سأدخل إلى القفص وأنحره، ومن ثمّ أقتلكِ أنتِ أيضاً.

أُصبتُ بالهلع. لم يستطِعْ دماغي حتى أن يتصوّر ما تطلبه مني.

- أعني أنّكِ لن...

صرخت بعنف وهي ترمي الكمّاشة في وجهي:

- **افعلي ذلك!**

كنتُ سأفقد وعيي.

- **بقيت لديك أربعون ثانية! ألا تصدّقينني؟ انظري جيّداً!**

دخلت إلى القفص وأمسكت بجوليان الذي شهق ذعراً. أخذته إلى الأمام، وسكّينها المسنون موضوعٌ على حلق ابني.

- **عشرون ثانية.**

تلوّى بطني وقلتُ في أنينٍ:
- لن أستطيع أبداً أن أفعل هذا.
- **تدبّري أمركِ!**
أدركتُ أنّها سوف تضع تهديداتها موضع التنفيذ وليس لديّ من خيار.
التقطتُ الكمّاشة، وتقدّمتُ نحوها ونحو جوليان الذي بدأ بالعويل.
- **لا، يا ماما! لا، يا ماما! لا! لا!**
وأنا أسير نحو ابني، وفي يدي سلاح، أدركتُ شيئين.
الجحيم، هو هنا.
الجحيم يستمرّ طويلاً.

3.

والجحيم أسوأ من أسوأ كوابيسك.
بعد أن جعلتني أرتكب الجريمة الشنعاء التي لا توصَف، أخذت المرأة المتوحّشة مني ابني. ولكي تتصدّى لغضبي الجنوني، وجّهت لي المرأة الهندية ضربات إلى أن أسقطتني أرضاً. ضربتني على بطني، وعلى حلقي، وعلى صدري. حينما استعدتُ وعيي، كانت قد أجلستني على كرسيٍّ معدنيّ وأخذت تحيط جذعي بسلكٍ حديدي شائك وتربطني به بشدّة.
مرّت ساعات طويلة، لم أستطع أن أحدّد عددها. أصختُ السمع، لكنني لم أعد أسمع صوت جوليان. كان أدنى تنفّس يسبّب لي ألماً شديداً.
كانت الرؤوس الحادّة لمسامير السلك الشائك تمزّق جلدي.

أُغمي عليّ، ومن ثمّ استفقت. فقدتُ الإحساس بالزمن. كان الدم يسيل من كلّ أنحاء جسدي. كنتُ أنغمرُ في غائطي وبولي ودموعي وخوفي.

- انظري، أيّتها العاهرة الحقيرة.

خرجتُ من سباتي متوثّبةً.

ظهرت المرأة الهندية في الضوء. كانت تحمل جوليان بيدٍ واحدة. وفي يدها الأخرى، تُمسك بسكين الصيد خاصّتها. لم يُتح لي الوقت حتى لكي أصرخ. ارتفع النصلُ، ولمع بوميضٍ محمومٍ قبل أن ينهال على ابني. مرّة، مرّتان، عشر مرّات. نفر الدم. شهقت. صرخت. اخترقت الأسنان المعدنية لحم جسدي ومزّقته كلّه. غصصت. اختنقت. أردتُ أن أموت.

- **عاهرة حقيرة!**

11

كورسوم بيرفيسيو(*)

الأنا ليس سيّداً في بيته.

سيغموند فرويد

.1

بعد عودته من شارع شيرش-ميدي، صادف غاسبار شون لورينز وجهاً لوجه.

كانت الصورة الشخصية للرسّام -الصورة بالأبيض والأسود التي التقطتها المصوّرة الإنجليزية جين باون- تفرض حضورها الطاغي، وتُضفي على القاعة صمتاً مطبقاً، وتُعطي الانطباع بأنّ الرسّام يلاحقك بنظرته كيفما تحرّكت.

اختار غاسبار في البداية أن يتجاهل الصورة وانسلّ إلى المطبخ وأوصل بالتيار الكهربائي غلّاية القهوة التي كان قد اشتراها بعد خروجه من متجر بيع الهواتف. ولكي يمنح لنفسه دفعةً من الحيوية، أعدّ كوباً من قهوة الريستريتو الإيطالية التي تجرّعها دفعةً واحدة، ومن ثمّ أعدّ كوباً من قهوة لونغو الخفيفة وأخذ يشربها بهدوء وتلذّذ.

(*) Cursum Perficio: عبارة لاتينية تعني «هنا ينتهي طريقي».

ممسكاً بالفنجان في يده، عاد إلى الصالون واصطدم من جديد بنظرة الرسّام. في المرّة الأولى التي رأى فيها هذه الصورة، شعر بأنّ وجه شون لورينز كان يقول له: **سحقاً لك**. أمّا الآن، فقد أحسّ بدل ذلك بأنّ عينيه البرّاقتين والثاقبتين قد اتّخذتا لهجة مختلفة وتطلبان منه المساعدة: **ساعدني**.

قاوَمَ النداء لبضع ثوانٍ قبل أن تنهار مقاومته ويقول:

- كيف تريدني أن أساعدك؟ لقد مات ابنك، وأنت تعرف ذلك جيّداً.

كان يعي بأنّه من الغباء التحدّث إلى صورة، لكنّ الحاجة إلى تبرير موقفه كانت تُقلِقه. وكذلك الحاجة إلى تجميع أفكاره وتقييم الوضع.

استطردَ قائلاً:

- حسناً: لم يتمّ العثور على جثّته، لكنّ هذا لا يعني أنّه على قيد الحياة. حكايتك عن تجربة الاقتراب من الموت غير منطقية ولا معنى لها، عليك أن تعترف بذلك.

ظلّ الوجه الصارم يرمقه في صمت. من جديد، اختلق له غاسبار جواباً: **إذا كان ابنك هو الذي مات، هل تعتقد أنّ. . .**

اعترض، قائلاً:

- ليس لديّ ابن.

ساعدني.

- أنتَ تزعجني.

كرجعٍ للصدى، عادت جملةٌ من حديث شون لورينز وجاك شانسيل إلى ذاكرته. في نهاية المقابلة، طرح المحاور سؤالاً على الرسّام حول الهدف النهائي لأيّ فنّان، قبل أن يُجيب شون لورينز

دون تردّد: **أن يصبح خالداً**. ما كان يمكنه أن يقترب من حافّة جنون العظمة أخذ معنى مختلفاً تماماً، حينما وضّح لورينز فكرته: «أن تكون خالداً يمنحك الفرصة لأن تهتمّ لأطولِ وقتٍ ممكن بمن تحبّهم».

من كثرة تحدّي الصورة، أُصيب غاسبار بنوعٍ من الدوار وبات يهلوس: تداخلت صورة وجه الرسّام للحظة وجيزة مع قسمات وجه والده وأعاد التماسه: **ساعدني**. رمش الكاتب المسرحي بعينيه لكي يبدّد ضيقه. توقّف الاضطراب في رؤيته ثمّ اختفى تماماً.

متحرّراً من سطوة الرجلين، عاد إلى عرينه في الطابق الأرضي، وتجرّد من ثيابه، وفكّ ضماداته وذهب إلى الحمام، ووقف تحت رشّاش الماء. نادراً ما كان غاسبار يستحمّ في فترة ما بعد الظهيرة، لكنّ الاضطراب والتوتّر المرتبطين بأحداث الليلة الماضية كانا قد حرماه من النوم. وإذا كان تعبٌ مفرطٌ قد باغته منذ عودته إلى البيت، فإنّ الماء البارد قد بدّد قليلاً شعوره بالإرهاق. بينما كان يجفّف بعناية جبيرة يده المصابة، أزعجته الصورة التي عكستها المرآة المنمّشة ببقعٍ سوداء: كانت الصورة تُظهر على جسده كميّة ضخمة من شعر الذقن والرأس والصدر والشحوم.

عثر غاسبار، في أدراج الحمّام، على شفرةٍ وعبوةٍ من معجون حلاقة الذقن. على الرغم من يديه الملفوفتين بالضمادات، بدأ بقصّ الشعر الطويل للحيتهِ الكثّة بمقصٍّ، ثمّ حلقها ناعماً وقصّ خصلات شعره الطويلة. أعطاه هذا الاستحمام وهذه الحلاقة الشعور بأنّه بات يتنفّس على نحوٍ أفضل، كما أزالت لديه أيّ رغبة في إعادة ارتداء قميصه الشبيه بقميص حطّابٍ وبنطلونه المخمل الشبيه ببنطلون حارس الغابة.

مرتدياً سروالاً وقميصاً داخليين، دخل إلى غرفة الملابس المجاورة لأكبر غرفة في المنزل. مثل ستيف جوبز أو مارك زوكربيرغ، كان شون لورينز أحد أنصار ارتداء نمط الملابس نفسه باستمرار (Capsule wardrobe). وفي هذا الصدد، كانت في خزانته دزينة من السترات من ماركة سمالتو تبدأ من اللون الأسود وتنتهي بالرمادي الفاتح وقمصان بيضاء من قماش البوبلين القطني ذات ياقات إنجليزية وأزرار صدفية. على الرغم من بدانته، لم يكن شكل غاسبار بعيداً جدّاً عن شكل الرسّام. ارتدى قميصاً وبذلةً، وشعر في الحال بالراحة فيها على نحوٍ مدهش، كما لو أنّه تخفّف من عدّة كيلوغرامات من وزنه.

في أحد الأدراج، وإلى جانب الأحزمة الجلدية الملفوفة على بعضها، اكتشف العديد من قوارير الكولونيا، ووجد خمس علب كرتونية مصفرّة اللون بعض الشيء لعطور رجالية من ماركة كارون كان لا يزال بعضها مغلّفاً بورق السلوفان. تذكّر طرفةً كانت بولين قد روتها له لبيان الطبع الاستحواذي لشون لورينز. كان هذا العطر أوّل هدية قدّمتها بينيلوب لزوجها المستقبلي في بداية علاقتهما. لم يكفّ شون قطّ عن التعطّر به، ولكن لأنّه كان مقتنعاً بأنّ الكولونيا كانت قد غيّرت تركيبها في غضون ذلك، كان يتابع على موقع إيباي العطر المصنوع بتاريخ 1992 ويشتري بانتظام كلّ القوارير التي يراها معروضة على الموقع.

فتح غاسبار إحدى العلب وتعطّر منها. كان لفوح شذى الخزامى والفانيليا جانبٌ صريح وكلاسيكي استساغه. في اللحظة التي غادر فيها غرفة الملابس، رأى انعكاس صورته بكامل طوله في المرآة وشعر بأنّه يتأمّل رجلاً آخر. نسخةٌ من لورينز أقصر قامةً وأكثر

سمنةً وأقلّ قلقاً واضطراباً. ولإتمام هذا التأثر، وضع نظّارته في درج العطور. وبطبيعة الحال، لم يستطع أن يمتنع عن التفكير بأحد أفلامه المفضّلة - **فيرتيجو** - والتعقّب الجنوني لشخصية سكوتي، التي يؤدّيها جيمس ستيوارت. رجلٌ يحاول أن يغيّر شكل خطيبته الجديدة لكي يجعلها تشبه حبيبته الفقيدة. إنّ السعي إلى أخذ مكان الموتى ينمّ عن خطرٍ كبير يحذّرنا هيتشكوك منه من خلال خاتمة الفيلم. لكن في تلك اللحظة، لم يهتم غاسبار بالأمر. سوّى تجاعيد سترته وخرج من الغرفة وهو يهزّ كتفيه.

.2

منذ اليوم الأوّل، أذهل أمرٌ غاسبار: لماذا اختار برنار بينيديك، وارث شون والقيّم على تنفيذ وصيّته، أن يؤجّر المنزل وقد ترك فيه الكثير من الآثار الشخصية للرسّام؟ وقد عاد هذا السؤال إلى السطح، اليوم، حينما جال في غرفة لورينز وبينيلوب السابقة. كان هذا الأمر يعطي شعوراً متناقضاً ذا حدّين؛ شعورٌ بالراحة للوجود في مكانٍ مألوف؛ وشعورٌ أكثر قلقاً للوجود رغماً عنه في صورة شخصٍ متلصّصٍ على خصوصيات الآخرين. اختار غاسبار ألّا يُثقل كاهله بالهواجس وتأنيب الضمير وتحمّل المسؤولية كمنتهك للخصوصية، لسببٍ وجيه، مثلما برّر لنفسه. أجرى عملية تفتيش شاملة في الغرفة، فاتحاً أبواب كلّ الخزانات والأدراج، ومتفحّصاً الجدران، ومتحقّقاً حتى من الألواح التي تغطّي الأرضية على الرغم من آلامه الناجمة عن جروح يديه. كان حصاده شحيحاً. تحت طاولة المكتب المصنوعة من خشب الورد، عثر على صندوق حفظٍ ذي عجلاتٍ صغيرة يحتوي على أوراقٍ ومغلّفات.

تفحّص بعناية محتواه وعثر على مقالات مأخوذة من مواقع إلكترونية إخبارية لصحف معروفة كانت قد تطرّقت، من قريبٍ أو بعيد، إلى موت جوليان. وهي مقالات **نيويورك تايمز** و**ديلي نيوز وبوست** و**فيليج فويس** نفسها التي كان قد قرأها في الليلة السابقة على حاسوب مادلين. لم يكن هناك أيّ شيءٍ جديد يُذكَر، عدا عن التأكيد على أنّ لورينز، قبل وفاته، قد استغرق من جديد في التحقيق حول موت ابنه. الأمر الأكثر مفاجأةً هو أنّ الصندوق الخشبي كان يحتوي أيضاً على الرسائل التي كان الرسّام قد استمرّ في تلقّيها بعد موته. الفواتير التقليدية لشركة الكهرباء ولشركة أورنج لخدمات الهاتف المحمول وأكداس نشرات الإعلانات ورسائل الخزينة العامّة التي تلاحقكم إلى ما لا نهاية...

كان الباب المتاخم لجناح الوالدين هو باب غرفة جوليان. عند عتبة الباب، تردّد غاسبار للحظة قبل أن يُقدِم على هذا الاختبار.

ساعدني.

حاول أن يُحيّد عواطفه وتقدّم في الغرفة. كانت الغرفة المشيّدة في حديقة المنزل جميلة، مربّعة الشكل ومضاءة جيّداً، ذات أرضية مغطّاة وصقيلة وأثاثٍ بألوان الباستيل. كانت أشعّة الشمس تنسلّ من النوافذ، وسط هدوءٍ شبيه بهدوء كاتدرائية، وتُنير سريرَ طفلٍ مغطّى بغطاءٍ صوفيّ اللون وتنعكس أشعّتها بريقاً على السطح الصقيل لمكتبة كانت تضمّ كتباً مزوّدة بالرسومات ومجموعة من السيارات الصغيرة.

من دون أن يأمل في العثور على أيّ شيءٍ في هذه الغرفة، ظلّ غاسبار واقفاً لوقتٍ طويل، جامداً بلا حراك، كما لو أنّه يقف في مزارٍ دينيٍّ سرّي. لم يكن في المكان أيّ شيءٍ كئيبٍ أو حزين. على العكس تماماً، بدت الغرفة كما لو أنّها تنتظر عودة الصبي. كما لو

أنّ الطفل الصغير سيعود عمّا قريب من المدرسة ويفتح أبواب الخزانة ويُخرِج منها ألعابه: الليغو، واللوح السحري وتماثيل الديناصورات. . .

استمرّ هذا الإحساس في داخله إلى أن رأى كلب دمية ملطّخ بالدم، موضوعاً على الوسادة.

تسمّر غاسبار في مكانه. أتكون هذه هي الدمية التي كان جوليان يحملها معه حينما تمّ اختطافه؟ إذا كانت هذه هي فعلاً، كيف تمّ العثور عليها هنا وهي جزء من أدلّة الجريمة؟

أمسك بالحيوان الدمية بين يديه المتألمتين. كان للكلب وجهٌ مرحٌ ومبتهج في آنٍ واحد يتناقض مع أثر خضاب الدم المتخثّر الذي كان يمزّق خطمه. قرّب غاسبار الدمية من وجهه واكتشف فجأة أنّ ما يلطّخها لم يكن دماً، وإنّما بلا شك بقايا شوكولا. فأدرك حينها سبب انخداعه: الحيلة التقليدية للآباء الذين يتدبّرون أمرهم بأن تكون هناك دمية احتياطية. لم يكن هناك على خطم الكلب أيّ أثرٍ لرائحة الخوف اللاذعة. لم تكن هناك رائحة سوى الرائحة اللطيفة والدافئة للطفولة، وكان هذا من دون شكّ السبب الذي جعل لورينز يحتفظ بها كقطعة أثرية: كانت رائحة بسكويت خارج لتوّه من الفرن والتي تذكّر بالصور الهادئة لكتاب القراءة، وسنبلة قمح ناضجة، والغلاف البنيّ والشائك للكستناء، وأوراقٌ من شجرة الدلب ترفرف وسط رياح ساخنة. لقطات دفعت غاسبار نحو يقينٍ مطلق: لقد انفتح دربٌ أمامه وسوف يسير فيه حتى نهاية هذا المسار، أيّاً كانت النتائج المترتّبة على ذلك.

.3

«تسعة أشهرٍ من الشتاء، ثلاثة أشهرٍ من الجحيم». كانت الحكمة الإسبانية القديمة في أغلب الأحيان غير صحيحة: لم يكن المطر يهطل **فعلياً** في مدريد سوى عشرة أيام في السنة. لسوء الحظ، كان يوم 22 ديسمبر من سنة 2016 هذا أحد تلك الأيام، حيث وجدت مادلين، وهي تتجوّل في العاصمة الإسبانية، مناخاً أقلّ رأفةً ممّا هو عليه في باريس.

بعد رحلة طيران شاقّة -في مطار شارل ديغول، بينما كانت طائرتها على وشك الإقلاع، تأخّر إقلاعها بسبب راكبٍ مريضٍ كان لا بدّ من إنزاله- كانت مادلين قد هبطت في مطار باراخاس في مدريد بعد تأخيرٍ لساعتين تقريباً لكي تواجه سلسلة المنغصات المرتبطة برحلة كهذه. إنّها من أولئك التعقيدات التي كانت تُخرج غاسبار عن طوره: مطار مزدحم بالمسافرين، أناسٌ مستاؤون، انتظار طويل، الشعور المهين بأنّه قد انحدر إلى حالة المواشي البشرية. بعد تحمّل الحافلة الصغيرة لدى نزولها من الطائرة، استقلّت سيارة أجرة قديمة كانت تفوح منها رائحة التبغ والعرق. سيارة عتيقة تغبّش زجاج نوافذها من جرّاء الهواء الفاسد، عانت فيها لقرابة ساعة كاملة من الازدحام المروري للأسبوع الأخير من التسوّق قبل حلول أعياد الميلاد، وكذلك من سلسلة طويلة من الأغاني الإيبيرية التي كان يبثّها جهاز الراديو من محطّة محلّية.

حينما وصلت إلى شارع فوانكارال، في مركز حي تشويكا، معقل المثليين المدريديين، قالت في نفسها بتأسّف: **لقد أصابني كوتانس بالعدوى!** أحسّت بالخطر. أرادت على نحوٍ خاصّ ألّا تستسلم لهذه النظرية التشاؤمية إلى العالم، فإذا بدأَت بالخوف من

الحياة عبر المنظور السوداوي لغاسبار، سوف لن يبقَ أمامها سوى أن تنتحر.

فأرغمت نفسها على أن تتبنى موقفاً إيجابياً. كان سائق سيارة الأجرة كريهاً، ولكنها مع ذلك تركَت له إكرامية علاوة على أجرته. في الفندق، لم يساعدها أحد في حمل أمتعتها، لكنّها قالت في نفسها بأنّها ليست في حاجة إلى المساعدة. كانت غرفتها، التي حجزتها على عجلٍ، خانقة، مع إطلالة على موقع مشروعٍ للبناء ورافعة صدئة في المكان، لكنها رأت في ذلك من جهة أخرى نوعاً من الاختلاف. علاوة على ذلك، بعد العملية الجراحية، سوف تكون في فترة من الراحة وسيكون لديها كلّ الوقت لكي تبحث عن مكانٍ أكثر بهاءً.

قرَّرت أن تواجه وألّا تسقط. أن تنسى الفوضى التي حكمت حياتها حتى الآن، أن تنسى جنون شون لورينز، وفاجعة ابنه، وهروب كوتانس إلى الأمام. والتركيز على بناء المستقبل الذي اختارته.

4.

في الساعة الرابعة عصراً، تناول غاسبار الغداء واقفاً في المطبخ: علبة سردين وشرائح من الخبز الأبيض المقطّع. وجبة خفيفة تناولها سريعاً وشرب معها زجاجة من مياه بيريه بالليمون.

بعدئذٍ، وكما اعتاد على ذلك الآن، وضع على جهاز تشغيل الأسطوانات أسطوانة قديمة لموسيقى الجاز من بين المجموعة التي كان شون لورينز قد اقتناها. ثمّ نقل الصندوق الخشبي الذي يحتوي على بريد الرسّام، وشرع بتفحّص ذلك الأرشيف الغريب.

كان يعمل منذ ساعة كاملة في تفحّص محتويات الصندوق،

جالساً على أرضية الغرفة، حينما عثر على عددٍ من مجلّة **آرت إن أميركا**، كانت لا تزال مغلّفة. مزّق غاسبار الغلاف البلاستيكي. كانت المجلة عبارة عن عدد شهر يناير من سنة 2015. وكما كانت تُشير بطاقة الزيارة المشبكة بغلاف المجلّة، كان مدير التحرير بنفسه قد أرسل المجلّة إلى شون مع كلمة مقتضبة تضم تقديم الشكر والتعازي.

وفي داخل المجلة، كان ما يُقارب عشر صفحات تتناول سهرة افتتاح معرض شون لورينز تحت عنوان **شون لورينز. حياةٌ في الرسم** والذي أُقيم في متحف الفنّ الحديث في نيويورك، في 3 ديسمبر من سنة 2014، قبل بضعة أيام من اختطاف جوليان. من خلال تصفّح المجلة، أدرك غاسبار أنّ هذه السهرة كانت حدثاً مخصّصاً للطبقة الرفيعة من المجتمع أكثر منه احتفاءً بالفنّ. كانت الحفلة التي تمّت تحت رعاية شركة ذات علامة تجارية فاخرة، قد اجتذبت حشداً من المدعوين من نخبة المجتمع المرموقة. من خلال الصور المنشورة في المجلّة، تعرّف غاسبار على مايكل بلومبيرغ، عمدة المدينة السابق، وكذلك على أندرو كومو، حاكم ولاية نيويورك. وفي صورٍ أخرى، ظهر تاجرا الفن تشارلز ساتشي ولاري غاغوسيان. كانت بينيلوب لورينز، وهي لا تزال في قمّة جمالها وترتدي ثياباً مكشوفةً جدّاً، منهمكة في حديثٍ ودّي مع سارة جيسيكا باركر وجوليان شنابل. ومن بين أساطير الصور، كانت هناك مجموعة من عارضات الأزياء وشباب عالم الموضة الذين لم يكن غاسبار قد سمع بهم من قبل.

في صوره المنشورة في المجلّة، كان شون لورينز يعطي الانطباع بأنّه شارد الذهن ومتضايق شيئاً ما. ظنّ غاسبار أنّه كان متضايقاً من بذخ وأبّهة السهرة. كان تزهّد ونقاء رسوماته الأخيرة على النقيض من

هذا النوع من الحفلات التي لا يحضرها المدعوون إلّا بدافع الظهور والتباهي. كان وجهه متجمّداً في قناعٍ من الضيق والقلق، كما لو أنّه يُدرك أنّ القمّة التي بلغها في مهنته هي أيضاً المدخل إلى سقوطه، كما لو أنّه يرى خلف هضبة الكابيتول صخرة تاربيا. كما لو أنّ موت جوليان كان مسجّلاً في انحطاط تلك السهرة.

ولكي نكون صادقين تماماً، كان شون يبتسم أيضاً في إحدى الصور. صورة تجمعه مع رجل شرطة يرتدي الزيّ الرسمي الخاصّ بشرطة نيويورك: بزّة زرقاء داكنة وقبّعة من ثماني قطع متساوية. كانت عبارة توضيحية تشير إلى أنّ الضابط، الذي يُدعى أدريانو سوتومايور، هو أحد أصدقاء طفولة شون لورينز وأنّ الرجلين لم يلتقيا منذ اثنين وعشرين عاماً. من خلال النظر بإمعانٍ في الصورة، تعرّف غاسبار إلى شخصيّة الرجل من ذوي الأصول اللاتينية المتباهي بنفسه بعض الشيء والذي كان يبدو قوياً في صور الشبان الذين شاهدهم في سيرة لورينز. نهض لكي يتحقّق من المعلومة من خلال الكتاب الموجود في المكتبة. لم يكن هناك أدنى شكٍّ محتمَل: كان سوتومايور العضو الثالث في مجموعة **صنّاع الأسهم النارية**، الرسّام الذي كان يوقّع على رسوماته بالاسم الحركي **نايت شيفت**. مع مرور السنين، غدت ملامحه أكثر خشونة، وتركت الغطرسة القديمة مكانها لمزيد من الطيبة والوداعة، ولكنّ قسمات وجهه كانت قد احتفظت بجانبٍ من الصرامة التي جعلته يشبه الممثّل بينيشيو ديل تورو.

دوّن غاسبار المعلومة في زاوية من رأسه وأغلق المجلّة. حينما نهض لكي يعدّ لنفسه فنجاناً جديداً من القهوة، ألحّت عليه الحاجة إلى الكحول بشدّة بعد أن كانت قد بارحته منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة. من خلال خبرته، كان يعلم بأنّ عليه أن يتصرّف على وجه

السرعةِ إن كان يريد أن يحظى بفرصة كبح جماح شياطينه. وهذا ما شرع في فعله، وذلك بإفراغ القوارير الثلاث من النبيذ وما تبقى لديه من الويسكي في البيت في المغسلة. خلال لحظة من الحيرة، عانى من عدّة تشنجات قصيرة. بلّل عرقٌ جبينه، ثمّ أحسّ أنّ موجة القلق قد انحسرت وأنّه قد نجح في إخماد الحريق قبل أن ينتشر. وكمكافأة على ذلك، التقط سيجارة كانت ملفوفة مسبقاً في علبة الدخان التي كانت مادلين قد نسيتها على طاولة التحضير في المطبخ. سمٌّ ضدّ سمٍّ آخر، المبدأ الشهير لجان بول سارتر «مُعامل معاكسة الأشياء» الشديد الحضور بحيث يحتاج الإنسان إلى «سنواتٍ من الصبر لكي يحصل على النتيجة الأكثر ضآلةً». ينال المرء الانتصارات التي يستطيع إليها سبيلاً.

وضع غاسبار، والسيجارة بين شفتيه، الوجه الثاني من الأسطوانة في الجهاز -ألبوم قديم لجو موني-، ثمّ عاد واستغرق في العمل، وهو يعيد قراءة بعض المقالات على شاشة هاتفه الذكّي الجديد قبل أن ينكبّ على ما تبقّى من البريد غير المفتوح.

من بين الفواتير، توقّف عند السجلّات المفصّلة للخطّ الهاتفي. كان لورينز مقلّاً في اتصالاته الهاتفية، لكن هذه الوثائق كانت تقوم بدور الفواتير التفصيلية التي تتيح توضيح معالم استخدام الوقت من قبل الرسّام في الأيام التي سبقت موته. كانت بعض الأرقام الهاتفية فرنسية، وأخرى أميركية.

تصرّف غاسبار وفق قاعدة، من خلال الاتصال بكلّ مَن تواصل شون معهم بحسب ترتيب تواريخ الاتصال. وقد وقع بالترتيب على مكتب سكرتارية قسم الجراحة القلبية في مستشفى بيشا، وعلى عيادة الدكتور فيتوسي، وهو طبيب اختصاصي بالأمراض القلبية في الدائرة

السابعة، ومن ثمّ على صيدلية في جادّة راسباي. من بين أرقام ما وراء الأطلسي، لفت رقمٌ انتباهه على نحوٍ خاصّ، لأنّ لورينز كان قد حاول الاتصال به لمرّتين من دون أن ينجح في ذلك. وكان قد عاود المحاولة في اليوم التالي، حيث نجح في إجراء الاتّصال. وقع غاسبار على المجيب الآلي لشخصٍ يُدعى كليف إيستمان، والذي كانت رسالته غير الشخصية قد صدرت بالصوت المبحوح، ولكن المَرِحْ لأحد كبار المدخّنين أو أحد كبار متعاطي الويسكي (أو على نحوٍ أرجح مزيج من الاثنين، المنكران اللذان يحبّان كثيراً السفر مَثْنى).

ترك، بكلّ عفوية، رسالةً له يطلب فيها الاتصال به، ثمّ واصل تمحيص أرشيف شون، فتفحّص المكتبة، وفتح كلّ الكتب، وقصّ بعض المقالات أو بعض الصور من كتاب سيرة لورينز لكي يُلصقها على الدفتر الكبير ذي اللولب والذي كان قد نوى أن يكتب فيه نصّه المسرحي. بين كتابِ جميل للمصوّر البرازيلي سالغادو وكتاب **ماوس** للرسّام الأميركي آرت سبيجلمان، وجد خريطة قديمة لنيويورك واستخدمها لكي يُدرك على نحوٍ أفضل المسافات والتنقّلات، واضعاً صلباناً بألوان مختلفة لكي يُجسّد الأمكنة ذات الصلة بالتحقيق: المكان الذي تمّ اختطاف جوليان منه، والمكان الذي احتُجِزَ فيه مع والدته، والجسر الذي يُزعَم أنّ بياتريز مونيوز قد ألقت بالجثّة من فوقه إلى النهر، ومحطّة المترو التي انتحرت فيها...

مدفوعاً بحماسته، لم يشعر غاسبار بالوقت يمضي. حينما رفع رأسه، كان الليل قد هبط. وكان جو موني قد توقّف عن الغناء منذ وقتٍ طويل. نظر إلى ساعة يده وتذكّر أنّ لديه موعداً.

12

الثقب الأسود

لا نكون أحراراً إلّا في عزلتنا.

آرثر شوبنهاور

.1

كانت مكاتب وكالة كارن ليبرمان في شارع كوتليري، في الدائرة الأولى، ليست بعيدة جدّاً عن مبنى البلدية ومركز بومبيدو.

لم يكن غاسبار قد جاء إلى هذا المكان سوى مرّة واحدة، وكان ذلك قبل اثنتي عشرة سنة، في أثناء بدايات تعاونه مع كارن. أمّا ما تبقى من الوقت، فكانت وكيلته تنتقل بنفسها. وقد ندم غاسبار على عدم مطالبتها بالقيام بالأمر نفسه هذه المرّة: كان مساره بدءاً من شارع شيرش-ميدي غارقاً في الجوّ العدائي والمشؤوم لمدينة باريس الكئيبة هذه. توتّرت أعصابه وشعر بأنه في أرضٍ مُعادية، وزاد الإحساس بالنقص الأمر سوءاً.

كان المكان كما يتذكّره: عبارة عن ممرّ متهالك بعض الشيء - مغطّى بعدّة ألواح صدئة- يتيح الوصول إلى باحة صغيرة خرِبة تنتصب فيها عمارة ثانية، أقلّ أناقة بكثير من تلك التي تطلّ على الشارع.

كان المصعد، الذي يشبه بحجمه تابوتاً، بطيئاً للغاية، وكان يعطي الإحساس بأنّه قد يتوقّف في أيّ لحظة. بعد تردّد، قرّر غاسبار أن يصعد الطوابق الستّة مشياً على القدمين.

وصل لاهثاً إلى أمام المدخل، ورنّ الجرس منتظراً أن يُفتَحَ له الباب قبل أن يدخل إلى المكاتب المسقوفة. لاحظ أنّ المدخل - الذي وضعت فيه بعض الكراسي ليُستخدَم كقاعة انتظار- كان فارغاً وهذا ما أشاع فيه الارتياح.

لأنّ كارن كانت متعاقدة مع ما يُقارب عشرين كاتباً وكاتباً مسرحيّاً وكاتباً للسيناريو، كان غاسبار يخشى أن يُصادف في مكتبها أحد زملائه ويضطرّ لأن يخسر خمس دقائق في الثرثرة والمجاملات. قال في نفسه وهو يتقدّم نحو مكتب مساعد كارن: «العزلة لها فائدتان: أوّلاً، يكون المرء مع ذاته، ومن ثمّ لا يكون مع الآخرين». كان شوبنهاور قد قال ذات يوم شيئاً من هذا القبيل.

كان مساعد كارن رجلاً شابّاً يعتقد أنّه صاحب شكل متميّز -لحية على طريقة الهيبيين، ووشوم، وحلاقة شعر بطريقة أندركات، وحذاء مرتفع الساق، وقميص جينز ضيّق الخصر- في حين أنّه لم يكن سوى نسخة مطابقة لكلّ رفاقه.

بسبب الإجراءات المشدّدة، حدّق الرجل في غاسبار قبل أن يسأله بنبرة متشكّكة عن اسمه. كان ذلك مدعاة للسخرية، بما أنه كان يؤمّن بمفرده ثلاثة أرباع حجم أعمال الوكالة!

قال غاسبار غاضباً وهو يتوجّه عنوةً نحو باب مكتب كارن تحت الأنظار الذاهلة لمعاون وكيلته:

- أنا مَن أدفع راتبك، أيّها التافه!

استقبلته وكيلته:

- غاسبار؟

كانت قد انتبهت إلى الأصوات الصاخبة في قاعة الاستقبال، فخرجت من مكتبها وجاءت للقائه. كانت كارن ليبرمان، بجسدها الرشيق، وشعرها الأشقر القصير، تقترب من ربيعها الخامس والأربعين، ولكنّها كانت تُحافظ على طريقة لبسها نفسها منذ كانت طالبة في ثانوية جانسون-دو-سايي: بنطلون جينز 501، وقميص أبيض، وسترة ياقتها عريضة وحذاء خفيف نبيذي اللون. كانت وكيلة غاسبار الأدبية، ولكن أيضاً محاميته، ومحاسبته، ومعاونته، وملحقته الإعلامية، ومستشارته المالية ووكيلته العقارية. في مقابل 20% من وارداته، كانت كارن واجهته وصِلَته مع الخارج، والدرع الذي يسمح له بأن يعيش على هواه ولا يبالي بالعالم. وهو الأمر الذي لم يحرم نفسه من القيام به.

- كيف حال الأكثر شراسة من بين كتّابي؟

أوقفها بجفاء:

- لستُ **كاتبكِ**. بل أنتِ الموظّفة لدي، وشتّان بين الأمرين.

ردّت:

- غاسبار كوتانس بكلّ عظمته! فظّ، متذمّر، جفول...

دعته إلى الجلوس.

- ألم يكن لدينا موعدٌ في المطعم؟

قال موضّحاً، وهو يُخرج هاتفه الذكي من جيبه:

- قبل ذلك، أحتاج إلى أن تطبعي لي بعض الوثائق المهمّة. مقالات عثرتُ عليها على شبكة الإنترنت.

- حوّلها إلى فلوران، إنّه...

- قلتُ لكِ بأنّها أوراق مهمّة! أريدكِ أن تقومي **أنتِ** بطباعتها، وليس معاونكِ الغبي.

- كما تشاء. آه! لقد اتّصل بي برنار بينيديك، وأكّد لي بأنّه قد تمّ تسوية كلّ شيء بشأن البيت. لقد غادرت الفتاة على ما يبدو. سوف تستمتع بالبيت لوحدكَ.

هزّ رأسه.

- كما لو أنني لستُ على علمٍ بذلك! على أيّ حال، لن أمكث فيه.

قالت كارن متنهّدة:

- بالطبع، سيكون الأمر في غاية البساطة. هل أقدّم لك كأساً من الويسكي؟

- كلا، شكراً. لقد قرّرتُ أن أخفّف من تعاطي الكحول.

نظرت إليه بعينين واسعتين:

- هل كلّ شيء على ما يُرام، يا غاسبار؟

أعلن، مباشرةً:

- لن أكتب نصوصاً مسرحية هذه السنة.

كاد أن يرى الكمّ الهائل من النتائج التي خلّفها قراره وهي تتتالى في ذهن كارن من فسخٍ لعقود، وإلغاءٍ لحجوزات صالات العرض، وإلغاء لرحلات سفر... ومع ذلك، احتاجت وكيلته إلى ثانيتين لكي تسأل بصوتٍ محايد:

- حقّاً؟ لماذا؟

هزّ كتفيه ورأسه للتأكيد على موقفه.

- أعتقد أنّه سواء كان هناك نصٌّ مسرحي إضافي لكوتانس أو لم يكن، سوف لن يغيّر هذا الأمر تاريخ المسرح...

ولأنّ كارن ظلّت ملتزمة الصمت، كرّر موقفه بإلحاح:

- لنكن صريحَيْن، لم يعُد لديّ ما أُضيفه في هذا المجال. خلال السنوات الأخيرة، أصبحتُ أُكرّر نفسي، أليس كذلك؟

أدلت كارن، هذه المرّة، بدلوها:

- ربّما هذا يكون صحيحاً بشأن فكرة أنّ «العالم قبيحٌ وأنّ الناس أغبياء»، لكن يمكنك أن تحاول الكتابة عن مواضيع أخرى.

قال غاسبار مكشّراً:

- لا أرى ما الذي يمكنني أن أكتب عنه.

نهض لكي يأخذ سيجارةً من العلبة الموضوعة على طاولة المكتب، وخرج يدخّنها في الشرفة.

صرخت كارن، وهي تلحق به إلى الشرفة:

- أنت واقعٌ في الحبّ، أهذا صحيح؟

- كلا. ما الذي تقولينه؟

قالت في نبرة فيها شكوى:

- كنتُ أخشى أن يحدث لك هذا، ذات يوم.

قال غاسبار، مدافعاً عن موقفه:

- لأنني لم أعُد أرغب في الكتابة، استنتجتِ من ذلك بأنني واقعٌ في الحبّ؟ يا له من منطق أعوج.

- لقد اشتريتَ هاتفاً محمولاً. أنتَ! لم تعُد تتعاطى الكحول، وقد حلقت ذقنك، ولم تعُد تضع نظّارتك، وترتدي بدلة وتفوح منك رائحة عطر الخُزامى! وبالتالي، نعم، أعتقد حقّاً أنّك واقعٌ في الحبّ.

سحب غاسبار، سارحاً، نفساً من سيجارته. كان ضجيج المدينة يتعالى وسط جوّ الليل اللطيف والرطب.

كان يحدّق، مستنداً بكوعيه إلى درابزين الشرفة، في برج سان-جاك الذي كان، وحيداً وغير مكتملٍ، يلمع على بُعد خطوتين من نهر السين.

سأل فجأةً:

- لماذا أبقيتِني في هذا الثقب؟

- أيّ ثقب؟

- الثقب الذي أنا عالقٌ فيه منذ سنواتٍ طويلة.

أشعَلَت كارن، بدورها، سيجارةً، ثم أجابت:

- أعتقد أنّك أنت لوحدكَ من حبستَ نفسك فيه، يا غاسبار، بل لقد نظّمت بدقّة متناهية كلّ أداء حياتك لتكون متأكّداً من أنّك لن تخرج منه.

- أعرف ذلك جيّداً، ولكن مع ذلك، نحن صديقان، أنتِ. . .

- أنت كاتبٌ مسرحي، يا غاسبار، وحدهم شخصيات نصوصك أصدقاؤك.

واصَلَ قوله:

- ربّما كان بمقدوركِ أن تقومي بمحاولة، أن تبادري إلى فعل شيءٍ ما. . .

فكّرت كارن للحظة، ثمّ قالت:

- أتريد معرفة الحقيقة؟ لقد تركتُك في هذا الثقب لأنّه المكان الوحيد الذي يمكنكَ أن تكتب فيه أفضل نصوصك المسرحية. في العزلة، في الاستياء، في الحزن.

- لا أرى رابطاً بين الأمرين.

- على العكس تماماً، أنت ترى الرابط تماماً. وكُن على ثقة

بخبرتي: السعادة مريحةٌ للعيش، لكنّها ليست مناسبة كثيراً للإبداع. هل تعرف، أنت، فنانين سعداء؟

لمّا أصبحت كارن طليقة في حديثها، شرعت تشرح فكرتها بشغف وهي مسندة ظهرها إلى حرف النافذة:

- ما أن يُخبرني أحد كتّابي بأنّه سعيد، حتى أبدأ بالقلق. تذكّر ما كان يردّده فرانسوا تروفو طيلة الوقت: «الفنّ أهمّ من الحياة». وهذا القول يأتي في وقته المناسب وينطبق عليك، لأنّكَ حتى الآن، لم تحبّ شيئاً مهمّاً في الحياة، يا غاسبار. أنت لا تحبّ الناس، ولا تحبّ البشرية، ولا تحبّ الأطفال، ولا. . .

بينما كان يرفع يده ليقاطعها، رنّ هاتفه. نظر إلى الشاشة: مكالمة واردة من الولايات المتحدة الأميركية.

- هلّا سمحتِ لي؟

2.

مدريد. كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً، والليل يكاد يهبط.

قبل أن تغادر فندقها، طلبت مادلين أن تُعار لها مظلّة، لكنّها لم تتلقَّ سوى رفضٍ بطريقة مهذّبة من لدن موظّف الاستقبال. قالت في نفسها: **لا يهمّ**. خرجت تحت المطر مقرّرة أن تتجاهل الطقس السيئ مثلما كانت تتجاهل كلّ الإزعاجات. بعد مسافة قصيرة، وجدت صيدلية وقدّمت لها قائمة بما تحتاجه من أدوية: مضادات حيوية لكي تحمي نفسها من الالتهابات في أثناء العملية، وجرعة جديدة من الهرمونات لتحفيز إطلاق البويضات، وهو علاج مبتكر سيسمح بتقليص المدّة الاعتيادية بين حقن الهرمونات وسحب

البويضات. لكنّ الحظّ لم يحالفها، فقد اضطرّت إلى أن تذهب إلى ثلاث صيدليات أخرى لكي تحصل على ما كانت تبحث عنه. في الساعة السادسة مساءً، حاولت أن تتقمّص دور السائحة وتضيّع وقتها في التجوّل بين تشويكا ومالاسانا. من الناحية النظرية، كان حيّاً خلّاقاً ونابضاً بالحيوية. في نهاية فصل الصيف، كانت مادلين قد استمتعت بالتجوال في شوارعه المزيّنة ومتاجره لبيع الألبسة الرخيصة ومقاهيه ذات الأجواء الاحتفالية. اليوم، كانت الحكاية مختلفة. كانت مدريد، غارقة تحت الطوفان، تبدو وكأنها تعيش آخر ساعاتها قبل نهاية العالم. منذ بداية فترة ما بعد الظهيرة، كان وابلٌ جهنّمي من المطر المنهمر والزوابع يكتسح كلّ ركنٍ من أركان المدينة، زارعاً الفوضى ومُحدِثاً فيضانات واختناقاتٍ مرورية.

ولأنّها كانت جائعة، قرّرت العودة إلى المطعم الصغير الذي كانت قد تناولت الغداء فيه أثناء زيارتها السابقة، لكنّها لم تجد الطريق إليه. كانت الغيوم منخفضة جدّاً إلى درجة كانت تهدّد بالسقوط فوق القباب التي تهيمن على المدينة الملكية. مع حلول الظلام وتحت المطر، كانت الشوارع والجادات كلّها تتشابه، والخريطة التي كانت قد أخذتها من مكتب الاستقبال في الفندق على وشك أن تتحلّل بين يديها. قرأت في الخريطة أسماء شارع هورتاليزا، شارع ميخيا لوكويريكا، شارع أرجنسول: كانت الأسماء والألفاظ تختلط ببعضها، وتغبش رؤيتها. تشوّش ذهنها تماماً وتاهت، فدلفت أخيراً إلى مطعمٍ قديم. وصل طبق سمك المرجان الذي طلبته مغطّساً في صلصة المايونيز وكانت فطيرة التفاح نصف مجمّدة.

مسبوقاً بدوي رعدٍ استمرّ لوقتٍ طويل، شعّ ضوء برقٍ قوي في

السماء الداكنة، تاركاً لبرهةٍ قصيرة انعكاس صورة مادلين على زجاج الواجهة الذي كان المطر يجلده بحباله المنهمرة. حينما اكتشفت صورتها، انتابتها كآبةٌ غير متوقّعة. بدا لها أنّ عزلتها وتشوّشها في قمّة قسوتهما. فكّرت من جديد في كوتانس. فكّرت في طاقته وفُكاهته وحيويته الذهنية. كان كارهاً للبشر وغريب الأطوار. شخصية لا يمكن تصنيفها، محبّبة ومتناقضة. كان يبعث، وهو حبيس طريقة تفكيره، ورغم نزعته التشاؤمية، قوّة هادئة وباعثة على الاطمئنان. في هذه اللحظة، كانت تحتاج إلى طاقته وإلى حرارته وحتى إلى سوء نيته. لو كانا معاً، لاستطاعا، على الأقلّ، أن يعترضا معاً على سجن الأشغال الشاقّة الذي يقبعان فيه.

ابتلعت مادلين أقراصها من المضادات الحيوية مع قهوة رديئة خالية من الكافيين، ثمّ عادت إلى فندقها. حقنت الهرمونات، وأخذت حمّاماً ساخناً، وشربت نصف زجاجة من نبيذ لا ريوخا الذي وجدته في الثلاجة الصغيرة للمشروبات، الأمر الذي سبّب لها الصداع في الحال.

لم تكُن الساعة قد بلغت حتى العاشرة ليلاً، حينما اندسّت في سريرها تحت الشراشف والأغطية.

سوف يكون نهار الغد يوماً مهمّاً في حياتها. ربّما بداية حياةٍ جديدة. ولكي تنام وفي ذهنها فكرة إيجابية، حاولت أن تتخيّل لمَنْ سوف يشبه الطفل الذي ترغب في إنجابه. ولكن، لم تتشكّل أيّة صورة في ذهنها، كما لو أنّ هذا المشروع لم يكن له أيّة حقيقة ملموسة وقد حُكِم عليه بأن يبقى في حالة أملٍ كاذب. بينما كانت تحاول طرد هذه الموجة من الإحباط وأن يجد النوم طريقاً إلى عينيها، عبرت صورةٌ صافية وقويّة ذهنها. الوجه الجميل للطفل

جوليان لورينز: عينان برّاقتان، أنفٌ ناعم، حلقات شعرٍ أشقر، ابتسامةٌ لا تُقاوَم لطفلٍ صغير.

في الخارج، كان المطر يواصل هطوله مدراراً.

3.

تعرّف غاسبار في الحال على الصوت الأجشّ الآتي من الطرف الآخر للخطّ الهاتفي: كليف إيستمان، الرجل الذي كان شون قد اتّصل به لثلاث مرّات قبل بضعة أيام من وفاته.

- طاب نهارك، سيّد إيستمان، شكراً على اتّصالك بي.

عرف غاسبار، في بضع جمل، أنّ محدّثه صاحب مكتبة سابق يقضي في الحالات العادية تقاعداً هادئاً في ضواحي ميامي. لكنّه، قبل ثلاثة أيام من عيد الميلاد، وجد نفسه عالقاً في منزل كنّته في ولاية واشنطن.

قال بنبرة احتجاجية:

- ثمانون سنتيمتراً من الثلج! شللٌ في حركة السير، وطرقٌ مغلقة، وحتى خدمة الواي-فاي تعطّلت. وفي النتيجة، أشعر هنا بالملل الشديد!

أجاب غاسبار مجازفاً لكي يُطيل المحادثة:

- اقرأ كتاباً مفيداً.

- لا أملك تحت يدي أيّ شيء، وكنّتي لا تقرأ سوى الترّهات: حماقة وراء حماقة! لكنني لم أفهم تماماً مَنْ تكون. أنت موظّفٌ من صندوق المعاشات التقاعدية من مدينة كي بيسكاين، أليس كذلك؟

أجاب الكاتب المسرحي:

- ليس تماماً. هل تعرف شخصاً باسم شون لورينز؟

- لم أسمع به أبداً، مَنْ يكون هذا؟

كان العجوز يلفظ كلّ جملة من جمله بطقطقة رنّانة من لسانه.

أجاب غاسبار:

- إنّه رسّامٌ شهير. لقد حاول الاتصال بك، قبل ما يُقارب عاماً من الآن.

- ربّما يكون ذلك صحيحاً، لكن لم يعُد لديّ الكثير من الذاكرة في عمري هذا. وماذا كان يريد صاحبك بيكاسو؟

- هذا بالضبط ما أودّ أن أعرفه.

من جديد، أصدر العجوز صخباً بفكّيه ولسانه.

- ربّما لم يكُن يسعى للاتصال بي أنا.

- لم أفهَم قصدك.

- حينما آلت لي ملكية هذا الهاتف، بقيتُ لعدّة أشهر أتلقّى مكالمات من أشخاص كانوا يريدون التحدّث مع المالك السابق للخطّ الهاتفي.

سَرَت رعشةٌ في جسد غاسبار. ربّما كان قد أمسَكَ برأس خيطٍ ما.

- حقّاً؟ وماذا كان يُدعى المالك السابق للخطّ الهاتفي؟

بدا له أنّه يكاد أن يسمع إيستمان وهو يحكّ رأسه على الطرف الآخر من الخطّ.

- لم أعد أتذكّر تماماً، كان ذلك منذ زمنٍ بعيد. كان للرجل الاسم نفسه لرياضيٍّ مشهور، على ما أعتقد.

- رياضيّ، هذا غامض.

كان خيط ذاكرة العجوز رفيعاً. ما كان عليه أن يقطعه ولا أن يشدّه.

- حاوِلْ أن تتذكّر، من فضلك.

- إنّه على طرف لساني. أحد أبطال ألعاب القوى، على ما أعتقد. نعم، إنّه وثّابٌ شارك في الألعاب الأولمبية.

استدعى غاسبار بصعوبة ما يتذكّره من أسماء الرياضيين. لم تكن الرياضة من اهتماماته الأساسية. آخر مرّة شاهد فيها الألعاب الأولمبية على التلفاز، كان لا يزال ميتران وريغان في سدّة الرئاسة، وكان بلاتيني يسدّد الضربات الحرّة المباشرة لنادي يوفنتوس، وكانت فرقة **فرانكي غوز تو هوليوود** تحتل المرتبة الأولى من بين أفضل خمسين فرقة موسيقية.

استعرض بعض الأسماء على سبيل المجاملة، قائلاً:

- سيرغي بوبكا، تييري فينيورون...

- كلا، ليس من بين لاعبي القفز بالزّانة. إنّه لاعب الوثب العالي.

- ديك فوسبوري؟

انخرط الآخر في اللعبة:

- كلا، لاعب لاتيني، كوبي.

ومض اسمٌ في ذاكرة غاسبار.

- خافيير سوتومايور!

- نعم، هذا هو: سوتومايور.

أدريانو سوتومايور. قبل بضعة أيام من وفاته، بينما كان على قناعةٍ بأنّ ابنه لا يزال على قيد الحياة، كان شون قد طلب المساعدة من زميله السابق في مجموعة **صنّاع الأسهم النارية** والذي كان قد أصبح شرطيّاً.

كان هناك إذاً في نيويورك مَنْ يمكنه تقديم المساعدة. شخصٌ ربّما كان قد أعاد فتح التحقيق في قضية موت جوليان. شخصٌ ربّما تكون بحوزته معلومات جديدة.

بينما كان غاسبار لا يزال على الخطّ، كانت كارن ليبرمان تراقبه عبر زجاج نافذة مكتبها. حينما لاحظت أنّ هناك كلب دمية غريب يظهر في جيبه، أدركت أنّ غاسبار كوتانس الذي كانت تعرفه لم يعُد موجوداً.

الجُمعة 23 ديسمبر

13

مدريد

يلحقُ بي إبليس ليلَ نهار لأنّه يخشى أن يبقى وحيداً.

فرانسيس بيكابيا

.1

مدريد. الساعة الثامنة صباحاً.

استيقظت مادلين على صوت المنبّه المضبوط على هاتفها المحمول. أكرَهَت نفسها على الخروج من السرير والوقوف على قدميها. قالت في نفسها: **يا لها من ليلة مزعجة!** ليلة أخرى. كان من المستحيل عليها أن تغمض عينيها حتى الساعة الخامسة صباحاً قبل أن يُغرقها نومٌ عميق في أغوارٍ سحيقةٍ كان من الصعب الخروج منها.

أزاحت الستائر لتتبيّن بارتياحٍ أنّ العاصفة كانت قد توقّفت. خرجت لتستنشق جرعة كبيرةٍ من الهواء في الشرفة. كانت السماء قد ظلّت مكفهرّة، ولكن في ضوء النهار، كان حي تشويكا قد استعادَ بعض البهجة. فرَكَت عينيها، وتثاءبت. كانت مستعدّة لدفع ثمنٍ غالٍ

مقابل الحصول على فنجان من قهوة الإكسبرسو، لكنّ العملية كانت تستدعي منها أن تكون صائمة عن تناول أيّ شيء. تحت رشّاش الحمّام، اغتسلت طويلاً بالصابون المُطهِّر محاولةً أن تفكّر في كلّ شيء إلّا في التخدير. ارتدت ثياباً بسيطة - سروالاً ملتصقاً بالجسم، قميص جينز فضفاض، وسترة طويلة من الصوف، وحذاءً طويل الساق. كانت أوامر المركز الطبي واضحة: ممنوع وضع العطور ومساحيق التجميل، والتزامٌ دقيق بالموعد المحدّد من قبل العيادة.

نزلت الدرج نحو بهو الفندق، ووضعت سمّاعة في أذنيها وبرمجت قائمة أغانٍ ملائمة: **اللحن الهنغاري** لفرانز شوبيرت، **كونشرتو الفلوت والهارب** لموزارت، **سوناتا بيانو رقم 28** لبيتهوفن. كانت هذه عبارة عن موسيقى مهدّئة وجذّابة، كانت تعطيها الإحساس بالخفّة حينما تنتقل مشياً على القدمين. لم تكُن العيادة بعيدة عن الفندق، وكان المسار مرسوماً: الوصول إلى ساحة ألونزو-مارتينيز، والسير لمسافة كيلومترٍ واحد في شارع فيرناندو إيل سانتو ومن ثمّ عبور حدائق كاستلانا الصغيرة. كانت عيادة الإخصاب -منشأة صغيرة معاصرة محميّة بألواحٍ من الزجاج المحجّر- توجد في شارعٍ منحدر.

في الطريق، كانت مادلين قد أرسلت رسالة قصيرة عبر الهاتف إلى لويزا، لكي تبلغها بوصولها الوشيك إلى المركز. جاءت الممرّضة الشابة للقائها في البهو. بعد عبارات الترحيب والسؤال عن الأحوال والاطمئنان عليها، قدّمتها لويزا إلى اختصاصي التخدير ومن ثمّ إلى الطبيب الذي أخذ وقته لكي يشرح لها من جديد العملية الدقيقة لاستخراج البويضات. تتمّ العملية بمساعدة محقن طويل جدّاً يتمّ إدخاله حتى يصل إلى المبيض لكي يتمكّن من الانغراس في

البويضات حتى يسحب منها المشيج الأوّلي، أي البويضة الأنثوية غير الناضجة.

قال الطبيب، مؤكّداً لها:

- لكن العملية لا تسبّب ألماً على الإطلاق. سوف تكونين نائمة تحت تأثير المخدّر، طيلة وقت العملية.

بعد أن اطمأنت بعض الشيء، انقادت مادلين إلى غرفة مجهّزة بسريرٍ طبيّ ذي عجلات يتمّ نقل المرضى بواسطته قبل البدء بإجراء العملية. بينما توارت الممرّضة عن الأنظار، وضعت مادلين حقيبة يدها وهاتفها المحمول في خزانة صغيرة ذات رقم سرّي معدّة لهذا الغرض. ثمّ تجرّدت من ثيابها وارتدت اللباس الخاصّ بغرفة العمليات: سترة، قبّعة للشعر، مشّايات خاصة بالاستخدام في المستشفيات. لمّا وجدت نفسها عارية تحت ثوبٍ من ورق، أحسّت بأنّها ضعيفة وازداد قلقها قليلاً.

لننتهي من كلّ هذا...

وأخيراً انفتح الباب، لكن الوجه الذي ظهر لم يكُن وجه لويزا ولا وجه طبيب. وإنّما وجه هذا الإبليس غاسبار كوتانس!

سألت مندهشةً:

- ماذا تفعل هنا؟ كيف نجحت في الدخول إلى هذا المكان؟

أجابها باللغة الإسبانية:

- Porque tengo buena cara. Y he dicho que yo era su marido.[1]

- كنتُ أعتقد أنّكَ لا تُجيد الكذب...

---

(1) «لأنني ذكيٌّ جدّاً. ولأنني أخبرتهم بأنني زوجكِ».

- لقد تعلّمت الكثير من الأشياء منكِ.

قالت وهي تجلس على السرير:

- اخرُجْ من هنا في الحال! وإلّا سوف أُخرجكَ بنفسي!

- اهدئي. لدي شيءٌ جديد. ولكي أحدّثكِ عنه، صعدتُ إلى أوّل طائرةٍ هذا الصباح.

- شيءٌ جديد حول ماذا؟

- تعلمين جيّداً حول ماذا.

- اخرُجْ من هنا!

كما لو أنّه لم يسمع شيئاً، جلس على الأريكة المجاورة لسريرها، وأزاح قوارير الماء من على طاولة ذات عجلات واستخدمها كطاولة مكتبٍ ليضع عليها أغراضه.

بدأ بالحديث:

- هل تتذكّرين شتوكهاوسن؟

- كلّا. انصرف من هنا. لا أريد التحدّث معك. علاوة على ذلك، تفوح منك رائحة الخزامى. وماذا فعلتَ بنظارتك؟

- لا يهمّ. شتوكهاوسن هو اسم طبيب القلب المزعوم لشون. الاسم الذي وجدناه في المفكّرة التي سلّمكِ إياها بينيديك.

احتاجت مادلين إلى بضع ثوانٍ لكي تستعيد تسلسل أفكارها.

- الطبيب الذي كان شون على موعدٍ معه في اليوم السابق لوفاته؟

أكّد غاسبار:

- نعم، هو نفسه. حسناً، هذا الشخص غير موجود. أو

بالأحرى، ليس هناك طبيب اختصاصي بالأمراض القلبية في نيويورك باسم شتوكهاوسن.

ولدعم أقواله، أخرَجَ من حقيبته الظهرية رزمةً من الأوراق المطبوعة، متعلّقة بعمليات بحث أجراها على موقع دليل الهاتف الأميركي.

- لقد توسّعتُ في عمليات البحث لتشمل كلّ الولاية: لا شيء. وهو أمر منطقي: كان لورينز يتلقّى العلاج في مستشفى بيشا على أيدي أحد أفضل الفرق الطبية في مجال جراحة القلب في أوروبا. ما مصلحته أن يُراجع طبيباً في نيويورك؟

- وأنت، ما مصلحتك في أن تأتي وتضايقني حتى في هذا المكان؟

رفع يده في إشارة للتهدئة، ثمّ قال:

- أَصغي إليّ، من فضلك، يا مادلين.

- وهل أصبحتَ ترفع الكلفة في مخاطبتي، الآن؟

- لقد فتّشتُ المنزل وقلبته رأساً على عقب. في مكتب شون، عثرتُ على عشرات المقالات التي كان قد طبعها. كانت في أغلبها عبارة عن قصاصات من الصحف والمجلات المتعلّقة بالتحقيق حول موت ابنه، ولكن، من بين المقالات، كانت هناك هذه أيضاً.

مدّ نحوها مجموعة من الأوراق المشبّكة. كانت الأوراق عبارة عن ملفّ ضخم خصّصته مجلة **نيويورك تايمز ماغازين** لقضايا باردة شهيرة أي قضايا لم يتمّ حلها بعد: موت ناتالي وود، قضية سانترال بارك فايف، قضية شاندرا ليفي، قضية محتَجَزات كليفلاند، وأمثالها من القضايا. ذهبت مادلين إلى صفحةٍ مُشار إليها بورقة لاصقة

لتكتشف فيها. . . صورةً لها هي بنفسها. فركت عينيها. كانت قد نسيت تقريباً هذه المقالة المكرّسة لقضية آليس ديكسون. الفتاة المراهقة التي عثرت عليها في ظروفٍ لا تُصدّق بعد ثلاثة أعوام من اختفائها. كان تحقيقها الأصعب والأكثر إيلاماً، التحقيق الذي كادَ أن يقضي عليها، ولكن أيضاً الذي كانت له الخاتمة الأكثر نيلاً للرضا. كانت خاتمة ذلك التحقيق إحدى أسعد لحظات حياتها. لحظات تبدو بعيدة الآن على نحوٍ فظيع.

– هل كان لورينز يحتفظ بهذه المقالة في بيته؟

– كما ترين ذلك، بل إنّه أشار بخطّ يده إلى بعض المقاطع من المقالة.

قرأت في صمتٍ المقاطع المُشار إليها بقلم تلوين:

[. . .] كان ذلك من دون الاعتماد على مادلين غرين، وهي شرطية متفانية وعنيدة في قسم مكافحة الجريمة في مدينة مانشستر [. . .] لا تستسلم أبداً [. . .] والتي انتهت جهودها بالنجاح [. . .] تعمل الشابّة الإنجليزية الآن بين آبر إيست سايد وهارلم، في قسم القضايا الباردة لشرطة نيويورك، والتي تقع مكاتبها قرب مستشفى ماونت سيناي.

أثار وجود هذه المقالة في منزل لورينز دهشة مادلين، ولكنّها أعادتها إلى غاسبار من دون أن تتفوّه بكلمة واحدة.

– أهذا كلّ ما فعلته بكِ المقالة؟

– وماذا كنتَ تنتظر منّي؟

– أقصد أنّ المسألة واضحة: لم يكن شون في نيويورك لمقابلة طبيب، وإنّما كان في مانهاتن ليراكِ، أنتِ!

ردّت منزعجةً:

- فقط لأنّه كانت بحوزته مقالة قديمة تتحدّث عنّي؟ أنت تحرق المراحل، يا كوتانس. أَصغِ إليّ، هذا يكفي، أودّ أن أركّز اهتمامي على حياتي الشخصية، في هذا المكان.

لكنّ غاسبار كان مصرّاً على موقفه. نشر على الطاولة الصغيرة خريطة مانهاتن التي كان قد وضع عليها شروحات وملاحظات في الليلة السابقة وأشار إلى صليبٍ بقلمه.

- مات شون لورينز هنا، وسط الشارع، عند تقاطع شارعَي 103 وماديسون.

- وماذا بعد ذلك؟

- أين تقع المكاتب التي كنتِ تعملين فيها آنذاك؟

حدّقت في الخريطة من دون أن تجيب عن سؤاله. فأشار غاسبار، قائلاً:

- هنا! أبعد من المكاتب التي كنتِ تعملين فيها بمبنى واحدٍ فقط! لا يمكن لهذا أن يكون مجرّد مصادفة.

ظلّت مادلين صامتةً، مقلّصة العينين ومركّزة ببصرها على الخريطة. رمى غاسبار آخر أوراقه بينما كان ممرّضٌ يدخل إلى الغرفة.

- الآنسة غرين؟

أكّد غاسبار من دون أن يُبدي اهتماماً بحضوره، وهو يلوّح في الهواء بورقتين مغروزتين معاً:

- هذه آخر فاتورة هاتفية لشون. نجد فيها تفاصيل المكالمات الهاتفية التي أجراها. هل ترغبين في معرفة آخر رقمٍ طلبه قبل أن يُغادر فرنسا؟

قال الممرّض بإلحاح، وهو يرفع جانبي السرير ذي العجلات:
- آنسة غرين، يمكننا أن ننصرف.
وافقت مادلين بإشارةٍ من رأسها وهي تحاول تجاهل كوتانس.
بينما كان الممرّض يدفع السرير إلى خارج الغرفة، صاح بها غاسبار:
- كان الرقم 0660-452-212. ألا يعني لكِ هذا الرقم شيئاً، يا مادلين؟ سوف أنشّط ذاكرتكِ. إنّه رقم مكتب القضايا الباردة لشرطة نيويورك. إنّه المكتب الذي كنتِ تعملين فيه آنذاك.
كانت المرأة الشابة قد غادرت الغرفة، لكنّ غاسبار واصل قوله:
- شئتِ أم أبيتِ، كان شون في نيويورك، قبل ساعةٍ من وفاته، لكي يكشف لكِ عن شيءٍ ما. لكِ أنتِ. **لكِ أنتِ!**

.2

ولجت إبرة المحقن في وريد مادلين، وحقنت فيه السائل المخدّر. أحسّت المرأة الشابّة، وهي ممدّدة على طاولة العمليات، لبرهةٍ قصيرة بأنّ موجةً باردة كالصقيع تجتاحها. ثمّ تبدّد ذلك الإحساس المزعج. تثاقلت أجفانها؛ وتلاشى صوت الطبيب تدريجيّاً. أخذت نفساً عميقاً ووافقت على الاستسلام للرحيل. قبل أن تغيب عن الوعي تماماً، خالَ لها أنّها ترى وجه رجلٍ. كان الوجه حزيناً وقسماته مُتعَبة وعيناه منهكتين. وجه شون لورينز. كانت نظرته المحمومة تبدو وكأنّها تتوسّل إليها. «ساعديني».

3 .

تشير الساعة الآن إلى الحادية عشرة صباحاً. كانت الحانة الخاصّة بتقديم أطباق التاباس الإسبانية بالكاد قد فتحت أبوابها. جلس غاسبار إلى كونتوار البار، ووضع حقيبته على الكرسي العالي إلى جواره وطلب كوباً من الكابتشينو. الأمر الأوّل: أخذ قرصين من البرونتالجين لتخفيف ألم أصابعه ويديه. المبادرة الثانية: إرسال رسالة قصيرة عبر الهاتف المحمول إلى مادلين لكي يطلب منها الانضمام إليه حال انتهائها.

- تفضّل قهوتك، يا سيّدي.

- شكراً لك.

لم يكن لصاحب الحانة أيّ علاقة بالنحافة. كان دبّاً حليق الرأس وذا لحية كثيفة. كان كرشه الكبير من جرّاء شرب الجعّة محشوّاً في قميصٍ رياضيّ متعدّد الألوان، مطرّز بإعلان فيلم **قيّدني!** وهو فيلم إسباني قديم من إخراج بيدرو ألمودوفار وبطولة أنطونيو بانديراس وفيكتوريا أبريل.

- هل يمكنكَ أن تساعدني، من فضلك؟

سأل الرجل الدبّ:

- في ماذا يمكنني أن أفيدك؟

أخرَجَ غاسبار، وهو محرَج قليلاً، هاتفه وشرح له بأنّه ليس معتاداً على التقنيات الجديدة.

- لم أعُد أستطيع الاتصال بشبكة الإنترنت، منذ أن وصلتُ إلى إسبانيا.

حكّ الدبّ كتلة الشعر تحت قميصه الرياضي وأعطى إجابة

تضمنّت كلمات «شبكة، شركة اتصالات، اشتراك، بيانات خليوية للخارج».

هزّ غاسبار رأسه من دون أن يفهم شيئاً، لكنّ الرجل الدبّ كان لطيفاً. لاحظ ارتباكه وعرض عليه أن يوصل بنفسه جهازه بخدمة الواي-فاي الخاصّة بالحانة. أحسّ غاسبار بالارتياح وناوله هاتفه الخليوي الذي استعاده بعد ثلاثين ثانية.

وضع، بعد ذلك، على كونتوار الحانة دفتره ووثائقه، ومن ثمّ أعاد قراءة كلّ الملاحظات التي كان قد دوّنها صباحاً في الطائرة. بحسب المقطع الذي أشار إليه من مقالة مجلّة **آرت إن أميركا**، كان أدريانو سوتومايور معيّناً في الدائرة رقم 25، في مفوضية شرطة شمال هارلم. بحث غاسبار عن رقمه عبر محرك البحث غوغل. ألقى نظرة على ساعة يده، فوجد أنّ الساعة تشير إلى الخامسة صباحاً في نيويورك. لا يزال الوقت مبكّراً بعض الشيء للاتصال. من جهة أخرى، كانت مفوضيات الشرطة تبقى مفتوحة الأبواب على مدار أربع وعشرين ساعة من دون انقطاع. جرّب حظّه، وعانى من الثرثرة التي لا تنتهي الخاصّة بأغلبية المقاسم الهاتفية قبل أن يصادف عاملة هاتفٍ سعت إلى صرفه بالطلب منه أن يتّصل في أوقات فتح باب المفوّضية أمام عامّة الناس. ألحّ عليها غاسبار كثيراً بحيث حوّلته إلى مكتبٍ آخر.

سأل محدّثَه:

- أودّ أن أعرف إن كان الضابط سوتومايور لا يزال يعمل هنا.

واجه رفضاً جديداً جاءه بنبرة ناظر مدرسةٍ يوبِّخ طفلاً:

- نحن لا نعطي هكذا معلومات على الهاتف.

اختلق غاسبار حكايةً، وشرح بأنّه يعيش في أوروبا، وبأنّه في

زيارة قصيرة لعدّة أيامٍ فقط في نيويورك ويريد أن يعرف إن كان بإمكانه أن يمرّ ويلقي التحيّة على الضابط سوتومايور الذي تعرّف عليه في المدرسة و...

- هذه مفوّضية شرطة، يا سيّد، وليست رابطة قدامى التلاميذ في مدرسة برادلي سكول.

- أفهم جيّداً، ولكن...

أطلق غاسبار شتيمة حينما تأكّد من أنّ السمّاعة قد أُغلِقت في وجهه، ولكنّه عاود الاتّصال مرّة أخرى. تلقّى الدوّامة الصوتية نفسها، وعاملة التحويلات الهاتفية نفسها، والمرافعة نفسها للتحدّث مع رئيسها. هذه المرّة، كاد الرجل أوّلاً أن يهينه، لكن غاسبار لم يدخل في لعبته. ولأنّه كان قد ترك اسمه وعنوانه، تمّ تهديده باتّخاذ إجراءات قانونية ضدّه إذا ما واصل إشغال الخطّ الهاتفي، ثمّ بعد أن أعيته الحيلة، ولكي يتخلّص منه، أفصح له الرجل المناوب أنّ الضابط سوتومايور يعمل بالفعل في الدائرة رقم 25، وأنّ لديه خدمة خلال هذا الأسبوع.

أغلق غاسبار سماعة الهاتف وعلى شفتيه ابتسامة. ولكي يحتفل بهذا الانتصار الصغير، طلب كوباً آخر من الكابتشينو.

4.

حينما فتحت مادلين عينيها، كان قد مرّ نصف ساعة على تخديرها وخضوعها لعملية سحب البويضات. ومع ذلك، أحسّت بأنّها كانت قد نامت لقرنٍ كامل.

سمعت صوتاً يُعلن لها:

- لقد انتهت العملية.

استفاقت من تأثير المخدّر بهدوء. كانت الألوان تتوضّح من حولها، والأشكال تعود إلى طبيعتها تدريجياً، والوجوه تصبح أكثر وضوحاً.

أكّدت لها لويزا:

- سار كلّ شيءٍ على نحوٍ ممتاز.

كان الطبيب قد غادر العيادة، لكن الوجه البشوش للممرّضة كان يبتسم لها.

طمأنتها وهي تمسح جبينها:

- لقد استطعنا أن نسحب ثماني عشرة بويضة غير ناضجة.

سألت مادلين وهي تحاول أن تعتدل في جلستها:

- وما هي الخطوة التالية؟

قالت لويزا محذّرة:

- اِبْقَي مستلقية.

دفعت مع أحد زملائها السرير ذي العجلات لمغادرة غرفة العمليات، وقادت مادلين إلى غرفة الاستراحة.

- الخطوة التالية، أنتِ تعرفين ما هي: سوف نفرز البويضات ونقوم بتلقيح أكثرها نضوجاً. وفي غضون ثلاثة أيام، سوف ننقل إليكِ بويضتين ملقّحتين. وبانتظار ذلك، سوف تبقين مستلقية بهدوء، هنا، معنا، حتى منتصف النهار.

- وبعد ذلك؟

- بانتظار عملية النقل، سوف تبقين في فندقكِ مع كتابٍ جيّد أو مع الموسم الأخير من مسلسل **صراع العروش**. ولكنكِ سوف تتركين علب الشيبس في مكانها في غرفتك، مفهوم؟

- ما معنى هذا؟

- سوف تكونين حذرة في مسألة الغذاء، وتلتزمين ببرنامجٍ للحمية: لا تتناولين ملحاً، ولا تُكثرين من المواد الدهنية. باختصار، عليكِ أن تنسي كلّ الأشياء المشهّية. ولكن الأهمّ من كلّ هذا هو أن تر-تا-حي!

تنهّدت مادلين مثل فتاةٍ مراهقة. اصطحبتها لويزا إلى الغرفة التي تركت فيها أغراضها قبل قليل.

اشتكت وهي تشير إلى بطنها:

- أتألّم كثيراً.

بدا على وجه لويزا تعاطفها معها، وقالت:

- أعرف يا عزيزتي، هذا أمرٌ طبيعي، لكنّ عقار الترامادول سوف يفعل فعله الآن.

- هل أستطيع أن أرتدي ثيابي؟

- بالتأكيد. هل تتذكّرين الرقم السري للصندوق؟

جلبت لها الممرّضة ثيابها، وحقيبتها وهاتفها الذي وضعته على كرسيٍّ إلى جانب السرير. بينما كانت مادلين تنزع عنها قبّعة الرأس والقميص الخاصّ بغرفة العمليات، أوصتها لويزا من جديد بأن ترتاح.

- سوف أجلب لكِ وجبتكِ الخفيفة بعد قليل، بانتظار ذلك، استريحي في سريرك!

حينما عادت الشابّة الإسبانية، بعد مرور نصف ساعة، وهي تحمل صينية الوجبة على ذراعيها، كانت مادلين قد اختفت.

.5

- في الحقيقة، أنت لا تتوقّف أبداً، يا كوتانس! أنت مثل أرنب دوراسيل: تدقّ مثل أصمٍّ على طبلتك من دون أن تُدرك بأنّك تُفسد حياة الآخرين!

كانت مادلين قد حطّت رحالها لتوّها، شاحبة الوجه وغاضبة، في حانة وجبات التاباس في شارع أيالا.

سأل غاسبار وهو يعود بحذر إلى مخاطَبتها بصيغة الجمع حفاظاً على الرسميات:

- هل سارت عمليتكم على ما يُرام؟

- كيف تريد أن يتمّ ذلك على ما يُرام! لقد لحقتَ بي حتى إلى مدريد لكي تطاردني في حياتي الخاصّة، وتُضايقني، و. . .

لم تكن سوى في بداية اللازمة اللاذعة التي تأهّبت لتوجّهها له حينما أحسّت بأنّ جبينها يرشح عرقاً وأن ساقيها بدأتا تخوران تحتها. كان عليها أن تتناول شيئاً ما وإلّا سيُغمى عليها.

لم تكن لديها حتى القدرة على التسلّق على أحد الكراسي العالية. طلبت كوباً من الشاي وراحت إلى مؤخّرة الحانة، على إحدى الأرائك الموضوعة قرب النوافذ المطلّة على الشارع.

انضمّ غاسبار إليها وفي يده علبة من خشب صقيلٍ ومطليّ بالدهان اللميع. كانت علبة طعامٍ تحتوي وجبة إيبيرية: تورتيلا إسبانية بالبطاطا، أخطبوط متبّل، باتًا نيغرا، كروكيتاس، كالاماري، سمك الأنشوفة بالخلّ. . .

- لا تبدين في حالة جيّدة، فسمحتُ لنفسي بالتدخّل. تناولي شيئاً إذاً.

- لا أريد أن أتناول طعامك!

تحمّل رفضها الفجّ، وجلس قبالتها.

- على أيّ حال، أنا مسرورٌ برؤيتكِ وقد غيّرتِ رأيكِ بشأن لورينز.

ردّت في جفاء:

- لم أغيّر رأيي حول أيّ شيء. ليس هناك أي عنصر جديد في كلّ ما رويته لي.

- هل تمزحين؟

استعادت كلّ النقاط التي كان غاسبار قد شرحها لها.

- كان لورينز قد أجرى عمليات بحث عنّي، وماذا بعد؟ لا شكّ في أنّه قد رغب في أن أعثر له على ابنه، وماذا بعد؟ بل ربّما جاء إلى نيويورك لكي يقابلني، وماذا بعد؟

ردّد غاسبار، مندهشاً:

- «وماذا بعد؟».

- أريد أن أقول: ما الذي تغيّره كلّ هذه الأمور في جوهر القضية؟ كان لورينز مريضاً، ومحطّماً من جرّاء حزنه الشديد على ابنه، مدمناً على الدوبامين ومخدّراً به. كان على استعدادٍ لأن يتمسّك بأيّ شيءٍ على أملٍ مخادع، وكان يُشغل باله بشدّة بهذه الحكاية، التي لا رأس لها ولا عقب، عن تجربة الاقتراب من الموت. أقصد، يا كوتانس، أنّك تعرف ذلك جيّداً!

- كلّا، توقّفي هنا! لقد سئمتُ من نعت لورينز بصفات ليست موجودة فيه. لم يكن مدمن مخدّرات، ولم يكن متوهِّماً، كان رجلاً مثقّفاً وذكيّاً يحبّ ابنه وكان. . .

رمقته مادلين بازدراءٍ شديد.

- يا صديقي المسكين، ألا ترى أنّك تتقمّص حالة لورينز؟ تلبس مثله وتتعطّر مثله وتتكلّم مثله.

- لم يخاطبني أحدٌ قط بعبارة **يا صديقي المسكين**.

- يجب الاعتقاد بأنّ هناك بداية لكلّ شيء. على أيّ حال، اعترِفْ بأنّك قد استسلمتَ لجنونه.

أنكر كوتانس ذلك:

- أريد فقط أن أُعيد فتح التحقيق الذي بدأه، وأن أعثر على ابنه.

انفعلت مادلين إلى درجة كادت فيها تنقضّ على حلقه:

- لكن ابنه قد **مات**، تبّاً! قُتِلَ تحت أنظار أمّه! أقسَمَت لك بينيلوب على ذلك!

قال غاسبار مؤيّداً:

- نعم. لقد روَت لي حقيقتها **هي**.

- حقيقتها **هي** أم الحقيقة **بعينها**، ما الفرق؟

من جديد، فتح حقيبته لكي يُخرِجَ منها دفتره وملاحظاته و«أرشيفه».

- في عددها لشهر أبريل من سنة 2015، نشرت مجلة **فانيتي فير** مقالة مفصّلة حول التحقيق الذي تلى عملية اختطاف جوليان.

مدّ نسخة مصوّرة من المقالة نحو مادلين: كانت الورقة تتمحور حول أوجه التشابه بين اختطاف ابن شون واختطاف ابن تشارلز لندبرغ في عام 1934.

- لقد سئمتُ من تقريرك الصحافي، يا كوتانس.

- ومع ذلك، لو كلّفتِ نفسكِ عناء قراءة هذه الورقة، سوف

ترين أنّ المحرّرة قد أوردت، في نهاية المقالة، قائمة بالأشياء التي عثر عليها المحقّقون في مخبأ بياتريز مونيوز.

ألقت مادلين، مُكرَهة وعلى مضض، نظرةً على المقطع المشار إليه بقلم ملوّن: صندوق عدّة، سكينان للصيد، بكرة شريط لاصق، سلك معدني شائك، رأس دمية من ماركة هارزيل [. . .].

- ما الذي يدور في ذهنك؟ دمية الصبي؟

- بالضبط، لم تكن دمية جوليان. لقد حدّثتني بينيلوب فقط عن لعبة كلب دمية تشبه هذه.

وكما لو أنّه يعلن عن مفاجأة، أخرج من حقيبته الدمية وعليها آثار بقع الكاكاو.

تراجعت مادلين في كرسيّها، ثمّ قالت:

- ربّما كان مع الصبي لعبتان.

- بشكلٍ عام، لا يسمح الوالدان لأطفالهما باصطحاب دميتين في أثناء الذهاب إلى التنزّه.

- ربّما يكون ذلك صحيحاً، ولكن ما الذي يُغيّره هذا في الأمر؟

قال وهو يُخرج من بين وثائقه مقتطفات من كتالوغ خاصّ بالأطفال كان قد طبعها بالألوان:

- لقد قمتُ ببعض عمليات البحث.

- بالنسبة إلى شخصٍ كان يجهل حتى وجود الإنترنت، يمكننا القول بأنّك قد حقّقت تقدّماً كبيراً. . .

- الألعاب من ماركة هارزيل لها ميزة خاصّة: هناك من بينها ألعابٌ كبيرةٌ جدّاً وتشبه كثيراً الأطفال الحقيقيين.

نظرت مادلين إلى صور الكتالوغ ووجدتها مزعجة: كانت الدمى

المصنوعة من الكاوتشوك مذهلة في الحقيقة بحجمها وبوضوح ملامح وقسمات وجهها. كانت بعيدة عن الدمى المصنوعة من مركّبات السيلولويد في فترة طفولتها.

- لماذا تُطلعني على هذه؟ ما هي نظريتك الملعونة في هذه أيضاً؟

- لم يكن جوليان مَن طعنته بياتريز مونيوز. كانت مجرّد دمية أُلبسَت ثياب الصبي الصغير.

6.

نظرت إليه مادلين، مستاءةً، ثمّ قالت:

- أنت تَهذي، يا كوتانس.

حافظ غاسبار على هدوئه، وقدّم حججه بكلّ ثقة بالنفس:

- لم تكُن لدى مونيوز النيّة أبداً لقتل جوليان. كانت تستهدف الزوجين لورينز. كان حقدها الناجم عن كونها عشيقة مخدوعة منصبّاً على شون وبينيلوب، وليس على طفلٍ بريء. لقد قامَت بتشويه بينيلوب لتُدفعها ثمن جمالها الوقح، وقامت باختطاف جوليان لتُرهب شون، وقامت بإيذائه لتحرق قلب بينيلوب، ولكنني أكاد أكون متأكّداً من أنّها لم تقتله.

- وبالتالي، بالنسبة إليك، هل اكتفت بهذه التمثيلية المرعبة: طعن دمية أمام أنظار أمّه؟

- نعم، لقد كان ذلك سلاحها في التعذيب النفسي لبينيلوب.

- هذه فكرة عبثية. لو كان ذلك صحيحاً، لاكتشفت بينيلوب الفرق بين ابنها ودمية.

- ليس بالضرورة. تذكّري العنف الذي تعرّضت له. لقد تلقّت

عدّة جولات من الضربات العنيفة للغاية. لقد شُوِّهَ وجهها وكُسِرَت أضلاعها وحُطِّم أنفها وثُقِبَ صدرها. . . كانت الدماء والدموع تملأ عينيها. كيف يمكن لها أن ترى بوضوحٍ بعد كلّ هذا؟ وأيّ بصيرة ورؤية ثاقبة بعد أن ظلّت مكبّلة لساعات والأشواك المعدنية للأسلاك الشائكة تنهش جسدها؟ أيّ درجة من التمييز تبقى لديها حينما تغوص في بولها وبرازها وينزف دمها؟ والأنكى من كلّ هذا، يتمّ إرغامها على بتر إصبع طفلها؟

قبلت مادلين الاعتراض، بدافع المجاملة فقط:

- لنقبل لعشر ثوانٍ أنّ بينيلوب لم تكن لديها الأفكار الواضحة وأنّها قد أبرزت خوفها الأعمق وصدّقت هذه التمثيلية الرهيبة. لماذا لم يكُن الطفل في مخبأ المرأة التشيلية حينما داهمت الشرطة المكان؟ والسؤال الأهمّ هو: لماذا تمّ العثور على الدمية وعليها آثار دماء الصبي على ضفاف نهر نيوتاون كريك؟

- بالنسبة إلى الدم، الأمر سهلٌ وبسيط. أذكّركِ بأنّه كان قد تمّ بتر إحدى أصابعه. بالنسبة إلى ما تبقى. . .

عاد غاسبار إلى المقالة التي كانت تتحدّث عن تقارير الشرطة.

- إذا ما صدّقتُ ما هو مكتوبٌ هنا، لقد عثرت كاميرا مراقبة على أثر مونيوز في الساعة الثالثة وستّ وعشرين دقيقة من بعد الظهيرة، في محطّة هارلم-الشارع رقم 125، تماماً قبل أن تلقي بنفسها على السكّة لدى وصول القطار. بين الساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة -المرّة الأخيرة التي وجدت فيها بينيلوب ابنها على قيد الحياة- والساعة الثالثة وستّ وعشرين دقيقة من بعد الظهيرة، استطاعت مونيوز أن تفعل أيّ شيءٍ بالطفل. كأن تحتجزه في مكانٍ ما، أو تودعه عند شخصٍ ما. وهذا ما علينا أن نعثر عليه.

تأمّلت مادلين في كوتانس في صمت. كان الكاتب المسرحي يُرهقها بنظرياته الجنونية. فركت عينيها، وبمساعدة شوكةٍ، التقطت قطعة كروكيت بالجبن من علبة الطعام.

واصل غاسبار تقديم حججه من دون كللٍ أو ملل:

- لستِ الشرطية الوحيدة التي سعى شون لورينز إلى مقابلتها. مؤخّراً، كان شون قد التقى بعد زمنٍ طويل بأحد أصدقائه القدامى، والذي يُدعى أدريانو سوتومايور.

قلب غاسبار صفحات دفتره إلى أن وقع على صورة الرجل اللاتيني وهو في الزيّ الرسمي لشرطة نيويورك، الصورة التي كان قد اقتطعها من مجلة **أميركان آرت** وألصقها مقابل صورة له في مرحلة الشباب حينما كان العضو الثالث في مجموعة **صنّاع الأسهم النارية**.

سخرت منه مادلين، في غيظٍ وانزعاج:

- ماذا تعتقد؟ هل تعتقد أن تحقيقاً للشرطة يجري بهذه الطريقة؟ من خلال قراءة الصحف بهدوء، ومن خلال إجراء عمليات قصّ ولصق صور ومقالات؟ يبدو دفترك وكأنّه دفتر نصوص تلميذٍ مدرسي!

من غير مبالاة، ردَّ غاسبار مهادناً:

- صحيحٌ أنني لستُ شرطياً ولا شكّ أنني لا أُجيد إجراء تحقيقٍ، ولهذا السبب أريدُ أن تساعديني.

- ولكن كلّ ما ترويه لي هو خياليٌّ بالكامل!

- كلا، يا مادلين، هذا ليس صحيحاً، وأنتِ تعلمين ذلك. كفّي عن سوء نيتكِ. ربّما كان لورينز غارقاً في الألم، لكنّه لم يكن معتوهاً. إذا كان قد جاء إلى نيويورك لكي يقابلكِ، فذلك لأنّه كان قد اكتشف دليلاً جديداً، اكتشف شيئاً ملموساً.

ساد الصمت. ومن ثمّ تنهّدت مادلين.

- لماذا قابلتُك، يا كوتانس؟ لماذا جئت تُضايقني حتى في هذا المكان؟ هذا ليس الوقت المناسب فعلاً، اللعنة...

- تعالي معي إلى نيويورك. الأجوبة موجودةٌ هناك! دعينا نطلب المساعدة من سوتومايور ولنستأنف التحقيق على الأرض. أريد أن أعرف ما اكتشفه شون لورينز. أريدُ أن أعرف لماذا كان يرغب في التحدّث إليكِ.

تهرّبت مادلين من الموضوع:

- اذهَبْ إلى هناك لوحدك، لا حاجة لك بي.

- قبل دقيقتين فقط، كنتِ تقولين عكس هذا! أنتِ شرطية متمرّسة ومُخضرمة، وتعرفين المدينة جيّداً، ولا شكّ أنّ لكِ علاقات مع شرطة نيويورك أو مع مكتب التحقيقات الفيدرالي.

لاحظت مادلين، وهي ترشف رشفةً من الشاي، أنّها لا تزال تحتفظ في معصمها بالسوار البلاستيكي الخاصّ بمرضى المستشفى. نزعته من معصمها ولوّحت به أمام كوتانس في محاولةٍ منها لإقناعه بالعدول عن رأيه.

- أنت ترى، يا غاسبار، أنّ حياتي قد بدأت تسلك اتجاهاً مختلفاً تماماً. لقد خرجتُ من عملية طبية، وعليّ أن أخضع لعملية أخرى عمّا قريب، وأنا أتهيّأ لتأسيس أسرة...

وضع الكاتب المسرحي هاتفه على الطاولة. على الشاشة، كانت هناك رسالة إلكترونية واردة من كارن ليبرمان تؤكّد الحجز لشخصين في رحلة لشركة أيبيريا للطيران تنطلق في اليوم نفسه. الإقلاع من مدريد في الساعة الثانية عشر وخمس وأربعين دقيقة،

والوصول إلى مطار جون كينيدي في الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة من بعد الظهيرة.

- إذا ما انطلقنا في الحال، يمكننا اللحاق بالرحلة. وسوف تعودين قبل يوم 26 ديسمبر، تماماً في الوقت المناسب لعمليتكِ الثانية.

رفضت مادلين اقتراحه بهزّة من رأسها. لكن غاسبار ألحّ عليها:

- لا شيء يمنعكِ من المجيء معي. هناك يومان ليس لديكِ ما تفعلينه فيهما. حتى في مدريد، لا يتمّ إجراء العمليات الجراحية في يوم عيد الميلاد.

- عليّ أن أرتاح لبعض الوقت.

- تبّاً لكِ، أنتِ لا تفكّرين إلّا في نفسكِ!

كانت هذه العبارة هي القشّة التي قصمت ظهر البعير. فقد ضربت مادلين بصينية وجبة الطعام على وجهه. حظي غاسبار بالوقت الكافي لكي يتحاشى المقذوف الذي تحطّم على البلاط الخزفي للأرضية خلفه.

انفجرت غاضبةً:

- بالنسبة إليك، كلّ هذه الحكاية مجرّد لعبة! إنّها تحثّك على البحث والتحقيق، وتُضفي الإثارة على حياتك البسيطة، وتعطيكَ الإحساس بأنّك بطل فيلم سينمائي. أمّا أنا، فعلى مدى عشر سنوات، قمتُ بالتحقيقات في هذا النمط من القضايا، بل إنّها كانت كلّ حياتي. وسوف أقول لك: إنّها الطريق نحو الهاوية. في كلّ تحقيقٍ تنخرط فيه، تفقد جزءاً إضافياً من صحّتك، من بهجتك في العيش، من طيشك ولامبالاتك. إلى أن تحين اللحظة التي لا تعود تملك فيها أيّ شيء. هل تسمعني؟ لا تعود تملك أيّ شيء! تستيقظ

ذات صباح وقد تحطَّمتَ تماماً. لقد سبق لي أن عشتُ هذه التجربة، ولا أرغب في أن أعيشها من جديد.

تركها غاسبار تُنهي حديثها، ثمّ لملم أغراضه.

- حسناً، لقد عرفت موقفكِ جيّداً. لن أضايقكِ بعد الآن.

كان الرجل الدبّ قد خرج من وكره مزمجراً. ناوله غاسبار ورقتين نقديتين لثنيه عن إبراز مخالبه. ثم توجّه نحو الباب. ظلّت مادلين تراقبه. كانت تعلم بأنّه ليس أمامها سوى أن تنتظر لعشر ثوانٍ إضافية حتى تنتهي محنتها. ومع ذلك، لم تستطِعْ الامتناع عن الصراخ فيه:

- ولكن لماذا تفعل هذا، بحقّ الجحيم؟ أنت الذي تستهتر بكلّ شيء، أنت الذي لا تحبّ الناس، الذي لا تحبّ الحياة، ما الذي يجعلك تتدخّل في هذه الحكاية وتوليها كلّ هذا **الاهتمام**؟

عاد كوتانس أدراجه ووضع صورةً على الطاولة. كانت صورة للطفل جوليان على مزلجة التُقِطَت ذات صباحٍ شتوي في ساحة البعثات الأجنبية. كان مجرّد طفل، ملفوفٍ بوشاحٍ، له نظرة لامعة وحالمة، وعلى شفتيه ابتسامة. كان جميلاً مثل الشمس وطلقاً مثل الهواء.

رفضت مادلين أن تتناقش في أمر الصورة. قالت:

- ربّما تعتقد أنّك سوف تجعلني أشعر بالذنب من خلال فخّك الفظّ.

ومع ذلك، سالت دمعةٌ على وجهها. كانت تعاني من قلّة النوم، ومن الإنهاك، والشعور بأنّها على حافة الانهيار العصبي.

أمسك غاسبار بذراعها بلطف. كانت كلماته تحمل من الحضّ والتحفيز بقدر ما كانت تحمل توسّلاً، وهو يقول:

- أعرف ما تفكّرين فيه. أعرف أنّكِ متأكّدة من موت جوليان، ولكن ساعديني فقط على أن أقتنع أنا أيضاً بذلك. أطلب منكِ أن تكرّسي يومين فقط من وقتكِ لأجل التحقيق، ولا لحظة واحدة أكثر من ذلك. وأقسم لكِ على أنّكِ سوف تعودين إلى مدريد لإجراء عمليتكِ الثانية.

فركت مادلين وجهها ونظرت عبر زجاج الواجهة. من جديد، كانت السماء قد اكفهرّت وعاود المطر الهطول. من جديد، أصاب الحزن كلّ شيء بالعدوى: السماء، وقلبها، ورأسها. في أعماق نفسها، لم تكن لديها أيّ رغبة في البقاء لوحدها خلال عيد الميلاد اللعين هذا، الذي من المفترض أن يكون المرء فيه سعيداً، ومغرماً، ومع عائلته. كان كوتانس يمتلك على الأقلّ هذه الميزة في كونه الداء والدواء في آنٍ واحدٍ.

انتهت مادلين إلى الرضوخ لطلبه، فقالت:

- سوف أرافقك إلى نيويورك، يا كوتانس، ولكن أيّاً كانت نهاية هذه القضية، في نهاية هذين اليومين، لا أريد أن أراك مرّة أخرى أبداً في حياتي.

ردّ، وهو يُفرِج عن ابتسامةٍ:

- أعدكِ بذلك.

14

نويفايورك(*)

نزلتُ من سيارة الأجرة وكانت هذه على الأرجح المدينة الوحيدة التي كانت أفضل ممّا تظهر في البطاقات البريدية.

ميلوس فورمان

1.

تنفّس غاسبار من جديد.

كانت مدينة نيويورك، المتجمّدة بفعل بردٍ قطبي، تتوهّج تحت سماءٍ ساطعة. بدت المدينة مختلفة جدّاً عن باريس الحزينة ومدريد المكفهرّة. ما أن اجتازت سيارة الأجرة التي كانت تقلّهما جسر ترايبورو -الجسر الفولاذي العملاق الذي يربط بين كوينز وبرونكس ومانهاتن- أحسّ غاسبار أنّه في أرضٍ يعرفها من قبل. غاسبار، رجل الغابات والجبال الذي يكره التجمعات الحضرية، لطالما أحسّ بالارتياح في هذا المكان. كانت الاستعارات المجازية الساحرة من قبيل الأدغال الحضرية وغابة ناطحات السحاب والأودية الزجاجية

(*) Nueva York: نيويورك باللغة الإسبانية. -المترجم-

والفولاذية تمتلك بعض الحقيقة. كانت نيويورك نظاماً إيكولوجياً. توجد في هذه المدينة تلالٌ وبحيراتٌ ومروجٌ ومئات الآلاف من الأشجار. هنا، بالنسبة إلى من يريد أن يرى ذلك، هناك نسورٌ لها رأسٌ أبيض، وصقورٌ زائرة، وإوز الثلج، وغزلانٌ. هناك قممٌ، وقطعانٌ، وقفارٌ، وخلايا النحل، والراكون(*). هنا كانت الأنهار تتجمّد في الشتاء، وفي الخريف، كان الضوء يُبهر ويُشعل أوراق الشجر. في هذا المكان، يشعر المرء تماماً، في ظلّ الحضارة، أنّ العالم المتوحش ليس بعيداً أبداً. نيويورك...

كان ارتياح غاسبار يتعارض مع مزاج مادلين المتعكّر. كانت قد نامت نوماً مضطرباً ومؤلماً طيلة رحلة الطيران، ومنذ أن هبطا في المطار، لم تكن تردّ على أسئلة غاسبار إلّا بعبارات مبهمة. كانت، وهي متجهّمة الوجه، ومنقبضة الفكين، وشاردة النظر، غارقة في أفكارها ولا تزال تتساءل كيف استطاعت أن تُذعن وتتورّط في هذه الرحلة.

بفضل سحر الاختلاف في التوقيت، لم تكُن الساعة قد بلغت بعد الرابعة والنصف من بعد الظهيرة. استطاعت سيارة الأجرة أن تنسلّ من عقدة أوتوستراد ترايبورو بلازا لكي تلتفّ على جادّة ليكسينغتون. بعد أن نزلا الشارع لمسافة خمسمئة متر، وصلا إلى أمام مفوضية الشرطة في إيست هارلم، وهي عبارة عن مبنى قديم من القرميد الأصفر المتّسخ، على الشارع رقم 119، بجانب المترو العلوي وموقف للسيارات. ولأنّ غاسبار ومادلين قد جاءا مباشرةً من

(*) حيوان ثديي آكل للحوم يستوطن أنحاء متفرقة من الولايات المتحدة وجنوب كندا. -المترجم-

المطار، فقد نزلا من سيارة الأجرة صفراء اللون ويحمل كلّ منهما حقيبة السفر خاصّته.

داخل مفوضية الدائرة رقم 25 يشبه خارجها: بلا روح، وباعث على القلق والاكتئاب. وكان غياب النوافذ فيها يعمّق من كآبة المبنى. بعد المكالمة الهاتفية الملحمية التي كان غاسبار قد أجراها في الليلة السابقة، كان قد أعدّ نفسه لمواجهة أسوأ الاحتمالات: أن يتحمّل عناء الوقوف في رتلٍ طويلٍ للانتظار وأن يجتاز العديد من الحواجز الإدارية قبل أن يحظى بفرصة مقابلة أدريانو سوتومايور والتحدّث معه. ومع ذلك، وقبل يومين من حلول عيد الميلاد، كان المكان مقفراً، كما لو أنّ موجة البرد التي تضرب المدينة قد ثبّطت عزيمة المجرمين على الخروج من بيوتهم. كان رجل شرطة، مرتدياً زيّه الرسمي، ويجلس خلف طاولة معدنية سوداء اللون، مكلّفاً باستقبال الزائرين. كان للشرطي المُراقب، وهو عبارة عن جبلٍ من الشحوم غارقٍ في الزي الرسمي للخدمة، جسم بزّاقة ويدان صغيرتان ورأس ضفدعٍ: وجهٌ ضخمٌ مثلّث الشكل، وفمٌ واسعٌ بطريقة غير متناسبة، وجلدٌ سميكٌ ومغطّى بالندوب. ربّما كان قد تمّ تعيينه في هذه الوظيفة لكي يبثّ الرعب في نفوس الأطفال ويثنيهم عن سلوك طريقٍ خاطئ.

تقدّم غاسبار نحو الشرطي في مكتب الاستقبال، وحيّاه:

- صباح الخير، نودّ أن نتحدّث إلى الضابط سوتومايور.

ببطءٍ شديد، ناولهما الرجل الشبيه بالضفدع استمارة، وأفهَمَهما، بصوتٍ يشبه النعيق، بأنّه بحاجة إلى بطاقتيهما الشخصيتين.

كانت مادلين قد اعتادت على الإجراءات التي تتّبعها مفوضيات الشرطة، ولذلك أبت أن تُضيّع المزيد من الوقت، ودفعت غاسبار

جانباً لكي تُمسِك بزمام الأمور. قالت وهي تمدّ بجواز سفرها نحو الشرطي:

- أنا النقيب غرين. لقد عملتُ في شرطة نيويورك، في قسم القضايا الباردة في الشارع رقم 103. جئتُ فقط لكي أزور زميلاً لي هنا في المفوّضية. هذا الأمر لا يحتاج إلى إجراءات ورقية!

حدّق فيها الشرطي المُراقب لبرهةٍ من دون أن يتحرّك. لم يفتح فمه وأعطى الانطباع بأنّه كان يتنفّس من جلده المترهّل والرطب والمرتعش. قال بصوتٍ فيه صفيرٌ وهو يرفع سمّاعة هاتفه:

- لحظة واحدة.

بحركةٍ خفيفةٍ من رأسه، أشار إلى صفٍّ من المقاعد الخشبية المصفوفة بالقرب من المدخل. جلس غاسبار ومادلين عليها، لكنّ المكان كان يعبق برائحة ماء الجافيل ويهبّ عليه تيارٌ هوائي بارد. توتّرت مادلين وحاولت أن تلجأ إلى جانب آلة لتوزيع المشروبات. انتابتها الرغبة في أن تطلب لنفسها فنجاناً من القهوة، لكنّها اكتشفت أنّها لم تكن قد حظيت بالوقت الكافي لكي تحوّل بعض اليوروهات إلى دولارات، في المطار.

تبّاً!

أحسّت بخيبة أمل وزاد توتّرها، ضغطت على قبضتها لكي توجّه ضربة للموزّع الآلي للمشروبات. أوقف غاسبار حركتها، في اللحظة الأخيرة.

- لقد فقدتِ السيطرة على نفسكِ! تمالكي أعصابكِ وإلّا . . .

- صباح الخير، ما الذي يمكنني أن أساعدكما فيه؟

2.

التفتا باتجاه الصوت الذي خاطبهما. وسط الإنارة الخافتة للمفوضية، أظهرت لهما شرطيّة شابّة من أصولٍ لاتينية في زيّها الرسمي وجهاً بشوشاً وقد لفّت شعرها الأسود الفاحم على هيئة كعكة. كان صباها، وقسمات وجهها الرقيقة، ومكياجها الخفيف، وابتسامتها اللطيفة، كان كلّ ذلك يجعل منها نوعاً من تجسيد الأناقة والنقيض التامّ للشرطي المُراقب. بهذه الطريقة، وفي سبيل الاستجابة لنظامٍ غير عادلٍ للأشياء، يعوّض كمال بعض الناس بشاعة آخرين منهم.

عرّفت مادلين بنفسها وأحجمت عن ذكر المناصب السابقة التي كانت قد شغلتها. قالت:

- نتمنّى أن نتحدّث إلى الضابط سوتومايور.

- أنا هي: أنا لوسيا سوتومايور.

قطّب غاسبار حاجبيه. أمام هيئته المندهشة، بدت الشرطية أنّها فهمت أنّ هناك سوء تفاهم.

- آه! لا شكّ أنّكما تتحدّثان عن أدريانو، أليس كذلك؟

- فعلاً.

- لنا الكنية نفسها. هذه ليست المرّة الأولى التي يحدث فيها هذا الالتباس. حتى حينما كان يعمل هنا، كان الناس يعتقدون أنّه شقيقي الأكبر أو ابن عمّي.

حدّقت مادلين في كوتانس، وألقت عليه نظرة ساخطة: **لم تكن حتى قادراً على التحقّق من هذا الأمر!** باعَدَ غاسبار بين ذراعيه في إشارةٍ إلى عجزه. حينما تحدّث إلى المفوضية عبر الهاتف، لا شكّ أنّه تحدّث باللغة الإنجليزية، مستخدماً الصيغة المحايدة (الضابط

سوتومايور)، وفي الواقع، لم يكن أحدٌ مضطرّاً لأن يُبيّن له تصوّره الخاطئ.

سأل في محاولةٍ منه لتدارك خطئه:

- وأين يعمل سوتومايور في الوقت الحالي؟

رسمت الشرطية الشابة الصليب بحركة سريعة.

- ليس في أيّ مكان، لسوء الحظّ. لقد مات.

تبادل غاسبار ومادلين النظرات من جديد. تنهّدا، غير مصدّقين ما سمعاه، وهما في حيرةٍ من أمرهما.

- ومتى مات؟

- قبل أقلّ من عامين بقليل. أتذكّر ذلك لأنّه كان يوم القديس فالنتاين.

نظرت لوسيا إلى ساعة يدها وأدرجت قطعتين نقديتين من فئة ربع دولار في الموزّع الآلي للمشروبات لتطلب لنفسها كوباً من الشاي.

- هل أقدّم لكما شيئاً تشربانه؟

كانت الشرطية الشابّة على صورة مظهرها الجميل: أنيقة وودودة. وافقت مادلين على فنجان من القهوة.

استأنفت الحديث وهي تناول فنجاناً لزميلتها السابقة:

- كان موت أدريانو صدمة حقيقية. كان الجميع هنا يكنّون له التقدير والإعجاب. كانت له مسيرة نموذجية تعتزّ المديرية بها.

سأل غاسبار:

- ما معنى ذلك؟

نفخت الشرطية على كوب الشايّ، وأوضحت:

- لنقُل إنّه نجح بفضل كفاءاته ليس إلا. في طفولته، مرّ أدريانو

على العديد من العائلات المُضيفة. لا بل مرّ لبعض الوقت في مرحلة من الجنوح قبل أن يستعيد توازنه ويدخل في سلك الشرطة.

سألت مادلين:

- هل مات في أثناء ممارسته للخدمة؟

- ليس تماماً. لقد تلقّى طعنة سكينٍ، بالقرب من بيته، بينما كان يريد فضّ الاشتباك بين شابّين كانا يتعاركان أمام متجرٍ للمشروبات الروحية.

- أين كان يسكن؟

أفرجت عن حركةٍ من يدها لكي تشير إلى الباب.

- ليس بعيداً جدّاً من هنا، في شارع بيلبيري.

- هل تمّ توقيف قاتله؟

- كلا، وهذا الأمر أثار استياء كلّ العاملين في سلك الشرطة. أن نعرف أنّ القاتل الذي جزّ رقبة رجلٍ في الشرطة لا يزال طليقاً، يجعلنا نتألم ونحزن.

- هل تمّ تحديد هويّته على الأقل؟

- بحسب علمي، لم يتمّ ذلك حتى الآن! إنّها حقّاً فاجعة أثارت امتعاضاً شديداً. خاصّة في حيّنا! حتى أنّ براتون[1] بنفسه غضب غضباً شديداً. وقد عفى الزمن على هذا العنف واختفى تماماً، فاليوم، هذا الجزء من هارلم بات آمناً جدّاً.

أنهت لوسيا كوبها من الشاي كما لو أنّها كانت تشرب قدحاً من الفودكا.

---

(1) بيل براتون: القائد التاريخي لشرطة نيويورك من عام 1994 ولغاية عام 1996، ومن عام 2014 ولغاية 2016.

- يجب عليّ أن أعود إلى عملي. أنا آسفة على أنني نقلتُ إليكما خبراً محزناً كهذا.

ألقت بكوبها الورقي الفارغ في الحاوية قبل أن تُضيف:

- لم أسألكما حتى عن السبب الذي يجعلكما ترغبان في التحدّث إلى أدريانو.

أجابت مادلين:

- كنّا نودّ التحدّث إليه بشأن تحقيقٍ قديم. بشأن اختطاف وقتل ابن الرسّام شون لورينز، هل تعلمين شيئاً عن هذه الحادثة؟

- أعرف عنها بشكلٍ مبهم، ولكنّها لم تكُن في نطاق قطاعنا، على ما أعتقد.

أكمَلَ غاسبار الحديث:

- كان أدريانو سوتومايور صديقاً للورينز. ألم يحدّثك أبداً عن هذه القضية؟

- كلّا، ولكن بما أنّنا لم نكن نعمل ضمن الفريق نفسه، فلا غرابة في ذلك.

التفتت لوسيا نحو مادلين، قبل أن تُضيف:

- وفي عمليات اختطاف الأطفال، كما تعرفين ذلك، غالباً ما يتولّى مكتب التحقيقات الفيدرالي التحقيق فيها.

3.

كان البرد والريح الصقيعية يخدّران أعضاء الجسم ويقرصان الوجه ويحرقان تقريباً كلّ سنتيمترٍ مربّعٍ من الجلد غير المحمي. على الرصيف المقابل لمقرّ مفوّضية الشرطة، رفعت مادلين سحّاب السترة التي كانت قد اشترتها في اللحظة الأخيرة من متجر في مطار مدريد.

كانت قد دهنت يديها بمرهمٍ وطَلَتْ شفتيها بمرطّبٍ وعقدت وشاحها في لفّتين حول رقبتها. كانت في مزاجٍ سيئ للغاية، ولذلك لم تنتظر طويلاً لكي تتهجّم على غاسبار من دون سابق إنذار:

- أنت غبيٌّ حقيقي، يا كوتانس!

تنهّد غاسبار، ويداه في جيبيه، قبل أن يردّ بهدوء:

- وأنتِ لطيفة دائماً معي.

غطّت رأسها بقبعة سترتها، ذات الحواف المصنوعة من الفراء.

- لقد قطعنا ستة آلاف ميلٍ لكي نعود بخفّي حنين!

حاول أن ينفي الحقيقة الحتمية:

- كلّا، ليس تماماً.

- لم نشاهد الفيلم نفسه، إذاً.

صاغ غاسبار فرضيةً:

- وماذا لو أنّ سوتومايور قد قُتِل لأنّه كان يهتمّ من كثب بحادثة اختطاف جوليان؟

نظرت مادلين إليه، بذهولٍ واستياء:

- هذا عبثٌ. سأعود إلى الفندق.

- بهذه السرعة؟

قالت، متنهّدةً:

- أنت تنهكني. لقد نابني الكثير من نظرياتك التافهة والسخيفة! سوف أذهب لأنام. أعطني ثلاثين دولاراً!

تقدّمت على الرصيف لكي تحاول أن توقف سيارة أجرة. فتح غاسبار محفظته وسحب منها ورقتين نقديتين وهو يصرّ على موقفه:

- ألا يمكنكِ أن تقومي بمحاولةٍ بشأن مقتل سوتومايور؟

- لا أظنّ أنّ ذلك سيحصل.

- هيّا! لا بدّ أنّكِ قد احتفظتِ ببعض العلاقات.

حدّقت فيه بعينيها البرّاقتين بمزيجٍ من الغضب والتعب المفرط.

- لقد سبق لي أن شرحتُ لك، يا كوتانس: لقد قدتُ التحقيق في قضايا في إنجلترا. في نيويورك، لم يكن لي أيّ دورٍ فعليٍّ على الأرض. كنتُ شرطية أعمل في أعمالٍ مكتبية.

كانت أسنانها تصطكّ، وترتعش بكامل أوصالها، وهي تراوح في مكانها في محاولةٍ منها لبثّ بعض الدفءِ في جسدها. كانت تشعر بأنّ برودة غاسبار تنتقل إلى جسمها.

توقّفت سيارة من طراز فورد إسكيب فجأةً أمامهما. لجأت مادلين إلى سيارة الأجرة حتى من دون أن تلقي نظرة على مرافقها وسارعت إلى إعطاء عنوان الفندق للسائق. انكمشت على نفسها، متصالبة الذراعين، ولكن بعد أن سارت السيارة لبضعة أمتار، صاحت في السائق، وهو رجلٌ هندي كان مصرّاً على أن يسير ونافذة السيارة مفتوحة، على الرغم من البرد الشديد. لكن الرجل السيخي لم يستسلم ودخل في مجادلة استمرّت لما يقارب خمس دقائق قبل أن يحسم أمره في رفع زجاج نافذته. أغمضت مادلين عينيها. كانت محبطة، ومنهكة، وفارغة من كلّ نسغ. بخاصّة وأنّها عانت من جديد من آلامٍ حادّة في بطنها. كانت تحسّ بالانتفاخ وبتشنّجاتٍ في المعدة، وبغثيانٍ، ورغم البرد، أحسّت بنفحاتٍ مزعجة من الحرارة.

حينما فتحت عينيها، كانت سيارة الأجرة تسير في جادّة ويست سايد، الجادّة الواسعة التي تمتدّ على طول نهر هودسون حتى جنوب مانهاتن. نبشت في أحد جيوب سترتها لكي تمسك بهاتفها

المحمول. وفتّشت في قائمة الأسماء عن رقمٍ لم تعد تتّصل به منذ زمنٍ طويل.

في الفترة التي كانت تعمل في نيويورك، كان دومينيك وو صلة وصلها مع مكتب التحقيقات الفيدرالي. كان الرجل مكلّفاً بإقامة الصلة بين مديرية شرطة نيويورك التي كانت مادلين تخدم فيها والمكتب الفيدرالي. على وجه التحديد، كان «السيد لا»، الرجل الذي كان يردّ سلباً على كلّ طلباتها. في معظم الأحيان، كان ذلك لأسبابٍ تتعلّق بتقليص الميزانية، ولكن أيضاً لكي يتجنّب أن يمسّ قسم الشرطة بعمل المكتب الفيدرالي.

لم يكن الرجل فظّاً. كان دومينيك وو دقيقاً في عمله ومهنيّاً للغاية، ولكنّه كان أيضاً قادراً، في بعض الأحيان، على أن يتّخذ قراراتٍ غير متوقّعة. كانت حياته الخاصّة غير نمطية: بعد أن أنجب طفلين من علاقته مع محامية في سيتي هال، أعلن عن مثليته. في آخر مرّة التقته مادلين، كان على علاقةٍ مع صحافيٍّ في القسم الثقافي في صحيفة **فيليج فويس**.

- صباح الخير، يا دومينيك، أنا مادلين غرين.

- مرحباً، يا مادلين! يا لها من مفاجأة! هل عدتِ إلى العمل؟

- لفترةٍ وجيزةٍ فقط. وأنت؟

- أنا في عطلةٍ، ولكنني أقضي الأعياد في نيويورك مع ابنتيّ.

مسّدت مادلين جفنيها. كانت أدنى كلمة تكلّفها الكثير.

- أنت تعرفني، يا دومينيك، كنتُ أواجه على الدوام صعوبة مع التُرّهات المألوفة و...

سمِعَتْه يضحك على الطرف الآخر من الخطّ.

- دعكِ من عبارات المجاملة. ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلكِ؟

- كنتُ في حاجةٍ إلى أن تُسدي خدمة لي.

ساد صمتٌ حذر، ثمّ قال دومينيك:

- أنا لستُ في المكتب، كما أخبرتكِ.

ومع ذلك، تابعت مادلين قولها:

- هل سيمكنك أن تضعني في صورة ظروف مقتل شرطي في الدائرة رقم 25، يُدعى أدريانو سوتومايور؟ كان قد قُتلَ أمام منزله، في هارلم، قبل أقلّ من عامين بقليل.

- عمّا تبحثين بالتحديد؟

- كلّ ما قد يمكنك العثور عليه.

أبدى دومينيك تحفّظاً:

- لم تعودي تعملين معنا، يا مادلين.

- لا أطلب منك معلومات سرّية.

- إذا ما حقّقتُ في الأمر، سوف يترك ذلك آثاراً و...

بدأ الرجل يزعجها بتحفّظه.

- هل أنتَ جادّ في ما تقول؟ ألهذا الحدّ يُخيفك هذا الأمر؟

- اليوم، مع تكنولوجيا المعلومات، نحن...

- حسنٌ، دعك من هذا واطلب لنفسكَ زوجاً من الخصى لعيد الميلاد. في مثل هذا الوقت من السنة، لا بدّ أنّ متاجر بلومينغديلز تقدّم تنزيلات أسعار.

أغلقت سمّاعة الهاتف بعنف، وعادت من جديد إلى خمولها. بعد عشر دقائق، وصلت إلى الفندق، وهو عبارة عن مبنى من القرميد البني الشائع في حيّ ترايبيكا. كان غاسبار قد ذهب إلى حدّ

حجز غرفة في فندق بريدج كلوب، المكان الذي كان لورينز قد أمضى فيه أيامه الأخيرة. في مكتب الاستقبال، تم إخبارها بأنّ الفندق ممتلئ ولا غرف شاغرة فيه، ولكن هناك غرفتان محجوزتان باسم كوتانس: جناحٌ كبير يقعُ في الزاوية، وغرفة صغيرة في الطابق الأخير من الفندق. اختارت لنفسها الجناح من دون أدنى تردّد، فأخرجت جواز سفرها وملأت استمارة المعلومات خلال ثلاث دقائق.

ما أن أصبحت في الغرفة، وحتى من دون أن تلقي نظرة على المناظر المحيطة من خلال النوافذ، أسدلت كلّ الستائر وعلّقت لوحة «عدم الإزعاج» على الباب، وابتلعت مزيجاً من المضادات الحيوية والمسكّنات والباراسيتامول.

أطفأت مادلين، وهي تتلوّى من نوبة ألمٍ شديد، الضوء واضطجعت في السرير. من حيث عدد ساعات النوم، كانت الليالي الأخيرة كارثية عليها، وقد بلغت من جرّائها إلى مرحلة كان جسمها المجروح والمنهك يعيقها عن كلّ تفكير. كان من المستحيل أن تفكّر، أن تتصوّر، أن تحرّك أيّ فكرة في ذهنها.

كان جسمها قد قال كلمته الأخيرة.

15

عودة إلى شارع بيلبيري

ستكون للرجال الآخرين عيوبي، لكن
لا أحد منهم سيمتلك محاسني.

بابلو بيكاسو

.1

استعاد غاسبار قواه وحيويته، مثل شتلة تتمّ سقايتها بعد أيامٍ من بقائها من دون ماء.

كان ذلك بفضل نبض مانهاتن، وإيقاع حركتها، والبرد القارس والجافّ، واللون الأزرق المعدني لسمائها، وشمس الشتاء التي كانت ترسل آخر أشعّتها. كان كلّ شيء يتردّد في داخله بطريقة إيجابية. لم تكن تلك المرّة الأولى التي يلاحظ فيها كم أنّ حالته النفسية تتأثّر بمحيطه البيئي، فالمناخ، على نحوٍ خاصّ، يؤثّر فيه ويُكيّفه ويتحكّم بمزاجه، ويمكن للمطر والرطوبة والبلل أن تُغرقه على نحوٍ خطير، ويمكن لموجةٍ من الحرارة أن تصعقه. كان عدم الاستقرار هذا يُعقّد حياته، ولكن مع مرور الوقت، عقد العزم على أن يعيش حياته بتقلّباتها المختلفة.

هذا اليوم كان يوماً ممتازاً بالنسبة له. يومٌ من الأيام التي تُحسَب بيومين أو ثلاثة. كان عليه أن يستغلّه لكي يُحقّق تقدّماً في التحقيق الذي يجريه.

حدّد توجهه بفضل الخريطة القديمة التي عثر عليها في مكتبة لورينز. سلك الطريق نحو اليمين في شارع ماديسون قبل أن يلتفّ على مساحة خضراء واسعة -حديقة ماركوس غارفي- ومن ثمّ يتقدّم في جادّة لينوكس التي تُسمى، في هذا الجزء من هارلم، جادّة مالكولم إكس.

في زاويةٍ من الشارع، اشترى شطيرة هوت دوغ وفنجاناً من القهوة من بائعٍ متجوّل وتناولهما، ومن ثمّ واصل سيره نحو الشمال.

كان شارع بيلبيري، الذي قُتِلَ فيه أدريانو سوتومايور، عبارة عن زقاقٍ مكتظٍّ ببيوت مبنية من قرميدٍ أحمر اللون، وبأشجار الكستناء، محصورٍ بين الشارعين رقم 131 و132. ذكّره المكان بمباني الجنوب القديمة ذات الشرفات الأمامية العالية والكثير من الأسوار والشرفات الخشبية المطلية بألوانٍ فاقعة.

جال غاسبار لعشر دقائق في الشارع المقفر وهو يتساءل كيف سيمكنه العثور على المنزل السابق للشرطي. استعرض الأسماء المكتوبة على صناديق البريد: فاراداي، تومبكينز، لانغلوا، فابيانسكي، مور. . . ، لكنّه لم يعثر على أيّ أثر لاسم سوتومايور.

- انتبه، يا تيو!

- حسنٌ، يا بابا.

التفت غاسبار نحو مجموعة صغيرة وصلت لتوّها إلى الرصيف المقابل. وكما في فيلمٍ لفرانك كابرا، كان أبٌ وابنه يحملان شجرة ميلادٍ كبيرة الحجم، وتسير خلفهما سيّدة خلاسية متكبّرة بعض الشيء

وامرأة سوداء البشرة أكبر سنّاً وترتدي معطفاً مطريّاً شفّافاً، وتنتعل زوجاً من الأحذية الجلدية الطويلة الساقين إلى حدّ الفخذين، لونها أصهب، وقبّعة من فرو الفهد.

ألقى غاسبار التحية عليهم وقال وهو يعبُر الشارع:

- صباح الخير. أنا أبحث عن المنزل السابق للسيّد سوتومايور. هل تعرفون شيئاً عنه؟

كان ربّ الأسرة مهذّباً ولطيفاً ومستعدّاً تماماً لمساعدته، لكنّه بدا أنّه لا يسكن في هذا المكان منذ زمنٍ طويل. التفت نحو تلك التي يُفتَرَضُ أنّها زوجته.

- هل تعرفين شيئاً عن سوتومايور، يا عزيزتي؟

قلّصت المرأة الخلاسية عينيها، وقد بدا عليها أنّها تستدعي ذكريات بعيدة.

قالت وهي تشير إلى بيتٍ صغيرٍ ذي سقفٍ منحدر:

- أعتقد أنّه كان هناك.

سألت المرأة التي كانت تقف إلى جانبها:

- أليس كذلك، يا عمّة أنجيلا؟

نظرت المرأة العجوز إلى غاسبار بشكٍّ وريبة.

- ولماذا سأردّ على هذا الرجل الأبيض؟

أمسكتها المرأة الخلاسية من كتفيها في حركة لا تخلو من المودّة.

- هيّا، يا عمّة أنجيلا، متى ستكفّين عن التظاهر بأنّك شريرة أكثر مما أنتِ عليه فعلاً؟

قالت، مستسلمةً، وهي تعدل نظارتها الشمسية الكبيرة الحجم:

- حسناً، حسناً. كان في المنزل رقم 12، منزل آل لانغلوا.

قال غاسبار، مستنتجاً:

- لانغلوا؟ لهذه الكنية نبرة فرنسية.

الآن وقد أصبحت طليقة في الكلام، لم تبخَل العمّة أنجيلا في تقديم المزيد من التفاصيل، فقالت:

- بعد موت الشرطي، الذي كان بالفعل رجلاً طيّباً، قلّ مثيله، ويمكنك أن تصدّقني في ذلك، ورثت ابنة عمّته إيزابيلا المنزل عنه. وقد تزوّجت أندريه لانغوا، وهو مهندسٌ باريسي يعمل في تشيلسي، في مبنى شركة غوغل. هو مهذّبٌ جدّاً بالنسبة إلى فرنسي: لقد ساعدني لمرّات عديدة في تقليم أشجاري، وحينما يعدّ الطعام، يقدّم لي أحياناً جزءاً من طبقه من لحم الأرنب بصلصة الخردل.

شكر غاسبار العائلة، وسار في الشارع لقرابة خمسين متراً لكي يدقّ باب المنزل الذي تمّت الإشارة إليه. كان منزلاً حجرياً باب مدخله مزيّن بتاجٍ كبيرٍ من أغصان شجرتَي البهشية والتنوب. كانت المرأة التي فتحت له الباب -امرأة من أصول لاتينية ذات شعرٍ كثيف ونظرة مثيرة- ترتدي مريول مطبخٍ من قماشٍ فيشي ذي المربّعات وتحمل بين ذراعيها طفلاً. تشبه الممثّلة إيفا منديز، لكن في نسخة ربّة منزل.

- صباح الخير، يا سيّدتي، يؤسفني أن أزعجكِ. أبحثُ عن المنزل السابق للسيّد أدريانو سوتومايور. لقد قيل لي إنّ هذا هو المنزل.

ردّت بشيءٍ من عدم اليقين:

- ربّما يكون هذا صحيحاً. ماذا تُريد منه؟

اتّبع كوتانس منهجه المعتاد: مواربة الحقيقة، ومقاربة الكذب من دون الغوص فيه تماماً.

- أُدعى غاسبار كوتانس. أنا بصدد كتابة سيرة ذاتية للرسّام شون لورينز. لا شكّ أنّكِ لا تعرفينه، ولكن. . .

قاطعته مالكة المنزل:

- أنا لا أعرف شون؟ لو تعرف عدد المرّات التي حاول فيها أن يتحرّش بي!

2.

كانت شبيهة إيفا منديز تُدعى في الواقع إيزابيلا رودريغيز. وكامرأة مضيافة، لم تنتظر طويلاً حتى دعت غاسبار إلى الدخول لكي يتدفّأ في المطبخ، بل وألحّت على أن تقدّم له كوباً من شراب البيض بلا كحول. الشراب نفسه الذي كان أطفالها الثلاثة يتغذّون عليه في هذا الوقت المتأخر من فترة ما بعد الظهيرة.

قالت موضّحةً، وهي تجلب من الصالون ألبوماً قديماً للصور مغلّفاً بغلافٍ من القماش:

- كان أدريانو ابن خالي من الدرجة الأولى.

قلبت صفحات الألبوم، مستعرضةً على التوالي صوراً من مرحلة الطفولة، وشرحت شجرة عائلتها بالتفصيل:

- كانت أمّي ماريسيلا شقيقة إرنستو سوتومايور، والد أدريانو. أمضينا كل طفولتنا في قرية تيبيرتون في ولاية ماساتشوستس، بالقرب من غلوشستر.

بين الصور، شاهد غاسبار بعض المناظر التي ذكّرته ببعض الأماكن في بريطانيا: براحٌ بحري، ميناءٌ صغير، قوارب بدائية بسيطة كانت تتتالى مع مراكب للصيد ويخوتٍ، وأكواخ للصيادين، وبيوت خشبية جميلة.

أوضحت ابنة عمّته:

- كان أدريان رجلاً طيّباً فعلاً. ومع ذلك، لا يمكننا القول بأنّ الحياة كانت رحيمةٌ معه.

أطلعت غاسبار على صورٍ قديمةٍ أخرى. مشاهد من عمر الطفولة: كان القريبان يظهران فيها وهما يقومان بحركات مضحكة بوجهيهما، ويتراشقان بالمياه حول حوضٍ مطّاطي للسباحة منفوخٍ بالهواء، ويتأرجحان جنباً إلى جنب في أرجوحة معدنية، ويصنعان من يقطينةٍ قرعةً مضيئةً. لكن إيزابيلا سارعت إلى تبديد وَهم هذه اللوحة المثالية.

- رغم الفرحة البادية في هذه الصور، لم يحظَ أدريانو بطفولة سعيدة وطبيعية. كان والده، خالي إرنستو، رجلاً عنيفاً ومتقلّب المزاج، ومعتاداً على أن ينهال ضرباً على زوجته وابنه. بعبارةٍ أخرى، كان إرنستو يقوم بضربهما بعنفٍ شديد.

تهدّج صوت إيزابيلا. ولكي تُزيح جانباً ذكرياتها المؤلمة، ألقت على أطفالها نظرة طافحة بالحنان. جالسين حول طاولة المطبخ، كان اثنان من الصبيان، وفي أذنيهما سمّاعات، يقهقهان وعيونهما مثبّتة على شاشة تابليت. أمّا الأصغر سنّاً، فكان مستغرقاً في تركيب قطع لعبة بازل كبيرة الحجم: **لاس مينيناس**، اللوحة الأشهر للرسّام الإسباني دييغو فيلاثكيث.

فكّر غاسبار، في أعماقه، بوالده الذي كان ظريفاً جدّاً، ولطيفاً جدّاً، وودوداً جدّاً. لماذا يحطّم بعض الرجال الكائنات الصغار الذين ينجبونهم إلى الدنيا؟ لماذا يحبّهم آخرون حتى الموت؟

ترك هذا السؤال معلّقاً، وتذكّر ما كانت قد أكّدته له الشرطية في القسم رقم 25، قبل نصف ساعة مضت.

- لقد قيل لي إنّ أدريانو كان قد أودِع لدى عائلة مُضيفة. . .

- نعم، كان ذلك بفضل معلّمتنا، الآنسة بونينسيغنا. هي مَن قامت بإخبار إدارة الخدمات الاجتماعية في المقاطعة بالممارسات العنيفة لإرنستو.

- وهل سمحَت والدة أدريانو بذلك؟

- العمّة بيانكا؟ كانت قد هجرت بيت الزوجية قبل ذلك بعدّة سنوات.

- كم كان عمر ابن خالكِ حينما سافر إلى نيويورك؟

- أظنّ أنّه كان في الثامنة من عمره. وكان قد تنقّل بين أسرتين أو ثلاث، ومن ثمّ استقرّ هنا، في هارلم، في منزل السيّد والسيّدة واليس، عائلة مُضيفة رائعة فعلاً عاملته مثل ابنٍ لها.

أغلقت ألبوم الصور ومن ثمّ أضافت، مطرقةً في التفكير:

- مع مرور الزمن، عاد أدريانو ووالده ليلتقيا من جديد. . .

- حقّاً ما تقولين؟

- في نهاية حياته، كان الخال إرنستو قد أُصيب بسرطانٍ في الحنجرة. وقد استقبله ابنه في منزله وعالجه لأطول فترة ممكنة. هذا الكرم هو ما كان يميّز ابن خالي.

غيّر غاسبار وجهة الحديث:

- وأين شون لورينز من كلّ هذا؟

.3

بدأت نظرة إيزابيلا تلتمع.

- لقد عرفت شون لورينز في سنّ الثامنة عشرة! منذ أن بلغت سنّ الرشد، جئتُ أقضي كلّ فصول الصيف في نيويورك. كنتُ ألجأ

أحياناً إلى منزل صديقةٍ لي، لكنني كنتُ أسكن في معظم الأوقات في ضيافة آل واليس.

تركت نفسها تنجرف مع ذكريات الزمن الماضي الجميل، وقالت وهي تستعيد تلك الذكريات:

- كان شون يسكن في أبراج بولو غراوندز، لكنّه كان هو وأدريانو على الدوام بصحبةٍ بعضهما، على الرغم من فارق السنّ بينهما البالغ أربع سنوات. أمّا أنا، فكنتُ، بالضرورة، أقتفي أثرهما وأسعى إلى الانخراط في مغامراتهما الطائشة. يمكن القول إن شون كان مغرماً بي، ومن جهتي، لم يكن لديّ أيّ مانع، بل ويمكن القول إننا كنّا على علاقةٍ متقطّعة.

شربت رشفَة من شراب البيض واستغرقت بضع ثوانٍ لكي تستجمع ذكرياتها.

- كان ذلك زمناً مختلفاً. كانت نيويورك مختلفة عمّا هي عليه الآن. كانت أكثر حريةً وأكثر خطورةً في آن. في تلك السنوات، كان الحيّ مروّعاً فعلاً، والعنف سائداً في كلّ مكان، والمخدّرات تفتك بالجميع.

أدركت فجأةً أنّ أطفالها لم يكونوا بعيدين عنهما، فأخفضت صوتها:

- كنّا نرتكب حتماً حماقات: كان الناس يُدخّنون لفافات الماريجوانا بشكلٍ مفرط، ويسرقون السيارات، ويرسمون بالدهان على الجدران. ولكن كان الناس يذهبون أيضاً إلى المتحف! أتذكّر أنّ شون كان يصحبنا جميعاً إلى متحف الفنّ الحديث في نيويورك عند افتتاح كلّ معرضٍ جديد. إنّه هو مَن جعلني أكتشف ماتيس

وبولاك وسيزان وتولوز-لوتريك، وكييفر... كان مصاباً بنوعٍ من الهوس: أن يرسم في أيّ وقت وعلى أيّ شيءٍ كان.

صمتت إيزابيلا لبضع ثوانٍ ثمّ لم تستطع أن تقاوم رغبتها، فقالت على نحوٍ غامض:

- سوف أُريكَ شيئاً.

توارت لدقيقة ثمّ عادت ومعها مغلّف كبير وضعته على الطاولة الخفيضة. فتحته بعناية وحرصٍ وأخرجت منه رسمةً مرسومة بالفحم على الغلاف الكرتوني لعلبة رقائق الذرة. كانت الرسمة عبارة عن صورة شخصية لها موقّعة من قبل شون، بتاريخ 1988. صورة امرأة شابّة ذات جاذبية خاصة: نظرة لعوب، وشعر مسرّح بطريقة مثيرة، وكتفان عاريان. فكّر غاسبار ببعض صور فرانسواز جيلو التي رسمها بيكاسو. كانت اللوحة بالموهبة نفسها، بالعبقرية نفسها. ببضعة خطوط، كان شون قد أمسك بكلّ التفاصيل: جرأة الشباب وأناقة إيزابيلا، ولكن أيضاً بعض الرزانة التي تُفصح عن المرأة التي ستصبحها فيما بعد.

أسرّت له وهي توضبّ اللوحة المرسومة بقلم الفحم في علبتها:

- أحرص عليها مثل حدقة عيني. حتماً، قبل عامين، حينما أُقيم المعرض الاستِعادي لأعمال شون في متحف الفنّ الحديث في نيويورك، أعاد لي الكثير من الذكريات...

كانت هذه النقطة بالضبط هي التي يريد غاسبار أن يصل إليها، فقال:

- هل عرفتِ بياتريز مونيوز؟

أطفأت مسحة من القلق كلّ نورٍ من على وجه إيزابيلا. أجابت وهي تبحث عن كلماتها:

- نعم، لقد عرفتها. رغم كلّ ما فعلته، لم تكن بياتريز... امرأة سيئة. على الأقلّ، لم تكن كذلك في الفترة التي كنتُ أتردّد عليها. مثل أدريان، ومثل الكثير من شباب الحيّ، كانت بياتريز ضحية. فتاةٌ حرقتها الحياة. فتاةٌ حزينةٌ جدّاً، ومعذّبةٌ جدّاً، لم تكن تحبّ نفسها كثيراً.

ظلّت إيزابيلا في نطاق المجاز الفنّي:

- يُقال أحياناً إنّ اللوحة الفنية لا تكون موجودة سوى في عين الشخص الذي ينظر إليها. كان هناك شيءٌ من هذا القبيل مع بياتريز. لم تكن تنتعش إلّا حينما يضع شون عينيه عليها. من السهل قول ذلك اليوم، لكن حينما أعود إلى الماضي، أتأسّف على أنني لم أساعدها حينما خرجت من السجن. ربّما كان ذلك سيجنّبها الوقوع في الجريمة التي ارتكبتها بعد ذلك. بالطبع، لم أقُل ذلك بهذه الفظاظة أمام شون، ولكن...

لم يصدّق غاسبار أذنيه، فسأل باندهاش:

- هل التقيتِ مع شون بعد موت ابنه؟

ألقت إيزابيلا قنبلةً:

- لقد جاء يطرق بابي في شهر ديسمبر المنصرم. قبل عامٍ من الآن بالضبط. أتذكّر تاريخ زيارته لأنّ ذلك حدث في ليلة وفاته.

سأل كوتانس:

- وكيف كانت حاله؟

تنهّدت إيزابيلا، قائلةً:

- هذه المرّة، يمكنني أن أقول لك بأنّه لم يفكّر في التحرّش بي.

.4

- كانت قسمات وجه شون منهَكَة، وشعره متّسخاً، ووجهه شاحباً تغزوه اللحية. كان يبدو أكبر من سنّه بعشر سنوات. لم أكن قد تكلّمت معه منذ عشرين سنة على الأقلّ، لكنني كنتُ قد شاهدتُ بعض صوره على الإنترنت. لم يعُد شون الذي شاهدته الرجل نفسه. كانت عيناه على نحوٍ خاص تبدوان مخيفتين، كما لو أنّه لم ينَم منذ عشرة أيام أو أنّه قد تعاطى لتوّه جرعة من الهروين.

انتقل غاسبار وإيزابيلا إلى الشرفة المُضاءةِ بثلاثة مصابيح ذات ضوءٍ أصفر. كانت إيزابيلا قد أخذت قبل ذلك بدقيقتين علبة قديمة للسجائر كانت قد أخفتها في مطبخها خلف قدورٍ نحاسية ومصفاةٍ مطلية بالمينا. خرجت لتُشعل سيجارةٍ وسط البرد القطبي، ربّما على أمل أن تغلّف حلقات الدخان المتصاعد منها ذكرياتها ببلسمٍ قد يجعلها أقلّ إيلاماً.

- لم تكن المخدّرات هي التي أغرقت شون في هذه الحالة المزرية، وإنّما الحزن العميق. أحزانه الشديدة هي التي أوصلته إلى تلك الحالة البائسة. الأحزان التي تنهش المرء وتقتله لأنّها تمتصّ دمه وتقتلع لحمه.

سحبت إيزابيلا نفساً وراء آخر من سيجارتها، وهي في حالة انفعالٍ محموم. ثمّ واصلت حديثها:

- حينما رأيت شون من جديد، لم تكن أعمال ترميم المنزل قد بدأت بعد. كنا، زوجي أندريه وأنا، قد حصلنا للتو على المنزل، وقرّرنا أن نستغلّ أيام العطل من الأسابيع الأخيرة من السنة في إفراغه من محتوياته.

كنتما الوريثين الوحيدين لأدريانو؟

أجابت إيزابيلا بالإيجاب بحركة خفيفة من رأسها.

- كان والدا ابن خالي قد توفيا ولم يكُن لديه لا أخ ولا أخت. ولكن لأنّ معاملة حصر الإرث استغرقت وقتاً طويلاً، ظلّ المنزل يضمّ كلّ أغراضه حينما استلمناه. وهذا بالضبط ما كان يهمّ شون.

أحسّ غاسبار أنّ الإثارة بدأت تستولي عليه. كان متأكّداً أنّه يحوم حول شيءٍ مفصليّ وحاسم.

باحت له إيزابيلا:

- لم ينهمك شون في أحاديث طويلة. لقد أطلعني على صورٍ للطفل جوليان وهو يشرح لي بأنّه لا يصدّق الفرضية الرسمية بشأن موت ابنه.

- هل أخبركِ لماذا لم يكن يصدّقها؟

- أكّد لي فقط أنّ أدريانو قد أعاد التحقيق من جانبه بطريقة سرّية.

كان الليل قد حلّ فجأةً. كانت أضواء مصابيح الزينة تنير أشجار عيد الميلاد والشجيرات والأسوار في بعض الحدائق.

- عملياً، ما الذي كان شون يسعى إلى معرفته بالتحديد من خلال مجيئه لمقابلتكِ؟

- كان يريد أن يلقي نظرةً على أغراض أدريانو. أراد أن يرى إن كان هذا الأخير قد ترك قبل موته دليلاً يتعلّق بتحقيقاته.

- هل صدّقته في ذلك؟

أجابت بصوتٍ مشوبٍ بنبرةٍ من الحزن:

- ليس تماماً. لقد قلتُ لك: كان يهلوس كثيراً كالمعتوه بحيث بدا وكأنه يهذي أو يتحدّث مع نفسه. ولكي أكون صريحةً معك، صرتُ أخاف منه بعض الشيء.

قال مخمّناً:

- ومع ذلك، سمحتِ له بأن يدخل إلى المنزل.

- نعم، ولكنِ طيلة الوقت الذي استغرقه في البحث والتفتيش في المنزل، اصطحبتُ أطفالي لنقوم بجولة في إيست ريفر بلازا[*]، وبقي زوجي معه في البيت يراقبه.

- هل عرفتم إن كان شون قد عثر على شيءٍ ما؟

أجابت وهي تُفرج عن ابتسامةٍ تنمّ عن خيبة أمل:

- على أيّ حال، ترك فوضى عارمة في المنزل! لقد فتح كلّ الأدراج والخزائن وفتّش في كلّ مكان. بحسب أندريه، غادر المنزل زاعماً أنّه قد عثر على ما كان يبحث عنه.

أحسّ غاسبار أنّ الحمّى تستعر في داخله، فسأل بتلهّفٍ:

- وماذا كان ذلك؟

- أعتقد أنّه عثر على بعض الوثائق.

- أيّة وثائق؟

- لا أعرف أيّ شيءٍ عنها. تحدّث لي أندريه عن ملفٍّ ورقيٍّ وضعه شون في حقيبته الجلدية.

ألحّ عليها بالسؤال:

- ألا تعرفين على ماذا كان يحتوي؟

- كلا، ولا يهمّني ذلك. أيّاً يكن الأمر، لن يُعيد ذلك الموتى، أليس كذلك؟

تجاهل غاسبار السؤال، وسأل بدوره:

- هل احتفظتِ بأغراض ابن خالكِ؟

(*) مركز تجاري كبير في هارلم.

نفت إيزابيلا وهي تهزّ رأسها:

- لقد رمينا كلّ شيء منذ زمنٍ طويل. بصراحة، عدا سيارته وثلّاجة أميركية جميلة، لم يكن أدريانو يملك شيئاً ذا قيمة.

أدرك غاسبار، محبطاً، بأنّه قد تسرّع في حماسته وبأنّه سوف لن يحصل على أيّ شيءٍ آخر من ابنة عمّة سوتومايور.

- هل سيمكنكِ أن تسألي زوجكِ إن كان يتذكّر شيئاً آخر؟

وافقت إيزابيلا على ذلك، وهي تشدّ سترتها من حولها.

دوّن غاسبار رقم هاتفه على علبة السجائر. وأردف قائلاً:

- الأمر مهمّ للغاية بالنسبة لي.

- ما الجدوى من إثارة كلّ هذا؟ لقد مات الطفل، أليس كذلك؟

ردّ عليها باللغة الفرنسية، قبل أن يشكرها على مساعدتها:

- **بلا شكّ**(*).

نظرت إيزابيلا إلى ذلك الزائر الغريب يبتعد وهي تسحق عقب سيجارتها في أصيصٍ فخاري للورود. لقد قال باللغة الفرنسة: **بلا شكّ**. كان لدى إيزابيلا إدراكٌ جيّد باللغة الفرنسية، ولكنها لم تكن تعرف أبداً بحقّ منطق هذه العبارة. كلّما كانت تسمع هذه العبارة، كانت تتساءل لماذا عبارة **بلا شكّ** تعني **ربّما** وليس **دون أدنى شكّ**. ربّما عليها أن تفكّر في أن تسأل زوجها عن ذلك.

(*) Sans doute بالفرنسية.

بينيلوب

«بعد بيكاسو، ليس هناك سوى الله».

غالباً ما كنتُ أسخر من هذه العبارة لملهمة بيكاسو، الفنانة دورا مار، ولكن اليوم، تتجلّى كلماتها في ذهني في كلّ مأساتها. لأنّ هذا ما أشعر به أنا أيضاً بعمق. بعد شون لورينز، ليس هناك سوى الله.

من كثرة الهروب من شبحكَ، كدتُ أنسى كم كنتُ حسّاسة بإزاء فنّك، يا شون. ولكن منذ أن عرض عليّ غاسبار كوتانس هذا لوحتكَ الأخيرة، لم تكفّ عن مطاردتي. هل الموت حقّاً هكذا؟ أبيضٌ، هادئٌ، مطمئنٌ، مريحٌ، مضيء؟ يا شون، هل أنت موجودٌ اليوم على أرض تلك المملكة التي يبدو أنّه لا وجود للخوف فيها؟ وهل ابننا معك؟

منذ البارحة، أتعلّق بهذه الفكرة.

في تلك الليلة، نمتُ جيّداً لأنني ارتحتُ بسبب اتّخاذي لقراري. لقد أمضيتُ الصباح، والابتسامةُ على شفتي، في تجهيز فستاني المزهّر. الفستان الذي كنتُ ألبسه حينما رأيتني لأوّل مرّةٍ في نيويورك، في يوم الثالث من شهر يونيو ذاك من سنة 1992.

أتعرف، يا شون؟ لا يزال يفعل فعله! عثرتُ أيضاً على سترتي الجلدية القصيرة، لكنني لم أعثر على زوج الأحذية من طراز دوك مارتينز الثقيلة التي كنت أنتعلها في ذلك اليوم. لقد استبدلتها بزوج من الأحذية طويلة الساق المصنوعة من الجلد المصقول التي كنت تحبّها. وخرجت إلى الشارع. استقللتُ المترو حتى بوابة مونتروي، ثمّ سرتُ مشياً لوقتٍ طويل، **خفيفة ومرتدية ثياباً قصيرة**، رغم برد شهر ديسمبر.

خلف شارع أدولف-ساكس، وصلتُ إلى المحطّة المهجورة لخطّ بوتيت سنتور القديم. لم يتغيّر أيّ شيء فيها منذ اليوم الذي اصطحبتني فيه إلى هناك في نزهة في منتصف الليل.

مُحاطاً بالشجيرات والأحراش، تحوّل المبنى إلى ركام. الأبواب والنوافذ مغلقة بالشمع، لكنني أتذكّر أننا استطعنا الوصول إلى الأرصفة عبر سلّمٍ كان يمتدّ من غرفة التقنيين. سرتُ على ضوء مصباح هاتفي المحمول في مسالك خطوط الحديد. في البداية، أخطأتُ الاتجاه، ومن ثمّ عدتُ إلى الوراء ووجدتُ النفق الذي يؤدّي إلى المستودع القديم.

سوف لن تصدقني: لا تزال العربة القديمة موجودة هناك. الشركة الوطنية لسكك الحديد تمتلك كنزاً من عدّة ملايين يورو مدفوناً في محطّة للقطارات، تحوّلت إلى ركامٍ ولا أحد يدرك ذلك أبداً!

لا الصدأ ولا الغبار مَسَحا ألوانك المتوهّجة. ولا تزال صورتي تشعّ على الصفيح الخشن والمتّسخ لعربة المترو. شبابي الظافر أقوى من الزمن والليل. وشعري الناعم الذي كان يداعب جسمي الشبيه بجسم الأميرات، ويلتفّ حول ساقي وأنا في العشرين من عمري،

وحول نهديّ وأسفل بطني. هذه هي الصورة التي أودّ أن أحملها معي.

أنا أدخل الآن إلى داخل العربة. كلّ شيء متّسخ هنا، وأسود ومغطّى بطبقة سميكةٍ من الغبار، لكنني لا أشعر بالخوف. أجلس على أحد المقاعد المكشوفة وأفتح حقيبتي. تلك الحقيبة الرائعة من ماركة بولغاري المصنوعة من الجلد المخطّط باللونين الأبيض والأزرق والتي أهديتني إياها في الربيع الذي سبق ولادة جوليان. في داخلها، أجد مسدّساً من طراز مانورين 73 مذخّراً. وهو هدية من والدي: سلاحه القديم في أثناء خدمته. كان ذلك لأستطيع على الدوام أن أدافع عن نفسي. ولكن اليوم، أن أدافع عن نفسي، هو أن أقتل نفسي.

فوهة المسدّس في فمي.

أنا مشتاقةٌ إليك، يا شون.

لو كنت تعلم كم ارتحتُ في المجيء إلى لقياك. إلى لقياك ولقيا طفلنا الصغير.

في هذه اللحظة، قبل ثانية واحدة من الضغط على الزناد، أتساءلُ فقط لماذا انتظرتُ كلّ هذا الوقت قبل أن ألحق بكما.

ملك العفاريت

السبت 24 ديسمبر

16

ليلة أميركية

ثمّة شيءٌ ما في هواء نيويورك يجعل النوم غير ضروري.

سيمون دو بوفوار

.1

تُشير الساعة إلى الرابعة صباحاً، ومادلين لا تزال في قمّة نشاطها وحيويتها.

فقد نامت لعشر ساعات متواصلة نوماً مريحاً إلى أقصى درجة، نوماً ثقيلاً وعميقاً وخالياً من كلّ الكوابيس والأشباح. لم يختفِ ألم بطنها تماماً، ولكنّه أصبح أقلّ حدّة، بل وبات من الممكن تحمّله. نهضت مادلين ورفعت الستائر لترى شارع غرينتش، الذي كان لا يزال يضجّ بالناس، ثمّ نظرت أبعد من ذلك، بين عمارتين، إلى التيار المعتم والبارد جدّاً لنهر هودسون.

ألقت نظرة على هاتفها المحمول، فاكتشفت أنّ ثلاث مكالمات قد وردت إليها من برنار بينيديك. تُرى ما الذي كان يريده منها صاحب صالة العرض؟ في كلّ الأحوال، سيكون عليه أن ينتظر

لبعض الوقت، فهي تشعر الآن بالجوع ولا بدّ لها أن تتناول شيئاً من الطعام.

ارتدت بنطلونها الجينز وقميصاً وسترةً. حينما خرجت من غرفتها، وجدت على السلّم مغلّفاً مختوماً. فتحته في المصعد: في ثلاث صفحات، كان كوتانس قد كلّف نفسه عناء أن يكتب لها تقريراً عن زيارته لإيزابيلا، ابنة عمّة أدريانو سوتومايور، وطلب منها أن تتّصل به حالما تستطيع لكي يتّفقا على مكانٍ يلتقيان فيه. عاقدة العزم على ألّا تفعل أيّ شيءٍ قبل أن تتناول فطورها، أجّلت قراءتها إلى وقتٍ لاحق وطوت الأوراق قبل أن تدسّها في أحد جيوبها.

كان ما يُقارب نصف عدد نزلاء الفندق مستيقظين. في صباح يوم 24 ديسمبر ذاك، يتأهّب بعض الزبائن، العابرين في مدينة نيويورك، للمغادرة، بينما، في مكاتب الاستقبال، ينهمك عاملان من حمّالي الأمتعة في تحميل صناديق عدّة مركبات، كان بعضها ستنطلق إلى المطار، بينما تغادر مجموعة أخرى نحو أحد منتجعات التزلّج في جبال الأبالاش.

غادرت مادلين بهو الفندق إلى صالون الطابق الأرضي حيث كانت تتراقص ألسنة اللهب في مدفأةٍ. كان صالون فندق بريدج كلوب، مضاءً بنورٍ شعشعٍ، يشبه نادياً إنجليزياً قديماً: أرائك من طراز تشيسترفيلد، ومقاعد منجّدة، ومكتبة من خشب شجرة الأكاجو، وأقنعة وجه أفريقية، ورؤوس حيوانات برية تبدو كما لو أنّها حيّة. جلست في مقعدٍ على شكل نصف كرة، تشذّ خطوطه الجريئة عمّا تبقى من الديكور. ظهر نادلٌ يرتدي حلّة من الزيّ الرسمي باللون الأبيض من خلف شجرة الميلاد التي كانت تتربّع في وسط القاعة. ألقَت مادلين نظرةً على قائمة الطعام، وطلبت كوباً من

الشاي الأسود وقطعة من جبنة ريكوتا المصنوعة من حليب الماعز مع بعض شطائر الكروستيني. على الرغم من ألسنة اللهب المتراقصة في مدفأة تبعد بالكاد لمترٍ واحدٍ منها، شعرت المرأة الشابّة بالبرد، فأخذت بطانية صوفية واستخدمتها مثل شالٍ لتتدفأ بها.

قالت في نفسها وهي تتنهّد: **جدّة عجوز في ركن النار، هذا ما أصبحتُ عليه**. بالتأكيد، لم يعُد لديها أي عزمٍ ونشاط، ولا أيّ نار مقدّسة. تذكّرت مقالة مجلة **نيويورك تايمز** التي أطلعها عليها كوتانس في مدريد. أين ذهبت تلك المرأة الشابّة العنيدة، النابضة بالحيوية والمكافحة التي لم تكن تدّخر جهداً ولا تكلّ ولا تملّ أبداً؟ استعادت في ذهنها الصورة المرفقة بالمقالة: وجهٌ مسنونٌ أكثر، وقسماتٌ صارمة، ونظرة مترصّدة دائماً. كانت مادلين تلك قد تبخّرت.

أعادت إلى ذاكرتها تحقيقاتها الجنائية الأكثر صعوبةً، وذلك الإحساس الرائع والمُبهِج الذي ينتاب المرء حينما ينقذ حياة شخصٍ ما. هذا الإحساس الخاطف بالنشوة الذي يستبدّ بالمرء ويمنحه الشعور، للحظة، بأنّه يمتلك لوحده كلّ مسالك الإنسانية. فكّرت من جديد بالطفلة آليس ديكسون التي عثرت عليها على قيد الحياة بعد سنواتٍ من التحقيقات، ولكنّها فقدت أثرها منذ ذلك الحين. قبل تلك الطفلة، كان هناك طفلٌ آخر، هو ماثيو بيرس، والذي انتزعته من بين براثن مجرمٍ مفترس. وهو الآخر اختفى عن أنظارها منذ ذلك الحين. حتى حينما كانت التحقيقات تنتهي نهاية حسنة، كانت النشوة تترك مكانها سريعاً لخيبة أملٍ. كان ذلك بسبب إدراكٍ قاسٍ بأنّه إذا كان هؤلاء الأطفال يدينون لها بحياتهم، إلّا أنّهم ليسوا أطفالها هي. وهو إحباطٌ يستدعي سريعاً الحاجة إلى تحقيقٍ آخر. حقنٌ

جديد للأدرينالين كمضادٍ للاكتئاب. مثل الثعبان الذي يلدغ ذنبه إلى ما لا نهاية.

2.

ظهر النادل من جديد وهو يحمل صينية الفطور التي وضعها على الطاولة المنخفضة أمام مادلين. تناولت الشطائر والشاي تحت النظرة الفارغة لتمثالٍ يعود إلى ما قبل العصر الكولومبي والذي بدا وكأنّه يقوم بالحراسة من على رفٍّ يقع قبالتها. النسخة المطابقة للتمثال ذي الأذن المكسورة في مغامرات **تان تان والأذن المكسورة**...

كانت مادلين لا تزال لا تستطيع أن تصدّق ما رواه لها كوتانس. أو بالأحرى، لم تكن ترغب في أن تتقبّل التبعات المترتّبة على ذلك. ومع ذلك، لم تعد الوقائع موضع شكٍّ: بعد أن اقتنع بأنّ ابنه لا يزال على قيد الحياة، كان شون لورينز قد وجد مقالةً تتحدّث عن بعض تحقيقاتها السابقة. وبالتالي، كان مقتنعاً بأنّ مادلين كانت مؤهّلة لأن تساعده، فاتّصل من دون جدوى بقسم القضايا الباردة في مديرية شرطة نيويورك، ومن ثمّ استغلّ رحلته الأخيرة إلى نيويورك لكي يقابلها شخصياً. وهنا، داهمته نوبة قلبية وخرّ صريعاً وسط الشارع رقم 103، على بعد بضعة أمتار من مكتبها.

غير أنّ مادلين لم تكن تعرف أيّ شيءٍ عن كلّ هذا. قبل عامٍ، في الفترة نفسها، توقّفت عن العمل في شرطة نيويورك، بل لم تكن حتى في مدينة نيويورك. بدأت أعراض إحباطها في أواسط فصل الخريف. وفي نهاية شهر نوفمبر، قدّمت استقالتها وعادت إلى إنجلترا. ما الجدوى من إعادة الفيلم؟ حتى لو استطاعت أن تلتقي

لورينز، ما كان لذلك أن يغيّر شيئاً على نحوٍ حاسم. كما هو الحال اليوم، ما كانت ستصدّق كلمة واحدة من تأكيداته. كما هو الحال اليوم، ما كانت ستساعده. لم تكن مكلّفة بهذه القضية ولم تكن لديها أيّة وسيلة للتحقيق فيها.

بينما كانت تُنهي شطيرتها من جبنة الريكوتا، وضعت يدها على بطنها. تبّاً. لقد عاودها الألم من جديد. كان بطنها منتفخاً كما لو أنّ وزنها قد زاد بمقدار خمسة كيلوغرامات خلال دقيقتين. أرخت خلسةً حزامها قليلاً، وأخرجت من جيب سترتها قرصاً من الباراسيتامول.

ذهبت أفكارها من جديد نحو غاسبار. حتى وإن كانت تزعم العكس أمامه، كان كوتانس قد نجح في إقناعها. لم تكُن تتبعه في استنتاجاته تماماً، ولكن كان عليها أن تعترف له بالإصرار الأكيد والذكاء الحقيقي. لقد استطاع، بقليلٍ من الإمكانات، أن يثير أسئلة مهمّة ويعثر على بدايات أدلّة كان من الواضح أنّها قد فاتت محقّقين أكثر خبرةً.

أخرجت من جيبها الرسالة المفصّلة التي كان قد كتبها لها. وهي عبارة عن ثلاث ورقات مليئة على الوجهين بخطّ جميلٍ يكاد يكون أنثوياً -مكوّر، مع حلقات ضخمة لطيفة- والذي لم يكن يتواءم مع شخصية الكاتب المسرحي. تساءلت مادلين، من القراءة الأولى للرسالة، حول مدى المصداقية التي ينبغي لها أن تُوليها للتأكيد الذي يقول بأنّ شون غادر منزل إيزابيلا مع وثائق تخصّ سوتومايور. لو كان ذلك صحيحاً، ألم يكن من المفترض العثور عليها؟ بالقرب من جثّة لورينز أو في غرفته في الفندق؟ بعد برهةٍ من التفكير، اتّصلت برقم برنار بينيديك.

لم ينتظر صاحب صالة العرض أن يرنّ الهاتف طويلاً قبل أن يردّ على المكالمة. وكان في حالةِ غضبٍ.

- الآنسة غرين؟ أنتِ لستِ صاحبة كلمة ولا تحترمين وعودكِ!

- عن ماذا تتحدّث؟

- تعرفين جيّداً عن ماذا أتحدّث: عن اللوحة الثالثة! اللوحة التي احتفظتِ بها لنفسكِ! لقد آذيتِني كثيراً بـ. . .

قاطعته:

- لا أفهم شيئاً ممّا تقول. لقد طلبتُ من السيّد كوتانس أن يُعيد إليك اللوحات الثلاث.

- لم يسلّم إليّ سوى لوحتين منها!

تنهّدت. كان كوتانس قد امتنع عن إخبارها بذلك!

وعدته، قائلةً:

- سوف أفهم منه ما الذي حصل. وبانتظار ذلك، أوضح لي أمراً. كنتَ قد أخبرتني بأنّك، عند موت لورينز، استرددت أغراضه من الفندق الذي كان ينزل فيه، أليس كذلك؟

- نعم بالضبط. كانت عبارة عن ملابسه ومفكّرته.

- في فندق بريدج كلوب، في حي ترايبيكا؟

- نعم، حتى أنني حرصتُ على أن أذهب وأفتّش غرفته بنفسي.

- ألم تعُد تتذكّر رقم الغرفة؟

- هل تمزحين؟ كان ذلك قبل عامٍ كامل!

عبرت فكرة أخرى ذهنها.

- حينما حاول المسعفون أن يُنعشوا لورينز في الشارع رقم 103، هل تعرف إن كانوا قد عثروا على أغراض شخصية معه؟

أجاب بينيديك، مؤكّداً:

- لم يكن معه أيّ شيء سوى محفظته.

- ألم تسمع قط عن ملف أو حقيبة جلدية؟

صمت بينيديك طويلاً، ثم أجاب:

- كان شون يمتلك حقيبة يد جلدية لا تفارقه أبداً، هذا صحيح. حقيبة قديمة من ماركة بيرلوتي كانت زوجته قد أهدَتها إليه. لا أعرف على الإطلاق أين اختفت. لماذا تسألين هذا السؤال؟ هل تواصلين التحقيق في القضية؟ هل هذا بسبب المقالة التي نُشِرَت في جريدة **لوباريزيان**؟

- أيّة مقالة تقصد؟

- سوف ترينها بنفسك. بانتظار ذلك، أطالبكِ بأن تعيدي إليّ الجزء الأخير من الثلاثية!

استشاطت مادلين غضباً وقالت، صارخةً، وهي تُغلق سمّاعة الهاتف في وجهه:

- أعتقد أنّك لست في وضعٍ يسمح لك أن تطالبني بأيّ شيءٍ كان.

قلّصت جفنيها وهي تحاول أن تستردّ مسار تفكيرها. لو كانت الحكاية التي روَتها إيزابيلا لكوتانس صحيحة، هذا يعني أنّ أقلّ من أربع وعشرين ساعة قد مرّت بين اللحظة التي عثر فيها شون على الوثائق في بيت سوتومايور واللحظة التي توفي فيها. لكن الرسّام سيكون قد حظي بالوقت الكافي لكي يودِع تلك الوثائق لدى شخصٍ ما. أو أنّه سيكون بكلّ بساطة قد أخفى حقيبة يده. وكان هذا التصرّف يتوافق بما فيه الكفاية مع ما كانت تتصوّره عن الأيام الأخيرة للورينز: شخصٌ متهوّر ومضطرب ومذعور. **ولكن أين خبّأها؟** لم يعُد لدى شون أي ملجأ في نيويورك؛ لا عائلة؛ ولا

أصدقاء؛ ولا منزل. بقي هناك حلٌّ واحد. وهو الحل الأكثر بساطةً: أن يكون شون قد أخفى الوثائق في غرفته في الفندق.

حاولي أن تفعلي شيئاً. الآن.

نهضت مادلين من مكانها لكي تتوجّه نحو بهو الفندق. خلف مكتب الاستقبال الضخم، كانت تقف لورين أشفورد -كما كانت لوحتها الاسمية تشير إلى ذلك-، وهي شابّة طويلة على نحوٍ لافت وجميلة للغاية والتي بدت أنّها تجسّد في ذاتها وحدها أناقة ورقي فندق بريدج كلوب.

- صباح الخير، سيّدتي.

عرّفت مادلين عن نفسها:

- صباح الخير. الآنسة غرين من الغرفة رقم 31.

- ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلك؟

كانت نبرة صوت لورين مهذّبة، ولكنّها لم تكن دافئة. كانت ترتدي فستاناً أزرق اللون يناسب الوقوف على منصة عرض أزياء أكثر منه للوقوف في مكتب استقبال فندقٍ. تذكّرت مادلين زي ملكة الليل في عرضٍ لأوبرا **الناي السحري** والتي كانت قد شاهدته في حي كوفنت غاردن اللندني.

- قبل عامٍ من الآن، في يوم 19 من شهر ديسمبر، نزل الرسّام شون لورينز في فندقكم...

قالت من دون أن تتكرّم برفع رأسها عن شاشتها:

- هذا ممكن بالطبع.

- أودّ أن أعرف أيّ غرفة كان يَشغَل.

- يا سيّدتي، لستُ في وضعٍ يسمح لي بالإفصاح عن هكذا معلومات.

كانت لورين تفصل بين كلّ مقطع من مقاطع الكلمات في ردّها. بدت تسريحتها، من قرب، معقّدة بطريقة لا تُصدّق؛ جدائل وتيجان من ضفائر تمّ تثبيتها بمشابك مزخرفة بخرزات ناعمة من الألماس.

قالت مادلين مؤيّدةً:

- أنا أفهمكِ.

في الحقيقة، لم تكن تفهم أيّ شيء على الإطلاق، بل وأحسّت أنّ نزعة عدائية تنتابها. رَغِبَت في أن تُمسك بشعر ملكة الليل وتحطّم جمجمتها على شاشة حاسوبها.

تراجعت وخرجت إلى الرصيف لكي تدخّن سيجارةً. بينما كان أحد موظّفي نقل الأمتعة يفتح لها الباب الكبير، لفحها البرد بقسوة. قالت في نفسها، وهي تفتّش عن ولاعتها في كلّ جيوبها: **الثمن الذي ينبغي دفعه**. وسط البرد القطبي لليل، أحسّت أنّ هاتفها يرنّ: كانت عبارة عن رنّتين لرسالتين وردتا تباعاً.

كانت الأولى رسالة طويلة من لويزا، الممرّضة الإسبانية في مستشفى الإخصاب والتي تخبرها بأنّ ثلاث عشرة بويضة من التي تمّ سحبها منها كانت صالحة. بحسب لويزا، يقترح الطبيب البيولوجي في العيادة إخصاب نصفها بالسائل المنوي للرجل المانح المجهول وتجميد ما تبقّى منها.

أعطت مادلين موافقتها واستغلّت ذلك لتتحدّث عن الآلام التي تداهمها. أجابت الممرّضة فوراً:

ربّما تكون الآلام ناجمة عن التهاب أو فرطٍ في تحفيز إفراز البويضات. مرّي لمراجعتنا في العيادة.

كتبت مادلين:

لا أستطيع. لستُ في مدريد.

سألت لويزا:

أين أنتِ؟

فضّلت مادلين أن لا تجيب عن سؤالها. أمّا الرسالة الثانية، فتزفّ خبراً سعيداً. كانت الرسالة واردة من دومينيك وو.

مرحباً، يا مادلين. إذا كنتِ في جوارنا، مرّي لمقابلتي نحو الساعة الثامنة في هوبوكين بارك.

انتهزت مادلين الفرصة وأجابت في الحال:

مرحباً، يا دومينيك. هل استيقظت؟

أجاب عنصر مكتب التحقيقات الفيدرالية:

أنا في الطريق إلى صالة الرياضة.

رفعت مادلين عينيها نحو السماء. تذكّرت أنّها كانت قد قرأت في مكانٍ ما أنّ مدينة نيويورك، منذ الساعة الخامسة صباحاً، تشهد زيادة كبيرة جدّاً في استهلاك الكهرباء، وذلك يعود جزئياً إلى نشاط صالات الرياضة التي يرتادها الناس على نحوٍ متزايد منذ الصباح الباكر.

هل لديكَ معلومات لتخبرني بها؟

ليس عبر الهاتف، يا مادلين.

لـمّا أدركت أنّها سوف لن تحصل على أيّ شيءٍ إضافي، وضعت حدّاً للمحادثة:

حسناً، إلى اللقاء القريب.

كانت لا تزال سيجارتها بين شفتيها من دون أن تشعلها، واضطرّت للإقرار بأنّها قد أضاعت ولّاعتها. كانت ستستدير إلى الخلف، حينما انبعث لهبٌ طويل أمام عينيها، مخترقاً لبرهةٍ قصيرة البرد القارس للصباح الباكر.

قال حمّال الأمتعة الشاب، وهو يقرّب لهب الولّاعة من وجهها:

- لقد التقطتها من الصالون. لقد سقطت منكِ على الأريكة التي كنتِ تجلسين عليها.

أشعلت مادلين سيجارتها وهي تشكره بحركة خفيفة من رأسها.

لم يكُن الصبي قد بلغ العشرين من عمره. كانت قد رأته قبل ذلك: نظرة صريحة، وخصلات شعرٍ متمرّدة، وابتسامه مغرية لا بدّ أنّها تفتنُ الفتيات.

قال وهو يعيد إليها ولّاعتها:

- كان شون لورينز ينزل في الغرفة رقم 41.

3.

اعتقدت مادلين في البداية أنّها قد أساءت السمع وطلبت منه أن يُعيد ما قاله.

أفصح حمّال الأمتعة من جديد:

- كان الرسّام يُقيم في الغرفة رقم 41. غرفة تقع في الزاوية وتشبه تلك التي تقيمين فيها، لكنّها تقع في الطابق الذي يعلو غرفتكِ.

- وأنتَ، كيف تعرف ذلك؟

- أنا استرقتُ السمع فقط. البارحة مساءً، طرح السيّد كوتانس على مكتب الاستقبال السؤال نفسه الذي طرحتِه أنتِ على لورين وهذا ما أجابت.

لم تستطِعْ مادلين أن تصدّق ذلك: كان كوتانس قد نجح في أن يجعل الموظفة السليطة تتكلّم وتكشف له عن رقم الغرفة التي نزل

فيها شون! اللعنة! وأخذت تتخيّل المشهد: بسترته من ماركة سمالتو، ونظرته المثيرة للشفقة، ورائحة الخزامى الفائحة منه، لا بدّ أنّ كوتانس قد أظهر للشابّة فيضاً من السحر. لا بدّ أنّه قد مزج بين شخصية الرجل الوسيم الودود والبهلوان الآيل للشيخوخة، فأوقع بالموظّفة.

- هل طلب منها شيئاً آخر؟

- حاول أن يزور الغرفة، لكنّ لورين لم توافق على ذلك.

لم تستطِع مادلين أن تمنع نفسها من الشعور بنوعٍ من الارتياح الخجول، فقالت في نفسها: لم تكُن جاذبية كوتانس بلا حدود.

- ما اسمك؟

أجاب حمّال الأمتعة:

- كايل.

- هل تعمل هنا منذ زمنٍ طويل؟

- منذ سنة ونصف، ولكن فقط في أثناء عطلة نهاية الأسبوع وأيام العطل.

- في الأيام المتبقيّة، تكون في الكلية؟

- نعم، في جامعة نيويورك.

كان للفتى عينان خضراوان وابتسامة متألقة شيطانية أكثر منها ودودة.

استطرد في الحديث كما لو أنّ مادلين قد طرحت عليه سؤالاً:

- في فصل الصيف من العام الماضي، فاضت المياه في جزءٍ من الطابق الرابع، كما لو أنّ شلالاً حقيقيّاً قد انفجر فيه.

رغم أنّ كايل بدا صبيّاً حدثاً إلّا أنّه جعلها تشعر بالانزعاج.

كان ذكاءٌ وقّاد يلتمع في عينيه الزيتونيتين، ولكن مسحة من التهديد كانت تطوف فيهما.

تابع الصبيّ، قائلاً:

- تسبّب مكيّف الهواء بفيضان المياه وإفساد الأمور. انسدّ أحد أنابيب صرف المياه، ففاضت في الطابق. وقد استدعى هذا أن يتمّ إصلاح سقوف العديد من الغرف ومن بينها الغرفة رقم 41.

- لماذا تروي لي هذه الحادثة؟

- استغرقت أعمال الصيانة ثلاثة أسابيع. كانت ضربة حظّ: كنتُ حاضراً حينما عثر البناؤون على شيءٍ ما داخل أحد الأسقف المستعارة. حقيبة يد جلدية. فاقترحتُ حينذاك أن أنقلها إلى مكتب الاستقبال في الفندق.

قالت مادلين، مخمّنةً:

- ولكنّك احتفظت بها لنفسك.

- نعم.

لم ينقطع خيط تسلسل أفكار مادلين، بل بدأ جزءٌ آخر منه. الآن، اكتشفت خلف الإغواء البريء للفتى شيئاً آخر: شيءٌ من التحسّب، شيءٌ من الانحراف، شيءٌ من تثبيط العزيمة.

- كانت حقيبة جميلة جداً بالفعل، وإن كانت مستنفذة من جرّاء آثار الطلاء. لكن هذا ما يرغب فيه الناس اليوم، هل لاحظتِ ذلك؟ لم يعد أحدٌ يحبّ الأشياء الجديدة. كما لو أنّ المستقبل هو الماضي.

ترك كلامه يفعل فعله.

- لقد بعتها مقابل تسعمئة دولار على موقع إيباي للتسوّق.

بيعت في الحال. كنتُ أعرف لمن تعود الحقيبة لأنّ اسم مالكها كان مطرّزاً في داخلها كما لو أنّه قد تلقّاها هديّة من شخصٍ ما.

- هل فتحتَ الحقيبة؟

- كنتُ قد سمعتُ سابقاً عن شون لورينز، ولكن حتى أكون صادقاً، لم أكن أعرف رسوماته. وبالتالي، ذهبتُ لكي أشاهد بعض لوحاته في متحف ويتني موزيوم وقد فوجئتُ مفاجأةً شديدة. كانت تهزّ المرء من أعماقه لأنّها كانت. . .

قاطعته مادلين:

- لا ترغم نفسك على أن تروي لي ما قرأتَه في موقع ويكيبيديا. اكتفِ بأن تفصح لي عمّا عثرتَ عليه في حقيبة اليد.

حتى وان استاء كايل من عنجهيتها، إلّا أنّه لم يُظهر ذلك. أجاب بصوته المتظاهر بالبراءة:

- أشياء غريبة. كانت أشياء مخيفة جدّاً لدرجة أنني كنتُ أعرف بأنّه سوف يأتي يوم ويهتمّ أحدٌ ما بأمرها. ولذلك، حينما سمعتُ، البارحة، السيّد كوتانس، رنّت أصداء حديثه في ذهني، وعدتُ إلى البيت لكي أجلب هذه.

مثل بائع ساعات اليد المهرّبة، فتح سترته المبطّنة ليكشف عن علبة سميكة من الكرتون الملبّس.

- أعطني هذه العلبة، يا كايل. أنا أقوم بالتحقيق بالتشارك مع كوتانس. لا فرق بيني وبينه.

- نعم، لا فرق بينكما. ادفعي لي إذاً ألف دولار. هذا هو المبلغ الذي كنت أنوي أن أطالبه به.

قالت:

- أنا شرطية.

إلّا أنّه كانت هناك حاجة إلى المزيد لإبهار كايل.

- والدي أيضاً شرطيّ.

تردّدت للحظة. كان أحد الخيارات أمامها أن تمسك بالصبي من حلقه وتأخذ منه الملفّ عنوةً. من الناحية الجسدية، كانت قادرة على فعل ذلك، لكنّ شيئاً ما في كايل بثّ فعلاً الخوف في داخلها. كانت جدّتها معتادة على أن تقول: **العفريت يسكن في بعض الأشخاص**. إذا كان ذلك صحيحاً، فلا بدّ أنّ كايل أحد أولئك الأشخاص، وكلّ ما ستحاول فعله ضدّه سوف يرتدّ عليها هي.

- لا أحمل معي ألف دولار.

قال وهو يشير مع ابتسامة إلى أضواء **دواين ريد**[1]، على الجانب الآخر من الشارع:

- هناك صرّاف آلي على بُعد أقلّ من ثلاثين متراً من هنا.

أشعلت مادلين سيجارة أخرى مستخدمة عقب سيجارتها السابقة، واستسلمت له. هذا الصبي ليس صبيّاً عاديّاً. إنّه آلة شرّ.

- حسناً، انتظرني هنا.

عبرت شارع غرينتش وسارت إلى أن وصلت إلى الصرّاف الآلي المنصوب في صالة عرض الصيدلية. أمام الجهاز، تساءلت إن كانت هذه البطاقة الائتمانية تسمح لها بسحب مبلغٍ بهذا الحجم. لحسن حظّها، حينما أدخلت الرقم السرّي لبطاقتها، خرجت الأوراق النقدية من فئة خمسين دولاراً تباعاً. عادت إلى أمام واجهة الفندق وهي تقول في نفسها إنّ كلّ هذا الأمر سهلٌ إلى حدّ ما. لم تكن

---

(1) سلسلة صيدليات تبقى بشكلٍ عام مفتوحة الأبواب على مدار أربع وعشرين ساعة.

تؤمن بالهدايا التي تهطل من السماء. كانت تعبر الشارع حينما ارتجّ هاتفها المحمول. إنّه بينيديك. كانت الرسالة القصيرة الواردة منه لا تحتوي على أيّ شيء سوى رابطِ مقالة منشورة في جريدة **لوباريزيان**. على شاشة هاتفها الأيفون، وحتى من دون أن تفتح الرابط، ظهر العنوان الرئيس للمقالة:

موت ماسوي لبينيلوب كوركوفسكي، عارضة الأزياء الشهيرة في التسعينيات، وملهمة الرسّام شون لورينز.

اللعنة...

بينما كانت معلوماتٌ عديدة تتضارب في ذهنها، عاجَلَها كايل بالسؤال:

- هل حصلتِ على المال؟

كان الصبي قد أنهى دوامه، وركب درّاجته الهوائية ذات الدوّاسات الثابتة. أخذ الأوراق النقدية ودسّها في جيبه قبل أن يناولها العلبة الكرتونية. ببضع دعساتٍ، اختفى وسط الظلام.

فكّرت مادلين أنّه قد خدعها وأنّها قد تركت نفسها تقع فريسة مثل مبتدئة في المهنة.

لكن الأمر لم يكن كذلك في الحقيقة. فتحت العلبة وبدأت بقراءة محتواها على ضوء المصابيح.

وبهذه الطريقة، قابلت **ملك العفاريت**.

17

ملك العفاريت

أبي، أبي، ها إنه يلمسني!
ملك العفاريت قد آذاني!
يوهان فولفغانغ فون غوته

. 1

كانت مادلين، وهي جالسة في أريكة في صالون فندق بريدج كلوب، تستطيع أن تسمع نبض قلبها وهو يدقّ في وريدها الوداجي.

كانت أوراق الملفّ المروّع التي أمضت ساعةً كاملة في مراجعتها مُبعثَرَةً على الطاولة الواطئة التي أمامها. كانت عبارة عن وثائق فظيعة، لا شكّ أنّها قد أُعدّت من قبل أدريان سوتومايور، وتضمّ العشرات من المقالات -تمّ اقتطاع بعضها مباشرة من الصحف، وتمّ تحميل البعض الآخر منها على شبكة الإنترنت-، ولكن كانت هناك أيضاً محاضر جلسات الاستماع، وتقارير التشريح وصور مستنسخة لمقاطع من كتابات حول القتلة المتسلسلين.

كلّ تلك الوثائق كانت على صلة بسلسلة من عمليات خطف وقتل أطفال وقعت بين بداية عام 2012 وصيف عام 2014 في ولايات نيويورك وكونيتيكت وماساتشوستس. كانت بينها أربع

عمليات قتل فظيعة بقدر ما كانت غريبة في طريقة تنفيذها التي حيّرت المحققين وأربكتهم.

تبدأ السلسلة من شهر فبراير من سنة 2012 بحادثة مقتل الطفل ميسن ميلفيل الذي كان في الثانية من عمره وجرى اختطافه من إحدى حدائق مدينة شيلتون في مقاطعة فيرفيلد. وقد عُثِرَ على جثّته بعد اثني عشر أسبوعاً بالقرب من بركةٍ في واتربوري، وهي مدينة أخرى في ولاية كونيتيكت.

في شهر نوفمبر من سنة 2012، اختفى الطفل كاليب كوفن الذي كان في الرابعة من عمره، بينما كان يلعب في حديقة منزل والديه في مدينة والثام في ولاية ماساتشوستس. وقد عُثِر على جثّته بعد ثلاثة أشهر من قبل متنزّهين في منطقة رطبة في سلسلة جبال وايت.

في شهر يوليو من سنة 2013، حدثت عملية الخطف التي أشعلت النار في البارود: الطفل توماس شتورم، الذي اختُطِف ليلاً في لونغ آيلند من منزل والده ماتياس شتورم، وهو مهندسٌ معماري ألماني، متزوّج من مذيعة مرموقة في قناة ZDF. شهدت القضية تفاعلاً إعلامياً كبيراً في ألمانيا. لبعض الوقت، اشتُبِه بالأب لأنّ الزوجين كانا على وشك الانفصال وكانت مجريات طلاقهما مشوبة بالتوتّر. أطلقت الصحافة الشعبية الألمانية -وعلى رأسها صحيفة **بيلد**- العنان لنفسها وحطّمت شتورم بتسريبات دنيئة عن حياته الخاصّة، بل وتمّ حبس المهندس المعماري لفترة وجيزة، ولكن، في بداية فصل الخريف، تمّ التعرّف على جثّة توماس بالقرب من بحيرة سينيكا في ولاية نيويورك. وكانت صحيفة **دير شبيغل** هي من أطلقت للمرّة الأولى على المفترس الغامض لقب **ملك العفاريت**، في إشارةٍ إلى قصيدة غوته.

تكرّر المشهد مجدّداً في شهر مارس من سنة 2014، حينما اختُطِف الصبي دانييل روسيل في إحدى حدائق مدينة شيكوبي، في ولاية ماساتشوستس، في غفلة من مربّيته. عُثِرَ على جثّته بعد بضعة أسابيع، هذه المرّة في الأهوار الملحية في بلدة أولد سايبروك، وهي منتجع ساحلي في ولاية كونيتيكت.

ثمّ... لم يعد يحدث أيّ شيء. وبدءاً من صيف عام 2014، اختفى **ملك العفاريت** عن شاشة الرادارات.

.2

رشفت مادلين رشفة من الشاي الأسود بنكهة زهرة اللوتس والذي كانت قد بدأت بشربه منذ استيقاظها. كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً، وقد بدأت الحركة تدبّ في صالون فندق بريدج كلوب. كانت المدفأة الكبيرة تلعب مثل مغنطيسٍ وتجذب من حول موقدها الزبائن الأكثر هوساً بالاستيقاظ باكراً والذين يشربون قهوتهم أمام رقصة ألسنة اللهب.

مسّدت صدغيها وحاولت أن تستعيد ذكرياتها. خلال السنوات التي أمضتها في نيويورك، كانت قد سمعت الحديث عن **ملك العفاريت** من خلال التغطية الإعلامية، لكنّها لم تحتفظ من ذلك سوى ببعض الذكريات الغامضة: ظلّ القاتل يرتكب الجرائم طوال سنتين، لم يتمّ الربط بين مختلف عمليات القتل في الحال، لم تكن تعمل في قسمٍ معنيٍّ بالقضية... إلخ.

ومع ذلك، في تلك الفترة، كانت حقيقة قد أثارت انتباهها لأنّها كانت تندرج في إطار هذا النمط من الجرائم: لم تكنّ أيّ جثّة من

جثث الأطفال الأربعة قد تعرّضت للعنف والاعتداءات. لا اغتصاب ولا آثار لسوء المعاملة، ولا علامات خاصّة على الجثث. وكانت تقارير تشريح الجثث التي أصبحت تحت أنظارها الآن تؤكّد أنّ المختطَفين، في أثناء فترة احتجازهم، قد تلقّوا تغذية جيّدة. كانت أجسامهم نظيفة، ومعطّرة ومدهونة بالمساحيق؛ وشعرهم مقصوصٌ، وثيابهم مغسولة. ومن المحتمل أنّ موتهم لم يتمّ بطريقة مؤلمة، وإنّما ناجماً عن جرعةٍ زائدة من الأدوية. استنتاجٌ لم يكن يُقلّل من الطابع الشنيع لأعمال القتل، لكنّه كان يعقّد تفسير تلك الأعمال.

لدى قراءة الملفّ، خمّنت مادلين أنّ كلّ ما كسبه مكتب التحقيقات الفيدرالي من خبراء الجريمة أو علماء النفس أو خبراء تصنيف المعلومات، لا بدّ وأنّهم فعلوا كل ما بوسعهم لكشف هوية القاتل وتوقيفه. ولكن إذا كان **ملك العفاريت** لم يعُد يقتل أحداً منذ عامين، فليس لأقسام الشرطة أيّ فضلٍ في ذلك.

رشفت رشفة أخرى من الشاي وهي تتحرّك في أريكتها لكي تخفّف من آلام بطنها. لم تكن هناك أسبابٌ كثيرة تفسّر أنّ قاتلاً متسلسلاً قد جمّد نزعاته ورغباته. في أغلب الأحيان، إمّا أن يكون قد مات، وإمّا أن يكون قد احتُجِز لسببٍ آخر. هل نحن هنا في إطار أحد هذين الاحتمالين؟ خاصّة وأنّ سؤالاً آخر كان يلحّ عليها ويشغل بالها: ما هي الصلة بين قضية **ملك العفاريت** واختطاف الطفل جوليان لورينز؟ إذا كان شون قد جلب هذا الملفّ الوحيد، لا بدّ أنّه قد فكّر في أنّ أدريانو سوتومايور كان يعتقد أنّ **ملك العفاريت** قد يكون هو خاطف ابنه. سوى أنّ لا شيء في هذه الوثائق يدعم هذه الفرضية. لم تذكر أيّة مقالة، لا من قريب ولا من بعيد، اسم الطفل جوليان.

قد تكون التواريخ متوافقة، لكن أيّ منطق سلكه الشرطي لكي يصل إلى الاستنتاج بأنّ جوليان ربّما كان الضحية الخامسة للقاتل؟ ولماذا لم يتمّ العثور على جثّته أبداً؟

كانت الأسئلة تتراكم من دون العثور على أدنى بداية لتفسيرها. شكّلت كل أسئلتها أدغالاً كثيفة في ذهنها، شكّلت متاهةً كانت مادلين تحاول عبثاً أن تعثر على بداية مسارٍ للسير وسطها. ولكن ربّما لم يكن هناك أيّ شيء لتكتشفه. لم يكن لورينز نفسه يمتلك أيّ سببٍ؛ كما أنّ سوتومايور كان محقّقاً صغيراً لا خبرة له وهو لم يتجاوز أبداً رتبة نقيب. كان قد شغل نفسه على نحوٍ مبالغٍ فيه بهذه الحكاية، مانحاً نفسه متعة أن يتعقّب على الورق قاتلاً متسلسلاً سعى عبثاً إلى ربطه باختطاف لورينز الصغير.

أطلقت العنان لذهنها لكي ينجرف ويضع الفرضيات الأكثر شططاً. وماذا لو كانت بياتريز مونيوز هي **ملك العفاريت**؟ لم يكن ذلك أمراً مستحيلاً، من الناحية المبدئية. لا شكّ أنّه يمكن لتواريخ عمليات القتل أن تكون متوافقة، لكن مادلين سوف لن تستطيع التحقّق من ذلك. تذكّرت، وهي تنتقل من فكرة إلى أخرى، أحد افتراضات كوتانس وأوضحته قياساً على اكتشافاتها الحديثة: هل يمكن أن يكون سوتومايور بنفسه قد قُتِل على يد **ملك العفاريت**؟ كلّا، كانت مشتّتة، أو الأحرى كانت تحاول أن تحلّ معادلة تضمّ عدداً كبيراً من المجاهيل. ولأنّها رفضت أيضاً أن تستسلم، قرّرت أن تتعمّق أكثر.

3.

أمسكت مادلين بهاتفها المحمول ووجدت على شبكة الإنترنت المقالة الأصلية المنشورة في صحيفة **دير شبيغل** التي كانت أوّل من أطلقت على القاتل لقب **ملك العفاريت**. استعانت بخدمة غوغل للترجمة وكذلك بمعرفتها القديمة باللغة الألمانية في المرحلة الثانوية لكي تقوم بترجمة المقابلة القصيرة مع كارل دوبلر، وهو شرطيٌّ سابق في الشرطة الاتحادية الألمانية في ميونخ. كان الرجل يعمل مستشاراً للعديد من وسائل الإعلام.

من خلال تصفّح بعض المواقع الإخبارية الأخرى، عثرت مادلين على مقالةٍ أشمل وأكثر أهمية في صحيفة **دي فيلت**: مقابلة مشتركة بين دوبلر وأستاذٍ جامعيٍّ متخصِّص في الثقافة الجرمانية. كانت المقابلة عبارة عن حوارٍ رفيع المستوى يشرح فيه الرجلان المقارنة بين طريقة عمل القاتل الأميركي وشخصية **ملك العفاريت** في الفولكلور الألماني.

مع أنّ غوته لم يكن مبتكر هذا المصطلح، إلّا أنّ قصيدته الطويلة، المكتوبة في أواخر القرن الثامن عشر، هي التي جعلت فعلياً شخصية **ملك العفاريت** شخصية شعبية. وكانت الصحيفة قد أعادت نشر بعض الأبيات من تلك القصيدة، القويّة والمزعجة، والتي تصوّر رحلة على الحصان لرجلٍ وابنه الصغير وسط غابة كثيفة ومظلمة. غابةٌ في أرضٍ محفوفة بالمخاطر وتقع في قبضة كائنٍ خارقٍ للطبيعة، مقلقٍ وخطير.

كان نصّ غوته يُقاطِع بين حوارين. أوّلاً، حوار طفلٍ صغير مذعورٍ من وحشٍ، يسعى والده عبثاً إلى تهدئته وطمأنته. ثمّ حوار ثانٍ، وهو أكثر إثارة للاضطراب، يتحدّث فيه **ملك العفاريت** مباشرةً

إلى الطفل لكي يجذبه إلى شِباكه. كان حديث الوحش، الذي اتّسم في بداياته بإغراءٍ خبيثٍ، يترك مكانه سريعاً للقسوة والتهديد والعنف:

أحبّك، وجهك الجميل يسحرني،
وإن لم ترغب، سأستخدم القوّة.

لمّا رأى الأب ابنه مذعوراً، حاول أن يسحبه من هذا المأزق المزعج وهو يحثّ الحصان على العدو سريعاً لكي يغادر الغابة.

لكن نهاية القصيدة تختم المصير المشؤوم للطفل:

حمل الأب بين يديه الولد المتنهّد،
وصل بصعوبة إلى الفناء؛
بين يديه الولد قد مات.

كان هذا النصّ قد ألهم فنانين آخرين -كتب شوبرت عنه قصيدة غنائية شهيرة- ولكنّه، على نحوٍ خاصّ، أصبح من خلال مواضيعه المرتبطة بالاعتداء والاختطاف أساساً لكلّ تحليلٍ في مجال علم النفس والطبّ النفسي، في القرن العشرين. بالنسبة إلى بعض الناس، كانت القصيدة عبارة عن الطور الواضح لعملية اغتصابٍ. وكان آخرون يرون فيها استحضاراً متناقضاً لشخصية الأب التي يتمّ تقديمها في صورة الحامي تارةً، وفي ثياب الجلاد تارةً أخرى.

واصلت مادلين القراءة. في تتمّة المقالة، كان الكاتبان يركّزان على حقيقة أنّ كلّ ضحية من ضحايا **ملك العفاريت** قد وُجِدتْ

بالقرب من مصدرٍ للمياه، إلى جوار شجيرات النَّغْت(*). ولهذا السبب تلى ذلك تفسيرٌ يعتمد على علم النبات أكثر منه على تحقيق الشرطة.

شجرة النَغْت، حسبما تورد المقالة، شجرة تنمو في الأراضي الرطبة: في الأهوار والمستنقعات وضفاف المجاري المائية والأدغال التي لا تصلها قطّ أشعّة الشمس. تجعلها مقاومتها الكبيرة للرطوبة خشباً متميّزاً ومفضّلاً لبناء الأعمدة المتينة والجسور الخشبية وبعض الأثاث المنزلي والآلات الموسيقية. عدا مزاياها الفيزيائية، تحضر في الكثير من الأساطير لدى العديد من الشعوب. في اليونان، اعتُبرت شجرة النَّغْت رمزاً للحياة بعد الموت. وفي الثقافة السلتية، اعتبرها الكهنة شعار القيامة والانبعاث. واستخدمتها الشعوب الاسكندنافية في صناعة عيدانٍ سحرية، يساعد دخانها على إنجاز التعاويذ. في مناطق أخرى أيضاً، اعتُبِرَت شجرة النَّغْت -حيث يشبه نسغها الأحمر الدم- شجرة مُباركة ومُنِعَ قطعها.

ما الذي يمكن حفظه على نحوٍ ملموس من كلّ هذا؟ كيف نربط كلّ هذا الثراء الرمزي بدوافع القاتل؟ كانت المقالة حذرة جدّاً في إعطاء أيّ استنتاج. حينما قطعت الاتصال بشبكة الإنترنت، أحسّت مادلين أنّها قد اجتازت حلقة جديدة في منطقة معادية وضبابية. لم تكن مملكة **ملك العفاريت** تسمح للناس بالدخول إليها بسهولة.

(*) يُسمى أيضاً جار الماء وهو جنسٌ شجري. -المترجم-

18

مدينة الجليد

أعرف أنّ حياتي ستكون رحلةً متواصلة وسط بحرٍ هائج.

نيكولا دو ستايل

1.

منذ الساعة السابعة صباحاً، وقفت مادلين تنتظر أمام مكتب فاست كار لتأجير السيارات، عند تقاطع شارعَي غانزفورت وغرينتش.

اعتقدت أن استئجار سيارة سيكون إجراءً بسيطاً في الولايات المتّحدة الأميركية، ولكن لأنّها لم تكُن قد حجزت عبر الإنترنت مسبقاً، تحمّلت عناء القيام بإجراءاتٍ طويلة واضطرّت لأن تقف على قدميها لوقتٍ طويل، في قاعة باردة كالجليد، وهي تملأ استمارات مفصّلة تحت أنظار موظّفٍ بغيضٍ -رجلٌ يدعى مايك كان مشغولاً بالتحادث مع زملائه على هاتفه المحمول أكثر من انشغاله بإيجاد حلٍّ لمشكلتها. حتّى في نيويورك، يبدو أنّ زمن الزبون الملك قد ولّى.

كان اختيار مركبة ينحصر في سيارة سبارك صغيرة صديقة للبيئة،

وسيارة SUV من ماركة سوبارو وبيك أب سلفرادو من ماركة شيفروليه .

حدّدت مادلين طلبها :

- سوف أستأجر السبارك.

أفضّل تجنّب التعامل مع سيارة ضخمة.

أجاب مايك وهو يراجع المعلومات على حاسوبه :

- في الواقع، لم يتبقَّ سوى البيك أب.

- لقد أخبرتني للتوّ عكس ذلك!

ردّ الموظّف وهو يعضّ على عقب قلمه :

- صحيح، لم أنظر بشكلٍ جيّد. السيارتان الأخريان محجوزتان.

مدّت نحوه، وهي خانعة، بطاقتها الائتمانية. على أيّ حال، كانت ستوافق حتى على شاحنة ذات مقطورة.

ما أن استلمت مفاتيح البيك أب، تأقلمت مادلين مع أدوات قيادة السيارة الضخمة وتعرّفت عليها، وسلكت الطريق السريع الذي يربط، عند ترايبيكا، مانهاتن مع نيوجيرسي.

بالنسبة إلى يوم السبت، 24 ديسمبر، كانت حركة السير جارية بسلاسة ويُسر. في أقلّ من ربع ساعة، وصلت إلى الضفّة الأخرى، وعثرت على مكانٍ لإيقاف السيارة في محطّة العبّارات.

لم تكن مادلين قد زارت حديقة هوبوكين من قبل. حينما خرجت من مرأب السيارات، انبهرت بجمال المنظر. كانت ضفاف نهر هدسون تمنح إطلالة مدهشة على مانهاتن، وانعكاس أشعّة الشمس على ناطحات السحاب يمنح للأفق مظهراً خيالياً، ويُضفي

الأضواء على العمارات ويُظهر تفاصيل دقيقة من أسلوب اللوحات الفائقة الواقعية لريتشارد إيستس الذي كان يجمّد الواقع في فيضٍ من الانعكاسات الذهبية.

على مدى ما يقارب مئة متر، سارت في الممرّ الخشبي الطويل الذي يشتمل على مساحات خضراء، والذي يقابل حديقة هاي لاين وغرينتش فيليج. كان المنظر مبهجاً، إذ يكفي أن تُدير رأسها نحو الجنوب لترى فيه جزءاً من التاريخ الأميركي: الشبح الأخضر المائل إلى الرمادي لتمثال الحرية الذي يُنير العالم، جزيرة صغيرة نُقِل إليها أجداد مئة مليون من سكان البلاد. كان ينبغي أن يكون المكان مليئاً بسائقي الدراجات الهوائية وهواة رياضة المشي، كما هي العادة، لكن البرد القارس، في ذلك الصباح، جعل أغلبية الناس تصرف النظر عن المجيء إليه.

جلست مادلين على أحد المقاعد في الممرّ الخاصّ بالمشاة، ورفعت قبّعة سترتها لكي تحتمي من التيارات الهوائية الصقيعية التي تهبّ من نهر هدسون، ودسّت يديها في جيبيها. كان البرد شديداً لدرجة أنّه يلسع العينين، حتى أنّ دمعة حارقة سالت على خدّها، لكنّها لم تشعر لا بالحزن ولا بالإحباط، بل على العكس تماماً.

كان من المرعب أن تقول ذلك، لكنّ احتمال قيامها بالتحقيق حول **ملك العفاريت** أعاد إليها البهجة. هذه هي الشرارة التي انتظرتها منذ البداية. الشرارة التي أيقظت فيها غريزة الصيد. حتى إذا كان هذا الأمر يُذعرها، إلّا أنّه هو ما كان يجول في أعماقها. لطالما عرفت ذلك.

يتخلّص المرء بصعوبةٍ من طبيعته. فعلى سبيل المثال، وبعيداً عن المظاهر، كان غاسبار كوتانس رجلاً عاطفيّاً جدّاً. يزعمُ أنّه يكره

البشرية، ولكنّه كان فعلاً يحبّ الناس ولم يستغرق وقتاً طويلاً لكي يشعر بأنّه قد انصدم بقصّة أبٍ تحطّم بسبب موت ابنه. أمّا مادلين، فلم تكن من هذه الطينة. لم تكن امرأة عاطفية. كانت مُطارِدَة الطريدة الكبيرة. كانت دماءٌ سوداء تجري في عروقها، وسيلٌ من الحمم المنصهرة يثور بلا انقطاعٍ في جمجمتها. حممٌ من المستحيل تبريدها أو صرفها.

لم يكن ما روته لغاسبار كوتانس كذبةً. إنّ مطاردة القتلة تدمّر بالفعل حياة المُطارِد، ولكن ليس للأسباب التي تورِد بشكلٍ عام. إنّ مطاردة القتلة تدمّر المُطارِد لأنّ ذلك يجعله يُدرك أنّه هو أيضاً قاتلٌ، وأنّه يحبّ أن يكون كذلك. وهذا الأمر هو الذي كان **بالفعل** مُربكاً. «من يُصارع الوحوش عليه أن يحذر من أن يتحوّل هو نفسه إلى وحشٍ». كانت حكمة نيتشه تبدو بالية، ومع ذلك كان استنتاجه المُبتَذَل صحيحاً. بقدر ما تطول مدّة المطاردة، لا يختلف المُطارِدُ كثيراً عن الشخص الذي يُطارده. وهذه الخلاصة تُعطي مذاقاً مرّاً لكلّ الانتصارات. حتى حينما يعتقد المُطارِد أنّه قد انتصر على الشر، يبقى الشرّ على شكل بذرةٍ، بذرة تعشِّشُ في داخله.

أخذت نفحة كبيرة من الهواء البارد لكي تهدأ. كان عليها أن تخفّف من حماستها. **كوني واقعية، يا عزيزتي. سوف لن تحلّي بمفردكِ قضيةً أتلفت أعصاب كلّ محلّلي البلاد.**

ولكن مع ذلك... لم تستطِعْ مادلين أن تمنع نفسها من الاعتقاد بأنّ قضيّة فريدة تُقدّم لها على طبقٍ من ذهب. قضيّة يحلم كلّ رجال الشرطة في العالم أن يتولّوها لمرّة واحدة في حياتهم. إلى جانب هذا، لم يعُد هناك أيّ شيءٍ تخسره: لا التلقيح الاصطناعي ولا احتمال حياةٍ تقضيها بين رضّاعات الحليب وحوائج الأطفال.

وحده مذاق الدم ما يهمّ.

نشوة الصيد.

- مرحباً، يا مادلين.

وضع أحدهم يده على كتفها ورآها تجفل. كانت غارقةً في أفكارها، ولذلك لم تشعر بوصول دومينيك وو إلى المكان.

.2

استيقظ غاسبار على رنين هاتفه. إيقاعٌ مزعجٌ من موسيقى السامبا التي جعلته يشعر أنّه يستيقظ وسط كرنفالٍ في مدينة ريو البرازيلية. في الوقت الذي فتح فيه عينيه، وأمسك بالجهاز، كان المجيب قد سجّل رسالة. سحب الستائر واتّصل باندفاعٍ دون أن يستمع إلى الرسالة: كانت المتّصلة إيزابيلا رودريغيز، ابنة عمّة أدريانو سوتومايور اللطيفة.

قالت على الفور:

- لقد تأخرّت في الذهاب إلى العمل.

كان غاسبار يسمع في خلفية مكالمتها ضوضاء مدينة نيويورك: هدير حركة المرور، والنشاط المحموم، وصفارات الإنذار من سيارات الشرطة. . .

سأل:

- أليس اليوم هو عيد الأطفال؟

أجابت المرأة اللاتينية الحسناء:

- عيد الميلاد يصادف غداً.

- أين تعملين؟

- أنا أدير متجر أديل لصناعة الكاب كيك في شارع بليكر. واليوم هو أحد الأيام الأكثر نشاطاً في السنة.

كانت إيزابيلا قد حفظت وعدها، فقد سألت زوجها بشأن الزيارة التي قام بها شون لورينز إلى بيتهما.

اقترحت على غاسبار:

- ربّما لدى أندريه أمران أو ثلاثة ليرويها لك. اذهب لمقابلته إن أردت، لكن قبل الساعة العاشرة لأنّ عليه أن يرافق الأطفال إلى منزل والدتي. لا تتسبّب بتأخيرهم!

أراد غاسبار أن يعرف المزيد، إلّا أنّ إيزابيلا قطعت مكالمتهما. حينما أغلق السماعة، اكتشف رسالة من مادلين على شاشة هاتفه:

عليّ أن أتحقّق من أمرين أو ثلاثة من جانبي. موعدنا في الفندق عند منتصف النهار. م.

في البداية، أزعجه هذا الانشقاق، ثمّ قال في نفسه بأنّه هو مَنْ كان يرغب بأن تقوم مادلين بهذا النوع من المبادرات. ولم يكن لديه الوقت للتشكّي إن كان يرغب في اللحاق بزوج إيزابيلا قبل أن يغادر المنزل. سرّح شعره سريعاً وبخّ رشّة من عطرٍ رجاليٍّ يعود إلى عام 1992.

ما أن أصبح في الشارع، سار حتى وصل إلى شارع فرانكلين، واشترى بطاقات ركوب المترو وسلك الخطّ رقم 1 إلى دوار كولومبوس، إلى الشمال الغربي من حديقة سانترال بارك. هناك، غيّر خط سيره، وقطع ما يُقارب عشرة مواقف، إلى أن وصل إلى أكبر محطّات المترو في هارلم. المحطّة الواقعة في الشارع رقم 125، والتي كان **صنّاع الأسهم النارية** قد لوّنوا العشرات من

العربات فيها في التسعينيات. وهو المكان نفسه الذي وضعت فيه بياتريز مونيوز نهايةً لحياتها.

احتاج غاسبار إلى أقلّ من ربع ساعة لكي يصل إلى شارع بيلبيري. لا شكّ أنّ هذا الشارع قد نال إعجابه. كان الشارع المتجمّد وسط البرد، ولكن الغارق في أشعّة الشمس، يفوح بالرائحة العطرة الأزلية لمدينة نيويورك. أمام المنزل رقم 12 -منزل إيزابيلا-، كان بستانيٌّ يشذّب شجرة كستناء ترتعش ظلال أغصانها على الرصيف.

رحّب به أندريه لانغلوا وهو يفتح له الباب:

- تفضّل بالدخول، وتصرّف كما لو أنّك في بيتك.

كان الأطفال الثلاثة الذين رآهم في الليلة الماضية يتحلّقون حول الطاولة العائلية نفسها. ولكن هذه المرّة، كانوا يتّخذون أمكنتهم أمام إفطارٍ غني: غرانولا، أجبان منزلية، أناناس فكتوريا، كيوي أصفر. علاوة على ذلك، كان هناك ضحكٌ وفرحٌ ودفءٌ. في الخلفية، كان جهاز أيباد موصول بمحطة إذاعة نيويورك للموسيقى الكلاسيكية يبثّ أغنية «فالس الزهور» من باليه **كسّارة البندق**. عند آل لانغلوا، كان كلّ شيءٍ وسيلة لتعويد الأطفال على الثقافة.

قال أندريه ممازحاً، وهو يقدّم لغاسبار فنجاناً من القهوة:

- إذاً، لقد أعدّت لك زوجتي شراب البيض، في حين كنتُ أنهي عملي في المكتب!

كان أندريه لانغلوا، برأسه الحليق، وعضلاته المفتولة، وبشرته السمراء الداكنة، وابتسامته الدافئة، يَبعَثُ على المودّة مباشرةً. كان أصغر سنّاً من زوجته، ويرتدي بدلة رياضية وقميصاً دعائياً لحملة تيد كوبلاند للانتخابات الرئاسية.

لكي يبقى منسجماً، ردّد غاسبار ما كان قد رواه في الليلة السابقة لإيزابيلا، وقدّم نفسه على أنّه كاتبٌ أثارت لديه، في أثناء كتابة سيرة ذاتية عن شون لورينز، بعض النقاط الغامضة التي تحيط بموت ابنه تساؤلات يبحث عن أجوبتها.

بدأ أندريه، وهو يصغي إليه، بتقشير برتقالةٍ لأصغر أطفاله، الجالس على كرسيه المرتفع.

- أنا لم ألتقِ لورينز سوى مرّة واحدة، ولكنني أعتقد أنّك تعرف ذلك.

هزّ غاسبار رأسه ليدعوه إلى مواصلة الحديث.

- حتى أكون صادقاً، حدّثتني زوجتي عنه من قبل. كنتُ أعلم أنّهما كانا على علاقة عاطفية قبل زواجنا، وبالتالي، ممّا لا شكّ فيه، كنتُ أرتاب في أمره بعض الشيء.

- لكنّ هذه الريبة خفّت حينما قابلته...

أقرّ لانغلوا بذلك.

- لقد أشفقت بالفعل عليه حينما بدأ يحدّثنا عن ابنه. كان ضائعاً تماماً، يائساً، وفي عينيه مسحة جنون. من الناحية الجسدية، كان أشبه بمتشرّدٍ، لا بدونجوانٍ لا يُقاوَم.

قدّم أندريه بعض شرائح البرتقال لابنه، ثمّ أعطى بعض الإرشادات لابنيه الأكبر سنّاً، بدءاً من تنظيف الأسنان بالفرشاة، وصولاً إلى تحضير وجبات الطعام المعلّبة التي كان عليهما أن يحملاها معهما إلى بيت جدّتهما.

- آنذاك، لم أفهم الشيء الكثير من الحكاية التي رواها لنا شون حول علاقاته مع أدريانو، لكنّ إيزابيلا وافقت على أن تَدَعه يفتّش المنزل.

بدأ أندريه بتنظيف طاولة مائدة الإفطار، وعلى نحوٍ تلقائي، ساعده غاسبار في ذلك، بوضع الأطباق المتّسخة في حوض المجلى.

أكّد أندريه لانغلوا:

- من جهتي، لم أعارض الأمر. في النهاية كان ذلك إرث زوجتي، لكني نصحتُ إيزابيلا بأن تبتعد مع الأطفال وأنا من بقيتُ مع لورينز في المنزل لكي أراقبه.

- لقد أخبرَتني بأنّه أخذ معه بعض الوثائق.

كما في الليلة السابقة، اعتقد غاسبار بأنّه سوف يعرف المزيد عن الموضوع، لكنّ لانغلوا لم يدعه على أملٍ لوقتٍ طويل. قال مؤيّداً، وهو يُخرج من حاوية ملبّسة بالكروم كيساً بلاستيكياً مليئاً بالقمامة:

- هذا صحيح، ولكن لا أدري ماذا أخذ بالظبط. كانت غرفة أدريانو مليئة بالأوراق والملفّات من كلّ نوع.

ربط كيس القمامة، وفتح باب المدخل لكي يذهب ويرميه في الحاوية الكبيرة، خارج المنزل.

هتف وهو ينزل سلّم الشرفة الأمامية:

- لكن لم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي حمله لورينز معه من البيت.

لحق به غاسبار إلى حديقة المنزل.

- سألني شون لورينز إن كان يستطيع أن يلقي نظرة على سيارة أدريانو، وكانت عبارة عن سيارة من طراز دودج تشارجر، ظلّت مركونة في الممرّ لأكثر من عامٍ كامل.

أشار بذقنه إلى زقاقٍ مسدودٍ متعامدٍ مع الشارعِ.

- بعتُها في الصيف الماضي، لكنّها كانت سيارة لم يقم أحد بصيانتها منذ وفاة ابن الخال. حينما جاء شون، كانت بطاريتها فارغة. تفحّص السيارة من كل جوانبها. أعتقد أنّه هو بنفسه لم يكن يعرف عن ماذا كان يبحث. ثمّ وكما لو أنّ إلهاماً مفاجئاً قد راوده، ذهب إلى الصيدلية الكائنة في الشارع رقم 131. عاد إلينا بعد خمس دقائق من ذلك ومعه بكرة من أكياس القمامة الكبيرة الحجم. فتح الصندوق الخلفي لسيارة الدودج ونزع السجادة التي وضعها في أحد الأكياس البلاستيكية. ثمّ غادر من دون حتى أن يوجّه لي كلمة واحدة.

صرخ أحد الأطفال، وهو يخرج من البيت مسرعاً لكي يرتمي بين ذراعي والده:

- بابا! بابا! لقد ضربني سيدني!

سأل غاسبار، متعجّباً:

- وهل تركت شون يفعل ذلك من دون أن تسأله أيّ شيء؟

شرح أندريه، وهو يواسي ابنه:

- كان من الصعب معارضته. كان لورينز كما لو أنّه ممسوس. كما لو أنّه يقيم في كوكبٍ آخر يبعد بسنواتٍ ضوئية عن كوكبنا. كان يحمل بالفعل حزنه على وجهه.

مسح الصبي دموعه وتحرّق شوقاً للعودة إلى أخيه.

داعب أندريه شعره.

غمغم كما لو أنّه يحدّث نفسه:

- لا أفجع الله أحداً بأطفاله.

3.

كان من الممكن أن يجد دومينيك وو مكانه في أحد أفلام المخرج وونغ كار-واي.

كان عميل المباحث الفيدرالية يرتدي على الدوام بدلات أنيقة، وأربطة عنق منسوجة، ومناديل حريرية جميلة تزيّن الجيب العلوي لسترته. أطلّ هذا الصباح، وقد أخفى عينيه خلف نظّارة شمسية، بأناقته المعتادة، أمام ناطحة السحاب الجميلة التي كان لها اللون الأزرق المعدني نفسه لمعطفه الطويل.

- شكراً لك على مجيئك، يا دومينيك.

- ليس لدي الكثير من الوقت، يا مادلين. ينتظرني هانس في السيارة مع البنات. اليوم، حتى رمل حديقة الأطفال بات صلباً كالحجر.

جلس إلى جانبها على المقعد، محتفظاً بمسافة بينهما. كانت يداه مدسوستين في قفازين من الجلد الأسود الرقيق جدّاً. أخرج بحذر من الجيب الداخلي لمعطفه ورقة مطوية على شكل مربّع.

- لقد قمتُ بالتحريات التي طلبتِها منّي. ليس هناك أيّ شيء غريب بشأن قتل أدريانو سوتومايور.

- وما معنى هذا؟

- أراد هذا الأحمق أن يتباهى من خلال تدخّله من دون سلاح في عراكٍ بين تاجرين صغيرين للمخدّرات. اشتدّت حدّة العراك، وتلقّى طعنة سكين في رقبته. وانتهت القصّة.

- وتاجر المخدّرات هذا، مَن يكون؟

- نستور مندوزا، ويبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً. رجل عصابة في حي إيل باريو، عنيف ومتهوّر. وكان قد قضى لتوّه حكماً لثلاث سنوات في سجن رايكرز.

- لماذا لم تنجح السلطات في إلقاء القبض عليه؟

هزّ الرجل الأسيوي كتفيه:

- لأنّه هرب، ماذا تظنّين؟ لديه عائلة في سان أنطونيو، لكن لم يُعثر له على أثرٍ أبداً.

- في العادة، حينما يتعلّق الأمر بقتلة رجل شرطة، يكون هناك إصرارٌ أكثر، أليس كذلك؟

- سوف يتمّ إلقاء القبض عليه عاجلاً أم آجلاً، خلال عملية مراقبة للطرق، أو سيتمّ العثور على جثّته بعد مشاجرةٍ في شوارع ليتل هافانا. ولكن أخبريني عن سبب اهتمامكِ بموت سوتومايور.

كان وو عميلاً ماهراً. وكانت مادلين تُدرك جيّداً بأنّه إذا كان قد وافق على أن يفشي لها ببعض المعلومات، فكان ذلك فقط من أجل المنفعة. لأنّها كانت شرطية كفؤة، وكان يعتقد بأنّها إذا ما التقطت أثراً واعداً، فسيكون هو أوّل المستفيدين من ذلك.

أسرّت له:

- أعتقد أنّ موت سوتومايور مرتبطٌ بقضية أخرى.

- أيّ قضية؟

ردّت:

- أنت مَنْ عليه أن يخبرني بذلك.

ما كان وو ليأتي لو لم يكن في جعبته المزيد من الأسهم.

- تفكّرين بأخيه، أهذا صحيح؟

أحسّت مادلين بالأدرينالين يرتفع في جسمها. أخوه؟ أيّ أخٍ؟

قالت في انزعاجٍ:

- أخبرني بما تعرفه.

عدّل عميل المباحث الفيدرالية نظّارته الفضية الإطار. كانت كلّ

حركة أو خطوة منه تبدو وكأنّها تخضع لرقصة دقيقة تمرّن عليها من قبل.

- لقد اكتشفتُ أمراً غريباً خلال عملي على ملفّ سوتومايور. كان لديه أخٌ أصغر عمراً، اسمه روبن، وكان أستاذاً للتاريخ في جامعة فلوريدا.

- أخٌ غير شقيق، تريد أن تقول، إذاً؟

- لا أعرف شيئاً عن ذلك. الحقيقة هي أنّ روبن سوتومايور قد وُجِدَ مقتولاً، في عام 2011، في إحدى حدائق مدينة غينزفيل، التي كان معتاداً على أن يمارس رياضة المشي فيها.

- بأيّ طريقة قُتِل؟

- بطريقة وحشية: كان قد ضُرِبَ حتى الموت، باستخدام مضرب البيسبول.

أفرد وو الورقة التي كان يمسكها بين يديه.

- تمّ توقيف أحد المشرّدين كان ينام أحياناً في الحديقة، ويُدعى يانيس بيراهيا. وقد دافع عن نفسه بفتور. كان الرجل مضطرباً نفسياً ويتلقّى المعالجة في المستشفى منذ عدّة سنوات. اعترف بيراهيا بطريقة أو أخرى بارتكابه للجريمة، وتمّ الحكم عليه بثلاثين عاماً من السجن. باختصار، كانت قضية كريهة، ولكن تمّ إنهاؤها بسرعة. إلى أن قرّرت منظمة مشروع الشفافية، في العام الماضي، أن تأتي وتُفسِد الأمر.

- المنظّمة التي تكافح الأخطاء القضائية؟

- نعم. حاولوا أن يُشغلوننا بإجراءات جديدة حينما وجدوا قاضياً وافق على أن يُصدر أمراً لإعادة اختبارات أكثر دقّة على الحمض النووي.

- على أيّ أساس؟

- على أساس ما يقولونه دائماً: الاعترافات التي تمّ انتزاعها من شخصٍ ضعيف، والتقدّم العلمي الذي يتيح تحديد جزء من الحمض النووي الذي ربّما لم يتمّ التعرّف إليه سابقاً.

هزّت مادلين رأسها.

- وأيّ تقدّم علمي قد حصل؟ خلال أربعة أعوام فقط؟

- إنّها ترّهات، أوافقك الرأي في ذلك. أقصد، ليس تماماً، على أيّ حال. من خلال استخدام التقنيات الحديثة في تكبير جزيئات الحمض النووي، يمكن...

قاطعته:

- أعرف كلّ هذا.

- باختصار، تمّ إجراء اختبارات جديدة برّأت الرجل المتشرّد.

أدركت مادلين أنّ وو كان يحاول أن يثير التشويق. سألت:

- لأيّة أسباب تمّت تبرئته؟

- لأنّه تمّ العثور على البدلة الرياضية، التي كان روبن يرتديها حين وقوع الجريمة، على آثارٍ لحمضٍ نووي لم يتم اكتشافه من قبل.

- وكان الحمض النووي مسجّلاً من قبل، أليس كذلك؟

- نعم. كان الحمض النووي لرجل شرطة: أدريانو سوتومايور.

استغرقت مادلين بضع ثوانٍ حتى تتقبّل المعلومة.

- وما الاستنتاج الذي تمّ التوصّل إليه من ذلك؟ بأنّ سوتومايور هو الذي كان قد قتل أخاه؟

- ربّما نعم، ولكن أيضاً ربّما لا. ربّما يكون هذا عائداً إلى آثار تلامس يصعب حتى تحديد تاريخها.

- هل تعرف إن كان الأَخَوان يتردّدان على بعضهما؟

- ليست لديّ أيّ فكرة عن ذلك. بما أنّ أدريانو كان قد مات آنذاك، لم يتمّ التوسّع في التحقيق.

- وبالتالي توقّف التحقيق عند هذا الحدّ؟

- لسوء الحظّ. والآن، أخبريني، بدوركِ، يا مادي! أخبريني عمّا تحققين حوله.

تماسكت مادلين وهزّت رأسها. كان من المستحيل أن تحدّثه الآن عن لورينز، ناهيك عن **ملك العفاريت**.

لم يحاول العميل المتأنّق أن يُخفي خيبة أمله ونهض متنهّداً.

نصحته مادلين:

- واصل التحرّي في قضية سوتومايور.

عدّل وو معطفه وابتسامته أيضاً. كما في لقطة فيلمٍ سينمائي، كانت حركاته تعطي الانطباع بإبطاء الزمن.

لوّح للمرأة الشابّة بحركة صغيرة من يده وابتعد ليلتحق بأسرته. كانت الشمس في وجهه وأغنية Yumeji's Theme(*) في ظهره.

(*) أغنية للمؤلف الموسيقي الياباني شيجيرو أمباياشي. -المترجم-

19

على حافّة الجحيم

يعتقد كل شخص أنّه لوحده في الجحيم،
وهذا هو الجحيم بعينه.

رينيه جيرار

1.

كانت رائحة زكيّة لخبز من الذُرة تفوح من داخل المطعم.

لكي يحمي نفسه من البرد، كان غاسبار قد وجد ملاذه في مطعم بلو بيكوك، أحد أشهر مطاعم المطبخ التقليدي الأميركي في هارلم. خلال أيام الأسبوع، لم يكن المطعم يفتح أبوابه إلّا في وقت الغداء، ولكن في عطلة نهاية الأسبوع، منذ الساعة العاشرة صباحاً، كان يمكن للزبائن أن يتناولوا فيه أجنحة دجاج مقلية، وبطاطس حلوة بالتوابل، وخبز مغمّس بالكراميل.

جلس بالقرب من مدخل المطعم، على أحد الكراسي العالية، والتي كانت تحيط بطاولة خدمة على شكل حدوة حصان. كان الجوّ قد أصبح حيويّاً ووديّاً: فقد امتلأ المطعم ببعض السيّاح وأُسر مع أطفالها الصغار من سكّان الحيّ، وفتيات جميلات كنّ يشربن أنواعاً

من الكوكتيل تحمل أسماء شاعرية، ومسنّين سود من أمثال روبرت جونسون أو ثالونيوس مونك.

رفع غاسبار يده لكي يجذب انتباه نادل الحانة. كان يشتهي كثيراً كأساً من الويسكي، لكنّه طلب عوضاً عنه كوباً من رويبوس العضوي الرديء. وواسى نفسه بابتلاع فطيرة محشوة بالموز. ولم يشعر بخفوت الصداع إلّا بعد أن شبع. فكّر أوّلاً في ما كان أندريه لانغلوا قد كشفه له. لماذا نزع شون لورينز سجّادة الصندوق الخلفي لسيارة أدريانو سوتومايور القديمة؟ والأهمّ من ذلك، ما الذي كان ينوي أن يفعل بها؟

من الناحية الموضوعية، لم تكن هناك جملةٌ من الحلول، وإنّما حلٌّ وحيد يفرض نفسه بقوّة: لا شكّ أنّ لورينز أراد أن يُجري تحليلاً طبياً عليها. ولكن لكي يعثر فيها على ماذا؟ ربّما على آثارٍ للدم أو مواد جينية أخرى.

قلّص غاسبار عينيه، فكانت حكاية أخرى ترتسم بين السطور، حكاية مختلفة عن تلك التي تخيّلها في البداية وأراد أن يصدّقها. ربّما لم يطلب شون لورينز أبداً المساعدة من سوتومايور، بل ربّما يكون قد شكّ في أن صديقه القديم قد لعب دوراً في اختطاف ابنه. عبرت فرضية مجنونة ذهنه: كان سوتومايور متواطئاً مع بياتريز مونيوز. هل هذا السيناريو معقول؟

تتالت سلسلة من المشاهد الصامتة في ذهنه كما لو أنّه يستعرض تسلسل الأحداث. بياتريز وهي تقود عربتها، والطفل جوليان في المقعد الخلفي / يد الطفل غارقة في الدماء بعد أن بُترت إحدى أصابعه / العربة وهي تقف على ضفاف مصبّ نهر نيوتاون كريك قبل أن تتوقّف إلى جانب سيارة دودج تشارجر / سوتومايور وهو

ينزل من سيارته ويساعد مونيوز في تحميل الطفل في صندوق سيارته / دمية جوليان، ملطّخةً بالدم، وهي تُنسى على ضفاف النهر. . .

رمش بعينيه وتبدّدت الرؤية التي كانت تستبدّ بخياله. قبل اختلاق أفلام خيالية، لا بدّ له من أدلّة. استعاد تفكيره من زاوية أخرى. كان شون رجلاً مدنياً، وليس شرطياً. ولكي يقوم بإجراء التحاليل على سجّادة السيارة، كان لا بدّ له من الذهاب إلى مختبرٍ خاصٍّ للتحاليل. أمسك غاسبار برأسه بين راحتي يديه، وهو يحاول أن يوصل بين كلّ خيوط تحقيقه. كان شون قد زار آل لانغلوا في 22 ديسمبر، عشيّة موته. لو كان قد ذهب إلى مختبرٍ، فالأرجح سيكون ذلك قد حدث في اليوم التالي. صعقتْ صورةٌ غاسبار: رؤية مفكّرة شون وفيها، بتاريخ 23 ديسمبر، الموعد مع الطبيب الغامض شتوكهاوسن.

أخرج هاتفه المحمول وبدأ بالبحث في محرّك غوغل، صديقه الجديد، من خلال إدخال عدّة كلمات مفتاحية: «مانهاتن»، «مختبر التحاليل الطبية»، «حمض نووي»، «شتوكهاوسن». . . خلال بضع ثوانٍ، عثر على ما كان يبحث عنه: عنوان مختبر تحليل الدم للطبّ الشرعي باسم «بيليتييه وشتوكهاوسن» في آبر إيست سايد.

زار موقع المختبر الطبي، فوجد أنّ المختبر، بحسب التعريف الموجود في الموقع، متخصّص في مجال «التحاليل الجينية المخصّصة لتحديد هوية الأشخاص». مستفيداً من كميّة من الاعتمادات (مكتب التحقيقات الفيدرالي، محاكم، دوائر قضائية أميركية)، كان المختبر مفضّلاً باستمرار في مجال الإجراءات الجنائية والقضائية لتحديد وتحليل الآثار البيولوجية المتروكة في مسرح الجريمة. أمّا الأفراد، فكانوا يلجؤون إليه على نحوٍ خاصّ لإجراء

تحاليل إثبات البنوّة والنسب. أتاح مقطعٌ منشور في الموقع قراءة السيرة الذاتية لمؤسِّسَي المختبر: إيليان بيليتييه، الرئيسة السابقة لقسم الصيدلة في مستشفى سان-لوك في مونتريال، ودوايت شتوكهاوسن، طبيب متخصِّص في علم الأحياء، حائز على شهادته من جامعة جونز هوبكنز.

اتّصل غاسبار بالمختبر وتحدّث إلى مكتب سكرتارية الدكتور شتوكهاوسن. كرّر القصة نفسها، فقال إنّه كاتبٌ ويرغب في التحدّث إلى الدكتور شتوكهاوسن في إطار كتابة سيرة ذاتية عن الرسّام شون لورينز. نصحته السكرتيرة أن يرسل رسالة عبر البريد الإلكتروني ويعرض فيها طلبه كتابياً. ألحّ غاسبار على أن يُسجّل رقم هاتفه وأن يُنقَل طلبه وجهاً لوجه إلى الشخص المعني. أكّدت الموظّفة أنّها ستفعل ذلك، ومن ثمّ أغلقت السمّاعة في وجهه تقريباً.

تنهّد غاضباً. **تبّاً لكِ...**

في اللحظة نفسها، تلقّى رسالة على هاتفه من مادلين، تطلب منه أن يزوّدها برقم هاتف إيزابيلا. ظلّ وفيّاً للخطّ الذي اتّخذه، فقاوم الرغبة في الاتصال بها واكتفى بإرسال الرقم الذي طلبته.

ولأنّ مشروبه كان قد برد، رفع يده لكي يطلب كوباً آخر، لكنّ حركته توقّفت فجأةً. خلال ما يقارب دقيقة كاملة، تجمّدت نظرته على مئات القوارير المصفوفة على الجدار الذي يقع خلف نادل المشروبات. روم، كونياك، جن، بنيديكتين، شارتروز. أبهرته ألوانها الناصعة واللامعة مثل حبّات الألماس وسحرته. كانت خمورٌ نارية ومشروباتٌ كحولية معطّرة تلمع في قواريرها الزجاجية. آرمانياك، كالفادوس، أبسينت، كوراساو، فيرموت، كوانترو.

للحظةٍ، سمح غاسبار لنفسه بأن يعتقد بأنّه قد يُفكّر على نحوٍ

أفضل بعد جرعةٍ من الكحول. على المدى القصير، كان ذلك بلا شكّ صحيحاً، ولكن إذا ما استغرق في الشراب الآن، سوف يخرج تحقيقه عن المسار الصارم، والزاهد والفاضل الذي كان قد بدأ السير فيه. ومع ذلك، كان للبريق اللامع للويسكي سلطة جذبٍ تكاد تكون لا حدود لها. أحسّ بأنه ينهار أمام إغرائه. كانت تلك ميزة الفطام: خطر أن يوصلك الحرمان إلى لحظة لم تكن تتوقعها. انفتحت فجوةٌ في جوفه، وانضغط صدره، ونبض صدغاه بقوّة تحت العرق المتصبّب.

كان يعرف المذاق الخاصّ بكلّ قارورة، وبكلّ ماركة، وبكلّ علامة. ويسكي بلند الياباني، الحلو المذاق بنكهة القشدة، ونكهة الشعير النابتة في ويسكي سينغل مالت الاسكتلندي، والنكهات القوية للويسكي الإيرلندي، ونكهة العسل لشراب بوربون المعتّق، ونكهات البرتقال والدرّاق لويسكي تشيفاز.

وكما في الليلة التي سبقت، ابتلع غاسبار ريقه وحكّ كتفيه ورقبته لكي يحدّ من ارتعاشه. ولكن، هذه المرّة، لم تذهب العاصفة كما جاءت. لم يعد يسيطر على نفسه، ورغم كلّ إرادته الصلبة، كان على وشك أن يستسلم.

وعند هذه اللحظة بالضبط، رنّ هاتفه، وظهر على الشاشة رقم هاتفٍ محمولٍ غير معروف لديه.

سأل وهو يفتح السماعة، مع شعورٍ بأنّ صوته يتلوّى لكي يجتاز حاجز حنجرته:

- نعم؟

- السيّد كوتانس؟ أنا دوايت شتوكهاوسن. هل لديك فرصة قبل موعد الغداء؟

2.

أنزلت مادلين واقية الشمس لكي تحمي عينيها من انعكاس النور.

كان الضوء يشعّ في كلّ مكان، مبهراً الأبصار، وطاغياً على كلّ شيء وملتهماً كامل حقل الرؤية لديها.

كانت، منذ ساعتين، وهي خلف مقود سيارة البيك أب، تسلك الطريق نحو لونغ آيلند. كانت الإطلالة متباينة، تتناوب بين مشاهد مزعجة وأخرى رائعة الجمال. تناوبت القصور الفخمة لأصحاب الملايين مع أكواخ القرويين العائدة إلى الخمسينيات، ومناظر من نهاية العالم: شواطئ من الرمل الأبيض تمتدّ إلى ما لا نهاية تحت سماءٍ مصبوغة بلون الكلس. بعد أن تجاوزت ويستهامبتون، عبرت بعد عشرين كيلومتراً البلدات الكبيرة -ساوثهامبتون، بريدجهامبتون- التي تتوالى على طول القطاع المحاذي للمحيط الأطلسي.

عند منعطف طريقٍ رملي، بدا أنّ نظام تحديد المواقع قد تشوّش. ظنّت مادلين بأنّها قد تاهت وبحثت عن تحويلة يمكنها من خلالها أن تسلك طريق العودة. وفي تلك الأثناء، رأت دار المسنّين. كانت تقع على بعد ما يقارب خمسين متراً من الشاطئ، وهي عبارة عن عمارة ضخمة وقديمة مبنية بألواحٍ خشبية ومحاطة بأشجار الصنوبر والبتولا.

أوقفت سيارتها بالقرب من الأشجار وصفقت باب سيارة البيك أب. سحرها الجو البرّي للمكان في الحال. تحت سماءٍ بلون اللبن، كانت الرياح تثور، مشكّلة الكثبان، ومشبعة الهواء برائحة تمزج بين اليود والقلويات.

صعدت الدرج المؤدّي إلى المدخل. لم يكن هناك لا جرس

ولا نظام للفتح الآلي. فقط كان هناك بابٌ ذو طلاءٍ متقشّر محميّ بستارة ممزّقة، أصدر صريراً حينما دفعَتْه. دخلت مادلين إلى بهوٍ مقفرٍ تفوح منه رائحة الرطوبة.

- هل من أحدٍ هنا؟

في البداية، كان الردّ الوحيد من الريح التي هدّدت باقتلاع مفاصل النوافذ.

ثمّ ظهر رجل شعره طويل وأصهب في أعلى الدرج. رجلٌ مبتذل الهندام ويرتدي بدلة ممرّضٍ لونها أبيض متّسخة بعض الشيء، ويمسك في يده علبة من مشروب دكتور بيبر الغازي.

قالت مادلين:

- صباح الخير. ربّما أكون قد أخطأتُ في العنوان...

أكّد الممرّض وهو ينزل الدرج:

- كلّا. أنتِ بالفعل في منزل إيلنروك لإيواء المسنّين.

- يبدو أنّه ليس هناك الكثير من الناس هنا.

كان للرجل وجهٌ مثير للخوف بعض الشيء -وجهٌ ممزّق بآثار جروحٍ وندوبٍ ناجمة عن حَبّ الشباب- ولكن مع ذلك كانت تبرز منه عينان زرقاوان هادئتان ولطيفتان على نحوٍ مدهش.

عرّف بنفسه وهو يعقد شعره برباطٍ بلاستيكي:

- أُدعى هوراس.

- مادلين غرين.

وضع علبة المشروب الغازي على اللوح الخشبي المُستخدَم كطاولة في مكتب الاستقبال.

شرح قائلاً:

- معظم النزلاء غادروا. سوف تُغلق دار المسنّين أبوابها نهائياً بحلول نهاية شهر فبراير.

- حقّاً؟

- سوف يتمّ هدم البناء لإقامة فندقٍ فاخر في مكانه.

- هذا مؤسف.

عبس هوراس.

- مافيات وول ستريت تنهب كلّ المنطقة. إنّها بالأحرى تنهب كلّ البلاد! ولن تتوقّف ممارسات السرقة والنهب هذه بانتخاب هذا البليد تيد كوبلاند.

لم تجازف مادلين في أن تتورّط في الحديث في الشأن السياسي.

- جئتُ لزيارة إحدى النزيلات في داركم، وتُدعى أنتونيلا بونينسيغنا، هل هي موجودة هنا؟

- تقصدين نيلا؟ نعم، أعتقد أنّها ستكون آخر مَنْ يُغادر هذه الدار.

نظر إلى ساعة يده.

- أوه، لقد نسيتُ حتى غداءها! في هذا الوقت، سوف تجدينها في الشرفة.

أشار هوراس إلى نهاية البهو.

- اجتازي قاعة الطعام، وستكونين في الشرفة. هل أجلب لكِ شيئاً تشربينه؟

- أريدُ علبة كوكاكولا، من فضلك.

- بلا سكّر؟

ردّت وهي تشير إلى حزام بنطلونها الجينز:

- علبة كوكا حقيقية! لا يزال لديّ هامشٌ صغير، أليس كذلك؟

ابتسم الممرّض وهو يختفي في المطابخ:

- ليس هذا ما كنتُ أقصده.

كانت القاعة المشتركة في الطابق الأرضي تُذكّر بمنزلٍ عائلي. فيها عوارض ظاهرة وطاولات فردية من الخشب الجافّ، مغطّاة بنسيجٍ مشمّع عليه نقوش للأصداف البحرية. من دون أن ننسى الديكور «البحري» الغنيّ عن التعريف الذي كان موضة في الأعداد القديمة من مجلة **فنون وديكور** في التسعينيات: مصابيح على هيئة كرات زجاجية، تماثيل سفن شراعية مغبرة، بوصلات وفراجير من نحاس، أسماك محنّطة...

حينما دخلت إلى صالة العرض المزجّجة التي تعصف بها الرياح، أحسّت مادلين بأنّها قد أصبحت على متن سفينة شراعية ذات سارية ثلاثية في مهبّ العاصفة. بدت الشرفة، بجدرانها المتشقّقة وسقفها الذي يرشح رطوبةً، على وشك أن تتداعى.

وجدت نيلا بونينسيغنا جالسةً إلى طاولةٍ صغيرة، في الزاوية الأقصى من الشرفة. كانت امرأة عجوز نحيلة ذات وجه شبيه بوجه فأر وعينين مشعّتين على نحوٍ مفرطٍ تلتمعان خلف نظّارة سميكة مثل عدسة مكبّرة. كانت ترتدي ثوباً بالياً ذا ياقة من طراز كلودين، داكن اللون، وتضع بطانية من الصوف منقوشة برسوم اسكتلندية على ركبتيها، وتستغرق في قراءة رواية ضخمة: **المدينة التي لا تنام أبداً**، لآرثر كوستيلو.

- صباح الخير، سيّدتي.

أجابت السيّدة العجوز وهي ترفع عينيها عن كتابها:

- صباح الخير.

- هل روايتك جميلة؟

- إنّها إحدى رواياتي المفضّلة. هذه هي المرّة الثانية التي أقرأها. من المؤسف أنّ الكاتب قد توقّف عن الكتابة.

- هل مات؟

- كلّا، لقد تحطّمت حياته. مات أطفاله في حادث سيارة. هل أنتِ مَن ستقومين بإعطائي حقنتي؟

- كلّا، يا سيّدتي، أنا أُدعى مادلين غرين، أنّا محقّقة.

- وأنتِ إنجليزية، علاوة على ذلك.

- هذا صحيح، كيف عرفتِ ذلك؟

- من لهجتكِ، يا عزيزتي! من مانشستر، أليس كذلك؟

وافقتها مادلين بهزّة خفيفة من رأسها. في العادة، لم تكن ترغب في أن تكون شفّافة إلى هذه الدرجة، لكنّ السيّدة العجوز لم تقُل ذلك لكي تُغيظها.

أضافت نيلا:

- زوجي كان إنجليزياً. كان من بريستويتش.

- إذاً، كان يحبّ كرة القدم.

- كان مغرماً بفريق مانشستر يونايتد في عصره الذهبي.

- عصر ريان غيغز وإيريك كانتونا؟

أفرجت السيّدة العجوز عن ابتسامة ماكرة.

- بالأحرى عصر بوبي تشارلتون وجورج بيست!

عادت مادلين إلى الحديث الجدّي.

- جئتُ لمقابلتكِ لأنني أُجري تحقيقاً حول قضية. قضية اختطاف وقتل ابن شون لورينز، هل تتذكّرين ذلك؟

- الرسّام؟ بالطبع. هل تعرفين أنّ جاكسون بولوك قد أقام في مكانٍ قريبٍ جدّاً من هنا؟ لقد مات في قرية سبرينغز، على بعد عشرة

كيلومترات، في حادث سيارة. كان مع عشيقته في سيارة من طراز أولدزموبيل مكشوفة السقف. كان يقود السيارة وهو ثملٌ تماماً و. . .

قاطعتها مادلين:

- لقد سمعتُ حديثاً عن هذه القصّة، ولكنّها كانت في الخمسينيات. أمّا شون لورينز، فقد كان فنّاناً معاصراً.

- هل تعتقدين أنني فقدتُ عقلي، يا عزيزتي؟

- لا أبداً. كان لورينز صديق أحد تلامذتكِ القدامى: أدريانو سوتومايور. هل تتذكّرينه؟

- آه، الصغير أدريانو. . .

تركت نيلا بونينسيغنا جملتها معلّقة في حين تغيّرت ملامح وجهها، كما لو أنّ مجرّد ذكر الطفل طرد كلّ أثر للمزاح أو المرح.

- هل كنتِ أنتِ من أخبرتِ مديرية الخدمات الاجتماعية في المقاطعة بأعمال العنف التي كان والده إرنستو سوتومايور يرتكبها؟

- هذا صحيح. كان ذلك في أواسط السبعينيات.

- هل كان إرنستو يضرب غالباً ابنه؟

- بل أكثر من ذلك. كان ذاك الرجل في الحقيقة وحشاً. سفّاحٌ حقيقي.

أصبح صوت السيّدة العجوز أجشّاً:

- لقد تعرّض لكلّ أنواع العقاب: غطس الرأس في كرسي المرحاض، جلدٌ بالحزام، لكمات، حرق بالسيجارة في كلّ أنحاء الجسم. ذات يوم، أجبر الصبي على أن يُبقي ذراعيه مرفوعتين في الهواء لعدّة ساعات. وفي مرّة أخرى، جعله يسير على الزجاج المكسور. وهذا غيضٌ من فيض.

- لماذا كان يفعل كلّ هذا؟

- لأنّ البشرية تضمّ في صفوفها عدداً كبيراً من الوحوش والأشخاص الساديين، ولأنّها هكذا كانت على الدوام.

- كيف كان أدريانو؟

- كان صبيّاً حزيناً ولطيفاً ويعاني من صعوبة في التركيز. كان يشرد غالباً ويسرح بتفكيره ونظرته، يذهب إلى مكانٍ آخر، إلى مكانٍ بعيدٍ جدّاً. ظننتُ أنّه يعاني من مشكلةٍ ما، حتى قبل أن أكتشف آثار سوء المعاملة على جسده.

- هل هو الذي اعترف لكِ في نهاية المطاف وكشف الأمر؟

- روى لي بعض التفاصيل حول ما كان والده يُذيقه من عذاب، نعم. كان إرنستو يضربه من دون أيّ سبب، ويُخضعه لعقوبات قد تستمرّ لساعات وتُنفّذُ في معظم الأوقات في جوف قاربه الخاصّ بالصيد.

- هل كانت أمّه تتظاهر بأنّها لا ترى ذلك؟

قلّصت المعلّمة السابقة عينيها:

- الأم، إذا ما أردنا... ماذا كان اسمها، تلك السيّدة؟ آه نعم، بيانكا...

- انتهى بها الأمر إلى ترك البيت، هل هذا صحيح؟

أخرجت نيلا منديلاً من النسيج من جيبها، ومسحت به عدسات نظّارتها من طراز براولين. منحها هذا النوع من النظّارات، مع شعرها الأبيض، مظهراً شبيهاً بمظهر الكولونيل ساندرز.

ثمّ أجابت مجازفةً:

- أتصوّر أنّها هي الأخرى كانت تُشبَع ضرباً.

صرخ هوراس وهو يضع على الطاولة صينية عليها علبة

كوكاكولا، وإبريق شاي وكذلك قطعتي فطائر محشوّتين بالسلمون والبصل والقبّار والجبنة الطازجة:

- انتبهوا أنا قادم!

عرضت نيلا على مادلين أن تقاسمها وجبتها. أكّدت لها وهي تغرز أسنانها في فطيرتها:

- إنّها لا تضاهي فطائر روس أند دوترز، ولكنّها مع ذلك لذيذة جدّاً.

فعلت مادلين الأمر ذاته، ومن ثمّ شربت جرعة من الصودا قبل أن تُكمل استجوابها:

- لقد قيل لي بأنّه كان لدى أدريانو أخٌ.

قطّبت المعلّمة العجوز حاجبيها.

- كلا، لا أعتقد ذلك.

- أجل، أنا متأكّدة من ذلك. كان يُدعى روبن. كان يصغره بسبع سنوات.

أخذت نيلا وقتها للتفكير.

- في تلك الفترة، حينما رحلت بيانكا، سَرَت إشاعات بأنّها كانت حاملاً من رجلٍ غير إرنستو. إنّها من أولئك الإشاعات التي نسمعها في المدن الصغيرة.

- ألم تصدّقي ذلك؟

- ربّما كانت بيانكا حاملاً، لكن إذا كان ذلك صحيحاً، فلا بدّ أنّه من زوجها. كانت بيانكا جميلة، ولكن لم يكن هناك أيّ رجل في تيبيرتون لديه الجرأة على التورّط مع مجنونٍ مسعور مثل إرنستو.

كانت مادلين تعود دائماً إلى أمرٍ يشغل تركيزها:

- لماذا تخلّت بيانكا عن ابنها البكر؟

هزّت نيلا كتفيها دلالة على عدم فهمها لهذا الأمر. أخذت قضمة أخرى من الفطيرة، ثمّ تذكّرت فجأةً ما كانت قد نسيت أن تسأله لمادلين:

- كيف عرفتِ كلّ هذه القصص؟ وكيف عثرتِ على مكان إقامتي؟

أجابت مادلين:

- بفضل إيزابيلا رودريغيز.

احتاجت المعلّمة إلى بضع ثوانٍ لكي تتذكّر ابنة عمّة أدريانو.

- إيزابيلا الصغيرة، بالطبع. لقد جاءت لزيارتي عدّة مرّات. إنّها فتاةٌ طيّبة، مثلكِ.

قالت مادلين ممازحةً:

- لا يغرّنكِ المظاهر. لستُ فتاة طيّبة تماماً.

بادلتها نيلا ابتسامتها.

- بالتأكيد أجل.

- وأدريانو، هل التقيتِ به، بعد ذلك؟

- كلّا، لكنني فكّرتُ فيه كثيراً. أتمنى أن يكون بخير. هل لديكِ أخبارٌ عنه؟

تردّدت مادلين. ما الفائدة من إيلام هذه السيّدة العجوز بأخبارٍ مشؤومة؟

- إنّه بأفضل حال، لا تقلقي بشأنه.

ردّت المعلّمة:

- ربّما أنتِ فتاةٌ طيّبة، لكنّكِ كاذبة.

- أنتِ محقّة، يا نيلا. أنتِ جديرة بمعرفة الحقيقة. لقد مات أدريانو قبل ما يُقارب عامين.

- لا بدّ أنّ لهذا الأمر علاقة بالتحقيق الذي تقومين بإجرائه، وإلّا لَما جئتِ لمقابلتي. . .

- بصراحة، لا أعلم شيئاً عن ذلك حتى الآن.

ولكي لا تركّز على قضية موت الشرطي، غيّرت الموضوع:

- في نهاية حياته، كان إرنستو يعاني من سرطانٍ في الحنجرة. يبدو أنّ أدريانو قد استقبله في بيته. هل يبدو لكِ هذا الأمر محتملاً؟

أُصيبت نيلا بالشدوه، واتّسعت حدقتا عينيها خلف عدسات نظارتها السميكة.

- إذا كان هذا صحيحاً، فهذا أمرٌ مثيرٌ للدهشة. سيُدهشني أن يكون أدريانو قد أصبح أحد أتباع المؤسسة الخيرية المسيحية.

سألتها مادلين وهي تساعدها في تناول كوب الشاي:

- ماذا تعنين؟

- بما أننا لم نخضع نحن للآلام الناجمة عن التعذيب، لسنا قادرين على تصوّر صعوبتها. إنّ نوع الممارسات التي تعرّض لها أدريانو، والمدّة التي تحمّلها خلالها، كل ذلك يترك آثاراً وأعراضاً قوية. إنّه يُحدثُ اضطراباً ذهنياً لا يمكن تخيّله.

ألحّت عليها مادلين:

- ماذا تقصدين؟

- أعتقد أنّه في لحظة ما، يصبح من المستحيل التغاضي عن هذا الألم وهذا الحقد المتراكمين. بطريقة أو أخرى، سينتهي بكِ المطاف إلى أن تردّيهما عليكِ أو على الآخرين.

حثّت الأقوال الكئيبة للمعلّمة السابقة مادلين على أن تفتح باباً أخيراً:

- **ملك العفاريت،** هل تعرفين شيئاً عنه؟

- كلّا. هل هذه ماركة لأثاث الحدائق؟

نهضت مادلين لكي تستأذن بالانصراف.

- شكراً لمساعدتكِ، يا نيلا.

كانت هذه المرأة قد أثارت إعجابها. المرأة التي تمنّت لو أنّها كانت جدّتها. قبل أن تغادر، عبّرت عن القلق الذي ظلّ يدور في رأسها منذ لحظة وصولها إلى هذا المكان:

- هذا الممرّض، هنا...

- تقصدين هوراس؟

- نعم. هل يُحسن معاملتكِ؟ شكله غريب.

- لا تنخدعي بالمظاهر. في كلّ الأحوال، لا تسيئي الظنّ به. إنّه صبيٌّ طيّب، اطمئني. هو الآخر، لم تكن حياته سهلة.

كما لو أنّها أرادت أن تشدّد على أقوال نيلا وتؤكّدها، أصدرت الشرفة صريراً مقلقاً تحت تأثير هبوب رياحٍ كانت أشدّ ممّا قبلها. لم تستطِعْ مادلين أن تمنع نفسها من رفع رأسها نحو السقف الزجاجي، وهي تتوقّع انهياره.

- لقد قيل لي بأنّ دار المسنّين سوف تُغلق أبوابها. هل هذا صحيح؟

- نعم، بعد ثلاثة أشهر.

- هل لديكِ خطّة بديلة للإقامة؟

- لا تقلقي بشأني، سوف ألتحق بزوجي.

- كنتُ أعتقد أنّه قد مات.

- منذ عام 1996، نعم.

لم يرُق لمادلين الاتجاه الذي اتّخذه الحديث.

- برأيي، لستِ قريبة من أوان موتكِ. تبدين بصحّة جيّدة.

طردت السيّدة العجوز بحركة هذه الفكرة غير الواقعية، وبينما كانت مادلين تعود إلى الصالون، استوقفتها:

- لا أدري عن ماذا تبحثين، لكنّكِ سوف لن تعثري عليه.

- أنتِ عرّافة أم ماذا؟

ابتسمت نيلا ومسّدت شعرها بمنتهى الدلال. أكّدت عليها:

- ولكنّكِ سوف تعثرين على شيءٍ آخر.

لوّحت لها مادلين بيدها وتوجّهت نحو سيارتها البيك أب المركونة تحت أشجار الصنوبر.

قبل أن تسلك طريق المغادرة، سارت حتى وصلت إلى الشاطئ، الموحش، والمحمي، والمتجاوز للزمن. خلال بضعة أشهر، سوف تأتي رافعات وخلّاطات الإسمنت لتشقّ الأرض وتبني في المكان فندقاً، وحمّام بخار، ومهبطاً للمروحيات. بدا لها كلّ ذلك ضرباً من الغباء والشرّ واللاإنسانية.

اللعنة، ها هي تتكلّم أيضاً مثل كوتانس...

عادت إلى سيارتها البيك أب. ولكي تحتفظ بذكرى من المكان، التقطت صورة للشاطئ ذي الرمل الأبيض وأخرى لدار المسنّين. ربّما كانت السيّدة العجوز محقّة في ما قالته. ربّما كانت مادلين قد عثرت على شيءٍ آخر هنا. حتى وإن كانت لا تعلم بعد ما هو.

صعدت إلى السيارة وأدارت مفتاح تشغيل المحرّك، وأقلعت بسرعة لكي تصل إلى الطريق الرئيس. هناك، سارت لكيلومترات عديدة، وهي تحاول أن ترتّب أفكارها. كانت تسير منذ أكثر من ساعة، حينما رنّ هاتفها المحمول. ظهر اسمٌ على شاشة هاتفها.

اسم دومينيك وو.

.3

في الحي، كان على الجميع أنّ يسمّوا العمارة باسم روبيك كيوب، أو على الأقلّ هذا ما تخيّله كوتانس حينما أنزلته سيارة الأجرة في شمال آبر إيست سايد، عند زاوية تقاطع الشارع رقم 102 مع جادّة ماديسون.

كان مختبر بيليتييه وشتوكهاوسن عبارة عن مكعّب زجاجي متعدّد الألوان. خليطٌ مرقّع متنوّع، تتناقض ألوانه مع اللونين الرمادي والكستنائي الخافت للعمارات المحيطة به.

من قال إنّ الأميركيين لا يعطّلون أبداً؟ في نهاية صبيحة هذا اليوم على الأقلّ، لم يكُن المختبر يضجّ بالنشاط. أعلن غاسبار عن حضوره لدى موظّفة أنيقة وممشوقة القامة، ولكنّها ذات جسدٍ هزيل ووجهٍ ناتئ: كانت خطوطٌ سوداء بزوايا قائمة تغزو وجهها، وبشرتها شاحبة، ونظرتها كئيبة وسوداوية تذكّر ببعض شخصيات الرسّام برنار بوفيه.

قادته الآنسة الرفيعة والطويلة مثل سلكٍ معدني إلى مكتبٍ في الطابق السادس، مُطلٌ على المجمّع الضخم لمستشفى ماونت سيناي.

هتف مالك المختبر:

- ادخلْ إذاً، يا سيّد كوتانس!

كان دوايت شتوكهاوسن على وشك المغادرة. كانت هناك، بالقرب من أريكة ماركة فلورنس نول، حقيبتا سفر من ماركة آلزر من نسيج مشبّك، وحقيبة يد منسجمة معهما، وزوجٌ من أحذية طويلة الساق من ماركة مون بوت من الفراء.

- سوف نقضي ليلة رأس السنة في أسبن. في فندق جيروم. هل سبق لك أن نزلت فيه؟

اهتزّ صوته بغرورٍ واضح. اقترب من غاسبار ومدّ إليه يده على طريقة الأوروبيين.

أجاب الكاتب المسرحي:

- ليس مؤخّراً.

بحركة من يده، دعاه الطبيب المخبري إلى الجلوس على الأريكة.

أمّا هو، فقد ظلّ واقفاً لدقيقة أخرى، وبدأ يكتب، وعيونه شاخصة إلى الشاشة، على هاتفٍ ذكي بدا قزماً مقارنة بأصابعه الضخمة والمفتولة.

- سأكون في خدمتك بعد لحظةٍ. الوقت المطلوب فقط لإكمال هذه الاستمارة الملعونة للمطار.

استغلّ غاسبار ذاك الفاصل لكي يتأمّل في تفاصيل مضيفه. حينما كان طفلاً، كانت أمّه تواعد غالباً رجالاً مثله، كانوا يعيشون في الدائرة السادسة عشرة من باريس، في بيلغرافيا أو بيكون هيل. كانت وجنتاه ومظهره الجانبي الشبيه بلويس السادس عشر تتناسق على نحوٍ مدهش مع بنطلونه من طراز برنس-دو-غال، وسترته المخطّطة والبرّاقة، وجواربه من طراز غاماريلي المدسوسة في حذاءٍ ذي شرابة.

وأخيراً، قرّر سليل آل بوربون أن يضع هاتفه ويأتي للجلوس أمام غاسبار.

- أعتقد أنّك كنت تريد أن تحدّثني عن شون لورينز، أليس كذلك؟

- بحسب ما أعلم، جاء لمقابلتك، قبل عام. في 23 ديسمبر من سنة 2015، يوم وفاته.

- أتذكّر ذلك. أنا مَن استقبلته يومذاك. كان رسّاماً شهيراً، أليس كذلك؟

أشار شتوكهاوسن إلى جدران مكتبه العملاق وأكّد بنبرته المتحذلقة التي تَميَّز بها:

- كما ترى، أنا بنفسي من هواة جمع اللوحات الفنية.

لاحظ غاسبار بالفعل رسمة للوحة الجدارية **فتاة البالون** لبانكسي - وهي الرسمة نفسها التي نجدها في آلاف الصالونات أو في خلفية شاشة ملايين الحواسيب. كما تعرّف أيضاً على عمل لداميان هيرست -الجمجمة السرمدية المرصّعة بحبّات الألماس التي خلّدت اسمه إلى الأبد- وكذلك تمثال منحوت ضخم لأرمان يصوّر آلة كمان متشظّية (لكن هل سبق لأرمان أن رسم شيئاً آخر سوى آلات كمان غاضبة؟). باختصار، الأعمال التي كان يمقتها.

- لنعُد إلى لورينز، إذا أردت ذلك.

منزلقاً مثل سمكة الأنقليس، لم يشأ الطبيب المخبري أن يدع غاسبار يُدير الحديث. سأل:

- في البداية، كيف سمعت عن هذه القصّة؟

رفض غاسبار أن يدخل في لعبته. إذا كان شتوكهاوسن قد وافَقَ على أن يستقبله على نحوٍ طارئ، فذلك لأنّه كان يخشى على سمعته وسمعة مختبره.

- سوف نكسب الوقت، يا سيّد شتوكهاوسن: أخبرني **مباشرة وبالتحديد** ما الذي جاء شون لورينز يطلبه منك؟

- لا أستطيع أن أفشي لك بذلك. كلّ هذا أمرٌ سريّ، وأنت تعلم ذلك.

- أضمن لك أنّ الأمر سوف لن يبقى كذلك لزمنٍ طويل. وفي كلّ الأحوال، ليس إلى حين أن تداهمك فرقة من رجال شرطة أسبن لكي يضعوا الأصفاد في يديك. صدّقني سيثير ذلك الهلع في فندق جيروم...

أجاب الطبيب المخبري بغضب:

- وعلى أيّ أساسٍ سيتمّ توقيفي؟

- بتهمة التواطؤ في عملية قتل طفل.

تنحنح شتوكهاوسن.

- اخرج من هنا! سوف أتّصل بمحاميّ الخاصّ.

على العكس من طلب مضيفه، انغرس غاسبار أكثر في أريكته القاسية.

- لسنا مضطرّين لأن نصل إلى هكذا نهايات.

- ما الذي تريد أن تعرفه بالضبط؟

- لقد سبق وأخبرتك عمّا أريده.

غدا لويس السادس عشر في وضعٍ حرج. سحب منديله الحريري من الجيب العلوي لسترته لكي يمسح عرقه. وقرّر أن يستسلم.

- في يوم 23 ديسمبر ذاك، وصل شون لورينز إلى مكتبي وهو هائجٌ جدّاً، كما لو أنّه مجنون. بصراحة، لو لم يكن بتلك الشهرة، لما استقبلته أبداً في مكتبي.

- كان يحمل معه كيساً بلاستيكياً، أهذا صحيح؟

قلب شتوكهاوسن شفته تعبيراً عن الامتعاض.

- نعم كيسٌ خاصّ بحاويات القمامة، وفيه سجّادة قديمة. سجّادة من النوع الذي نجده في أرضية السيارات.

هزّ غاسبار رأسه موافقاً.

- جاءت السجادة بالفعل من صندوق سيارة دودج.

استأنف الطبيب المخبري كلامه:

- باختصار، كان لورينز يريد أن يعرف ما إذا كانت على تلك السجّادة آثار جينية قد تتطابق مع جينات ابنه.

- هل هذا ممكن، من الناحية التقنية؟

هزّ شتوكهاوسن كتفيه أمام فظاظة السؤال.

- بالطبع، طالما أنّ لورينز كان ماثلاً أمامنا. كلّ ما كان علينا فعله هو أخذ القليل من لعابه بوساطة عود في رأسه قطن. كانت مقارنة الحمض النووي التي طلبها منّي بالكاد أكثر تطوّراً من اختبارٍ عادي لإثبات الأبوّة. باستثناء أنّها تتطلّب وقتاً أكثر بقليل.

- وأتصوّر أنّ شون كان مستعجلاً على إجراء هذا التحليل.

هزّ مدير المختبر رأسه.

- خلال أعياد نهاية السنة، تكون الأمور معقّدة دائماً بسبب إجازات موظفي المختبر، لكن كلّ المشاكل تُحَلّ حينما توافق على إخراج دفتر الشيكات من جيبك.

- في هذه الحالة، كم كان مبلغ الشيك؟

- في هذه الحالة، كانت الأجور أفضل من شيك.

نهض شتوكهاوسن لكي يتوجّه نحو لوحة بانكسي التي كانت تختبئ خلفها خزنة حديد تعمل من خلال التعرّف على البصمات. فتح الطبيب المخبري الدُّرْجَ الفولاذي وأخرَجَ منه إطاراً صغيراً من

الخشب الغامق. كانت هناك، تحت زجاج الإطار، رسمَة موقّعة باسم شون لورينز، تصوّر خط ناطحة السحاب في نيويورك.

تخيّل غاسبار المشهد وسبّب له ذلك شعوراً بالغثيان: الطبيب شتوكهاوسن الضخم وهو ينتزع من لورينز، المحتضر حزناً، رسمة أخيرة لكي يُجري له تحليلاً جينياً بسيطاً.

لم يبدُ لويس السادس عشر أنّه يقدّر فداحة فعله الشائن.

قهقه، متباهياً بصنيعه:

- أعتقد أنّه يمكننا القول إنّ هذا آخر عملٍ للفنان!

كتم غاسبار رغبته في تكسير الإطار وتمزيق الرسمة والخروج إلى الرصيف لنثر القصاصات الصغيرة من الورق في الهواء كما يتمّ نثر الرماد. ربّما كان هذا سيشفي غليله، لكنّه لن يساهم في تحقيق تقدّمٍ في بحثه عن الحقيقة. حافَظَ على هدوئه وواصَلَ حديثه:

- لقد رسم لك لورينز هذه الصورة إذاً لكي توافق على تسريع إجراء التحليل...

- هذا صحيح، لقد ضمنتُ له أنّ النتائج ستكون بحوزته في صبيحة يوم 26 ديسمبر. كان الأمر صعباً، لكنّه ممكناً.

- إذاً، كان من المفترض أن يمرّ بعد ذلك بثلاثة أيام لكي يقابلك، أليس كذلك؟

أكمل الطبيب:

- لكنّه لم يأتِ أبداً ليحصل على النتائج، لأنّه مات في الأثناء.

ترك شتوكهاوسن بضع ثوانٍ تمرّ، قبل أن يستأنف حديثه:

- وصلت النتائج إلينا في التوقيت المحدّد تماماً، لكنّها ظلّت في حالة انتظار في أحشاء حواسيبنا. لم يكُن هناك أمرٌ قضائي، ولم

يأتِ أحد إلينا للمطالبة بها. لدينا نظامٌ للإدارة يوجّه تلقائياً ثلاث رسائل تذكير، ثمّ غابت القضية عن بالي.

- لقد تمّ الإعلان عن وفاة لورينز في كلّ الصحف، ألم يجعلك هذا أن تتصرّف؟

- لا أرى أنّ للأمر صلة بهذا. لقد مات من جرّاء أزمة قلبية وسط الشارع.

لم يكن شتوكهاوسن مخطئاً بشأن هذه النقطة. استأنف الحديث، قائلاً:

- كلّ سنة، في بداية فصل الخريف، يقوم فريقي بإجراء عملية ترتيب واسعة لأرشيف ملفّاتنا. ولم أعلم بنتائج التحليل إلّا في أثناء عملية الترتيب هذه.

بدأ صبر غاسبار ينفد.

- وماذا كانت تقول؟

- كانت نتيجة اختبار الأبوّة إيجابية.

- بالتحديد؟

- بالتحديد: ربّما كان قد تمّ تنظيف السجّادة على عجلٍ، لكنه لم تكن هناك حاجة إلى البحث بعيداً لكي يتمّ العثور فيها على آثار دمٍ يعود إلى ابن شون لورينز.

- ولم تُبلّغوا الشرطة بذلك؟

- لقد أخبرتكَ بأنني علمتُ بذلك في شهر سبتمبر المنصرم! قمتُ ببحثٍ على شبكة الإنترنت: كان الصبي قد مات، مقتولاً على يد امرأة مجنونة. ما الذي كان سيتغيّر في الأمر؟

قال غاسبار موافقاً:

- حسنٌ.

نهض من الأريكة. ألحّ شتوكهاوسن على أن يرافقه حتى باب المصعد.

أراد مدير المختبر أن يعرف:

- وسجّادة السيارة هذه، لمن تعود؟

- ألا ترى أنّك قد تأخّرت قليلاً في الانشغال بأمرها؟

ألحّ الطبيب:

- هل هي سيارة بياتريز مونيوز؟ لقد قامت بقتل أطفالٍ آخرين، أليس كذلك؟

أدرك غاسبار بأنّه يخفي عنه شيئاً ما.

- تبّاً لك! ما الذي أخفيته عنّي، يا شتوكهاوسن؟

وصلت مقصورة المصعد، وانفتحت الأبواب، لكنّ غاسبار لم يشح ببصره عن الطبيب المخبري. بدا الرجل مقطوع الأنفاس، كما لو أنّه عَبَرَ مانهاتن جرياً.

- لقد وجدنا فعلاً آثاراً لدم ابن لورينز على هذه السجادة، ولكن ليس هذا فقط... كانت هناك آثارٌ أخرى. آثار دم، وآثار لعابٍ يعود لأشخاصٍ آخرين.

- يعود لأطفال؟

- من غير الممكن قول هذا.

- وكيف تفسِّر ذلك؟

- لا أدري! لستُ شرطياً ولا طبيباً شرعياً. يحتمل هذا الأمر ألف احتمال. ربّما هي آثار تلامس، آثار...

- ما هي قناعتك أنت؟

قال شتوكهاوسن، لاهثاً:

- قناعتي أنا، هي أنّ جثثاً أُخرى قد نُقِلَت في صندوق هذه السيارة.

4.

فتحت مادلين سمّاعة الهاتف وهي تقود سيارتها:

- أسمعك، يا دومينيك.

- لقد أنجزتُ ما طلبته مني، يا مادي: لقد بحثتُ في قضية سوتومايور ووجدتُ أمراً في غاية الغرابة.

رغم أنّ دومينيك وو كان في عطلة، واستجاب لطلب مادلين على مضض، إلّا أنّه تحدّث بصوتٍ أشبه بصوت صيادٍ ظفر بطريدته.

- بشأن أخيه؟

- أجل، روبن. قبل موته ببضعة أسابيع، ذهب إلى مفوضية شرطة غينزفيل ليُعلن عن اختفاء أمّه.

- بيانكا سوتومايور؟

- نعم. إنّها من مواليد عام 1946، وكانت في الخامسة والستين من عمرها في أثناء حادثة الاختفاء. كانت قد بلغت لتوّها سنّ التقاعد وقبضت تعويضاتها. وقبل ذلك، عملت في مستشفياتٍ مختلفة، في ماساتشوستس أولاً، ثمّ في تورنتو، وميشيغان وأورلاندو.

- هل كانت متزوّجة؟ هل كان لديها رجلٌ في حياتها؟

- لم تتزوّج سوى مرّة واحدة، بإرنستو سوتومايور، والد أدريانو وروبن. ومن ثمّ، عاشت مع طبيبٍ كندي، وبائع سيارات من أورلاندو، مات في عام 2010. في لحظة اختفائها، كانت تعاشر رجلاً شابّاً في الرابعة والأربعين من العمر، كان يدير منتجعاً في المنطقة، ويبدو أنّه كان يستغلّ ذلك كوسيلة لإقامة العلاقات مع السيّدات المسنّات.

- هل جرى تحقيقٌ في حادثة اختفائها؟

- نعم، ولكن لم يُفضِ إلى أيّة نتائج. ظلّ الملفّ فارغاً. لم يكن هناك أيّ سابق إنذار، ولا أيّ دليل، ولا أيّ أثر. لقد تبخّرت بيانكا سوتومايور.

- وهل أعلن أحد القضاة في النهاية عن موتها؟

- في شهر نوفمبر من سنة 2015.

قالت في نفسها: **ولهذا السبب استغرقت إجراءات نقل أملاك أدريانو إلى إيزابيلا وقتاً طويلاً.**

- لقد قمتُ بقسطي من العمل، يا مادي. الآن، أخبريني لماذا تهمّكِ هذه القضية؟

وعدته:

- سوف أتّصل بكَ لاحقاً.

أغلقت السمّاعة من دون أن تترك له المجال لطرح المزيد من الأسئلة.

وبعد ذلك مباشرةً، اتّصلت بإيزابيلا، ولكنّها تلقّت رسالة صوتية منها. فقرّرت أن تتّصل بغاسبار.

- أين أنت، يا كوتانس، في مانهاتن؟

- أين تريدين أن أكون؟ أمتّع نفسي في بابيتي أو في جزيرة بورا بورا مثلاً؟ أنا أخرج من مختبر شتوكهاوسن. لقد وجدتُه والتقيتُ به. هل تعرفين أنّ. . .

قاطعته، قائلة:

- نتحدّث لاحقاً. سوف أمرّ لاصطحابك. لقد استأجرتُ سيّارةً، وأنا الآن في جنوب الولاية بالقرب من قرية هيمبستيد، أعود من الهامبتونس. إنّها حكاية طويلة جدّاً. سوف أرويها لك، حينما نلتقي.

- أنا أيضاً في جعبتي الكثير من الأمور التي يجب أن أرويها لكِ.

- سوف تخبرني بها فيما بعد، أحتاج إلى ما يقارب ساعة لكي أصل. إلى ذلك الحين، أوّد أن تسدي لي خدمةً.

من خلال صوتها فقط -بنغمة واضحة ونبرة حازمة-، أدرك غاسبار أنّ مادلين لم تكن على الأحكام نفسها التي كانت تطلقها في الليلة الماضية.

- قولي في الحال.

- على بُعد شارعين من الفندق، في شارع توماس، هناك متجر لبيع الأدوات المهنية يُدعى هوغرت هاردوير. هل لديك...

- ماذا تريدن أن أفعل هناك؟

- دعني أكمل كلامي حتى النهاية! هل لديك ورقة وقلم؟ إذاً، ها هي قائمتي بالمشتريات المطلوبة: مصباحان يدويان، عصي مضيئة، عتلة من الفولاذ الصلب، كمّاشة...

- وأين سنذهب مع كلّ هذه الأدوات؟

- هذا الأمر، أنت مَن ستُخبرني به. افعَلْ بدقّة ما طلبته منك. هل تسمعني، يا كوتانس؟

من المؤكّد أنّ مادلين كانت قد عثرت على شيءٍ ضاءل الشكوك التي غذّتها حول مدى صحّة هذا التحقيق. شيءٌ لم يكن هو يستطيع أن ينتزعه.

فقال غاسبار في نفسه بأنّه كان محقّاً في الذهاب لإحضارها.

20

الابن المفضّل

الأسود لونٌ قائمٌ بذاته، يختصر ويحتوي كلّ الألوان الأخرى.

هنري ماتيس

1.

غادرا نيويورك في بداية فترة ما بعد الظهيرة ليسلكا الطريق نحو الشرق وسط ازدحامٍ مروريٍّ خانق. كانت الكيلومترات المئة الأولى حتى نيو هيفن بمثابة كابوسٍ. طريقٌ سريع مزدحمٌ بالسيارات، يتخلّله عددٌ كبير من التقاطعات. جحيمٌ حضريٌّ لا نهاية له. أرضٌ في حالة احتضار، موبوءةٌ بكتلٍ من الإسمنت، ومختنقة بثاني أوكسيد النيتروجين والجسيمات الدقيقة السابحة في الهواء.

استثمر غاسبار ومادلين الوقت الذي استغرقته رحلتهما الطويلة لتجميع عناصر اللغز المروّع. حكاية طفولة مغتالة. حكاية عنفٍ انتهى بتوليد عنفٍ مضاعَفٍ. حكاية قسوةٍ ووحشية تتكرّران يومياً وسوف تغذّيان، بعد سنواتٍ، جنوناً قاتلاً. حكاية قنبلةٍ موقوتة. حكاية طفلٍ صغيرٍ، حوّله والداه، كلٌّ بطريقته، إلى وحشٍ.

زادت مادلين من درجة حرارة التدفئة في السيارة. هبط الليلُ،

وكان النهار قد مرّ من دون أن تشعر به على إيقاع الاكتشافات المتسارعة. خرجت خفايا كاملة من الظلّ. سبق لها وأن عاشت هذه الحالة في بعض القضايا التي حقّقت فيها. إنّها اللحظة الأكثر إثارةً في التحقيق. إنّه انتقام الحقيقة، حينما تظهر بعض الحقائق إلى السطح بقوّة مدمِّرة بعد أن حُجِبت لوقتٍ طويلٍ جدّاً. بدأت السحابة بالانقشاع عن ذهنها وصعقها ما كانت ترفض التفكير فيه.

كان على الدوام من الصعب تحديد جذور أيّ مأساةٍ، وتشخيص اللحظة المحدّدة التي تتغيّر فيها حياةٌ ما رأساً على عقب. ومع ذلك، أصبحت مادلين، منذ بضع ساعات، على يقينٍ بشأن قضية جوليان. كانت المأساة قد بدأت صيف عام 1976، في تيبيرتون، وهو ميناءٌ صغير لصيد السمك في ماساتشوستس والذي كانا يسيران نحوه الآن.

في ذلك الصيف، علمت ممرّضة في المستوصف المحلي، تُدعى بيانكا سوتومايور، أنّها حاملٌ بطفلٍ ثانٍ. في اللحظة التي وقعت فيها عيناها على نتائج تحليل عيّنة من دمها، اتّخذت قراراً حازماً. بعد أن أنهكتها معاناتها اليومية من شتائم وإهانات والاعتداءات بالضرب على يد زوجها إرنستو، جمعت مدّخراتها وهجرت منزلها بين عشيّة وضحاها لكي تقوم بإعادة بناء حياتها في كندا.

في تلك الفترة، لم يكن ابنها البكر أدريانو قد بلغ السادسة من عمره بعد. ظلّ الطفل وحيداً مع والده، فبات الوعاء الذي يتلقّى كلّ عنفه. كان يوسعه ضرباً المرّة تلوى الأخرى، ويُذيقه الإهانة تلو الأخرى، ويُعامله بقسوةٍ لا يمكن تخيّلها. وكان عليه أن ينتظر سنتين أخريين طويلتين حتى تُبلّغ معلّمته نيلا بونينسيغنا عن ممارسات الأب وتُنقذ الطفل من محنته وعذابه.

وحينها، بدا أنّ حياة الطفل الصغير بدأت بالتحسّن. بعدما تمّ إبعاده عن والده، حظي أدريانو بفرصة الإقامة في حضن عائلة مُضيفة كانت حنونة وكريمة معه، حتى أنّها سمحت له بأن يحتفظ بصلته مع ابنة عمّته إيزابيلا. في هارلم، قضى فترة مراهقة عادية وارتبط بعلاقة صداقة مع الفتى شون لورينز، الذي كان عبقرية ناشئة في مجال فنّ الجرافيتي، ومع الفتاة المعذّبة بياتريز مونيوز، ابنة مهاجرين من تشيلي، والتي عانت مثله، وعاشت، بسبب شكلها، طفولة صعبة اتّسمت بالاحتقار والإهانات.

شكّل ثلاثتهم مجموعة **صنّاع الأسهم النارية**، وهي مجموعة رسّامي الجرافيتي الذين يغطّون بألوانهم الفاقعة عربات المترو وجدران مانهاتن. لم يكن أدريانو مجتهداً ومثابراً على الدروس، فترك المدرسة سريعاً، وبعد فترة شبابٍ مضطربة بعض الشيء، انتهى به المطاف بالانضمام إلى سلك الشرطة حيث تقدّم في العمل وشقّ طريقه بهدوءٍ. من الناحية الظاهرية، كان يعيش حياةً طبيعية. ولكن مَن بوسعه أن يعرف ما الذي كان يحدث في رأسه؟

وهنا بالضبط، كانت أجزاء لعبة البازل تغدو أمام افتراضات أكثر تشعّباً. كانت مادلين تعلم جيّداً أنّها تجمع من الآن فصاعداً انطباعات واحتمالات، مدعومة ببعض اكتشافاتهما القليلة بل القوية في نيويورك. ومع ذلك، كانت اللوحة العامّة التي ترتسم منسجمة ومتناسقة بطريقة لا تُصدّق.

كان أمرٌ واحدٌ مؤكّداً بالنسبة إلى مادلين: لم تكن ظلمات طفولة سوتومايور قد تبدّدت. لقد عادت وظهرت على السطح بدءاً من عام 2010. حينذاك، عثر أدريانو على أثر أخيه الأصغر روبن الذي كان يدرس في جامعة غينزفيل. هل عرف الأخوان كلّاً منهما بوجود الآخر

منذ زمنٍ طويل؟ هل تحدّثا من قبل مع بعضهما؟ كانت مادلين، إلى هذه اللحظة، تجهل ذلك. أيّاً يكن، في تلك المرحلة، استولت نزعة كراهية انتقامية على أدريانو وجرّته إلى جنونٍ قاتل. عثر على والدته في فلوريدا. لا شكّ أنّه للوهلة الأولى فكّر أن يقتلها، لكنّه عدل عن ذلك: كان الموت رحيماً جدّاً لقاء ما سامته من سوء العذاب.

لم تكن مادلين طبيبة نفسانية، لكنّها كانت تعتقد بأنّها قد عثرت على مفتاح تصرّفات أدريانو: لم يكن حقده على والده، وإنّما حقده على والدته هو الأكبر. والدته التي تخلّت عنه. والدته، المحبوبة سابقاً، التي أخلَت ساحة المعركة التي كانا يخوضانها معاً. والدته التي كان يجلّها والتي فضّلت الفرار مع الجنين الذي تحمله في بطنها.

وبالتالي، تبلورت كراهيته حول هذه الأمّ. تخيّلت مادلين حجم الصدمة التي لا بدّ أنّ الطفل الصغير قد شعر بها. حتى العنف الذي كان والده يمارسه، لم يكن يُقارَن في وطأته بهذه الصدمة الصاعقة. على الأقل هكذا كان دماغه يُعيد كتابة القصّة. الرجال عنيفون طبيعة، ولكن على الأمّهات أن يحمين أطفالهنّ. إلا أنّ والدته تركته ورحلت، وذلك لكي تحمي طفلاً آخر، وكان عليها أن تدفع ثمن هذا التخلّي.

كان السيناريو يبدو مجنوناً، لكنّه كان الباعث المنطقي الوحيد الذي وجدته مادلين لربط مسار أدريانو بجرائم **ملك العفاريت**. إذاً، اختطف أدريانو بيانكا واحتجزها وظلّ لعدّة أسابيع يروي لها مطوّلاً وبالتفصيل، كيف سيقوم بقتل روبن، وضرب ابنها المفضّل حتى الموت. استمتع لفترة بهذا التعذيب النفسي المريع، ومن ثمّ انتقل إلى مرحلة التنفيذ، فمات روبن.

لكن بيانكا سوف لن تفلت منه بهذه بسهولة. إذ سوف يُكرّر أدريانو هذه الجريمة نفسها باستمرار، وسوف يفرض عليها قتل أخيه مئة مرّة مكرّرة، وسوف تعاني عذاباً رهيباً إلى ما لا نهاية. في شهر فبراير من سنة 2012، في حديقة الأطفال في شيلتون، اختطف الطفل ميسن ميلفيل وسلّمه لبيانكا. في حبسها، لم يكُن أمامها من خيارٍ سوى أن تعتني بالطفل بأفضل ما يمكنها، بل واضطرت لأن تضاعف من حنانها ورعايتها في محاولةٍ لتخفيف الصدمة النفسية التي يعاني منها طفلٌ في الثانية من عمره تمّ فصله على نحوٍ قاسٍ عن والديه لكي يتعفّن في كهفٍ معتم بصحبة امرأةٍ لا يعرفها. حتماً، لم تستطِعْ بيانكا إلّا أن تتعلّق به، لكنّ **ملك العفاريت**، ومن دون سابق إنذار، في أواسط فصل الربيع، أخذ الطفل من أمّه وقتله، على الأرجح أمام أنظارها، قبل أن يذهب ويرمي بجثّته قرب بركة مياه. سلسلةٌ سوف يعيدها أدريانو خلال السنتين التاليتين ثلاث مرّات مع كاليب كوفن، وتوماس شتورم، ودانييل روسيل.

لم يعُد لدى مادلين أدنى شكّ حول هوية **ملك العفاريت**. أدريانو كان هو القاتل، ولكن على عكس ما كان يعتقد الجميع، لم يكن الأطفال ضحاياه الحقيقيين. من المفجع قول ذلك، لكن هؤلاء الأطفال التعساء لم يكونوا سوى أضرارٍ جانبية. كانوا مجرّد وسائل يستخدمهم لكي يُعذّب، إلى ما لا نهاية، ضحيته الوحيدة. أمّه.

.2

لدى الوصول إلى قرية مايستيك، أصبحت حركة السير سَلِسَة أخيراً. واصل البيك أب سيره بمحاذاة الساحل نحو الشرق ومن ثمّ تقدّم وسط أراضي ولاية رود آيلاند باتجاه بروفيدانس. بالاستماع

إلى محطات الراديو، كان من المستحيل تجاهل أننا على بعد ساعاتٍ فقط من احتفالات ليلة عيد الميلاد. من دين مارتن إلى نت كينغ كول، كان يبدو أنّه قد تمّ منح الفرصة لجميع المطربين لكي يشاركوا في إحياء السهرة. ما كاد لويس أرمسترونغ أن ينهي أغنية **وايت كريسماس** حتى شرع سيناترا بغناء **جنغل بيلز**.

كانت أفكار غاسبار تتقارب مع أفكار مادلين. كان يفكّر في الأسطورة الإغريقية، في العقاب الذي فرضه زيوس على بروميثيوس على إثمه في سرقة النار المقدّسة من الآلهة: قام بتركه مقيّداً على جبل لكي يقوم كلّ يوم نسر جبال كاربات بالتهام قطعة من كبده. ولأنّ الكبد لديه القدرة على التجدّد أثناء الليل، كان العذاب يتجدّد في اليوم التالي، مسبّباً ألماً أبديّاً. تكفيرٌ عن الإثم ليس بعيداً كثيراً عن ذاك الذي أخضع أدريانو أمّه له، أي قتل ابنها المفضّل مراراً وتكراراً أمام عينيها.

فكّر غاسبار في حجم الكراهية المتراكمة في أعماق سوتومايور حتى ينجرف في جنونٍ كهذا، وفكّر أيضاً في سوء حظّ كلّ أولئك الذين وجدوا أنفسهم في طريقه.

في شهر ديسمبر من سنة 2014، وضعت صُدف الحياة قدر شخصين آخرين في طريق انحرافه القاتل. التقى **صنّاع الأسهم النارية** الثلاثة ببعضهم رغماً عنهم على طريق الحياة. لكن الألوان الفاقعة التي كانوا يستخدمونها في التسعينيات كانت قد أخلت مكانها للدم والظلمات.

استسلمت بياتريز مونيوز، التي ظلّت على اتّصالٍ متقطّع بأدريانو، لشياطينها. هناك شيءٌ من المفارقة والإحباط إذا قلنا بأنّ بياتريز تمثّل الأخت الصغرى لأدريانو في الألم. الألم الذي يولّد

الألم. الكراهية نفسها التي تقودك إلى فرض الأسوأ على مَن أحببتهم بعمق. لكنّ اختلافاً كبيراً يفصل بين هاتين الروحين المشوّهتين: لم تذهب بياتريز حتى نهاية جنونها. لقد عذّبت بينيلوب لورينز جسدياً وروحياً، ولكنّها لم تسلب الحياة من جوليان.

حينما اتّخذت القرار بإعادة الطفل إلى والديه، اتّصلت بأدريانو، الذي اعتقدت أنّه شرطيٌّ نزيهٌ، لكي يقوم بدور الوسيط. اتّفقت معه على موعدٍ في نيوتاون كريك، وسلّمت إليه الطفل لكي يُعيده إلى والده ومن ثمّ انصرفت وألقت بنفسها تحت عجلاتِ قطارٍ.

وبالتالي في ظلّ هذه الظروف المريبة، وجد **ملك العفاريت** نفسه مع ابن شون الموضوع في صندوق سيارته. تركةٌ وفّرت عليه القيام باختطاف طفلٍ جديد. أخذ جوليان معه إلى المخبأ حيث سلّمه إلى بيانكا وفق طقوسٍ باتت مرتّبة جيّداً.

مرّت الأسابيع. بحسب الطريقة التي اتّبعها دائماً في عملياته، خطّط سوتومايور أن يقضي على حياة جوليان بين نهاية شهر فبراير وبداية شهر مارس. سوى أنّ **ملك العفاريت** قُتِل بحماقة، يوم 14 فبراير من سنة 2014، أمام منزله على يد تاجر مخدّراتٍ صغير.

رمش غاسبار بعينيه في حركة للعودة إلى الواقع. هذه هي الحكاية مثلما توصّلا، مادلين وهو، إلى إعادة تركيبها. من خلال ملء الفراغات بالكثير من الفرضيات. ربّما كانا يسيران في الطريق الخاطئ، ولكن إن لم يكُن الأمر كذلك، يبقى هناك سؤالان معلّقان. أين كان يحتجز **ملك العفاريت** أمّه وضحاياه؟ والسؤال الأهم، هل كان هناك أيّ احتمال في أن يكون جوليان وبيانكا لا يزالان على قيد الحياة بعد قرابة عامين من موت محتجِزِهما؟

كان الجواب عن السؤال الثاني: على الأرجح، كلا. أمّا بالنسبة إلى مكان الاحتجاز، اعتقدا بأنّهما قد حدّدا الموقع. في نيويورك، قبل بضع ساعات من ذلك، كان غاسبار قد اتّبع حدس مادلين واتّصل بأندريه، زوج إيزابيلا. وكشف له هذا الأخير أنّ عملية نقل أملاك أدريانو إلى إيزابيلا قد استغرقت وقتاً طويلاً، وواجهت تعقيداتٍ بسبب تبعات قضائية مرتبطة باختفاء بيانكا. ولتبسيط الأمور، لم يتم تسيير الإجراءات إلّا حينما وقّع القاضي المكلّف بالملفّ على شهادة وفاة زوجة خال إيزابيلا.

- يا أندريه، هل كانت هناك عقارات أخرى ضمن الميراث؟ أرض؟ شاليه؟ كوخ؟

- كان هناك المنزل القديم لعائلة سوتومايور في تيبيرتون.

- هل زرتَ هذا المنزل مؤخّراً؟

- لا أبداً! إيزابيلا تكره هذه البلدة. والمنزل... إنّه مخيف! لقد رأيتُ صوراً، يشعر المرءُ فيها بأنّه وسط فيلم رعب.

- من يُقيم فيه الآن؟

- لا أحد. إنّه معروضٌ للبيع منذ سنة، ولكن لا إقبالَ من المشترين عليه، ويبدو أنّ الوكيل العقاري لا يبذل ما يكفي من الجهد لبيعه.

كان غاسبار قد سجّل العنوان لديه. وحينما تحدّث مع مادلين في الأمر، أبدت الملاحظة بأنّه ليس من المنطقي بألّا يكون العجوز إرنستو قد سعى إلى التخلّص من هذا الكوخ حينما شخّص له الأطباء إصابته بمرض السرطان، وعاد لكي يعيش في منزل ابنه في نيويورك. تمّ ترجيح فرضية أنّ هذا الكوخ هو المخبأ الذي كان يتمّ احتجاز

بيانكا والضحايا فيه. صحيحٌ أنّ ذلك يتطلّب تنظيماً معقّداً لتأمين تموين الأسيرة حينما كان يعمل في نيويورك، ولكنه كان ممكناً.

أحسّ غاسبار أن نبضات قلبه تتسارع وأنّ الدم ينبض في صدغيه.

قالت مادلين قبل أن يسلكا الطريق:

- لا تشعر بالكثير من الحماس، يا كوتانس. كلّ ما سنكتشفه، هو عبارة عن جثّتين.

3.

بعد أكثر من أربع ساعات على الطريق، كان الآن يسيران بسرعة على الطريق الدائري الذي يحيط بمدينة بوسطن. بعد أن تجاوزا برلينغتون بقليل، توقّفا في محطّة للتزوّد بالوقود. أراد غاسبار أن يؤدّي المهمة، ولكنّه، بسبب يديه المجروحتين، واجه صعوبة في تعبئة الخزّان.

أمرته مادلين وهي تأخذ منه مضخّة تعبئة البنزين:

- هيّا، اجلب لي فنجاناً من القهوة!

رضخ لأمرها وذهب يحتمي من البرد في داخل المحطّة. أدخل بعض القطع النقدية في موزّعٍ آلي، وطلب فنجانين من قهوة **لونغو** الإيطالية بلا سكّر. كانت الساعة تقارب الثامنة مساءً. لا بدّ أنّ سهرة ليلة الميلاد قد بدأت عند بعض الأُسر. واصلت مكبّرات الصوت بثّ الأغاني الأميركية الخاصّة بأعياد الميلاد. تعرّف غاسبار على أغنية **أولد توي ترينز** الكلاسيكية لروجر ميلر. كان والده قد اعتاد أن يعزفها له على الغيتار في نسختها الفرنسية بعنوان **الطفل الصغير**، التي حوّلها غرايم أولرايت إلى أغنية شعبية. حتى وهو

رجلٌ بالغ، كانت ذكريات أعياد الميلاد في السنوات الأولى من عمره لا تزال حاضرة تماماً في ذهنه. كانت اللحظات الأكثر فرحاً بالنسبة إليه هي تلك التي يقضيها في شقّة والده المؤلّفة من حجرتين. كانت مساحتها سبعة وثلاثين متراً مربّعاً، وتقع في ساحة بول-لافارغ في ضاحية إيفري الباريسية. تذكّر وهو يضع، مساء 24 من شهر ديسمبر، بعض قطع البسكويت والشاي الساخن بالقرب من شجرة الميلاد قبل مرور بابا نويل. تذكّر هدايا كان يفرح بها مع والده: دمية بيغ جيم، لعبة سيارة السباق مع المضمار، لعبة الشجرة السحرية، لعبة هيبو غلوتون...

بشكلٍ عام، كانت الذكرى تجعله ينتحب، وكان يطردها من ذهنه. ومع ذلك، استطاع هذا المساء أن يتقبّلها من دون عداء. ببساطة، مثل لحظة جميلة نتذكّرها بامتنان. وقد يغيّر هذا الأمر كلّ شيء.

قالت مادلين شاكية وهي تأتي للانضمام إليه، وتجلس على أحد الكراسي العالية المحيطة بطاولة من البلاستيك المصبوب:

- الجو باردٌ جدّاً.

تملّكتها الرغبة في أن تزدرد قهوتها دفعة واحدة، ولكنّها لم تستطِعْ أن تفعل سوى أن تلفظها من فمها لأنّها كانت ساخنة جدّاً.

- تبّاً لك، يا كوتانس، هل تريد أن تقتلني أم ماذا؟ حتى فنجان قهوة، أمرٌ معقّد بالنسبة لك؟

كانت مادلين غرين في كامل رونقها. حينما هدأت، نهض غاسبار من مكانه لكي يجلب لها مشروباً آخر. لم يكن وارداً أن يتجادل معها وأن يحطّم الحماس الجميل لتحقيقهما.

في انتظار ذلك، تفحّصت مادلين هاتفها. لفتت رسالة إلكترونية

من دومينيك وو انتباهها: **هديّة مني، إن كنتِ وحيدة في سهرة ليلة الميلاد. عيد ميلاد سعيد.** كانت الرسالة المقتضبة مرفقة بوثيقة ضخمة. نقرت عليها لكي تفتحها. كان وو قد نجح في الحصول على شريط سجلّ معاملات أدريانو المصرفية. أي بمثابة منجم ذهب.

سأل غاسبار وهو يناولها القهوة:

- من أين لكِ هذه السعادة المفاجئة؟

أجابته وهي تحوّل ملفّ البي دي إف إلى بريده الإلكتروني:

- القِ نظرةً على هذه الوثيقة. نفقات سوتومايور. سوف ندقّق في تفاصيلها، ونتحدّث فيها بعد ذلك. فتّش عن المصاريف المتكرّرة.

وضعت مادلين فنجان قهوتها الجديد على الطاولة إلى جانب هاتفها الذكي. خلال نصف ساعة، لم تبارح نظرتها هاتفها المحمول أبداً. كانت تُطرق في التفكير، خافضة رأسها، وتستعرض أمام عينيها العشرات من صفحات سجلّ المعاملات المصرفية، وهي تدوّن بعض الملاحظات على غطاء الطاولة الورقي. كان غاسبار، إلى جانبها، يفعل الشيء نفسه وفي الحالة نفسها تماماً. بدا وكأنّهما مدمنان على ماكينات القمار في أحد كازينوهات لاس فيغاس.

كانت النفقات تسري على السنوات الثلاث الأخيرة من حياة سوتومايور. بدا هذا النوع من الوثيقة بمثابة كاميرا مراقبة مسلّطة على تفاصيل حياته، فهي تكشف عن عاداته التي درج عليها وعن المطعم الذي كان يفضّل أن يتناول فيه وجباته من السوشي في أثناء فترات الغداء، والأماكن التي كان يوقف فيها سيارته، والرسوم التي كان يدفعها لقاء سيره على الطرق السريعة، وأسماء الأطبّاء الذين كان

يرتاد عياداتهم، بل وحتى الحماقات الصغيرة التي كان يحدث أحياناً أن يسمح لنفسه بالإقدام عليها: شراء زوجٍ من الأحذية طويلة الساق من ماركة إدوارد غرين لقاء 1400 دولار، ووشاح من ماركة بربري من قماش الكشمير لقاء 600 دولار...

رفع غاسبار أخيراً رأسه، وهو يشعر بالإحباط، وقال:

- لا أرى أيّ شيءٍ يربط أدريانو مباشرةً ببلدة تيبيرتون. لا رحلة منتظمة إلى هناك، ولا فاتورة مياه أو كهرباء، ولا شراء مواد مصدرها متاجر المنطقة.

- هذا لا يعني بالضرورة الشيء الكثير. فإنّ شرطياً مثل أدريانو قادرٌ على إخفاء تحويلات مالية من خلال إنشاء حسابات مزدوجة أو من خلال الدفع نقداً من دون استخدام البطاقة الائتمانية، لكن بعض النفقات المنتظمة مثيرة للقلق.

في الواقع، تكرّرت أسماء أربعة متاجر غالباً. هوم ديبوت ولوز هوم إمبروفمنت يأتيان أوّلاً. أكبر شركتين في مجال تجهيز المنازل، وفي مجال مواد البناء والآليات في البلاد. كان مبلغ الفواتير كبيراً، الأمر الذي يشير إلى أنّ أعمالاً مهمّة قد نُفِّذَت. أعمال من قبيل الصيانة والتصليحات، أعمال عَزل الصوت، تجديد وسائل التهوية... أعمال تضطرّ للقيام بها إذا ما أردتَ أن تحتجز شخصاً لفترةٍ طويلة.

كانت الشركة الثالثة أقلّ شهرةً، واضطرا إلى البحث عنها على الإنترنت لاكتشاف مجال نشاطها والقطاع الذي تعمل فيه. كانت ليوفود عبارة عن شركة متخصّصة في مجال بيع أغذية مجمّدة عبر الإنترنت. كان يمكن العثور، في موقع الشركة الإلكتروني، على كميّة كبيرة من الحصص الغذائية العسكرية أو المواد الإغاثية، مثل

طرودٍ مكوّنة من علب السردين، ومن ألواح من الحبوب المغذّية، واللحم المقدّد ووجبات من الطعام المجمّد الذي يتمّ حفظه لفترات طويلة. كانت الشركة توفّر المؤن الضرورية للفرق المتجوّلة والبحارة، ولكن أيضاً لجميع المواطنين -الذين تتزايد أعدادهم- المقتنعين بأنّ القيامة القادمة تجعل من الضروري تخزين الأغذية بشكلٍ كبير.

أخيراً، كانت التحويلات المالية تُظهر أنّ سوتومايور كان زبوناً دائماً لموقع والغرين، وهي سلسلة رئيسة في مجال الصيدلة في أميركا. بالتأكيد كان كلّ شيء متوفّراً -أو يكاد يكون كذلك- في موقع والغرين، ولكن على نحوٍ خاص جميع منتوجات الحمّام الضرورية للرضّع والأطفال الصغار.

أنهت مادلين قهوتها الباردة والتفتت نحو غاسبار. رأت أنّه يفكّر مثلها تماماً. كان في قلبيهما أملٌ جامح. وفي رأسيهما، صورٌ يتشبّثان بها: صورُ بيانكا سوتومايور، امرأةٌ مسنّة متعبة، مسجونة منذ سنواتٍ في كهفٍ معزول. رهينة محبوسة من قبل ابنها الذي بالتأكيد كانت تعتقد أنّه قد مات. امرأةٌ ترعى منذ سنتين طفلاً وهي تحرم نفسها من كلّ شيء وتوفّر الغذاء والماء والضوء. بانتظار أن يأتي أحدٌ ما ذات يومٍ، ربّما، وينقذهما.

- أسرِعْ، يا كوتانس، فلنغادر في الحال.

4.

كانت الكيلومترات الأخيرة هي الأطول. كانت الطريق إلى بلدة تيبيرتون شاقّة ومعذّبة. قبل الوصول إلى مدينة سالم بقليل، اضطرا للسير لمسافة قصيرة على الطريق السريع US 1 قبل أن يسلكا طريقاً

صاعداً قليلاً يحيط بغابةٍ -سُميّت حسب نظام تحديد المواقع باسمٍ غريب هو بلاكسيدي وودز-، ومن ثمّ ينزلان ثانية نحو الساحل.

نظر غاسبار إلى مادلين خلسةً، ووجد أنّ شكلها قد تغيّر تماماً. كانت نظرتها تتوهّج وتلمع، ورموشها ترفّ وملامح وجهها الصارمة تجعلها تشبه الصورة التي رآها في مقالة مجلّة **نيويورك تايمز**، بل كان جسمها ممتدّاً إلى الأمام، كما لو أنّه يستعجل خوض مواجهةٍ.

وصلا إلى بلدة تيبيرتون بعد خمس ساعات من السير. بدا واضحاً أنّ إدارة المقاطعة قد تقشّفت بشأن الإنارة العامّة وزينة أعياد الميلاد: فالشوارع كانت غارقة في الظلام، وأبنية المؤسسات الرسمية لم تكن قد زيّنت وبدا أنّه حتى أضواء الميناء كانت مطفأة. بدا لهما المكان أكثر كآبةً ممّا كانا قد قرآه في المواقع السياحية على الإنترنت. كانت تيبيرتون بلدة يبلغ عدد سكانها بضعة آلاف نسمة، وكانت في السابق عبارة عن مكانٍ متميّز لصيد الأسماك، ولكن تدهورت مكانتها تدريجياً على مرّ عقودٍ من الزمن، من جرّاء معاناتها من جارتها غلوستر، وهي جارتها الشهيرة التي فرضت نفسها قبلةً لسمك التونة الحمراء. ومنذ ذلك الوقت، عانت المدينة من مصاعب في إيجاد مكانها بين صيد السمك والسياحة.

اتّبعا تعليمات نظام تحديد المواقع وغادرا المنطقة الساحلية ليصلا إلى الطرق الإسفلتية الفرعية المتعرّجة وسط الأراضي. ثمّ غاصا في طريقٍ ضيّقٍ محاطٍ بشجيراتٍ وأحراش. بعد أن قطعا ما يقارب الكيلومتر، ظهرت لوحة تحت أضواء السيارة، مكتوبٌ عليها «للبيع. يُرجى الاتصال بمكتب هاربر ساوث للعقارات»، وقد ذيّلت برقم هاتفٍ في المنطقة.

خرج غاسبار ومادلين من السيارة بالاندفاع نفسه، تاركين

أضواء السيارة منارةً. لم تكن معهما أسلحة، ولكنّهما تسلّحا بالمصابيح اليدوية، وقضيب فكّ القوالب والعتلة التي كان غاسبار قد اشتراها في مانهاتن.

كان الجوّ لا يزال بارداً جدّاً، والرياح القوّية القادمة من المحيط الأطلسي تلسع وجهيهما. ولكن في تيبيرتون، حتى الهواء المشبع باليود كان له نفحاتٌ نتنة.

اقتربا من المبنى وهما يتقدّمان جنباً إلى جنب. كان المنزل العائلي لآل سوتومايور عبارة عن مسكنٍ ريفيٍّ صغير مكوّن من طابقٍ واحدٍ وتهيمن عليه مدفأة مركزية. وإذا كان جميلاً قبل زمنٍ طويل، فإنّه الآن كئيبٌ ومخيف. كوخٌ معتمٌ، محاطٌ بالأشواك والأعشاب المرتفعة، وله بابٌ يؤطّره عمودان انهارا وتحوّلا إلى حطام. شقّا طريقهما بصعوبة في ممرٍّ عبر النباتات الشوكية. وسط الظلام الدامس، كانت الواجهة المبنية من ألواح خشب الصنوبر تعطي الانطباع بأنّها قد دُهِنت بالقطران.

لم يضطرا لاستخدام العتلة، فالباب كان موارباً، وقد تشقّق من جراء تعرّضه لزمنٍ طويلٍ للرطوبة التي شوهّت شكل خشبه. جالا بضوء مصباحيهما اليدويين وتقدّما داخل المنزل. كان الكوخ شبه فارغٍ، غارقاً في بؤسه منذ سنوات. لا شكّ أنّ متسكّعي المنطقة قد ارتادوه لمرّات عديدة. كان المطبخ نصف المفتوح قد جُرِّد من محتوياته، وكانت طاولة التحضير الخشبية قد اختفت منه، وأبواب الخزائن قد انتزعت. ولم يبقَ في الصالون سوى أريكةٍ واحدة مبقورةٍ وطاولةٍ ذات وجهٍ مهشّم. وتنتشر على الأرضية العشرات من جثث قوارير البيرة ورفاة المحاقن، بل وكانت فيه أحجارٌ مصفوفة على شكل حلقة ورمادٌ باردٌ تدلّ على أنّ ناراً قد أُوقِدت في وسط الصالون.

كان متطفلون قد جاءوا وأقاموا بطريقة غير شرعية هنا لكي يشربوا ويتعاطوا المخدّرات على ضوء ألسنة اللهب. ولكن لم يكن هناك أيّ شيء يدلّ على أنّه قد تمّ احتجاز سجناء في المنزل.

في الغرف الأخرى من الطابق الأرضي، لم يكن قد تبقّى سوى الغبار والرطوبة والأرضية الخشبية المشوّهة التي تشربّت بالمياه في كلّ أنحائها. خلف المنزل، كانت شرفةٌ تطلُّ على رصيفٍ صغيرٍ يحتوي على كرسيين خشبيين مهترئين. أفلتت مادلين شتيمة حينما رأت مرآباً كبيراً أو حظيرة قوارب لها سطحٌ مائلٌ قصير وشديد الانحدار. عبرت، وغاسبار يسير في إثرها، الحديقة وسارعت إلى داخل المستودع. كان هو الآخر فارغاً.

عادا نحو المنزل. تحت الدرج، كان بابٌ نصف مخفي يسمح بالوصول إلى درجٍ آخر ينزل لا إلى قبوٍ وإنّما إلى طابق سفلي واسعٍ لا يوجد فيه سوى طاولة تنس مغطّاة بشبكة العنكبوت. وفي مؤخرة الغرفة، كان هناك بابٌ آخر انفتح عنوةً بعد ضربتَي كتف: الفسحة الصحية للكوخ. على ما يبدو، منذ سنوات لم يتجوّل أحدٌ هنا.

إرضاءً للضمير، صعدا بعد ذلك إلى الطابق العلوي حيث توجد الغرف والحمامات. هنا أيضاً، لم يكن قد تبقّى شيءٌ مهمّ، باستثناء الغرفة التي من المفترض أنّ أدريانو قد شغلها حتى بلوغه الثامنة من عمره.

جال ضوء مصباح غاسبار اليدوي في أرجاء الغرفة التي ترقد فيها أشباح ذكرياتٍ. حشيّة، ورفوفٌ مهشّمة ومرمية، وملصقاتٌ دعائية لأفلام سينمائية، مغلّفة بمادة بلاستيكية متعفّنة ومهترئة على أرضية الغرفة. الملصقات نفسها التي علّقها هو بنفسه سابقاً في غرفته والتي تزاحمت في خياله كطفل: **الفكّ المفترس**، **روكي**، **حرب**

النجوم. . . كان هناك فارقٌ وحيد بين معبدي ذكريات طفولتهما: كان الملاكم الأرجنتيني كارلوس مونزون يحلّ محلّ ميشيل بلاتيني، نجم نادي نانسي-لورين الرياضي.

وجّه غاسبار ضوء مصباحه اليدوي نحو الجانب الداخلي من الباب، ورأى علامات قديمة بقلم رصاصٍ استُخدِم في رسم مقياس الطول الذي يتباهى به كل طفل. سرت قشعريرةٌ في جسده. كان هناك شيءٌ ما غير منطقي. لماذا حافظ إرنستو على غرفة الطفل وأبقاها على حالها، في حين أنّه تمّ أخذ ابنه منه؟

جلس غاسبار القرفصاء. كانت إطارات صورٍ مرمية على أرضية الغرفة وقد غطّاها الغبار منذ زمنٍ طويلٍ جدّاً. مَسَحَ زجاج الإطارات لكي يزيل طبقة الأوساخ. كانت صور بألوانٍ متلاشية لأعوام الثمانينيات والتي يحاول أطفال اليوم أن يستنسخوها من خلال استخدام مرشحات التطبيقات المتوفّرة في الإنستغرام. صورُ عائلة أميركية: الوجه الجافّ والفخور لإرنستو، التقاسيم اللاتينية لجسم بيانكا الحسناء، التي كانت تُعدّ بمثابة مونيكا بيلوتشي بلدة تيبيرتون. وجه أدريانو أمام الشموع الخمس على قالب الحلوى في عيد ميلاده. ابتسامة لإسعاد المصوّر، ولكن أيضاً تلك النظرة الشاردة في مكانٍ آخر التي كانت المعلمّة قد ذكرتها. مَسَح غاسبار زجاج إطارٍ آخر. لقطةٌ رابعة جعلته حائراً: إرنستو وابنه في سنّ البلوغ. ربّما صورةٌ التُقِطَت في أثناء احتفال انضمام أدريانو إلى شرطة نيويورك. كان الأب يُطوّق فيها بافتخار رقبة ابنه، وتنزل يده على كتفه.

هذا يعني أنّ أدريانو قد التقى مجدّداً بوالده حينما كان في الثامنة عشرة أو العشرين من عمره، أي قبل أن يُصاب بالمرض. كان ذلك غير مفهومٍ بالنسبة إلى غاسبار. أو بالأحرى، كان هذا

الأمر يخضع لمنطقٍ منحرف. المنطق الذي يتمثّل في القول بأنّ إرنستو، منذ أن بات غير قادرٍ على إيذاء ابنه، لم يعُد يشكّل تهديداً عليه، وأنّ هذا الأخير قد وافق من جديد على أن يستقبله في حياته.

مرّة أخرى، اندهش غاسبار ومادلين من أن يصبّ أدريانو جام كراهيته على أمّه وحدها. كان ذلك أمراً جائراً وصادماً وخالياً من أيّ معنى. ولكن، بدءاً من درجة معيّنة من الفظاعة والوحشية، لا يعود العقل والعقلانية وسائلَ مؤهّلَة لاستقراء تصرّفات البشر وسلوكهم.

بيانكا

أُدعى بيانكا سوتومايور.

أبلغ من العمر سبعين عاماً، ومنذ خمسة أعوام، أنا سجينة في الجحيم.

خذوا درساً من تجربتي: السمَة الحقيقية للجحيم ليست الآلام التي تخضعون لها فيه. الألم عاديّ، متأصّلٌ في الوجود. منذ ولادته، يتألّم الكائن البشري في كلّ مكان، في كلّ زمان، من أجل كلّ شيء ومن أجل لا شيء. السمة الحقيقة للجحيم، عدا **حدّة** آلامكم، هي أنّه لا يمكنكم وضع حدٍّ له. لأنّه لا يعود لديكم حتى القدرة على إنهاء حياتكم.

سوف لن أدعكم تنتظرون طويلاً، وسوف لن أحاول أن أقنعكم. أوّلاً لأنّ رأيكم لم يعُد يهمّني في شيء. ومن ثمّ، لأنّه لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً لا من أجلي ولا ضدّي. سوف تفضّلون في كلّ الأحوال الإصغاء إلى الذكريات الجزئية والمتحيّزة لأولئك الذين سيقسمون أمامكم بسخاء أنّ أدريانو كان طفلاً هادئاً ومحبّاً وأنّنا نحن الوالدَين كنّا وحشَين.

وبالتالي ها هي الحقيقة الوحيدة المهمّة بالنسبة لي: لقد حاولتُ

بصدق أن أحبّ ابني، ولكن ذلك لم يكن أبداً بداهةً. حتى في السنوات الأولى من عمره. تتميّز ملامح شخصية الطفل سريعاً جدّاً. في الرابعة أو الخامسة من عمره، بدأ أدريانو يُخيفني. لم يكن ذلك بسبب كونه مشاغباً وخارجاً عن السيطرة، وسريع الغضب -كان فيه كلّ هذا- ولكن بالأحرى كان ذلك بسبب كونه مراوغاً ومخادعاً. لم يكن لأيّ شخصٍ سلطة عليه. لا أنا من خلال حبّي له، ولا والده من خلال عنفه الممارس عليه. لم يكن أدريانو يريد منك الحنان والعاطفة فحسب، بل كان يريد أن يخضعك من دون أن يمنحك أيّ شيء. كان يريد أن يستعبدك ولا شيء يمكنه أن يجعله يتخلّى عن ذلك: لا مواعظي ولا ضربات الحزام الذي كان يجلدنا به والده. يجلده هو لكي يسيطر عليه، ويجلدني أنا لكي يعاقبني على كوني والدة هذا الولد الفاشل. حتى في لحظات الألم والعذاب، كانت عيونه مثبتة عليّ: كنتُ أرى فيهما قسوة وغضب شيطانٍ. بكلّ تأكيد سوف تعتقدون أنّ لا وجود لكلّ هذا سوى في خيالي. ربّما، ولكنني لم أكن قادرة على تحمّل ذلك. وبالتالي، ما أن أُتيحت لي الفرصة، تركته ورحلت.

لقد مضيتُ قُدماً في حياتي. حقّاً مضيتُ قُدماً. ليس للمرء سوى حياة واحدة ولم أشأ أن أقضي حياتي خاضعة وذليلة ومسلوبة الإرادة باستمرار. ما معنى حياة تُختَزَل في سيلٍ من المهام التي تجعلكِ تشعرين بالتقزّز؟ أن تتجوّلي كلّ يوم في مدينة قذرة تفوح منها رائحة السمك، وتكون لكِ حياة زوجية تتلخّص في تلقي الضرب والإهانة وتأمين راحة للمحارب، وأن تكوني جاريةً لابنٍ مختلٍّ وعاق. . .

لم أواصل حياتي بالطريقة نفسها في مكان آخر، بل بدأت

بالفعل حياةً جديدة: زوجٌ آخر، طفلٌ آخر -والذي لم أخبره بأيّ شيء عن أخيه-، بلدٌ آخر، أصدقاءُ آخرون، ووسطٌ مهني آخر. لقد أحرقتُ كلّ ما له صلة بحياتي الأولى وحجبته، من دون أيّ ندم.

يمكنني أن أحدّثكم عن أشياء قرأناها في الكتب حول غريزة الأمومة والندم الذي عانيت منه. يمكنني أن أقول لكم إنّ قلبي كان يُعصَر عند كلّ عيد ميلادٍ لأدريانو، ولكنني سأكون كاذبة ومجافية للحقيقة.

لم أحاول أبداً أن أعرف ما الذي حلّ به. لم أكتب اسمه أبداً في محرّك غوغل للبحث، وقطعتُ بصورة منهجية كلّ الجسور مع الذين يمكنهم أن يزوّدوني بأخباره. لقد خرجتُ من حياته وخرج من حياتي. حتى حلّ يوم السبت ذاك من شهر يناير حيث دقّ أحدٌ على باب منزلي. حدث ذلك في نهاية نهارٍ جميل. كانت الشمس تنشر آخر أشعّتها. على ضوء الطرف الآخر، خلف الستارة، رأيتُ الزي الرسمي الأزرق الداكن لرجل شرطة.

ما أن فتحتُ الباب، بادرني بالتحية:

- صباح الخير، يا أمي.

لم أكن قد رأيته منذ أكثر من ثلاثين سنة، لكنّه لم يكن قد تغيّر. كان الشرر المؤذي نفسه لا يزال يلمع في أعماق عينيه. ولكن بعد مرور كلّ هذه الأعوام، كانت الشرارة قد أصبحت كجمرة متّقدة.

في تلك اللحظة، اعتقدتُ بأنّه قد عاد لكي يقتلني.

لم أتخيّل قطّ بأنّ ما كان ينتظرني كان أسوأ من ذلك بكثير.

21

الكيلومتر صفر

لم يكتب أحدٌ أبداً ولم يبدع رسماً أو نحتاً أو فناً أو بناءً إلّا لكي يخرج فعلاً من الجحيم.

أنتونان أرتو

1.

جاهدت مادلين، مذهولةً، لكي لا تنهار.

كانت نظرة غاسبار تائهة في فراغ مثل المُلاكم الدائخ.

كانا قد غادرا المنزل المهجور بعد أن نبشاه رأساً على عقب للمرّة الثانية. ولكن من دون جدوى. عادا، تائهين ومتعبين، نحو تيبيرتون وأوقفا السيارة في الميناء. بسبب البرد القارس الذي شلّ حركتهما، تخلّيا سريعاً عن رغبتهما في المشي على رصيف الميناء ووجدا الملاذ في المطعم الوحيد الذي كان لا يزال مفتوحاً في الساعة الحادية عشرة ليلاً من سهرة عيد الميلاد. كان مطعم ذي أولد فيشرمان عبارة عن حانة محلية يقدّم الطعام والشراب لما يقارب عشرة ضيوف، من الواضح أنّهم من الزبائن الدائمين. يقدّم لهم

سمكاً ورقائق البطاطا المقلية وحساء بالمحار مع كؤوسٍ من بيرة ثقيلة سمراء اللون.

تساءل غاسبار:

- ما الذي بوسعنا أن نفعل أكثر ممّا فعلناه حتى الآن؟

تجاهلته مادلين ولم تجب عن سؤاله. جالسةً أمام طبقٍ من حساء البطلينوس والذي لم تكن قد لمسته، استغرقت من جديد في تحليل حركة التحويلات المالية الخاصّة بسوتومايور. ظلّت، خلال ربع ساعة كاملة، سارحة وهي تبلي عينيها على خطوط الأرقام، قبل أن تقرّ بأنّها لم تكتشف أيّ شيءٍ لم تكن تعرفه من قبل. لم يكن الأمر أنّ عقلها يرفض أن يطحن شيئاً، كان الأمر بكلّ بساطة أنّه لم يعُد هناك حبّة واحدة لتُطحَن. لم يعُد هناك أثرٌ ينبغي اقتفاءه، لم يعُد هناك أخدود ينبغي حفره.

لم يستغرق الأمل الذي حداهما حتى لساعة واحدة، ولكنّه كان موجوداً. الآن، ومن خلال إعادة شريط أخطائها، أصبحت مادلين تقترب من عدم تصديق هذه الحكاية بما فيه الكفاية.

- لو أنّني كنتُ حاضرة حينما جاء شون لمقابلتي في نيويورك، لكانت الأمور مختلفة. كنّا سنكسب عاماً من الوقت. عامٌ كامل، أيمكنك تخيّل ذلك!

خلف طبق المحار، أحسّ غاسبار على حين غرّةٍ بأنّه مذنبٌ، وحاول أن يُواسيها:

- ما كان لذلك أن يُغيّر في الأمر شيئاً.

- بالتأكيد بلى!

بدَت بالفعل محطّمة. ترك غاسبار لحظة صمتٍ تمرّ، ثمّ قرّر، واعترف لها:

- كلا، يا مادلين، ما كان لذلك أن يُغيّر في الأمر شيئاً، لأنّ شون لورينز لم يأتِ أبداً لمقابلتكِ في نيويورك.

نظرت إليه المرأة الشابّة من دون أن تفهم ما يقصده.

أوضح لها:

- لم يكن لورينز يعلم حتى بوجودكِ.

قطّبت مادلين حاجبيها. أحسّت أنّها ضائعة.

- لقد أطلعتني على تلك المقالة عنّي، التي كانت في أدراج طاولته.

صالب غاسبار ذراعيه وأكّد لها بهدوء:

- أنا مَن قمتُ بتحميل هذه المقالة من الإنترنت، أوّل أمس. وأنا مَنْ دونّتُ عليها بعض الشروحات.

سادت لحظة صمتٍ مطبق. استعادت مادلين ذكرياتها وقالت متلعثمةً:

- أنت... أنت أخبرتني بأنّ رقم هاتفي ورد لعدّة مرّات في سجلّ اتصالاته الهاتفية.

- هنا أيضاً، أنا مَنْ تلاعبتُ بوقاحةٍ بهذه الوثائق مع كارن. علاوة على ذلك، لم أواجه أية مشاكل تُذكر في ذلك، لأنّكِ لم تحاولي أبداً أن تتحقّقي من الأمر.

ذُهِلت مادلين، لكنّها امتنعت عن الاستجابة لاستفزازات كوتانس المتكرّرة، وقالت:

- لقد مات لورينز في الشارع رقم 103، على بُعد بضعة منازل من المبنى الذي كان يضمّ مكتبي السابق. هذه حقيقةٌ مثبتة. لقد ذكرت كلّ وسائل الإعلام في العالم ذلك. جاء إلى ذاك المكان لأنّه أراد مقابلتي.

- صحيحٌ أنّ لورينز جاء إلى هناك، ولكن فقط لأنّ مختبر بيليتييه وشتوكهاوسن يوجد على بُعد خطوتين من المكان. لم يأتِ لكي يُقابلكِ أنتِ، وإنّما لكي يُقابل شتوكهاوسن.

اقتنعت أخيراً، ولكنّها ظلّت مصدومة من جرّاء هكذا وقاحة.

- لا يمكن أن تكون جادّاً في هذا، أليس كذلك؟

- أنا اختلقتُ هذه القصّة لكي أجذب انتباهكِ. لأنني أردتُ أن أُشركَكِ في هذا التحقيق.

- ولكن. . . لماذا؟

رفع غاسبار من نبرة صوته ونهض بدوره من كرسيه:

- لأنني كنتُ أريد أن نحاول معاً فَهم ما حدث فعلاً لهذا الطفل، ولكن بدا أنّكِ غير مهتمّة بذلك.

كانت الأحاديث من حولهما قد توقّفت، وساد صمتٌ ثقيل في القاعة الدافئة جدّاً.

- لقد شرحتُ لكَ السبب.

رفع سبابته في وجهها مهدّداً وصرخ:

- لم يكن ذلك كافياً بالنسبة إليّ! وكنتُ محقّاً في ذلك! لقد اعتبرتِ على الدوام أنّ جوليان ميّت. لم تقبلي أبداً الحديث عن احتمال أن نتمكّن من إنقاذه!

فجأةً أدركت مادلين مناورة كوتانس واجتاحتها نوبة غضبٍ جامح، فانفجرت في وجهه:

- أنت مريضٌ تماماً. . . أنت مجنون! أنت مختلّ عقلياً، أنت. . .

دوّى الطنين في أذنيها غضباً، وانقضّت عليه لتُمسك برقبته. دفعها غاسبار، ولكنّ مادلين عاودت الانقضاض عليه وسدّدت له

ضربة بمرفقها على أضلاعه وأتبعت ذلك بلكمتين. ثمّ وجهت لكمة مباشرة إلى أنفه، وأتبعتها بضربة قاضية على الكبد.

تلقّى غاسبار الضربات من دون أن يتمكّن من الدفاع عن نفسه. تلوّى على نفسه، معتقداً أنّ العاصفة قد مرّت، لكنّ ضربة عنيفة من الركبة أوقعته أرضاً.

خرجت مادلين من الحانة كالإعصار.

ساد هرجٌ ومرج في المطعم. نهض غاسبار بصعوبة، وهو في حالةٍ سيئة. تورّمت شفتاه، وشعر بوخزٍ في عينه اليمنى. وكانت الجبيرة التي تلفّ إصبعه قد انخلعت، وأنفه ينزف بغزارة.

خرج من المطعم وهو يعرج، وحاول اللحاق بمادلين في الميناء. ولكن حينما وصل إلى نهاية رصيف الميناء، كانت قد أقلعت بسيارة البيك أب. انقضّت المركبة بشكلٍ مباشر نحوه. اعتقد في البداية أنّها أرادت فقط أن تخيفه، لكنّها لم تنحرف عن مسارها. استعجل في الإلقاء بنفسه جانباً وتجنب في اللحظة الأخيرة أن تدهسه المركبة.

وسط الصرير الشديد للعجلات، توقّفت السيارة على بعد خمسة أمتار منه. انفتح الباب ورأى مادلين وهي ترمي بكلّ أغراضه على الممشى الخشبي: حقيبته، وكراسته الصغيرة ذات اللولب، وحتى دمية جوليان.

صرخت بعنف:

- اذهَبْ إلى الجحيم!

صفقت باب السيارة وأقلعت بسرعة جنونية. تزلّجت العجلات على الأرضية الخشبية الرطبة، ثمّ استقر البيك أب، وغادر الميناء منطلقاً بأقصى سرعة.

.2

- ما الذي فعلته تلك المرأة بوجهك!

جلس غاسبار، وأنفه ينزف دماً، على مقعدٍ عند قاعدة نصبٍ تذكاريٍّ لموتى الميناء: قارب صيد كبير من البرونز بُني تكريماً لصيادي المنطقة الذين انتزع البحر، قبل قرابة ثلاثة قرون، حياتهم.

أردف البحّار الضاحك والفاقد لنصف أسنانه، وهو يمدّ نحوه مجموعة من المناديل الورقية:

- لقد أوسعَت وجهك ضرباً.

هزّ غاسبار رأسه ليشكره. كان الرجل سكيراً شاهده غاسبار قبل ذلك بقليل في حانة المطعم. رجلٌ عجوزٌ ملتحٍ، يرتدي طاقية قبطانٍ ويمصّ عرق سوسٍ كما يرضع طفلٌ رضيعٌ رضّاعته.

ألحّ الثمل وهو يدفع الأغراض التي كان غاسبار قد التقطها من الطريق، لكي يجلس على المقعد إلى جانبه:

- لقد حطّمت وجهك.

- حسناً، لا بأس، كفاك حديثاً عن هذا!

- بالنسبة لنا، كان هذا عرضاً رائعاً! من النادر أن توسع فتاةٌ رجلاً ضرباً. بشكلٍ عام، الأمر يكون معاكساً.

- دعني وشأني!

عرّف الآخر بنفسه، لا مبالياً بانزعاجه:

- أُدعى بيغ سام.

أخرج غاسبار هاتفه المحمول.

- حسناً، يا بيغ سام، أو أيّاً تكن، هل تعلم أين يمكنني أن أطلب سيارة أجرة؟

ضحك الآخر:

- في هذه الساعة المتأخرّة من الليل، سوف لن تعثر على سيارة أجرة في المنطقة، يا كاوبوي. ثمّ قبل أن تنسحب من المكان، فكّر قليلاً في تسديد فاتورتك!

اضطرّ غاسبار أن يقرّ بأنّ الرجل محقّ، فقد غادرا، مادلين وهو، المطعم، وسط البلبلة، من دون أن يدفعا ثمن وجبة العشاء.

قال مؤيّداً، وهو يرفع ياقة سترته:

- حسناً.

قال الثمل:

- سوف آتي معك. وإذا أردت أن تقدّم للعجوز بيغ سام مشروباً على حسابك، سوف لن أرفض دعوتك، صدّقني.

3.

كانت مادلين تبكي.

وكان الصبي الصغير ينظر إليها.

كانت تذرف الدموع غزيرةً بحيث لم تعُد ترى أمامها الطريق بشكلٍ واضح عبر الزجاج الأمامي للسيارة. كانت قد تركت غاسبار وراءها منذ عشر دقائق، حينما انحرف البيك أب، في منتصف منعطفٍ، عن مساره وأصبحت في مواجهة سيارة قادمة من الاتجاه المعاكس. أبهرتها أضواء السيارة كما لو أنّ ضوء مصباحٍ سُلِّط على عينيها من قرب. أدارت المقود بكلّ ما أوتيت من قوّة، وأطلقت عنان بوقِ سيارتها تعبيراً عن الغضب واليأس. اصطدمت السيارتان وانزلقت سيارتها إلى جانب الطريق وخرجت عن السيطرة، ثمّ توقّفت أخيراً، وهي على شفا الوقوع في حفرة قريبة.

اللعنة.

اختفت السيارة الأخرى في الحال وسط الظلام وانسحبت من المكان. ضربت مادلين بقبضتها على المقود بكلّ قوتّها، وأجهشت بالبكاء. من جديد بدأت آلام بطنها. كانت قد أمضت النهار متنكّرة للألم، والآن بدأ الألم ليأخذ بثأره منها. كان جسمها يهتزّ ويرتعش. أمسكت ببطنها وتقوقعت على مقعدها، وظلّت لعدّة دقائق، مشلولةً وحزينة للغاية، مغلّفة بالظلام الدامس.

كان الصبي الصغير لا يزال ينظر إليها.

ونظرت بدورها إليه.

نظرت إلى صورة أدريانو سوتومايور التي عثر عليها غاسبار في المنزل. صورةٌ من حفلة عيد ميلاده الخامس قبل أن تهرب والدته بفترة قصيرة. صورةٌ التُقِطت في مساء أحد أيام الصيف، يظهر فيها، خلف الشموع، طفلٌ صغير يبتسم لعدسة الكاميرا، وهو يرتدي قميصاً بلا أكمام أصفر اللون، وسروالاً قصيراً مخطّطاً، وينتعل صندلاً خفيفاً.

مسحت مادلين دموعها بكمّ سترتها، وأشعلت ضوء سقف السيارة.

شوّشتها هذه الصورة. كان من الصعب النظر إليها، وهي تقول في نفسها إنّ الوحش موجودٌ، مثل بذرةٍ، في دماغ وجسد هذا الصبيّ الصغير. كانت تعرف نظرية بعض علماء النفس التي تقول بأنّ كلّ شيء يتكوّن خلال السنوات الثلاث الأولى من العمر. نظرية لطالما أغضبتها وأثارت حفيظتها.

وماذا لو كانت هذه النظرية صحيحة؟ ربّما يكمن كلّ شيءٍ هنا، في هذه النظرة، الاحتمالات وكذلك الحدود. أدارت هذه الفكرة في

ذهنها. لا يُمكن لطفلٍ في الخامسة من عمره أن يحمل مسبقاً شيطاناً في داخله. كانت تحاول أن تتعقّب وحشاً، ولكنّ الوحش كان قد مات منذ زمنٍ طويل ولم يعُد هناك أحدٌ ليُتمّ مطاردته. لم يتبقَّ سوى شبح طفل.

طفلٌ، صبيٌّ صغير. مثل ابن جوناثان لامبيرور الذي كان يلعب بطائرته في مركز التسوّق. مثل الذي أرادت أن تحمله في أحشائها. مثل جوليان لورينز. طفلٌ.

تنهدت متحسّرةً. كانت قد خضعت، منذ زمنٍ طويل، لدوراتٍ تدريبية، وقرأت كتباً لكي تتعلّم كيف تَلِجُ إلى «رأس القاتل». حتى وإن كان هناك الكثير من التخيّلات والثرثرة فيه، يبقى الولوج إلى عقل المجرمين إحدى أكبر مسرّات رجال الشرطة. ولكن أن تلج إلى رأس طفلٍ في الخامسة من العمر...

حاولت أن تستجوب الطفل ذهنياً، وهي تحدّق في الصورة بإمعان.

أنت تُدعى أدريانو سوتومايور.

عمرك خمس سنوات و... لا أعرف ما الذي يوجد في رأسك. حتى وإن كان من طبيعة عملي أن أتخيّل ما هو موجودٌ فيه. لا أعرف ما الذي تشعر به في اللحظة التي تنفخ فيها على شموع عيد ميلادك. لا أعرف ما الذي تشعر به في حياتك اليومية. لا أعرف ما هو المعنى الذي تُعطيه لكلّ هذا. لا أعرف حقّاً كيف تقاوم وتتحمّل. لا أعرف ما هي آمالك. لا أعرف ما الذي تفكّر فيه مساءً حينما تنام. لا أعرف ما الذي فعلته بعد ظهيرة اليوم.

ولا أعرف أيضاً ما الذي يوجد في رأس والدك. لا أعرف حكايته. لا أعرف لماذا بدأ يوسعك ضرباً. لا أعرف لماذا

وصلت الأمور إلى هذا الحدّ: أبٌ، ابنٌ، جلساتُ عقابٍ في مخزنٍ. ضرباتُ جلدٍ بالحزام، حرقٌ للجسم بالسيجارة، ووضع الرأس في حوض المرحاض.

لا أعرف إن كان يضرب شخصاً آخر من خلالك. تُرى هل كان يجلد ذاته؟ هل كان يضرب والده هو؟ موظّف المصرف الذي رفض أن يخفّض مبلغ دفعاته؟ المجتمع؟ زوجته؟ لا أعرف لماذا سيطر عليه الشيطان مثلما سيطر عليكَ فيما بعد.

قرّبت مادلين الصورة من وجهها.

ونظر إليها الصبي الصغير.

حدّق بعينيه في عينيها.

لا يمكن لطفلٍ أن يكون شيطاناً في الخامسة أو السادسة من عمره، ولكن ربّما يكون قد خسر كلّ شيء. ثقته، احترامه، أحلامه.

همست متسائلةً:

- إلى أين تذهب، يا أدريانو الصغير؟ إلى أين تذهب حينما تكسف نظرتك؟ إلى أين تذهب حينما تنصرف نظرتك بعيداً إلى مكانٍ آخر؟

أين هو هذا المكان الآخر؟

انهمرت دموع مادلين من جديد. أحسّت أنّها على وشك أن تلامس الحقيقة بأصابعها. لكنّ الحقيقة كانت تتهرّب منها. تكون الحقيقة أحياناً عبارة عن نصف ثانية، بخاصّة إذا ذهبتم للبحث عنها بعيداً جدّاً. هي إلهامٌ. الصمت الذي يسبق صوتاً حادّاً.

منذ البداية، رفضت على الدوام التصديق بأنّ هذه القصّة قد

تنتهي بقراءةٍ جديدة للماضي. وكذلك، لم تكن تنتظر شيئاً سحرياً. سوف لن يبدأ شعاعٌ من القمر بالسطوع على لوحة القيادة. سوف لن يحيا أدريانو من جديد، ويهمس لها بسرّه في أذنها.

ولكن بقي السؤال الذي كان غاسبار قد طرحه عليها. **ما الذي بوسعنا أن نفعل أكثر ممّا فعلناه حتى الآن؟** كان هذا هو السؤال الأخير في كلّ تحقيق، ولم تكُن ترغب في تفويت جواب هذا الغبي كوتانس.

أدارت مفتاح تشغيل المحرّك، وأشعلت الأضواء الخلفية للسيارة وناورت لكي تعود إلى الطريق من دون أن تسقط في الحفرة. وبدل أن تعود إلى نيويورك، استدارت إلى الوراء باتجاه تيبيرتون. لم تكُن قد انتهت من غاسبار كوتانس بعد.

4.

سار غاسبار على الرصيف، وبجانبه بيغ سام، حتى وصل إلى مطعم ذي أولد فيشرمان.

في المطعم، خضع لسخرية الزبائن، لكنّ السكارى لم يكونوا أشراراً. ما أن ضحكوا بمرح، قدّموا له كأساً من المشروب. في البداية، فكّر أن يرفض لكي يبقى صاحياً، ثمّ خضع واستجاب لهم. ما الجدوى من أن يكون فاضلاً الآن وقد انتهى التحقيق؟

أخذ وقته في التلذّذ بأوّل كأسٍ من الويسكي، ثمّ قدّم بدوره مشروباً للحاضرين. بعد أن شرب كأسين آخرين في جرعة واحدة، وضع ورقتين نقديتين من فئة خمسين دولاراً على كونتوار البار وطلب أن تُترَك له القارورة.

أُدعى غاسبار كوتانس وأنا سكّير.

فَعَلَ الكحول فعله، وأحسّ غاسبار بأنّه أصبح أحسن حالاً. كانت هذه أفضل لحظة: بعد كأسين أو ثلاث، حينما تكون قد تحرّرت من كلّ كبت، وتخفّفت من قبح العالم، ولكنك لم تثمل بعد تماماً. وفي الواقع، كان قد كتب أفضل حواراته المسرحية، وهو في هذه الحالة. وأفكاره شبه واضحة. لكن بعد برهةٍ، بدأت صحبة الثملين تزعجه. كان هناك إفراطٌ في الصياح والصُراخ ومبالغةٌ في النزعة الذكورية، والكثير الكثير من الحماقات التي كانوا يطلقونها على مدار الدقيقة. ثمّ إنّه لطالما فضّل أن يسكر بمفرده. السُكر علاقة حميمية ومأسوية. أمسك بقارورة الويسكي ولجأ إلى غرفة ملحَقة. غرفة مخصّصة للتدخين كئيبة بعض الشيء ذات جدرانٍ مغطّاة بقماشٍ من المخمل الأحمر ومزيّنة بخطاطيف صيد، ومنحوتات رديئة وصور بالأبيض والأسود لصيادين من المنطقة وهم يقفون في أجمل لقطاتهم أمام قواربهم. كان مجموع الديكور يُضفي على الصالة جوّاً غريباً: أجواء رواية **الشيخ والبحر** بريشة الرسام تولوز لوترك.

جلس إلى طاولةٍ ووضع أغراضه على الكرسي الذي أمامه. سكب لنفسه كأساً رابعة من الويسكي وأخذ يتصفّح الدفتر الضخم الذي كان قد دوّن فيه كامل التحقيق. كانت هذه الحكاية عبارة عن سرد متسلسل لفشله. ربّما كان يرتدي سترة شون لورينز ويضع من عطره، لكنّه لم يكن شون لورينز. لم يكن يرتقي إلى مستوى أن يرفع الشعلة ويُكمل المسيرة. وكانت مادلين على حقّ حينما قالت إنّه ليس بإمكان المرء أن يصبح محقّقاً بطريقة ارتجالية. لجملة من الأسباب، كان قد اقتنع بأنّه سوف ينجح في العثور على جوليان وإنقاذ حياته.

لأنّ إنقاذ هذا الطفل كان إنقاذاً لذاته هو. وكان قد تشبّث بإجراء هذا البحث عن الطفل لأنّه رأى في ذلك طريقة فعّالة لتعويض ما تكبّده من خسرانٍ وفشلٍ في حياته، من دون أن يدفع ثمناً باهظاً. لكننا لا نستطيع أن نعوّض في بضعة أيام أخطاء حياة كاملة.

رشف جرعة من الكحول وأغمض عينيه. انغرس منظر الطفل جوليان، وهو قابعٌ في قبوٍ، في ذهنه. تُرى هل هناك احتمال أخير لكي يكون الصبيّ على قيد الحياة؟ لم يعُد هناك أيّ تأكيدٍ على ذلك. علاوة على ذلك، حتى لو أنّهما عثرا عليه حيّاً، تُرى في أيّ حالٍ سيكون الصبيّ بعد عامين من الأسر؟ وكيف سيكون مستقبله؟ مات والده وهو يُحاول إنقاذه، وأطلقت والدته رصاصةً على رأسها في عربة قطارٍ مهجورة. كانت هناك بدايات أفضل في الحياة...

وهو يقلّب في صفحات دفتره، توقّف غاسبار عند واحدة من صور مجموعة **صنّاع الأسهم النارية** التي كان قد اقتطعها من الدراسة التي كتبها بينيديك. كانت تلك صورته المفضّلة. أوّلاً، لأنّها كانت تحمل إليه أصالةَ حقبة من تاريخ نيويورك: نيويورك القاسية في نهاية الثمانينيات. ومن ثمّ، كانت هذه هي الصورة الوحيدة التي يظهر فيها الأشرار الثلاثة شبه سعداء. كانوا في العشرين من أعمارهم تقريباً، وكانوا يوجّهون لعدسة الكاميرا آخر حركة ساخرة قبل أن تتحطّم مصائرهم الثلاثة أو تفترق عن بعضها.

في البداية، بياتريز مونيوز، المعروفة باسم **ليدي بيرد** «المرأة-العصفور» التي كان وزنها البالغ مئة وعشرين كيلوغراماً وبنيتها الجسمانية الشبيهة برافع أثقالٍ يسمّرانها بالواقع ويمنعانها من الطيران. في الصورة، كانت تخفي جسدها تحت رداءٍ عسكري وتبتسم للصبي الموجود إلى يمينها: **لورز74**، الذي لم يكن قد

أصبح بعد العبقري شون لورينز. الفنان الذي سيرسم اللوحات التي سوف تُسحر الناس. تُرى هل سبق له وأنّ شكّ في القدر الذي كان ينتظره؟ كلا، من دون أدنى شكّ. في الصورة، كان يفكّر فقط بالتسلية مع صديقه الذي يتظاهر بأنّه سيرشّه بالدهان: **نايت شيفت**، أي أدريانو سوتومايور.

نظر غاسبار إلى أدريانو بانتباهٍ أكبر. على ضوء ما يعرفه الآن، أعاد النظر في حكمه الأوّل. قبل ذلك بثلاثة أيام، حينما رأى للمرّة الأولى هذه الصورة، اعتقد أنّ الفتى اللاتيني يتظاهر بالثقة بالنفس والتفاخر بقميصه المفتوح وهيئته المدّعية الشجاعة، ولكن ما كان قد اعتبره شعوراً بالتفوّق، لم يكن في الحقيقة سوى نوعٍ من عدم الاكتراث. النظرة البعيدة نفسها التي كانت له منذ الطفولة.

ظلّ غاسبار مركّزاً على وجه مَن سيصبح مستقبلاً **ملك العفاريت**. لقد فشل في العثور على بُرعم أدريانو. المفتاح الذي يفتح كلّ الأبواب. التفصيل الصغير في السيرة الذاتية الذي يضيءُ كلّ مفارقات حياة، الذي يشرح ما يكونه المرءُ حقّاً، وما يجري خلفه، وما يمضي حياته هارباً منه. خلال برهةٍ قصيرة، أحسّ أنّ الحقيقة هنا، ماثلة أمام عينيه، ولكنّه غير قادرٍ على رؤيتها. دغدغت ذكرى من فترة المراهقة ذاكرته، قراءة القصة القصيرة: **الرسالة المسروقة** لإدغار آلان بو وعِبرتها الرئيسة: أفضل طريقة لإخفاء شيءٍ، هو تركه مكشوفاً.

دون أن يُدرك ذلك تماماً، أخرج قلمه بطريقة آلية وبدأ بتدوين ملاحظات، مثلما كان معتاداً أن يفعل، حينما يكتب نصوص مسرحياته. قرأ ما كان قد خربش به: تاريخان أو ثلاثة، وأسماء **صنّاع الأسهم النارية**، أسماءهم المستعارة. صحّح أحدَ أخطائه:

ربّما لأنّه كان يسبح في الجوّ البحري للغرفة، لقد كتب نايت شيب(*) بدلاً عن نايت شيفت(**).

أغلق الدفتر، وشرب كأسه في جرعة واحدة، ولملم أغراضه من على الطاولة. جرجر قدميه، مثقل الرأس، حتى وصل إلى كونتوار البار. كان عدد الزبائن قد قلّ في المطعم وانخفض منسوب الصخب والضجيج فيه. سأل صاحب المطعم أين يمكنه العثور على غرفة لقضاء ليلته فيها. اقترح عليه الآخر أن يُجري بعض المكالمات الهاتفية. شكره غاسبار بحركةٍ من ذقنه. كاد بيغ سام أن يتهاوى من مقعده فتشبّث بغاسبار مثل علقةٍ ماصّة للدماء.

- هلّا قدّمتَ لي كأساً من الويسكي، يا كاوبوي؟

سكب له غاسبار رشفة من قارورة الويسكي خاصّته.

حتى وإن لم يتناول هو كأساً إضافية، إلّا أنّ الويسكي بدأ يترك أثره. تشوّش ذهنه وشعر بأنّه مرّ قريباً جدّاً من شيءٍ مهم ولكنّه تركه ينسلّ منه.

- هل تعرّفت على عائلة سوتومايور؟

أجابه الثمل:

- بكل تأكيد، الجميع هنا كانوا يعرفونها. لا بدّ أنّك رأيت زوجة القبطان... ماذا كانت تُدعى؟

- بيانكا؟

- أجل، هذا صحيح، جمالٌ لا مثيل له. ما كنت سأبخل عليها بـ...

(*) NightShip: قارب ليلي.

(**) NightShift: دورية ليلية.

قاطعه غاسبار:

- كان إرنستو هو الذي يُدعى بالقبطان؟

- نعم.

- لماذا؟

- حسناً، أنت أحمق: لأنّه كان قبطاناً، بالطبع! حتى أنّه كان من القلائل الذين كانت لديهم رخصة صيد السمك في أعماق البحار.

- ماذا كان لديه من زورق، قارب صيد؟

- بالتأكيد، ليست سفينة!

- ماذا كان يُدعى قاربه؟

- لم أعُد أتذكّر. لقد مرّت عصورٌ على ذلك. هل ستقدّم لي كأساً أخرى؟

بدلاً من تقديم كأس، وعلى الرغم من يديه المتألمتين، أمسك غاسبار برقبة الثمل وألصق وجهه بوجهه. قال بعصبية:

- ماذا كان يُدعى قارب الأب سوتومايور؟

تحرّر بيغ سام من بين يديه.

- عليك أن تهدأ يا رجل! هذا ليس سلوكاً مناسباً!

من دون استئذان، أمسك السكّير بالقارورة وعبّ منها عدّة جرعات من الفوهة مباشرةً.

هدأ بعد ذلك، فمسح فمه الأدرد وقفز من مقعده العالي.

- اتبعني.

سحب غاسبار إلى غرفة التدخين، وفي أقلّ من دقيقة، وجد إطاراً معلّقاً على الجدار حيث يظهر إرنستو سوتومايور في لقطة مع فريقه من الصيادين خلف سمكة تونة حمراء، يتجاوز وزنها مئة

كيلوغرام. كانت الصورة بالأسود والأبيض. لا بدّ أنّها كانت تعود إلى أواسط الثمانينيات، لكنّ الصورة كانت واضحة. اقترب غاسبار من إطار الصورة. خلف الصيادين، كان يظهر قاربٌ كبير. قلّص عينيه لكي يقرأ اسم المركب. كان اسمه: **نايت شيفت**.

أخذ غاسبار يرتجف. أحسّ أنّ عينيه تغبّشتا تحت تأثير الانفعال.

- ما الذي جرى للقارب حينما تقاعد سوتومايور؟ هل لا يزال في الميناء؟

- أنت تمزح، يا صديقي! هل تعرف ما هو ثمن استئجار محلٍّ في الميناء؟

- أين هو؟

- مثل معظم قوارب تيبيرتون التي يتمّ إرسالها إلى مكبّ الخردة: الأرجح أنّه قد تمّ سحبه إلى الغرافيارد.

- الغرافيارد؟ ما هذا؟

- مقبرة السفن في جزيرة ستاتن.

- في نيويورك؟

- نعم، يا صديقي.

انسحب غاسبار. أمسك بحقيبته، وغادر الحانة وخرج إلى الميناء. منحه الهواء البارد شعوراً جيّداً، كما لو أنّه قادرٌ على أن يزيل عنه الثمالة بسرعة فائقة. بينما أمسك بهاتفه، رأى وسط الظلام الأضواء الساطعة لسيارة مقبلة نحوه.

كانت مادلين.

الأحد 25 ديسمبر

22

نايت شيفت

وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

سفر التكوين، 1، 5

1.

شابت ندائف فضيّة اللون السماء كما لو أنّها أسراب من الحشرات المعدنية.

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً، حينما وصل غاسبار ومادلين إلى المقبرة البحرية في جزيرة ستاتن. كانا قد سارا في الطريق طيلة الليل، وقد نال منهما التعب والإنهاك. ومن أجل الصمود ومقاومة النعاس، دخّنت مادلين سيجارةً تلو سيجارة، وأفرغ غاسبار ترمساً من القهوة. داهمهما الثلج في الكيلومترات الأخيرة من المسافة، مغطّياً الطريق بطبقة من عدّة سنتيمترات، الأمر الذي أبطأ تقدّمهما. وبالتالي، دخلا إلى أسوار مقبرة بوت غرافيارد وهما يتحدّيان العاصفة الثلجية.

كانت المقبرة مسوّرة بأسيجة من الأسلاك المعدنية الشائكة، وبلوحاتٍ تحذّر من المخاطر التي قد يتعرّض لها مَن يحاول الدخول

إليها، إلّا أنّها كانت واسعة جدّاً بحيث لا يمكن منع الراغبين في الدخول إليها من ذلك.

كانت الذريعة الأكثر ردعاً هي الروائح التي تفوح من المنطقة. كانت هي التي تصدمك أوّلاً: روائح مقزّزة تفوح من الأسماك الفاسدة والطحالب المتفسّخة. رائحةٌ تلوّث الجوّ، وتثير لديك الغثيان، وتجعلك تدوخ. ولا يمكنك أن تعي تماماً المشهد وجماله الغريب والمتناقض، إلّا بعد أن تكون قد نجحت في التغلّب على اشمئزازك الأوّل.

وسط سماءٍ رطبةٍ بكربونات الرصاص، يمتدُّ مشهدٌ من نهاية العالم. منطقةٌ برّية، متروكة، يغزوها حطام آلاف السفن. مراكب متعفّنة ومنغرسة وسط الأوحال، وهياكل سفنٍ، وقوارب غارقة في الطين منذ عقودٍ من الزمن، وسفن شحن صدئة، وسفن شراعية تُصدر صواريها قرقعةً، وصولاً إلى هيكل سفينة بخاريةٍ خارجة من نهر المسيسيبي.

كان الأفق فسيحاً وفارغاً. لم تكن هناك روحٌ حيّة في المكان، ولم يكن هناك أيّ صخبٍ سوى صيحات أسراب النوارس المحلّقة فوق حطام السفن المكسوّة بالصدأ. كان من الصعب على المرء أنّ يُصدّق بأنّه على بعد بضع خطواتٍ من مانهاتن.

ظلّ غاسبار ومادلين، لما يُقارب ساعة كاملة، يبحثان بيأس عن **نايت شيفت**، لكنّ سعَة المقبرة كانت تعقّد مهمتهما. كانت ندائف الثلج المتساقطة على نحو أكثر شدّة تمنع تمييز المراكب التي تضيع ملامحها الشبحية بين السماء والبحر.

وممّا زاد الطين بلّة، لم يكن من الممكن الوصول إلى كلّ مكان

من المقبرة بواسطة السيارة. لم تكن هناك أرصفة محدّدة بوضوح، كما لم تكن هناك ممرّات عبور مصبوبة بالإسمنت أو مخطّطة ليسلكاها. تبعاً لطبيعة المكان، سار البيك أب في دروبٍ وعرة أو مسالك طينية مسدودة كان من الأفضل لهما أن يسلكاها سيراً على الأقدام، تحت طائلة الغوص في الأوحال.

ولدى عبور أحد تلك المسالك، بعد تجاوز مستنقعٍ رمليٍّ، كانت قاطرة للجيش قد غاصت فيه، لفَتَ تفصيلٌ صغيرٌ انتباه مادلين. رأت أشجاراً متوسّطة الحجم تخرج من المياه تماماً. ما يقارب عشر شجيرات مزروعة على جانبي مسارٍ ضيّق من الرمل والتراب العضوي. كانت الشجيرات مزروعة في صفّين مستقيمين تماماً بحيث لا يمكن أن تكون قد نبتت في المكان بشكلٍ عفوي. مَن عساه أن يكون قد جاء ليزرع أشجاراً هنا، ولأيّ سبب؟ ركلت بقدمها لكي تقصف غصناً صغيراً. التقط غاسبار الغصن المكسور لكي يتفحّصه.

أبدى ملاحظة وهو يشير إلى النسغ الأحمر اللون للغصن.

- وكأنّ الغصن ينزف دماً.

قالت، في اندهاش:

- تبّاً. هذه الأشجار...

- ماذا؟

- إنّها شجرة نَغْت.

الشجرة التي تبكي دماً. شجرة الانبعاث بعد مجزرة الشتاء. شجرة الحياة بعد الموت.

.2

سارا، مسترشدين بسياج شجيرات النَّغْت، لما يقارب مئة مترٍ على طريقٍ سيئة من الألواح الخشبية، إلى أن شاهدا الشبح العالي والمتماسك لمركبٍ متعفّنٍ، راسياً على طول رصيفٍ مؤقّت.

كان نايت شيفت عبارة عن قارب صيد، يزيد طوله عن عشرين متراً. كتلة من الخردة المعدنية راسية، متكلسّة بالصدأ والطحالب والطمي.

استعانت مادلين، دون أن تتردّد للحظة واحدة، بلوحٍ خشبي لكي تصل إلى السلّم وتقفز إلى المركب. واجهت الرياح التي هبّت في وجهها، واندسّت إلى داخل الرواق، وقفزت فوق الرافعة، ووصلت إلى الطابق العلوي.

لحق بها غاسبار. كان الثلج متجمّداً، محوّلاً الأرضية إلى حلبة للتزلّج. كان على ظهر المركب الكثير من الحبال والبكرات والشباك الممزّقة والإطارات المثقوبة.

أتاح سلّمٌ زلقٌ الوصول إلى قمرة القيادة. وجدا أنّ المياه متسرّبة إلى المكان والأرضية الخشبية منتشية والجدران ترشح برطوبة مؤذية. شاهدا مقصورة القيادة، المغطاة بقذارة عفنة، وهي مدمّرة: لا أثر لمقود القيادة والرادارات وأجهزة الراديو وأجهزة أخرى للملاحة. لمحت مادلين وثيقة مغلّفة بالبلاستيك اهترأ نصفها، معلّقة على الجدار، إلى جانب جهاز لإطفاء الحرائق منتهي الصلاحية: كانت الوثيقة عبارة عن مخطّط المركب الذي يستعرض إجراءات الأمان التي ينبغي اتّباعها في حالة نشوب حريق.

غادرا قمرة القيادة وسلكا ما يشبه جسراً معلّقاً يتيح الوصول إلى حُجرة طاقم القارب والتي كانت معظم قواطعها الخشبية قد حُطِّمت.

في البداية، كان هناك ممرّ ضيّق يضمّ فرن طهي قديم وثلّاجة، ثم كانت هناك مقصورتان متداعيتان جرى تحويلهما إلى مستودعٍ للمواد والعدّة. في إحدى الزوايا، كانت هناك أكياس إسمنت، ومعول ومجرفة وكمية من أدوات أخرى موضوعة تحت غطاءٍ بلاستيكي. على سريرٍ قديمٍ آخر في المقصورة، وسط شظايا القوارير المكسورة وجثث الجرذان، كانت هناك العشرات من الصناديق الورقية الفارغة والمتفسخّة وسط برك المياه الآسنة. انتزعت مادلين واحدة من اللصقات الملصقة على الأغلفة وعرضتها على غاسبار: ليوفود، الشركة المتخصّصة ببيع حصص الطعام الإغاثية...

لم يكونا قطّ على هذه الدرجة من القرب من الحقيقة.

نزلا، مستعينين بالمخطّط، إلى ما يُفترض أنّها حُجرة المحرّكات والتي باتت الآن مملكة الجرذان والصدأ الفتّاك. لدى وصولهما إلى المكان، فرّت أسراب الحيوانات الصغيرة لتلجأ إلى خلف الأنابيب الممتدة على الأرضية. في قاع الحُجرة، ظهر بابٌ معدنيٌّ تفوح منه رائحة الصدأ. كان الباب موصداً، فطلبت مادلين من كوتانس أن يسلّط الضوء عليه بينما تحاول أن تفتحه عنوةً. استخدمت قضيباً معدنياً وعتلةً لخلع الباب، لكنّها لم تتمكّن من ذلك.

عادا إلى ظهر المركب وبحثا، ودائماً بفضل المخطّط، عن مدخلٍ آخر إلى جوف المركب. لكنّهما لم ينجحا في ذلك. حتى وإن كان هناك منفذ آخر في السابق، لا بدّ أنّه قد تمّ سدّه.

أبيا أن يستسلما، فجالا على كلّ أركان ظهر المركب. كان أزيز الرياح قويّاً جدّاً الأمر الذي أرغمهما على أن يصرخا بأعلى صوتهما لكي يسمعا بعضهما. هبّت عواصف شديدة عليهما وجعلتهما

يترنّحان. حاولا، قدر المستطاع، أن يُزيحا الثلج بأقدامهما. أرادا أن تكون حركاتهما سريعة، لكنّ أطرافهما المتجمّدة بدت وكأنّها لم تعُد تنتمي إليهما. بعد برهةٍ، تخلّيا عن التحدّث مع بعضهما، وفضّلا أن يتواصلا عبر الإشارات.

على كلّ جانبٍ من بكرات شباك الجرّ، لاحظا وجود لوحين عريضين من الزجاج المحجّر. وجدا أيضاً خندقين قصيرين مبنيين من القرميد وقد كساهما الجليد في أرضية المركب. فكّر غاسبار في الحال بمبدأ الحفرة الواسعة أو مبدأ الفناء الإنجليزي: أي فتح طاقة في الطابق الأرضي للسماح للضوء الطبيعي بالتسرّب إلى الداخل. أبعد من ذلك المكان، اكتشفت مادلين شبكتين معدنيتين مثبّتتين بحسب المبدأ نفسه: **فتحاتُ تهوئة**.

ركضت إلى حجرة طاقم المركب، وعادت ومعها معول. اعتقدت في البداية أنّها ستنجح بسهولة في تحطيم السقف الزجاجي وتحويله إلى شظايا متطايرة، لكنّ اللوح كان على سماكةٍ غير عادية. وضعت كلّ قوتها وحاولت مراراً وتكراراً أن تحطّمه، واحتاجت إلى ربع ساعة كاملة حتى تمكّنت من فتح ثقبٍ فيه، ثمّ أكملت العمل باستخدام القضيب المعدني القارص لكي تخلع كلّ الألواح الزجاجية. اندفع الثلج مباشرة في الفراغ المفتوح.

استلّت عصا مضيئة كانت تحملها على حزامها وسلّطت ضوءها على الثقب الذي كانت قد فتحته. ظهرت ثلاثة أمتارٍ من الفراغ أسفل قدميها.

صاحت وهي تستدير:

- هناك سلّمٌ من الحبال في المعبر. سوف أجلبه!

ظلّ غاسبار وحيداً أمام الهوّة. مهلوساً، مجنوناً، مندفعاً.

جعلته الروائح النتنة المنبعثة من الهوّة -سمك فاسد، براز، بول- أن يخرج عن حالته العابرة.

من المؤكّد أنّ شخصاً ما قد احتُجِزَ هنا.

أقنع نفسه بأنّه يسمع صوتاً يختلط بأزيز الريح. صوتٌ يناديه. وبالتالي، لم يمتلك الصبر لكي ينتظر عودة مادلين.

نزع سترته وقفز إلى داخل العنبر.

.3

هوى غاسبار إلى قاع العنبر، وتدحرج بين الغبار. بينما كان يهمّ بالنهوض، أثارت الرائحة الكريهة غثيانه. كان يعرف هذه الرائحة النتنة: إنّها رائحة الموت. التقط العصا المضيئة وتقدّم وسط الظلام الدامس.

- هل من أحدٍ هنا؟

جاءه الردّ الوحيد من العاصفة الثلجية التي تهزّ السفينة.

كانت كلّ المناور والنوافذ قد سُدّت بإحكام. حتى وإن كانت كلّ هبّة من الهواء الفاسد عبارة عن تعذيبٍ، إلّا أنّ هذا الجزء من المركب كان أقلّ رطوبة من بقية أجزاء حطام السفينة، والجوّ فيه أكثر جفافاً، وكلّما تقدّم أكثر نحو مؤخرة هيكل السفينة، كلّما غرق أكثر في الصمت. بدت العاصفة فجأةً بعيدة جدّاً، كما لو أنّه أُلقي في عالمٍ موازٍ.

لكثرة ما تأقلمت عينا غاسبار مع العتمة، أحسّ بأنّه ليس موجوداً في العنبر، وإنّما ما يشبه قاعة عملٍ لا بدّ أنّ الصيادين كانوا يقومون فيها بفرز الأسماك ونزع أحشائها.

مرّ أمام نقالٍ آلي، وحوضٍ معدني ضخم، وصفٌّ من كلّابات

النقل ومیازیب معدنية. وجد، خلف كدسٍ من المشابك الخشبية، ما كان يعرف أنّه لا مفرّ منه، منذ أن شمّ رائحة الموت: جثّة بيانكا سوتومايور. كانت جثّة السيّدة العجوز ممدّدة على الأرض، منكمشة على نفسها بين قوالب من الطوب.

قرّب غاسبار مصباحه اليدوي من الجثّة. لم تعد بقايا جثّة بيانكا تشبه أيّ شيء. كان جلدها المترهّل مغطّى بالتقرّحات ومتفسخاً، وأظافرها مقتلعة، وجسمها، المتبقّع ببقعٍ صفراء وأخرى سوداء، يجسّد أحد آخر مراحل الرعب. حاول غاسبار ألّا ينهار أمام مشهدٍ بهذه الفظاعة. وإذا كانت رائحة العفونة، رغم البرد، على هذه الدرجة من القوّة، فهذا يدلّ على أنّ بيانكا لم تكن قد ماتت منذ زمنٍ طويل. لم يكن غاسبار طبيباً، ولكنّه كان ليراهن على أنّها قد ماتت منذ ثلاثة أسابيع، وبلا شكّ أقلّ من شهر على أيّة حال.

تقدّم غاسبار أكثر في الممرّ المعتم، تاركاً نفسه مغلّفاً بقوّة العتمة. الآن، بدا الخوف والبرد يجتاحانه. كان متأهّباً ومتوتّراً، منهمكاً تماماً في مهمته، مستعدّاً لكلّ شيء. كانت هذه اللحظة هي التي ينتظرها منذ عشرين عاماً. نهاية شيءٍ كان قد بدأ قبل أن يسمع بشون لورينز بكثير. نتيجة صراعٍ بين الجانب المظلم والجانب المضيء اللذين تعايشا على الدوام في داخله.

كانت الأيام الأخيرة هذه غير متوقّعة ومليئة بالمفاجآت. حينما قدِم إلى باريس، قبل خمسة أيام، لم يشكّ للحظة واحدة بأنّه، بدل أن يكتب نصّاً مسرحياً، سوف يحمل على ظهره معدّات مكتشف المغاور للبحث في حياته لكي يصارع فيها شياطينه ويكتشف في نفسه سمات كان يعتقد أنّها قد انطفأت في داخله إلى الأبد.

صرف كلّ ما تبقّى فيه من قوّة وذكاء وقناعة. لمرّات عديدة،

أصبح قريباً جدّاً من السقوط، لكنّه ظلّ واقفاً على قدميه. ربّما لن يستمرّ في ذلك طويلاً، لكنّه على الأقل وصل إلى هنا، إلى حافة الهاوية، إلى وكر الوحش، مستعداً للمواجهة الأخيرة، لأنّ الوحوش لا تموت تماماً.

- هل من أحدٍ هنا؟

ظلّ يواصل التقدّم وسط الظلام الدامس. لا بدّ أنّ العصا المضيئة قد تعطّلت لأنّها لم تعُد تُضيء المكان تقريباً. فجأةً، لاحظ أنّ الممرّ يضيق أكثر، ولم يعُد يرى أيّ شيءٍ بوضوح. خمّن أكثر من أنّه رأى أكداساً من صناديق المعلّبات، وحَشِيّتين من القش، وكدساً من الأغطية. وكذلك بعض الصناديق الكرتونية وأقفاصاً مغطّاة بشباك العنكبوت.

ثمّ جاءت لحظة لم يعد بوسعه أن يتقدّم. اصطدم بجدارٍ من ألواح خشبية مكدّسة أمام تشبيكٍ زخرفي من القضبان والمواسير المصنوعة من الحديد الصلب.

وفي هذه اللحظة بالذات، أسلَمَت العصا الضوئية الروح. تراجَعَ غاسبار لبضع خطوات إلى الوراء ومن ثمّ توقّف في مكانه. توجّه من دون هديٍ صوب الضجيج الخفيف لرياحٍ ربّما كانت صادرة عن أحد أنابيب الصرف الضخمة. جلس القرفصاء، وقال في نفسه بأنّه قد يكون أضخم حجماً من القدرة على المرور عبر الأنبوب، ولكنّه مع ذلك دخل إليه. بدأ يزحف وسط الظلام. منذ اللحظة التي قفز فيها إلى داخل العنبر، كان يعلم أنّه سوف لن يعود إلى الوراء من دونه. كان يعلم أنّ مصير ما تبقى من حياته يتقرّر هنا تحديداً. لكي يصل إلى هنا، كان قد ربط حياته بحياة جوليان لورينز، في ميثاقٍ ضمني، في رهانٍ مجنونٍ للاعب بوكر عجوز، قرّر في لعبته الأخيرة

أن يضع على الطاولة كلّ فيشاته. الرهان بأنّ هناك ضوءاً سوف يقهر ظلماته.

تقدّم غاسبار، وسط الظلام، وبطنه ملتصقٌ بالأرض. أحسّ أنّ ثقلاً يضغط على صدره. وكانت أذناه تطنّان. شعر بأنّه يُغادر المركب بهدوء. لم يعُد يشعر بالتأرجح، ولم يعُد يسمع قارب الصيد وهو يُصدر صريراً، ولا وهو يتقصّف من جميع الجهات. لم يعد يشمّ روائح الوقود، والدهان والخشب المبلّل. لم يكن هناك سوى الظلام الذي يخيّم عليه، أسودَ مثل الفحم. وفي الهواء، فاحت رائحة أرضٍ محروقة. وفي نهاية النفق، شاهد خَبَث الفحم الحجري الذي كان يتّقد أحياناً حينما يتمّ تحريك الرماد.

وفي لحظة الاتقاد تلك، رآه.

4.

كان كوتانس يركض تحت الثلج.

كان الهواء البارد كالجليد يحرق رئتيه ويلسع عينيه، وندائف الثلج، التي تضربها الرياح، تجلد وجهه كالسياط. ولأنّه لم يكُن يرتدي سوى قميصٍ، كان البرد يلتهمه ويخترقه، ولكنّه بات الآن محصّناً ضدّ الألم.

كان قد لفّ جوليان في سترته وضمّه إلى صدره.

غادرت مادلين قبله لكي تُدير محرّك السيارة.

ظلّت نوارس رمادية تحوم فوق رأسيهما، وهي تُطلق بمناقيرها الشبيهة بمناقير العقاب صيحات قوية ومرعبة.

كان كوتانس يركض.

أخفض رأسه حتى كاد أن يلتصق بالوجه الأبيض للطفل،

وحاول أن ينقل إليه كلّ ما بوسعه من حرارة جسمه وأنفاسه وحياته.

لم تكن حركاته مصطنعة. كان يعرف ما يفعله. كان يعلم بأنّه لن ينزلق على الأرضية المتجمّدة للرصيف، وأنّ الطفل لن يموت بين يديه. كان قد تفحّصه وهو يخرج من العنبر. كان جوليان مصدوماً، غير قادرٍ على فتح عينيه بعد أن عاش لزمنٍ طويلٍ في الظلام، ولكن لا بدّ أنّ بيانكا كانت قد اعتنت به حتى آخر نفسٍ فيها، لأنّه لم يكن مُشارفاً على الموت.

قال مؤّكداً له ومطمئناً:

- سوف تكون على ما يُرام، يا جوليان.

كان الطفل، مغمض العينين، يرتعش وتصطكّ أسنانه.

أمسك غاسبار بيده الفارغة بالكلب الدمية الظاهر في جيب سترته، ووضعه على تجويف رقبة الطفل.

- سوف تكون على ما يُرام، يا عزيزي. انظر، لقد جلبتُ لك صديقك. سيدفئكَ.

كان كوتانس يركض.

بدأت يداه المجروحتان تنزفان، واشتدّ بهما الألم لدرجة أنّه لم يعُد بوسعه أن يحرّكهما، ولكنّه، رغم ذلك، كان يحرّكهما.

كان كوتانس يركض.

كانت عجلات السيارة تصرّ صريراً على الثلج. وعبر عاصفة الندائف الثلجية، لمح السيارة التي كانت مادلين قد قرّبتها إلى أقصى ما يمكن من الضفّة. كان يصل إلى نهاية الرصيف، حينما غمغم جوليان له بشيءٍ ما. اعتقد بأنّه أساء السمع وجعله يُعيد ما قاله.

سأل الطفل:

- أهذا أنتَ، يا أبي.

أدرك كوتانس مصدر سوء الفهم: الارتباك، والثياب، وقوّة عطر لورينز الذي كانت رائحته لا تزال تفوح من سترته وقميصه، والكلب الدمية. . .

انحنى نحو الطفل، وفتح فمه لتبديد الالتباس، ولكن بدل ذلك، سمِع نفسه يُجيب:

- نعم، هذا أنا.

5.

تقدّمت سيارة البيك أب رباعية الدفع من دون صعوبة على الطرقات المغطاة بالثلج. خفّفت الراحة المتوفّرة في قمرة القيادة، من وطأة قسوة العالم الخارجي والبرد القطبي الذي كان يسود في الخارج. كان نظام التدفئة في السيارة يعمل بأقصى طاقته، والمحرّك يهدر بصخب، وجهاز الراديو يبثّ بصوتٍ منخفض من محطّة 10-10 وينز المحلية، التي كانت تقدّم كلّ ربع ساعة تقريراً مفصّلاً عن أحوال حركة السير في الطرقات.

لم يكن غاسبار ومادلين قد تفوّها بكلمة واحدة منذ نصف ساعة، بعد مغادرتهما للمقبرة البحرية. كان غاسبار لا يزال يمسك بجوليان الذي بدا أنّه قد نام مضموماً إلى صدره. لم يكُن يظهر من الطفل، المنكمش على نفسه والملفوف بسترة والده، سوى خصلةٍ كثيفة من شعره الأشقر المتلبّد. كانت الأصابع الأربعة ليده اليسرى متشابكة مع أصابع غاسبار ولم تعُد تنفكّ عنها.

أدخلت مادلين، وفي عينيها حرقةٌ، عنوان مستشفى بلفيو في مانهاتن على نظام تحديد المواقع. كانا على الطريق السريع رقم 95، بالقرب من بلدة سيكوكس في ولاية نيوجيرسي. في يوم العطلة

هذا، لم يكن هناك الكثير من الناس على الطرقات، على الرغم من أنّ الظروف الجوية كانت تعقّد حركة السير إلى حدٍّ كبير.

على بعد مئة متر من مدخل نفق لينكولن، أصبحت حركة السير أكثر بطأً لكونها لم تعُد سالكة سوى في مسارٍ واحدٍ نتيجة تراكم الثلوج على المسارات الأخرى. بين حركة ماسحات الزجاج، لمح غاسبار مركبات خدمات البلدية التي كانت تحيط بالعجلة التي ترشّ الطريق السريع بالملح لإذابة الثلج. على المسار الأيسر، كانت السيارات تسير بطيئة الواحدة خلف الأخرى وبينها مسافات قصيرة جدّاً. ثمّ ما لبثت أن توقّفت تماماً.

وما العمل الآن؟

فكّر غاسبار في جملة همنغواي: «على أكثر تقاطعات طرق حياتنا أهمية، ما من إشارات على الطريق». في صباح عيد الميلاد ذاك، بدا له، على العكس من عبارة همنغواي، أنّ لافتةً مُنارة قابلة للقراءة تماماً تومض أمام عينيه. من جديد، فكّر في **كايروس**: اللحظة الحاسمة، اللحظة التي ينبغي على المرء أن يتصرّف فيها لكي لا يدع فرصته تضيع منه. اللحظة نفسها التي لم يُحسن قط التعامل معها في حياته. كان ذلك مُضحكاً: لقد أمضى الأعوام العشرين الأخيرة من حياته في كتابة الحوارات، في حين لم يُحسن العثور على لغة للتواصل مع الآخرين. وإذ أدرك أنّ هذه هي فرصته الأخيرة، إمّا أن يستغلها أو يخسرها إلى الأبد، بادر إلى الانخراط في الحديث مع مادلين:

– خلال مئة متر، لا يزال المستقبل مفتوحاً، بعد ذلك سيكون قد فات الأوان.

قطعت مادلين صوت الراديو واستفهمت منه بحركةٍ من عينيها من دون أن تتكلّم. واصَلَ غاسبار:

- إذا انعطفتِ إلى اليمين نحو مانهاتن، سوف تكتبين أسطر حكاية أولى. وإذا ما واصلتِ السير نحو الشمال، سوف تخترعين حكاية مختلفة.

ولأنّها لم تفهم مغزاه، ولا إلى أين يريد أن يصل بها، سألت:

- وما هي الحكاية الأولى؟

عثر غاسبار هذه المرّة على الكلمات المناسبة ليعبّر عمّا يجول في خاطره. كانت الحكاية الأولى تروي مسار ثلاثة أشخاص ذوي مصائر محطّمة: كاتبٌ سكير، وشرطية انتحارية، وطفلٌ صغيرٌ يتيم.

في الحكاية الأولى، كان الكاتب والشرطية يسلكان نفق لينكولن ليأخذا الطفل إلى قسم الطوارئ في مستشفى بلفيو. وهذه فرصة سوف يغتنمها صغار الصحافيين والمتلصصون والكلاب. سوف تُعرَض مأساة أسرة على الساحة العامّة وتُنشَر تفاصيلها وتُحلّل عشوائياً ومزاجياً. سوف تُكتَب عن هذه الحكاية مقالات في الصحافة الصفراء وعلى شبكات التواصل الاجتماعي، وتُعدّ عنها برامج وحلقات في القنوات الإخبارية.

في الحكاية الأولى، ينتهي الأمر بالكاتب المسرحي بالعودة إلى جبله لكي ينغلق على نفسه أكثر من ذي قبل. يستمر في تعاطي الكحول، وفي كراهية البشرية، وفي عدم القدرة على تحمّل شيءٍ في هذا العالم. وسوف يكون كلّ صباحٍ جديد أصعب وأكثر شقاءً من الذي قبله. وبالتالي، سوف يُفرطَ في الشراب أكثر، على أمل الإسراع في بلوغ نهاية اللعبة.

ربّما ستعود الشرطية إلى مدريد لمراجعة عيادة الإخصاب تلك. أو ربّما لن تعود. صحيحٌ أنّ لديها الرغبة في أن تصبح أماً، ولكنها ترغب أيضاً في أن يكون لديها شخصٌ يساندها في هذه الحياة

الجديدة. لأنّها تعرف أنّها عاجزة عن مواجهة الحياة لوحدها. لأنّها لا تزال تحمل هذا الاستياء نفسه الذي تحمله في داخلها منذ فترة المراهقة. وبكلّ تأكيد، تستطيع لفترات أن تجمّل حياتها، وتنجح أحياناً في أن تقنع الآخرين -بل وتقنع نفسها أيضاً- بأنّها امرأةٌ شابّة متفائلة، وروحانية ومتوازنة، بينما ما يجول في عقلها ليس سوى مزيجٍ من الفوضى والحيرة ونوبات حمّى ورائحة الدم.

أمّا بالنسبة إلى الصبي، فهذا هو المجهول الأكبر. إنّه يتيم «رسّامٍ مجنون» وملكة كلّ أنواع الشطط، تربّى لمدّة عامين في عنبر قارب صيد على يدي والدة قاتلٍ متسلسل. كيف ستكون حياته؟ يمكن المراهنة على أنّ حياته سوف تتّسم بالذهاب والإياب المعتادين بين المنازل والعوائل المضيفة. والزيارات إلى عيادات الأطبّاء النفسانيين. التعاطف الزائف، الفضول المؤذي، ودمغة الضحية التي يُدمغ جلدك بها. ستكون نظرته فارغة، تنزع باستمرار إلى الهروب، إلى الاستغراق في الذكريات الحالكة لعنبر قارب صيد.

فجأةً، فُتح مسارٌ آخر. أشار إليهما أحد رجال شرطة الطُّرُق، يرتدي سترةً صفراء اللون، بأن يتقدّما إلى الأمام، فقد أصبحت حركة السير سالكة.

غير قادرة على التفوّه بجملةٍ واحدة، كانت مادلين تتفرّس غاسبار، شاردة الذهن، محاولةً أن تفسّر معاني كلماته. ارتفع صوتُ جوقةٍ من أبواق السيارات التي كانت تقف خلف سيارتهما. أقلعت مادلين بالسيارة إلى الأمام، واستأنف البيك أب سيره نحو نفق لينكولن. كان كوتانس ينظر إلى شفرة المقصلة وهي تقترب. خمسون متراً. ثلاثون متراً. عشرة أمتار. كان قد لعب ورقته الأخيرة، والآن، لم تعُد الكرة في ملعبه.

سلكت مادلين المنحدر المؤدّي إلى مانهاتن. إذا كانت هناك حكايةٌ أخرى، فهي في كلّ الأحوال في غاية الجنون وفي غاية المجازفة. حكايةٌ ليست كالتي يقوم المرءُ بترتيبها على وجه الاستعجال.

فكّر في نفسه: **حسنٌ، ها قد انتهينا.**

إلّا أنّ مادلين سألته:

- وما هي الحكاية الثانية؟

أجاب غاسبار:

- الحكاية الثانية، هي حكاية أسرة.

هذه المرّة، أدركت ما كانت تقول نظرته: **أنا على يقينٍ بأنّ لا أحد سيستطيع أفضل منّا أن يحمي هذا الطفل.**

رمشت مادلين بعينيها، وفركت جفنيها بكمّ سترتها، وأخذت نفساً طويلاً وعميقاً.

ثمّ أدارت بقسوة مقود سيارتها لكي تغيّر المسار. في اللحظة الأخيرة، تجاوز البيك أب العديد من الخطوط البيضاء وسحق حاجزاً من البلاستيك المقوّى وعلامة مرورية مخروطية الشكل.

تاركةً مانهاتن خلفها، نجحت مادلين في الهروب من حركة السير، وأسرعت لكي تسلك طريقها نحو الشمال.

.6

وهكذا بدأت القصة الثانية، يا جوليان.

قصّة أسرتنا.

بعد مرور خمس سنوات...

إليك الحقيقة، يا جوليان.

إليك قصّتك. إليك قصّتنا.

القصة التي أودعتُها، كتابةً، في دفتر ملاحظاتي القديم.

في ذلك الصباح، لم نأخذك وندعك في قسم الطوارئ في مستشفى بلفيو. واصلنا السير نحو الشمال، إلى أن وصلنا إلى مركز لارتشمونت للأطفال، المركز الطبي لمعالجة الأطفال الذي أسّسته ديان رافائيل بفضل بيع لوحات لورينز.

بقيت راقداً فيه لمدّة شهر لتلقي العلاج. استعدتَ تدريجياً قواك، وبصرك أيضاً. كان ما عانيته في حياتك غامضاً جدّاً في ذهنك. لم تكن لديك أيّ فكرة عن الزمن، ولم تعُد لديك ذكريات عن حياتك السابقة ولا عن حادثة اختطافك، وبقيتَ تناديني يا أبي.

لقد استفدنا من هذه الفترة لكي ننظّم حياتنا. لقد «شرعَنت» والدتك وضعنا الإداري وجعلته قانونياً. ولكونها كانت قد عملت في البرنامج الفيدرالي لحماية الشهود، فقد عرفت إلى مَنْ تتوجّه لكي تحصل على شهادة ميلاد مزوّرة سهّلت الأمور علينا لكي نسجّلك في

خانتنا. وبهذه الطريقة أصبحتَ رسمياً جوليان كوتانس، المولود في 12 أكتوبر من سنة 2011 في باريس، للسيّد غاسبار كوتانس والسيّدة مادلين غرين.

قبل مغادرة الولايات المتحدة الأميركية، عدنا، هي وأنا، إلى مركب **نايت شيفت** مع صفائح من البنزين، وأوقدنا فيه النار.

ثمّ غادرنا لكي نُقيم في اليونان، في جزيرة سيفنوس التي كنتُ أمتلك فيها مركباً شراعياً. أَنارت شمس أرخبيل كيكلادس طفولتك وهدهدتها الأمواج الفضية اللون وأنين الأرض البراح.

ولكي أُعينك على نسيان ظلمات الماضي الأليم، لم أجد شيئاً أفضل من زرقة السماء الصافية، وظلّ أشجار الزيتون، وطراوة سلطة الزبادي اليونانية المطعّمة بنكهة النعناع، ورائحة الزعتر والياسمين سبيلاً إلى ذلك.

أرفع رأسي عن دفتري وأنظر إليك تسير على الشاطئ أسفل البيت. من الواضح أنّ ذلك كان ناجعاً، لأنّك جميلٌ مثل نجمةٍ ومليءٌ بالصحّة والعافية، حتى وإن كنت لا تزال تخاف من الظلام.

- ماما، انظري، أنا ألعبُ بالطائرة!

تفتح ذراعيكَ وتبدأ بالجري حول أمّك التي تنطلق في ضحكة مجلجلة.

لقد مرّت خمس سنوات منذ صباح ذلك اليوم من شهر ديسمبر من سنة 2016. خمس سنواتٍ مشرقة. بالنسبة إلى مادلين، بالنسبة إليّ، بالنسبة إليك، كانت بداية حياة جديدة. ولادة جديدة حقيقية. لقد أعدتَ إلى حياتنا أشياءَ كانت قد غابت عنها منذ زمنٍ طويل:

الخفّة، الأمل، الثقة، معنى الحياة. ومثلما سوف تكتشف حينما تصبح في عمرٍ يتيح لك أن تقرأ هذه السطور، لم نكن على الدوام، لا أمّك ولا أنا، الوالدين الهادئين اللذين عرفتَهما.

لكنّ حياتنا الأسرية جعلتني أفهم شيئاً مهمّاً. أن يكون لديك طفل يطمس كلّ السواد الذي عانيت منه سابقاً. عبثية العالم، قبحه، الغباء العميق لنصف البشرية وجُبن كلّ أولئك المفترسين. حينما يكون لديك طفل، فجأةً، تصطف نجومك في السماء وتشعّ. كلّ أخطائك، كلّ تشرّدك، كلّ عيوبك تُعوّض بفضل البريق في نظرة واحدة.

لا يمرّ يومٌ واحدٌ من دون أن أفكّر من جديد بذلك الصباح الشهير من شهر ديسمبر. المرّة الأولى التي حملتُك فيها بين ذراعيّ. في ذلك الصباح، في نيويورك، كانت العاصفة الثلجية متواصلة، وكان البرد يجتاح جسدي ويتغلغل إلى أعماقي، وكانت طيورٌ هائجة تحلّق فوق رؤوسنا وكانت شجرةٌ تنزف وسط الثلج. في ذلك الصباح، ربّما أكون أنا منْ حرّرتكَ، ولكنّك أنتَ مَنْ أنقذتني.

سيفنوس،
أرخبيل كيكلادس،
12 أكتوبر 2021

بينيلوب الثانية والعشرون

مزادٌ خاصّ لعملٍ ضخم لشون لورينز في نيويورك

9 أكتوبر 2019/ أ ف ب

سوف يعرض مزاد كريستز، هذا المساء في روكفلر بلازا، للبيع عملاً فنيّاً ضخماً للرسام الأمريكي شون لورينز، المتوفّى عام 2015، وهو عبارة عن اللوحة التي سُمّيت **بينيلوب الثانية والعشرون**، وهي عربة مترو باريسية قديمة، مغطاة بالكامل بجدارية عاطفية تمثّل بينيلوب كوركوفسكي، زوجة الرسام وملهمته.

كان العمل، الذي نُفِّذ في عام 1992، لدى وصول الفنان النيويوركي إلى فرنسا، قد رُسِم بطريقة غير مشروعة ولم يتمّ اكتشافه إلّا مؤخّراً في أثناء الاختفاء المأسوي للسيّدة كوركوفسكي التي اختارت أن تضع نهاية لحياتها في هذه العربة في شهر ديسمبر من سنة 2016.

وقد جرت في أعقاب ذلك معركة قضائية طويلة ومريرة بين الشركة الوطنية لسكك الحديد في باريس وبرنار بينيديك، منفّذ وصية شون لورينز ووريثه الوحيد، لكي يُحسَم أمر ملكية العمل الفني وتحديد صاحب الحقّ فيها. ولم يتوصّل الطرفان إلّا مؤخّراً إلى اتفاقٍ يُتيح عرضه في مزاد اليوم.

وقد أكّد أحد ممثلي المزاد بأنّه **سوف لن يكون مثيراً للدهشة** أن

يحقّق العمل رقماً قياسياً جديداً. في الأساس، حينما كان لورينز على قيد الحياة، كانت أسعار لوحاته الفنية مرتفعة، لكنّها ارتفعت أكثر منذ وفاته. من جهته، شدّد السيّد برنار بينيديك على الطابع الاستثنائي لهذه القطعة التي لم يسبق لها أن عُرِضَت: **كانت اللوحات الواحدة والعشرون التي تصوّر بينيلوب كوركوفسكي قد أُتلِفَت بالكامل في حريقٍ شبّ في عام 2015. وبالتالي فإن هذه العربة، على حدّ علمي، هي الشاهد التصويري الوحيد على العلاقة غير العادية التي كانت تربط لورينز بزوجته السابقة.**

مفنّداً الانتقادات المتعلّقة بالطبيعة المحزنة بعض الشيء لهذا العمل الاستثنائي، اعتبر صاحب صالة العرض بأنّه يتمّ التجنّي عليه: **هذا العمل يجسّد جوهر الحبّ والجمال.** ثم ختم، قائلاً بلهجة الفيلسوف: **لكي ننجو من قسوة عصرٍ تحكمه التكنولوجيا والحماقة والعقلانية الاقتصادية، هل تبقّى لنا سلاحٌ آخر غير الفنّ، والجمال والحبّ؟**

المصادر
الحقيقة من الخيال

لا تبحثوا عن شون لورينز في المتاحف وصالات عرض الفنّ الحديث، إنّه تجسيدٌ للعديد من الرسّامين الذين يُعجبني عملهم والذين لم يعرفوا لحسن الحظّ المصير المأسوي نفسه.

وكذلك من العبث أن تزوروا رصيف فولتير لكي تكتشفوا متجر جان-ميشيل فايول، فاستلهمت شخصيته الخيالية، جزئياً، من خلال قراءة مقالات عن شركة **أصباغ كريمر** (Kremer Pigmente) التي أسّسها يورغ كريمر، وكذلك من خلال قراءاتي في وسائل الإعلام الإلكترونية عن مجموعة أصباغ مركز **شتراوس للمحافظة والدراسات التقنية** في كامبريدج، والتي يُقال بأنّها فريدة من نوعها في العالم.

أخيراً، سوف يُلاحظ البعض منكم، في هذا الرواية، المرور العابر لبعض الشخصيات أو ورود أماكن مذكورة في كتبي السابقة. أتمنى أن تجعلكم هذه الغمزات تبتسمون. إنّها على كلّ حال، أعزّائي القرّاء، شهادة امتناني لكم لوفائكم، ولمثابرتكم على قراءة أعمالي ومتابعتها.

غيوم ميسو

شقة في باريس

رجلٌ، امرأةٌ، سرٌّ،

شقّةٌ جميلة في قلب المدينة التي يُمكن لكلّ شيء أن يحدث فيها...

مادلين، شرطية سابقة، جاءت لترتاح فيها وتضمّد جراحها قبل أن تواجه أحد القرارات الأكثر أهمية في حياتها. غاسبار، كاتبٌ مسرحي معروف، استأجرها ليكتب في عزلةٍ وهدوء.

نتيجة خطأ في الحجز، تضطرّ مادلين وغاسبار أن يتشاركا الشقة لبضعة أيام، ولا يزال يحوم فيها شبح المالك السابق، الرسّام الشهير شون لورينز. مسحورَين بعبقريته ومفتونَين بمسيرته الفنية، يقرّر هذان المكدودان توحيد طاقاتهما لكشف سرّ هذا الفنان الغامض، وينطلقان في رحلة سيكتشفان فيها ذاتَيهما أولاً، والتي ستغيّرهما إلى الأبد.

قصّة مشوّقة يُدمنها القارئ،
شخصيات ينجذب إليها،
عالم إبداع يشدّه إلى سحره.

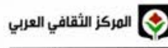
❖ ❖ ❖

«تفوّق ميسو هذه السنة وقدّم قصّة مثيرة يحاذي فيها الفنّ والنور والجمال الجانب الأكثر ظلمة في الإنسان». **جريدة لوجورنال دو كيبيك**

«إنّه نجاحٌ تامّ. إنّه كتاب النضج والجرأة». **إذاعة إر تي إل**

«الحبكة الروائية رائعة، مُحكمة من البداية إلى النهاية، نهاية تجعلنا نُدهش مرّة أخرى بخيال هذا الروائي الاستثنائي». **إذاعة فرانس أنفو**


ISBN 978-9953-68-965-4



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com